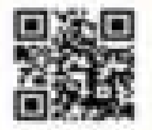
د. منية عبيدي

التحليل النقدي للخطاب

نماذج من الخطاب الإعلامي








التحليل النقدي
للخطاب
نماذج من الخطاب الإعلاميّ





التحليل النقدي للخطاب

نماذج من الخطاب الإعلاميّ



د. منية عبيدي

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ٢٠١٦م



التحليل النقدي للخطاب: نماذج من خطاب الثورة التونسية

تأليف: منية عبيدي

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2015/5/2273

ردمك: ISBN: 978 9957 74 484 7

الطبعة الأولى 2016م 1437هـ



دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع

www.darkonoz.com

عمان – وسط البلد – شارع الملك الحسين – طلوع سرفيس جبل الحسين رقم(9)

هاتف 877 4655 فاكس 875 4655 6 00962

خلوي 494 5525 79 00962

E-mail: info@darkonoz.com dar_konoz@yahoo.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محمد أيوب mohayyoub@gmail.com

إهداء

إلى روح والدي رحمه الله

تقديم

يتمثل الموضوع الذي ننوي طرقه في معالجة الخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب والوقوف على إشكاليات هذا الخطاب بصفة عامة والخطاب الإعلامي بصفة خاصة . فقد أصبح هذا الأخير من المواضيع التي تثير اهتمام الدارسين نظرا للدور الذي يلعبه في حياة الفرد والجماعة . وسنسعى للتعرف على مدى تأثيره في الرأي العام . وتتفرع الإشكالية التي نود طرحها في هذا البحث إلى صنفين :

صنف عام لا بد من طرحه قبل الخوض في الخطاب الإعلامي من قبيل انفلات مفهوم الخطاب عن التعريف الدقيق ، والمجالات التي تؤثر في الخطاب وفي اتجاهاته ، ودواعي الاختلاف في الدراسات التي تناولت الخطاب ، والوقوف على نشأة التحليل النقدي للخطاب وأهم اتجاهاته ومدارسه والخلفيات الفلسفية التي يقوم عليها .

وصنف خاص بالتحليل النقدي للخطاب الإعلامي مثل : ماهيته واتجاهاته ومدى مساهمة الغرض في تشكيل الخطاب الإعلامي ، ومدى تشكيل خاصّيات الخطاب الإعلامي في تولّد الغرض ، وكيفية تحكم طريقة القول في توجيه التفاعل بين أقطاب الخطاب الإعلامي وصنع استراتجيات الخطاب . وسنهتم أيضا بدور السياق بصفة عامة في توجيه الخطاب ، وبدور المتلقي في تشكل هذا الخطاب ، وسنحاول تقصّي وسائل تأثير الخطاب في المتلقي ، والبحث في كيفية تفاعل الأطراف المشاركة في الخطاب الإعلامي ، ومدى تأثير الضمني وغير المصرح به في رد فعل كل طرف من الأطراف .

تبقى هذه الإشكاليات محيّرة رغم محاولة بعض الباحثين الحسم فيها لأن الخطاب يرتبط باللغة والدراسات الأدبيّة ودراسات التعبير والاتصال وتخصّصات أخرى متعددة . وسنتخذ مثالا خطاب السلطة (الخطب التي تلاها الرئيس ابن علي في محاولة لكبح جماح الاحتجاجات . . .) وخطاب الشّعب (من إنتاج المتظاهرين

المطالبين بالكرامـة والحـرية والديمقـراطيـة) وخطاب الإعـلام (الذي واكب الخطابين الأولين ترديداً أو تحليلاً ونقداً . . .) خلال «الثّورة» في تونس على امتداد شهر ونصف تقريبا أي من السابع عشر ديسمبر ٢٠١٠ إلى موفى جانفي ٢٠١١ .

أما المتن الذي نقترح اعتـماده في هذا العـمل فهو متن اخترنا أن يكون مكتوبا ومتنوعا من حيث المصدر ومن حيث المحتوى ومن حيث اللغة ليكون ممثلا لمختلف الجوانب التي ننوي تناولها وتفصيله كالتالي :

- صحف تونسية : صحيفة الشروق وصحيفة الصباح وصحيفة La Presse .
- صحف أجنبية : صحيفة القدس العربي ، وصحيفة الشرق الأوسط .
- اللافتات والشعارات التي رفعها المتظاهرون .
- خطب زين العابدين بن علي بعد ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ .

هذا الاختيـار له سببان ؛ السبب الأوّل منهجي وهو وجوب حصر فترة معينة وضبط متن محدّد من أجل إمكانية البحث وتطبيقه . أما السبب الثاني فهو التغيير الذي يفـتـرض أن تكون تونس قـد عـرفـتـه في هذه المدّة . وبناء على مـا سـبق يمكننا الوقوف على الإشكال الأساسي لهذا البحث وهو ما مدى التفاعل بين هذه الأنواع / الأطراف المختلفة المنتجة الفاعلة المستهلكة للخطاب ، ومـا مدى تأثير كل منهـا في الآخر وتوجيهه .

لقـد لجـأنا إلى حـصـر متن البـحث في بعض المكتـوب لأسـبـاب نذكـر منهـا الأساسي :

- ظلت أخبار الثورة التونسية مسيطرة على وسائل الإعلام بمختلف أنواعها واتجاهاتها على الصعيـدين العربي والدولي ، فكانـت نتيجة ذلك متناً عظيماً من الأشرطة التوثيقية ، والتحليلات السياسية ، والتعليقات ، والروبورتاجات ، والملفات ، والتغطيات اليومية . . . هو كمّ هائل من المعالجات الإعلامية مكتوبة ومسموعة ومرئية يستحيل أن ندعي القدرة على مقاربته كله ؛ ولهذا ركزنا على جزء يسير منه آملين العودة إلى الأجزاء الأخرى في أبحاث مستقبلية نعالجها في ضوء أسئلة أخرى وإشكالات أخرى .
- لئن كانت الثورات السابقة التي عرفتها البشرية قد خيضت بالسلاح فإن الثورة التي أشعل فتيلها المتظاهرون تأبطت «سلاحاً فتاكاً» في الألفية الثالثة ، نعني الخطاب بمختلف تجلياته (الصورة ، والشعار ، والكاريكاتير . . .) . ولما كانت أبواب

وسائل الإعلام التي تهيمن عليها الدولة موصدة في وجه المطالبين بحقوقهم كاملة غير منقوصة فقد استثمروا ما يتيحه الأنترنات من إمكانات غير محدودة لإيصال صوتهم إلى العالم في حينه . وهذا وحده جانب يستحق أن يفرد له بحث مستقل لأن طبيعته ووسائله وطرقه مغايرة للمألوف .

– إذا كانت الثورة التونسية موضوعاً شغل وسائل الإعلام العربيّة والدوليّة لمدة زمنية غير يسيرة فإن إحدى الوسائل المؤثرة المستقطبة للراغبين في الاطلاع على الحدث حياً هي التلفزة . ولقد انكبت قنوات دولية عديدة –لاسيما الإخبارية منها– طوال أسابيع على نقل ما يستجد ساعة بساعة ، وكانت نتيجة ذلك مئاتِ الساعات من البث المتواصل والمتقطع والمباشر والمسجَّل . . . والحق أن طبيعةَ الخطاب الإعلامي التلفزيوني مركبة ، ومن ثم تتطلب معالجة خاصة . وهي معالجة تستحق أن يفرد لها وحدها بحث بل أبحاث تراعي غزارة المادة وتنوعها لغة وصورة ونوعاً . . .

– لا يختلف الإعلام المكتوب عما سبق ذكره من حيث الغزارة والتنوع . . . وإذا كان قد تأخّر نسبياً في الالتفات إلى ما كان يجري في تونس ومتابعته ، فإن الآية انقلبت بعد حين فغدا يخصّص في كل عدد ركناً أو أركاناً وصفحات تغطي ما يجري وتحلله وتعلق عليه . . .

يجوز لنا القول بعد ما تقدّم إن الثورة التي انخرط فيها التونسيون استخدمت الخطاب سلاحاً وحيداً لمواجهة آلة قمعيّة حصدت الأرواح آملة أن تهزم الخطاب ، ولكن العكس هو الذي حدث . انتصر الخطاب «الأنيق» وانهزمت آلة القمع الوحشيّة .

ولو شئنا تصنيف الأطراف المنتجة للخطاب المواكب للثورة في تونس لكانت كالتالي :

الطرف الأول : يمثله نظام بن علي والفئات المستفيدة منه ، وهذا الطرف هو الذي بيده السلطة المادية التي يسميها ألتوسار أجهزة الدولة القمعية ، والسلطة الأدبية والرمزية ممثلةً في وسائل الإعلام على وجه الخصوص . يمكن أن نعتبره فاعلاً دام فعله عقوداً ، ومن دلائل كونه فاعلاً أنه أنتج خطاباً محدَّداً خلال هذه العقود ؛ غير أن خطابه تغيّر بفعل انتفاضة الطرف الثاني . ولا بأس من الإشارة إلى أن هذا الطرف يهيمن على وسائل الإعلام الوطنية المقروءة والمسموعة والمرئية .

الطرف الثاني : يمثله المجتمع ، وفي طليعته الشباب والفئات التي تؤدي ثمن السياسة المنتهجة على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال سنوات هيمنة نظام بن علي . . . ويمكن اعتباره طرفاً منفعلاً بما عاناه خلال عقود حكم نظام بن علي . له خطابه ولكنه لا يملك القنوات التي تسمح له بتمريره بطرق شرعية ؛ لأن الطرف الأول احتكرها جميعاً . أما بعد اندلاع انتفاضة إسقاط نظام بن علي فقد نشط خطاب هذا الطرف واكتسح الميادين والشوارع والساحات العمومية والمجالات الافتراضية . وعلى هذا النحو تحوّل إلى طرف فاعل ، بينما انقلب وضع الطرف الأول إلى منفعل فقد المبادرة في الصراع ، بل أصبح خطابه ردّ فعل على خطاب الطرف الأول ، ليس إلاّ . وهكذا نرى انقلاباً في الخطاب بفعل انقلاب في الأدوار . على أن هذا الطرف لا يملك وسائل إعلامه ؛ ولكنه وجد في الأنترنات ضالته فاستثمره إلى أقصى حد . ومن ثم لا غرو إن وجدنا جلّ خطابه موثّقاً صوتاً وصورة وكتابة في مواقع عديدة .

على أن هناك طرفاً ثالثاً متعدداً تمثله القوى الدولية ، والمنظمات الدولية المعنية بحقوق الإنسان ، ووسائل الإعلام الدولية ، المكتوبة والمسموعة والمرئية . والملاحظ أن خطابها عني بالطرفين الأول والثاني ، ولكن طبيعة العناية ودرجتها تختلف من وسيلة إعلام إلى أخرى .

وتجدر الإشارة إلى أن عملنا هذا يندرج تحت مسألة تحليل الخطاب عامة والتحليل النقدي للخطاب على وجه التحديد . وترى البريطانية روث ووداك أن من «وضع أسس التحليل النقدي للخطاب ، من حيث هو حقل بحث ، «لسانيون نقديون» في بريطانيا خلال العقد السابع من القرن الماضي (روجي فووْلر وصحبه ١٩٧٩) . واستغل التحليل النقدي للخطاب الطاقة الإيديولوجية الكامنة في بعض الصيغ النحوية كالبناء للمجهول والتعدية والتسمية . ولقد أثبتت مثل هذه الصيغ اللغوية (وغيرها كالاستعارات والمغالطات الحجاجية والأساليب البلاغية والإضمار) أنها مثمرة حين تُتَّخذ مدخلاً للتحليل النقدي للخطاب بصفة عامة وللخطاب الإعلامي بصفة خاصة .

ويمكن العودة بجذور المصطلح في التحليل النقدي للخطاب إلى تأثير الماركسية والنظرية النقدية التي صاغتها مدرسة فرانكفورت ، حيث يعني النقد آلية تصلح لتفسير الظواهر الاجتماعية وتغييرها . وكان لبرنامج العمل التحرّري هذا استلزامات

في التحليل النقدي للخطاب من حيث هو ممارسة علميّة .

ويرى هنري ويدوسن (Henry Widdowson) أن التحليل النقدي للخطاب هو «كشف الغطاء عن الإديولوجيات الضمنية في النصوص وإماطة اللثام عن الانحيازات الإديولوجية الضمنية ومن ثم ممارسة السلطة في النصوص»(١) . أما بالنسبة لفان دايك (Van Dijk) فإن «التحليل النقدي للخطاب ضرب من البحث التحليلي للخطاب يدرس في المقام الأول الطريقة التي يُفعَّل بها شطط السلطة الاجتماعية والهيمنة واللامساواة ، ويعاد إنتاجها وتقاوم بوساطة النص والكلام في السياقين الاجتماعي والسياسي»(٢) .

ويرى فان دايك أيضا أن التحليل النقدي للخطاب لا بد أن يركّز على عدّة نقاط منها في المقام الأول المشكلات الاجتماعية والقضايا السّياسية بدل التركيز على المناويل الراهنة أو الموضة . إذ لا يكتفي بوصف بنيات الخطاب ، وإنما يحاول تفسيرها باعتبارها من خصائص التفاعل الاجتماعي ، وعلى نحو خاص البنية الاجتماعية . ويركز التحليل النقدي للخطاب ، على الطرق التي تشكل بها بنيات الخطاب علاقاتِ السلطة والهيمنة في المجتمع وتؤكّدها وتضفي عليها الشرعية وتعيد إنتاجها أو تتحداها وتقاومها(٣) .

ويلخص نورمان فيركلاف(Norman Fairclough) وروث ووداك (Ruth Wodak) المبادئ العامة للتحليل النقدي للخطاب كالتالي :

يعالج التحليل النقدي للخطاب المشكلات الاجتماعية (من أجل فهمها) . ويحلّل علاقات السلطة الخطابية ، كما أن الخطاب يشكّل المجتمعَ والثقافة . ويعتبر عمَل الخطاب عملا إيديولوجيا . ولا بد من النظر للخطاب على أنه تاريخي ، وتحليله يجب أن يكون تأويليا تفسيريا . كما أن الصّلة بين النص والمجتمع موَسَّطة (يقوم بها

---

(1) Widdowson, (2000), d après Moslem Ahmadvand, Critical Discourse Analysis : An introduction to major approaches (20011), Indonisian journal of Linguistic and Cultural Studies

(2) Van DIJK, Critical Discourse Analysis, p.p. 352-371, The Handbook of Discourse Analysis. Edited by Deborah Schiffrin, Deborah Tannen and Heidi E. Hamilton. Blackwell publishers Ltd. USA, UK.(2001)

(٣) المصدر نفسه

وسيط) لأن تحليل الخطاب شكلٌ من الفعل الاجتماعي(١) .

وبناء على ما تقدم (الخلفيتين النظرية والمنهجية) نقترح التصميم التالي ،

يتكون هذا العمل علاوة على المقدمة والخاتمة من مدخل وبابين :

أما المدخل فخصّصناه لتوضيح بعض المفاهيم الخاصّة بالخطاب وتحليل الخطاب والتي- في نظرنا- يحتاج إليها الباحث لولوج ميدان التحليل النقدي للخطاب . كما أننا عرضنا فيه أهم مقاربات تحليل الخطاب والمدارس التي نشأت في هذا الصدد .

واعتنينا في الباب الأول بالخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب وإشكالياته ، وفي الباب الثاني بتطبيق مقاربة التحليل النقدي للخطاب على الخطاب الإعلامي الذي واكب «الثورة» في تونس . يتكون الباب الأول من أربعة فصول طرحنا في الفصل الأول استراتيجيات تحليل الخطاب ، وفي الفصل الثاني مسألة التحليل النقدي للخطاب ، وفي الفصل الثالث الخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب ، وتناولنا بالدراسة في الفصل الرابع مسألة وسائل الإعلام والتواصل . وفي الباب الثاني حللنا المتن تحليلا معجميا في الفصل الأول ، وخصصنا الفصل الثاني للتسمية والإحالة ، ودرسنا في الفصلين الثالث والرابع الحملية والضمائر وبنية الجملة في خطاب الثورة ، على التوالي ؛ ومثّل الفصل الخامس دراسة للمتن من زاوية الحجاج في الخطاب الإعلامي .

---

(1) Ruth Wodak, (1997)

مـدخــل

١ - الخطاب وأنواعه

١-١ مفهوم الخطاب

يمثل الخطاب وسيلة كل العلوم لتقديم موضوعها ومنهجها وتفسير نظرياتها فهو الوعاء الذي يصبّ فيه الأدب فنونه المختلفة . وقد لقي الخطاب اهتماما من بعض العلوم وخاصة الفلسفة . إذا بدأنا من كلمة «الخطابة» فإننا نجد أنها ارتبطت عند اليونان أساسا بالنظام الديموقراطي الذي انتشر في العديد من المدن ؛ فالكلام أمام الجمهور حق لكل فرد ، ولم يكن المتكلم يستند إلى قواعد أو تنظير معين ، لكن شيئا فشيئا ظهر التفاوت في القدرة على الإقناع وهذا ما أدى إلى تعليم أصول الخطابة .

وجدت الخطابة اهتماما كبيرا من السفسطائيين الذين يعتبرون أن التميّز هو «أن نتكلم بنجاعة في أي موضوع كان»[١] . ونقل «سيلفان أورو» عن مؤلِّف سفسطائي مجهول عاش حوالي ٤٠٠ ق م في كتاب بعنوان «تمايز الكلم» متكلما عن الخطيب : «على هذا الرجل نفسه وعلى هذا الفن نفسه أن يعرفا كيفية التحاور بجمل قصيرة ، وأن يعرفا حقيقة الأشياء وكيف يُرافعان أمام العدالة على الوجه الصحيح ، وأن يكونا قادرين على التحدث إلى الشعب وأن يعرفا أساليب الخطب»[٢] . والخطبة بحسب ما تقدم هي معرفة كيفية التحدث قصد الإفهام والإقناع ، وأدّت كيفية التحدث إلى اكتساب تقنيات الخطاب التي تمكن المتكلم من «أن يتكلم بشكل جيد في كل شيء[٣]» .

ربط أفلاطون بين الخطابة والصدق وعلم النفس بكيفية تجعل المتقبل يقتنع بما هو صادق[٤] . والخطاب الحقيقي في نظره هو الخطاب الصادر عن المدرّس الذي يلقّن العلم أو الحاكم الذي يزرع النخوة في النفوس بتذكير الناس بقيمهم . كما ارتبط

---

(١) سيلفار أورو ، تاريخ التفكير اللساني ص ٢٦٤ ، ترجمة عبد الرزاق بنور .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٨٢ .

الجدل بالخطابة ، «فالخطابة والجدل هما قبل كل شيء ممارستان ثم إنهما بعد ذلك أفكار حول هذه الممارسات تميل إلى الإبقاء على ما هو أفضل استعمالا ، ولهذه الأفكار في ذاتها عدة درجات وقد يكتفى ببساطة بتكرار ما اعتبر ناجحا في أماكن أخرى ، ونستطيع أن نلاحظ أيضا ضروبا من الحجج التي آتت أكلها حين تمّ تطبيقها على قضية معينة[١]» . ثم اتجه أرسطو الى التفكير والتنظير للخطابة بتحليل الحجج والبراهين المستعملة ، وقد بيّن أن لهذه الحجج شكلَ القياس المنطقي ذاته .

إلا أن الاهتمام بالخطاب في اللسانيات ظل منقوصا إلى وقت متأخر نسبيا ، ذلك أن اهتمام اللسانيات في بدايتها ارتكز على الجملة ودراسة بنيتها المجردة والكلمة وشكلها أو وظيفتها داخل الجملة . واهتمت اللسانيات كذلك في هذه الفترة بالأصوات ومخارجها ، وحدّدت مجال دراستها بالجملة باعتبارها أكبر وحدة قابلة للوصف النحوي ، وبالمورفيم باعتباره كذلك أصغر وحدة قابلة للدراسة النحوية .

بقي الخطاب ، الحاضر ممارسة ، في كل علم وفي كل مقاربة بعيدا عن الدراسة ، ولكن ذلك لم يمنع من تفطن بعض الباحثين إلى أهمية ما هو أوسع من الجملة وهو النص والخطاب بصفة عامة . ويرى سعيد يقطين أن هناك إجماعا من الدارسين على أن زليغ هاريس (١٩٥٢) هو «أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتعدى الجملة إلى الخطاب»[٢] وذلك من خلال دراسة بعنوان «تحليل الخطاب»[٣] . وقد أكد في هذا المقال الصلة بين اللغة والثقافة وأن دراسة الجملة كأكبر وحدة يعتَبَر من قبيل العادة لمّا وجد فيه الباحثون ما يستجيب للتحليل اللغوي الذي يقومون به .

لكن هاريس ظل وفيا للنظريات التي تخص دراسة الجملة فاعتبر الخطاب «ملفوظا طويلا أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سليمة من العناصر المنهجية التوزيعية بشكل يجعلنا نظل في مجال لساني

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٨٣ .

(٢) سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ط٣ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت (١٩٩٧) .

(٣) (Discourse Analysis) نشر في مجلة (Language) المجلد ٢٨ ص ص ١ –٣٠) ثم نشر بالفرنسية في مجلة Langagesعدد ١٣ لسنة ١٩٦٩ .

محض[١]» . وهذا التعريف وإن ارتبط ظاهريا برأي بلومفيلد القائل إن «أكبر مركب في كل قول يمثل جملة[٢]» ، إلا أنه فتح المجال لإمكانية دراسة ما هو أكبر من الجملة (أي متتالية الجمل) وانطلق من النص لتحليل الخطاب باعتباره خطابا تاما يمكن من خلاله دراسة العلاقات التي تربط الجمل بعضها ببعض و بالتالي الوصول إلى بنية الخطاب .

يرى بعض الدارسين أن ما توصل إليه هاريس لا يحيل بصفة واضحة وجليّة على أن بنية الخطاب متكونة من متتالية من الجمل باعتبار النسق والبعد الخطي لتتالي هذه الجمل[٣] .

أصبحت الجملة في أعمال بنفنيست وحدة من وحدات الخطاب ، وتمكن هذا اللساني من تصوّر جهاز خاص بالقول[٤] ، وخصّص كذلك قسما آخر من الكتاب نفسه لصلة الإنسان باللغة ووسمه بـ«L'homme dans le langage[٥]» . سعى بنفينست في أبحاثه إلى إثبات أهمية المقام في الخطاب إلى جانب الوحدات اللغوية التي تحيل على مرجع خارج اللغة (الضمائر والوحدات الإشارية والظروف . .) . ويرى بنفنيست أن «الجملة ليست علامة وإنما وحدة من وحدات الخطاب التي لا نستطيع اختزالها في تسلسل مكوناتها ولكن بما تمثل من وظيفة الإسناد ؛ أي من جهة هي في علاقة مع ما تحيل عليه ومن جهة أخرى هي قول لمتكلم»[٦] . ونلاحظ أن أعمال

---

(1) Robbe Grillet, Pour un nouveau roman, P155, Edition Gallimard1972

(2) André Jacob,(1973), Genèse de la pensée Linguistique, P189.

(٣) محمد الشاوش ، أصول تحليل الخطاب ، ج ١ ، ص٤٠ .

(٤) وسم إحدى مقالات كتابه بـ «l'appareil formel de l'énonciation15» وهي ضمن قسم بعنوان «La communication» .

(5) Emile Bennveniste (1966),Problème de linguistique générale,P 225, T1.

(6) Jenny Simonin - Grumbachy pour une typologie des discours langue discours société, p85, édition du Seuil -1975 " la phrase n'est pas un signe mais une unité de discours qu on ne sauvait réduire à la concaténation de ses constituants mais dont la fonction est la prédiction c'est-à-dire d une part la mise en relation avec un référent d'autre part l'assertion de l'énonciateur".

بنفنيست جاءت ردا طبيعيا على ما ساد تلك الفترة من اهتمام بالتركيب مقابل إهمال للمعنى خاصة في اللسانيات البنيوية الأمريكية (بلومفيلد) ويصدق الشيء نفسه على المدرسة التوليدية التي لم تنف المعنى ولكنها لم تعطه حقه من الدراسة وأهملت المقام بشكل لافت للنظر .

هذا ما دعا بول ريكور إلى اعتبار الخطاب منفياً وهامشياً «فإذا بقي الخطاب إشكاليّة عندنا اليوم فذلك لأن إنجازات علم اللغة الأساسيةَ تهتم باللغة من حيث هي بنية ونسق لا من حيث هي مستعملة ، لذلك فإن مهمتنا ستكون إنقاذ الخطاب من منفاه .»[١]

مهّدت أعمال بنفنيست في اللسانيات الحديثة لدراسة الخطاب من زوايا متعددة وانطلاقا من وجهات نظر مختلفة وأدخلت لفظة الخطاب إلى المعاجم اللسانية والأدبية والموسوعات ، ولا نكاد نعدم تعريفا لمفهوم الخطاب في أي من هذه المعاجم والموسوعات . وسنكتفي هنا بإيراد بعض التعريفات محاولين الإحاطة بالتعريف الحديث لهذا المفهوم : ورد في لاروس «اللسانيات وعلوم اللغة» تعريف مطول للخطاب ولأنواعه ضمّ أربعة تعريفات نوردها مختصرة كالتالي :

١- «الخطاب هو اللغة في وضع الاستعمال (استعمال اللغة)» .

٢- «الخطاب وحدةٌ تساوي الجملة أو تفوقها ، وهو يتكون من متتالية تمثل قولاً له بداية ونهاية» ؛ وهذا التعريف الثاني يجعل الخطاب قريباً من القول عند بنفنيست .

٣- «في البلاغة : الخطاب متتاليةٌ خطابية متنامية قصد الإقناع أو التأثير ، وهي مهيكلة بحسب قواعد مضبوطة» .

٤-«في معناه اللساني الحديث يمثل لفظ «خطاب» كل قولة أكبر من الجملة ، وتعتبر بحسب قواعد التسلسل متتاليات من الجمل»[٢] .

---

(١) بول ريكور ، نظرية التأويل ، الخطاب وفائض المعنى ، ترجمة سعيد الغانمي .

(2) Larousse, Grand Dictionnaire, Linguistique et sciences du Langage, PP 150-,152 Jeans Dubois, Mathée Giacomo, Louis Guespin, Christiane Marcellesi, Jean-Baptiste Marcellesi, Jeans Pierre Mérel, Edition Larousse 2007.

رغم اختلاف هذه التعريفات نسبيا فإننا نلاحظ أن مؤلفي هذا المعجم يعتبرون ذلك غير كاف نظرا لتشعب المفهوم واتصاله بعلوم أخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع «فتحليل الخطاب بإعادته إدراج موضوع القول استوجب الاستعانة بعلم النفس اللغوي وبعلم الاجتماع اللغوي»(١) . ونجد في معجم تحليل الخطاب تعريفا مطولا لهذا المصطلح ورصداً للمراحل التي مر بها منذ الفلسفة الكلاسيكية وصولا إلى التيارات التداولية ، ووقع تحديد الخطاب في هذا المعجم بمقابلته بعدة مفاهيم أخرى ، «خطاب مقابل جملة» ، «خطاب مقابل لسان» ، و«خطاب مقابل نص» ، «وخطاب مقابل ملفوظ»(٢) .

يمكن القول -عموماً- إن مصطلح الخطاب أصبح منتشرا بمفهومه الحالي منذ الثمانينات وهو يشير غالبا إلى كل نشاط كلامي بصفة عامة أو إلى حدث كلامي ، وأصبح الباحثون يتحدثون عن خطابات وأصبح تبني هذا المفهوم يعني «أخذ موقف ضمني ضد ضرب من تصوّر اللغة والدلالة وهذا التغير (في طريقة تصوّر اللغة) هو بنسبة هامة نتيجة مختلف التيارات التداولية التي أفرزت عددا من الأفكار الرئيسية»(٣) . إن أي محاولة لتحديد الخطاب تقود بالضرورة إلى تحديد جملة من العلاقات بينه وبين اللغة والمجتمع والفرد ، وكذلك بين اللغة والفكر وطريقة ممارسة اللغة في المجتمع .

هذا ما يفسر الاختلاف في تحديد مفهوم الخطاب لأن كل محاولة للتعريف ستكون بالضرورة في ظلّ نظرة معينة تغلِّب جانبا من هذه العلاقات السابقة ، إلا أن ما يمكن أن يجمع هذه المحاولات هو أن كل من أراد تحديد مفهوم الخطاب سيجد نفسه أمام نظام من العلامات اللغوية تنظّم الوجود وتشير إليه وتسمّيه ليصبح له معنى عند مستعمل هذه العلامات وهو صاحب الفكر الذي يشغّل هذه العلامات ، وتعود كيفيّة تشغيل هذه العلامات إلى ما للفرد من استعداد لتوظيف قواعد استعمال اللسان في

---

(1) op. cit, P 150.

(٢) معجم تحليل الخطاب ، ص ، ص ، ١٨٠ ،١٨١ ، باتريك شارودو ودومينيك مونغنو ، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، دار سيناترا ، تونس ٢٠٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٨٢ .

المقام وتسمّى هذه العملية «كفاءة خطابية»[١] ، ويمكن -إلى حدّ ما- أن تقابل الكفاءة اللسانية عند تشومسكي وأن تتميز عنها لأن الكفاءة اللسانية غير كافية للتواصل ، بينما هدف الخطاب هو تحقيق التواصل . ويختلف مفهوم الكفاءة الخطابية بحسب المعنى الذي يسند إلى مفهوم الخطاب ويذهب باتريك شارودو إلى وجود ثلاثة أنواع من الكفاءة الخطابية :

- الكفاءة المقامية : وهي قدرة الشخص الذي يريد التواصل على «بناء خطابه بحسب هويّة أطراف التبادل ، وغائية التبادل ، والقول المعني ، وظروف التبادل المادية»[٢] .
- الكفاءة الخطابيّة : وهي تعرُّف مقتضيات المقام ، وهي كذلك المعرفة المشتركة والمعتقد .
- الكفاءة السيميائيّة اللسانيّة : وهي القدرة على التصرّف في مكونات معجم معين والتعرف على معناها واستعمال قواعد التوليف المناسبة بينها .

أما دومينيك منغنو (١٩٨٤) فيعتبر الكفاءة الخطابية قدرة شخص معين في زمن معين على إنتاج وتأويل ملفوظات تنتسب إلى تشكيلة خطابية معينة ، بذلك يكون «قادرا على التعرف على ملفوظات باعتبارها منتمية إلى التشكيلة الخطابية الخاصة به . . .وإنتاج عدد لا نهاية له من الملفوظات غير المعهودة والمنتمية إلى هذه التشكيلة الخطابية»[٣] .

إن ما يميز الخطاب عن النص أو الجملة هو هذه المستويات التداولية المتمثلة في المقاصد والعلاقات والإحالات والوظائف ، إلا أن هذه المستويات لا تنفصل عن الأنظمة الثقافية والفكرية التي تمثل المهد الذي ينشأ فيه الخطاب وهذا ما مهدت له فلسفة الفرنسي «ميشال فوكو» ، حيث ركّز على العلاقة المتينة بين الخطاب والأنظمة الاجتماعية (ثقافية ، اقتصادية ، دينية . . .) وهو ما ذهب إليه كذلك «بورديو» بقوله :

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

(3) Dominique Maingueneau (1984), Genèse Du Discours, P 53, Pierre Mardaga, Editeur, T,S,N, Bruxelles

«النحو لا يعرّف المعنى إلا جزئيا ولا يتحدّد معنى الخطاب بصفة كاملة إلا في العلاقة بمحيطه «٢٦,

إن هذا التعدّد في تحديد مفهوم الخطاب يعود بالأساس إلى تعدّد مجالات الخطاب وتعدّد الاتجاهات التي تمثل منطلقا لكل تعريف . لذلك يجب أن نضع كل مقاربة في فهم الخطاب ضمن إطارها الفلسفي والفكري لنتمكن من فهمها الفهم السليم .

١-٢ أنواع الخطاب

حاول الباحثون تصنيف الخطاب بحسب معايير تختلف باختلاف العصور وباختلاف تقدم البحث في هذا المجال ، ووقع الاهتمام بتقسيم الخطاب ضمن البحوث الأدبية والبحوث اللسانية بحسب مقاييس مختلفة ، فنجد تقسيمات تتطابق مع فترات تاريخيّة معينة ، وقد أفرزت مثلا الرومنسية والواقعية والسريالية . . .وتقسيمات بحسب مقاييس بنية النص (الرواية التاريخية . . .) . وأخرى تجمع بين التركيب والشكل والمحتوى (شعر ، قصة . . .) .

نشير في البداية إلى أنه قد وُلد في الأدب الغربي القديم عند اليونان خطاب من صنع الشعراء الذين كانوا يكلفون بأداء دور الوسيط بين الآلهة والناس ووُلِد كذلك خطاب آخر وكان «جوابا لحاجيات إدارة حياة المدينة وفضّ الخلافات التجارية جاعلا من الكلام أمام العموم أداة تداول وإقناع قانوني وسياسي٢٧» ، ثم تطور هذا النوع من الخطاب مع مرور الزمن ودخل مجال الإبداع الأدبي . وفي مقولة الأجناس الأدبية يمكن التفريق بين النصوص بحسب مقاييس مختلفة ومنها :

- مقاييس تحيل على كيفية تصور الواقع وهي تطابق فترات تاريخية معينة ، وقد أفرزت مثلا الرومنسية والواقعية والسريالية . . .
- ومقاييس بحسب بنية النص (الرواية التاريخية . . .) .
- وأخيرا مقاييس تجمع التركيب والشكل والمحتوى (شعر ، قصة . . .)

---

(1) Pierre Bourdieu (2004), Ce que parler veut dire, P 15 Ste tirage sur presse numérique, www.cogetefi.com, France.

(٢) معجم تحليل الخطاب ، ص ٢٦٩ .

لا توجد حدود قاطعة بين هذه الأجناس الأدبية لأن هذه المقاييس تتداخل أحيانا كثيرة فيجتمع في الأثر الواحد عدة مقاييس(١) ، والحقيقة أن التمييز بين النص والخطاب في هذه التقسيمات غير واضح المعالم فكثيرا ما يستعمل النص بمفهوم الخطاب أو العكس .

على أن ما يهمّنا من النقد الأدبي هو التوجه الذي مهّد للخطاب بمفهومه الحالي نعني اجتهادات الشكلانيين الرّوس(٢) الذين عُدَّت أعمالهم أسسا وقواعد عامة للأدب . ويرى بول ريكور أن أعمالهم «تمثل انعطافة حاسمة في نظرية الأدب ، لا سيّما ما يتعلق منها بالبنية السردية للأعمال الأدبية(٣)» . أنتجت هذه الفترة عدة أعمال ركّزت بالأساس على الشكل ، وسعت إلى اكتشاف الأدوات البلاغية والتقنية في النصوص الأدبية . ومن بين هذه الأعمال كتاب إيخنباوم (دراسة التركيب وعلاقته بالإيقاع) . وكتاب شلوفسكي (في نظرية النثر) وكتاب فلادمير بروب (مورفولوجيا الحكاية) . يقول إيخنباوم : «ليس الأدب في عمومه هو ما يمثل موضوع علم الأدب بل موضوعه هو الأدبية أي ما يجعل من أثر ما أثرا أدبيا» ، ويضيف : «يجب على الناقد الأدبي ألاّ يهتم إلا بالبحث في السّمات المميزة للأدبية(٤)» . نلاحظ أن هذا التوجه في الاهتمام بالشكل كان مقابل اهتمام مفرط بالموضوع قبل الشكلانيين الروس .

وكانت المادة الحكائية هي صلب الدراسة فأصبح للمبنى وللشكل الأولوية المطلقة في الدراسة مع التمييز بين المتن الحكائي والمبنى الحكائي ، وهذا ما يفسره قول توماشفسكي «في مقابل المتن الحكائي يوجد المبنى الحكائي الذي يتألف من

---

(١) المرجع نفسه ، ص ، ص ٢٦٩ ،٢٧٠ .

(٢) يعود الفضل في ظهور هذا التيار إلى «جمعية دراسة اللغة الشعرية» OPOYAZ التي كان مقرها في سان بطرسبورغ ، ومن أعلامها فكتور شلوفسكي V.SHLOVSKY وبوريس إخنباوم B. EIKHENBAUM . وكذلك «حلقة موسكو الأدبية» ومن أهم أعلامها «رومان ياكبسون» R.JAKOBSON

(٣) بول ريكور ، نظرية التأويل ، الخطاب وفائض المعنى ، ص ٢٧ ، ترجمة سعيد الغانمي .

(٤) www.arab-ency.com, Arab Encyclopedia ، المجلد ١١ ، اللغات وآدابها ، الأدب ، الشكلية في الأدب ، ص ,٧٤٥

نفس الأحداث بيد أنه يراعي نظام ظهورها في العمل ، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعّينها لنا [١]» . إن ما أحدثه الشكلانيون الروس من تجديد في بعض المفاهيم القديمة ومن تعويض لبعضها الآخر جعل أعمالهم تكون مرتكزا لظهور الخطاب وهذا ما نلاحظه في خطاطة ياكبسون» لعناصر التوصيل اللغوي» وهي كالتالي[٢] (الرسم١) :

سياق Contexte

مرسل (مخاطِب) . . . . . . رسالة . . . . . . مرسل إليه (مخاطَب)

destinateur message destinataire

اتصال Contact

سنن (شيفرة) code

خطاطة جاكبسون لعناصر التوصيل اللغوي

وبذلك وضع ياكوبسون أسسا لقوانين الخطاب الأدبي وأهم أساس فيها هي الشعرية .

وفي خطوة أخرى ميّز الشكلانيون الروس بين الخطاب والقصة «وسيصبح هذا التمييز قاعدة يعتمد عليها كل النقد الذي سينبني على تراث الشكلانيين الروس والذي سيستفيد – بهدف التطور– من كل ما يتحقق في مجال اللسانيات[٣]» .

الحقيقة أن ميدان الخطاب قد استفاد كثيرا مما تحقق في النقد الأدبي بفضل التيّار البنيوي والتيّار الألماني وبالتحديد «نظرية التلقي» التي جاءت رداً على ما سبقها من اهتمام مفرط بالكاتب وواقعة الاجتماعي والنفسي (سانت بوف Saint Beuve وهيبوليت تين Hyppolyte Taine وبراندز Brands وغيرهم) . دشن هانس روبيرت ياوس وفولفغانغ إيزر نظريةَ التلقي فعُنيا بالعلاقة بين النص والتلقي ، وكان

(١) سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ص٢٩ .

(2) Jakobson Roman, essais de linguistique générale, P214, Eds Minuit, 1963.

(٣) سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، ص ١٦٩ .

من نتائج ذلك أن النص لا يتحقق إلا أثناء القراءة والاتصال ؛ وقد ألحّ ياوس على دور «أفق الانتظار» في فهم النص وعلى مجموع معارف المتلقي . يقول : «النص الجديد يستدعي للقارئ (أو للسامع) مجموعة من الانتظارات والقوانين كان قد استأنس بها من خلال النصوص السابقة وهذه الانتظارات والقوانين يمكن أن تنتظم أو تتعدّل أو تتغيّر أو ببساطة تعاد كما هي وذلك أثناء عملية القراءة[١]» . كما ظهر اتجاه آخر حاول أن يجمع بين الاهتمام بالنص والكاتب والمتلقي في محاولة توفيقية بين كل هذه العناصر وقد أصبح ذلك فيما بعد في إطار الخطاب : المتكلم (الباث) ، نص الخطاب (القول) ، والمخاطب (المتلقي) .

أثرت هذه التيارات الأدبية في تحديد الخطاب وفي ضبط أنواعه وأصبح الباحثون يتحدثون عن خطابات بدل خطاب ، تقول «أدريانا جارترودا روميديا «Adriana-Gertruda Romedea» : «الانتقال من خطاب إلى خطاب آخر يصاحبه تغيير في بنية ووظيفة النصوص التي تتحكم في الخطاب[٢]»

يعود فضل بداية تقسيم الخطاب إلى أنواع واضحة المعالم في اللسانيات إلى إيميل بنفينست وذلك من خلال تمييزه بين القول ووضعية القول التي تضم المخاطِب والمخاطَب ومكان الخطاب وزمانه . وبدراسته هذه المفاهيم ميّز بين القول في حد ذاته (وهو يمثل الملفوظ) وبين عمل القول الذي يمثل الخطاب ويستوجب عناصر أساسية (متكلم ، متلق ، قول ، أدوات القول[٣]) ، وهذا ما جعله يعتبر الخطاب مختلفاً عن التاريخ وسرد الأحداث وذلك باختلاف العلاقة بين القول ووضعية القول ، وانتهى إلى أن أنواع عمل القول هي التي تحدد أنواع الخطاب . بيد أن بول برونكارت J.P. Bronckart يرى أن في هذا التقسيم كثيراً من التعسف ، بل يستحيل تحقُّقه لأن «هذه الأجناس تتأقلم دائما مع تطور الرهانات الاجتماعيّة التواصلية وتحمل بمقتضى هذا عديد مؤشرات التصنيفات الاجتماعية ، وتنتظم بحسب ضروب من السديم

(1) Hans Robert Jauss (1978), Pour une esthétique de la réception, P 51, Paris, Gallimard.

(2) Adriana Gertruda Romedia, Les types de discours, P15,
www.roslir.goldenideashome.com, -archiv/ 2005_1/2 Adriana Romedia2005.pdf

(3) Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T2, P 78

حدودها ضبابية غير قارة[١]» . ويعتبر برونكارت (١٩٨٥) أن مقاييس التصنيف في هذه الحالة ستكون غير متجانسة (مثل الهدف ، وضع المشاركين في الخطاب ، المكان ، الزمان . . .) . لذلك يقترح تصنيفا يعتمد الأساس النفسي واللساني في آن واحد ؛ ويضم هذا التصنيف أربعة أنماط من الخطاب . «وهذا التقسيم يخضع لمقياسيْن يعتبرهما برونكارت متجانسين وهما : استلزام مقابل استقلال بالنسبة إلى مقام التلفظ . ووصل (عرض) مقابل فصل (حكي) .

- الخطاب التفاعلي : عرض/مستلزم
- الحكاية التفاعلية : حكي/ مستلزم
- الخطاب النظري : عرض/مستقل
- السرد : حكي/مستقل»[٢] .

أما بالنسبة إلى باختين فإن تقسيم الخطاب يستند إلى التمشي التاريخي ولذلك قسّمه إلى أجناس أولى (des genres premiers) وتتمثل في الخطابات التي تقوم على تفاعلات الحياة اليومية وأجناس ثانية (des genres seconds) وتهمّ الخطابات الأدبية والعلمية وغيرهما وهي ناتجة عن تعقّد الأجناس الأولى[٣] .

وقسم باتريك شارودو الخطاب إلى أربعة أنواع مستندا في ذلك إلى نظرية فوكو وبالتحديد تعريف الخطاب كـ«مجموعة من القواعد الموضوعيّة والتاريخيّة المعيّنة والمحددة دوما في الزمان والمكان ، والتي حَدّدت في فترة زمنية بعينها ، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني معطى ، شروطَ ممارسة الوظيفة العِبارية[٤]» . وأضاف شارودو إلى ذلك هدف الخطاب المنطوق أو المكتوب وهو إما التعبيرِ أو الحكي أو الوصف أو الحجاج . وانطلاقا مما سبق قسم شارودو الخطاب إلى أربعة أنواع :

- خطاب تعبيري .
- خطاب وصفي .

---

(١) معجم تحليل االخطاب ، ص ٥٧٦ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٧٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥٧٧ .

(٤) ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، ص١١١ ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٦ .

- خطاب سردي .
- خطاب حجاجي [١] .

الخطاب التعبيري : هذا الخطاب يربط بين الباث والمتكلم بعلاقة تأثر وتأثير ، فالمتكلّم يؤثر في المتقبّل ويجعله يستجيب لهذا التأثير بغض النظر عن نوع الاستجابة . ويحصر شارودو هذه العلاقة بين الباث والمتقبّل في نوعين من العلاقات ، إما علاقة سلطة (علاقة قوة) مثل الأمر والتحذير . . .أوعلاقة دونية (علاقة ضعف) مثل الالتماس وكل ما من شأنه أن يعبّر عن الحاجة إلى المخاطِب . وقد لخص شارودو مكونات الخطاب التعبيري في جدول نورده كالتالي[٢] :

علاقات قوليّة	خاصيات قوليّة	مقولات اللغة (أفعال الكلام)
العلاقة بالمتقبل (المخاطب)	علاقة طلب (باث/ متقبل)	- استجواب - أمر - سماح - تحذير - حكم - اقتراح - عرض
العلاقة بالقول (من منظور الوضعية)	علاقة قوة (باث/متقبل)	- استفهام - عرض
	طريقة للمعرفة	معاينة معرفة / جهل
	تقييم	وجهة نظر- إعجاب
	حث	- إلزام - إمكانية - إرادة

(1) Patrick Charaudeau (1992), Grammaire du sens et de l'expression, P 635, Hachette, Paris.

(2) Op.cit.P 651

	التزام	– وعد – قبول / رفض – اتفاق/ عدم اتفاق – تصريح
	قرار	– إعلان
	كيف يفترض أن يكون العالم	– إثبات
العلاقة بالعالم الخارجي (الشهادة على العالم)	كيف يراه الآخر	خطاب منقول غير مباشر

نلاحظ أن شارودو حدّد العلاقات الأساسية التي يتطلبها الخطاب في البنية القولية وهي علاقة المتكلم بالمتقبل ، ونلاحظ أنه استغل أنواع أفعال القول إلى جانب العلاقة التي تربط المخاطِب بالمخاطَب كما أن شكليْ الخطاب (المباشر وغير المباشر) يؤثران في صياغة هذه العلاقات ؛ ففي الخطاب غير المباشر يأخذ المتكلم مسافة من القول ويعتبر نفسه غير قائم بعمل القول وإنما هو مجرد آلة تنقل قول الغير .

– الخطاب الوصفي : وهو ما يعتبره شارودو طريقة ترتيب يتصف بها الخطاب ليكون خطابا وصفيا ، ويتحقق هذا الخطاب على ثلاثة مستويات : وضعية التواصل وطريقة تنظيم الخطاب ونوع الخطاب الذي تفرضه الوضعية ، وهو يهدف إلى الإعلام أو التفسير أو الحث على فعل الشيء ، ومثال ذلك وصفات الطبخ أو النصوص التعليمية في مادة العلوم الطبيعية التي تصف ، مثلا ، جهازا من أجهزة جسم الإنسان أو مقطعا وصفيا في رواية أو في رسالة .

الخطاب الوصفي –عموما– هو الذي يسمّي الأشياء ويحدّدها مكانا وزمانا ويعطيها خاصّياتها . يقول شارودو متحدثا عن دور الخطاب الوصفي : «يحدّد المكان الذي تحتلّه ذات في الفضاء وفي الزمان ويضفي على هذه الذات خاصيات يتطلّبها وجودها ووظيفتها أي سبب وجودها ووضعها الفضائي الزماني [1]» .

(1) Patrick Charaudeau (1992), Grammaire du sens et de l'expression, P 661, Hachette, Paris.

– الخطاب السردي : وتسميه أدريانا جارترودا روميديا Adriana-Gertruda Romedia طريقة الانتظام السردية للخطاب[١] . ويمكننا هذا النوع من ترتيب أعمال تهمّ الذوات وتهمّ كيفيّة تحوّلها نتيجة أعمالها أو نتيجة أعمال غيرها ، ويتورّط المتكلم ولو جزئيا في هذا الخطاب لأنه لن يستطيع الاستغناء كليا عن تجربته حين ينقل تجارب غيره . ولكي لا يقع الخلط بين كيفية انتظام الخطاب السردي وكيفية انتظام الخطاب الوصفي ، وضع شارودو جدولا يضمّهما معا مع بيان خاصيات كل منهما وأنواع النصوص التي تنضوي تحته وإثبات الغاية من القول وطريقة القول [٢] :

المكونات	التمشي المنطقي(المقالي)	الغاية من (وضعية التواصل)	نوع النص
– التسمية – التعيين – إسناد خاصيات	– التعرّف	– الإحصاء – الإعلام	– الجرد –القائمات – التلاخيص – الجرائد – القصص
	– إعادة بناء موضوعية للعالم	– تعريف – تفسير – حث – سرد	– نصوص قانونيّة – نصوص تعليميّة – نصوص علميّة – دوريات – نصوص تبيّن طريقة الاستعمال – إعلانات – قصص أدبية – ملخصات

(1) Adriana-Gertruda Romedia, Les types de discours, P 22, www.goldenideashome.com/archiv/2005-1/2Adrianaromedia 2005. Pdf

(2) Patrick Charaudeau (1992),op.cit., P 661.

	- إعــادة بناء ذاتيــة للعالم	- حث - سرد	- إعلانات - تصريحات - إشهار - رسائل قصيرة - قصص - جرائد - أغاني - قصص مصوّرة - نصوص أدبيّة

من الفروق بين الخطابين السردي والوصفي نذكر أن الخطاب الوصفي يكون من خلال عين مشاهدة أو عقل عارف وذات واصفة ، ولا يقبل هذا النوع من النصوص التلخيص بينما يمكن تلخيص النصوص السردية إذا لم نحِد عن بنيتها المنطقية التي تتحكم فيها .

- الخطاب الحجاجي : (أو طريقة الانتظام الحجاجية للخطاب) يرى شارودو أن كل خطاب حجاجي لا بد أن يتكوّن على الأقل من ثلاثة إثباتات :

١- إثبات البداية (معطى أو وعد)

٢-إثبات الوصول (ملخص ، نتيجة)

٣-إثبات (أو مجموعة إثباتات) تمكن من المرور من حجة إلى أخرى .

يجب التمييز بين الحجاج والاستدلال لأن الاستدلال بنية مخصوصة لإظهار صدق المعطى ؛ أما الحجاج فهو محاولة للتأثير في موقف المتلقي ، وبالتالي تحديد موقعه من المعطى ويمكن أيضا تمييز الخطاب الحجاجي من خلال الروابط المنطقية بين أجزائه [1] .

نلاحظ عند باحثين آخرين أن هذه التقسيمات أنواع من الخطابات تقوم على مرجعيات إيديولوجية وثقافية ، ومنها الخطاب السياسي وضمنه نجد الخطاب

47-Adriana-Gertruda Romedia, Les types de discours, P 25, www.goldenideashome.com/ archiv/ 2005-1/2Adrianaromedia 2005. Pdf

الشيوعي والخطاب القومي وكذلك خطاب الأعراف أو خطاب العمّال . ويتفرع الخطاب الديني كذلك إلى عدة فروع بحسب الديانات وبحسب الغاية من الخطاب . وبالتالي نتحصل على مجموعات خطابية تضمّ كلّ منها أنواعا داخلية ولكنها تحمل سمات مشتركة .

وينقسم كل خطاب من هذه الخطابات المكونة للمجموعة الخطابية بدوره إلى خطابات فرعية ؛ فالخطاب الصحفي مثلا يتكون من «خبر موجز» و«تحليل وقائع» و«خبر مقنع»[١] . . . وينقسم الخطاب الديني أيضا إلى «خطاب دعوة» و«خطاب تحذير» و«خطاب ترغيب» و«خطاب تفسير» إلى غير ذلك . وهذه التقسيمات تمنح الأفراد المنتجين للخطاب شرعية تتيح لهم الاشتغال في مجال معين لإنتاج المفاهيم الخاصة بهذا النوع من الخطاب . ويتعين على بقية الأفراد الذين هم خارج هذه المنظومة أن يقبلوا هذه المفاهيم وأن يستهلكوها وبذلك يضمّن هذا الخطاب الهيمنة الاجتماعية ، وتضطر بقية الجماعات إلى إنتاج خطاب مقابل يتمثل في جهاز للمراقبة والتقييم [٢] .

لكن رغم هذه الحدود والتقسيمات فإن الخطاب يبقى مستعصيا على القيود المضبوطة فتمتد أطرافه لتنصهر مع أطراف بقية الأنواع الأخرى من الخطابات ، وتتداخل الخاصيات لـــ« تقود إلى أنواع متقاطعة من الخطابات ، مثلا يمكن أن يكون الخطاب في نفس الوقت بيداغوجيا وجدليا[٣]» .

تبقى هذه التقسيمات في الخطاب مفتوحة وعرضة لعدم الاستقرار والتحول المستمر لأن المشتغلين بهذا المجال ينتمون إلى حقول معرفية متعددة ومتنوعة كاللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب . . . وهذا ما جعل الخطاب قادرا على الانتشار في مساحات دراسيّة واسعة . ولكن العنصر المؤثر في عدم استقرار هذه الحدود أكثر من

---

(١) معجم تحليل الخطاب ، ص ٥٧٤ .

(٢) ميشال فوكو ، نظام الخطاب ص ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ترجمة محمد سبيلا ، ط ١ ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ٢٠٠٨ .

(3) LAROUSSE linguistique et sciences du langage (2007), P 496-497, “ces critères peuvent amener à des classifications croisées, un discours pouvant être à la fois par exemple pédagogique et polémique.”

غيره هو بحسب رأينا تطور المجتمع وتطور الثقافة والسيرورة التاريخية بصفة عامة .

إن تصنيفات الخطاب ضروريّة ذلك أن الخطاب إنتاج اجتماعي يعبر عن كفاءات تواصلية معينة لدى الفئات المشاركة فيه وتظهر ضرورتها كذلك عند فهم الخطاب أو إنتاجه لأن الخطاب لا ينفصل عن هوية الذات الجمعية المنتجة له ، ولا يمكن أن يتحرر من صفة الارتباط بالمكان والزمان وتعدد التأويلات « لذلك فهو لا يكف عن الإشارة إلى امتلاكه الإضمار والثراء والخفاء وهي مكونات تكفل له حضورا وتأويلا لا ينضبان ولا ينفدان[١]» .

رغم أن معظم الباحثين قد استندوا إلى هذه التقسيمات العامة للخطاب من أجل بناء نظرياتهم فإن منهم من وضعها موضع تساؤل وربطها بالعصر الذي وجدت فيه وأحالها على محكّ التطور التاريخي . وأبرز من شكّك في هذه التقسيمات هو ميشال فوكو في كتابه «حفريات المعرفة» يقول : «علينا أن لا نرتاح كذلك لتلك التقسيمات والتجميعات التي ألفنا الركون إليها فهل من المعقول أن نقبل ، هكذا ، وعلى علاّته تمييزا كذلك الذي يظن أنه قائم بين أنماط الخطاب الكبرى ، أو كذلك الذي يعتقد أنه يوجد بين أشكال وأنواع متعارضة فيما بينها ، كالعلم والأدب والفلسفة والتاريخ والخيال الخرافي . . . واعتبارها كيانات فردية تاريخية كبرى؟ لسنا واثقين من صلاحية اللجوء إلى مثل هذه التمييزات في عالم الخطاب الذي هو عالمنا؟[٢]» . وهو يرى أن التقسيمات والفروع التي صيغت في وقتنا الحاضر لا يمكن أن نسقطها على خطابات أنتجت في ثقافات قديمة «فالأدب والسياسة مثلا مقولتان حديثتا العهد ، لا يمكن تطبيقهما على الثقافة الوسيطية ، أو حتى على الثقافة الكلاسيكية ، إلا إذا أسقطنا الحاضر على الماضي[٣]» .

من الطبيعي أن يخضع الخطاب إلى وجهات نظر متنوعة لأنه لا يمكن أن يكتفي بمنطلقات لسانية صرفة أو مقامية صرفة ، فهو يجمع بين هذه وتلك مع بروز إحداهما على الأخرى أحيانا كثيرة ، فلّلغة شروطها وقواعدها ، وللمقام إكراهاته .

---

(١) هيثم سرحان ، خطاب الجنس ، مقاربة في الأدب العربي القديم ، ص ٢٩ .

(٢) ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، ص ٢٢ ، ترجمة سالم يفوت ، ط٢ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت- لبنان ، المغرب- الدار البيضاء ، ١٩٨٧ .

(٣) المرجع نفسه .

٢- تحليل الخطاب: المدارس والاتجاهات

يصعب على الناظر في تاريخ تحليل الخطاب وتحديد مفهومه ضبط المفهوم بدقة ، كما يصعب عليه ضبط اللحظة التاريخية التي يمكن اعتبارها زمنا لنشأة هذا المبحث فـــــ«من العسير أن نستعرض تاريخ تحليل الخطاب لأنه لا يمكن اعتباره متأتّيا عن عمل تأسيسيّ ولأنه ناتج في آن واحد عن تيّارات حديثة وتجديد لممارسات قديمة جدا في دراسة النصوص»[١] .

يمكن أن نجد آثار نشأة تحليلٍ يتخذ الخطاب موضوعا له منذ ستينات القرن الماضي ، وعادة ما يكون هذا المبحث متوازيا مع تطور العلوم اللغوية . وتمثل اجتهادات زليغ هاريس وإميل بنفينست وغيرهما بداية أهم الاتجاهات التي ساهمت في تبلور هذا المبحث بمفهومه الحالي هذا علاوة على تطور البحث في ميدان التداولية وإسهامات مجالات أخرى كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والدرس الأدبي في تكوين المرتكز الفكري لتحليل الخطاب مثل دراسات ميشيل فوكو وبيار بورديو وميخائيل باختين وغيرهم .

٢ -١ مفهوم تحليل الخطاب

أشرنا في التمهيد إلى صعوبة تحديد مفهوم «تحليل الخطاب» إلا أننا سنرصد هذا المفهوم في بعض المعاجم والدراسات المختصة وأبسط تعريف نجده في معجم جورج مونان فهو لا يعتني بالكثير من التفسيرات وإنما يورد تعريفا إجماليا لتحليل الخطاب كالتالي : «تحليل الخطاب هو كل تقنية هدفها (بصفة شكلية ، عموما) توضيح العلاقات القائمة بين الوحدات اللسانية في الخطاب المكتوب أو الشفوي في مستوى أعلى من الجملة [٢]» .

في رأي باتريك شارودو ودومينيك منغنو أن هذا المجالَ ، أي تحليل الخطاب «فن حديث العهد نسبيا» . وهما يعترفان بصعوبة وضع تعريف شامل له ؛ فهو «تسند إليه أشد التعريفات اختلافا : هي تحديدات شديدة الاتساع عندما يعتبر «تحليل الخطاب» مكافئا لــــــ«دراسة الخطاب» أو تتسم بالحصر عندما نخصص هذه

---

(١) معجم تحليل الخطاب ، ص ٤٤ .

(2) Dictionnaire de la linguistique, Georges Mounin, P26.

التسمية في نطاق التمييز بين فنون مختلفة تتخذ من الخطاب موضوعا لها ، لأحد هذه الفنون[١]» . ليس تحليل الخطاب حقلا معرفياً مستقلا ومتميزا ، وإنما هو خط يَعْبر اللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب والتاريخ . ومن ثمة ليس بالمستغرب أن ينمو وأن يتجدّد وأن تتفرّع اتجاهاته وتتنوع مقارباته مادام منفتحاً على إنجازات الحقول المعرفية المذكورة . وهو إذ ولد في أحضان علوم أخرى جعل لنفسه في البداية هدفاً مبرّرا لوجوده . وفي هذا السياق يُفهَم رميه اللسانيات بأنها تدرُسُ اللغة منقطعةً عن سياقات استعمالها . . .

تطوّر تحليل الخطاب بفضل جهود العديد من الباحثين وأوجد لنفسه مسارا خاصّا «ووسّع تدريجيا حقل الدراسة ليشمل مجموع الإنتاجات اللغوية ووضع جهازا مفهوميا خصوصيا وبعث بين مختلف تيّاراته حوارا متزايدا وحدّد طرقا مختلفة عن طرق تحليل المحتوى أو المقاربات الهرمينوطيقية التقليدية[٢]» . وقد تناول «معجم تحليل الخطاب» مفهوم تحليل الخطاب من ثلاث زوايا :

- تحليل الخطاب باعتباره دراسة للخطاب ، وخير من يمثل هذه الرؤية فان دايك الذي يرى أن تحليل الخطاب هو «دراسة الاستعمال الحقيقي للغة من قبل متكلمين حقيقيين في وضعيات حقيقيّة»[٣] .
- تحليل الخطاب باعتباره دراسة للتحادث ذلك أن الخطاب هو نشاط تفاعلي وقد ميّز كل من موشلار وآن روبول في تحليل الخطاب التّحادثي بين تيارَيْن ؛ تحليل الخطاب discourse analysis وهو يحلل النصوص التحادثية ، والتحليل التحادثي conversation analysis الذي يقوم على دراسة المحادثة في ارتباطها بالمتكلم والمتلقي .
- تحليل الخطاب باعتباره وجهة نظر خصوصيّة إلى الخطاب ، ويمثل هذا الاتجاه دعوة لعدم حصر تحليل الخطاب في التحليل اللساني أو الاجتماعي أو النفسي وإنما اعتماد هذه الفنون كلها لتحليل الخطاب .

نجد في معجم «لاروس» الكبير للسانيات وتحليل الخطاب تعريفا لسانيا خالصا

---

(١) معجم تحليل الخطاب ، ص٤٣ .

(٢) معجم تحليل الخطاب ، ص ٤٧ .

(٣) المرجع نفسه .

لتحليل الخطاب «نسمي تحليل الخطاب ذلك الجزء من اللسانيات الذي يحدد القواعد المتحكمة في إنتاج متتاليات من الجمل المهيكلة»[١] . وهذا التعريف يقصي الجانب التداولي من تحليل الخطاب ، كما أن هذا المعجم يميز أيضا بين تحليل الخطاب وتحليل المحادثة ويجعل لكل منهما تعريفا خاصا به ، فتحليل المحادثة « يدرس القوانين الخفية التي تتحكم في المحادثات والتبادلات التواصلية ، وهذه القوانين الاجتماعية والثقافية تتنوع من مجتمع إلى آخر»[٢] . وهو ما يذهب إليه كذلك «جاك موشلار» Jacques Moeschler حيث خصّص فصلا كاملا من «المعجم الموسوعي للتداولية» لبيان الخطوط الكبرى «لتحليل الخطاب» (discourse analysis) و«تحليل المحادثة» (conversation analysis) ، ويرى أن «هذين المجالين لهما بعض السمات المشتركة ولهما ميزات أخرى مختلفة»[٣] . فكل منهما يهتم بالخطاب الشفوي وبالتحديد بتحليل عملية التخاطب الطبيعي (conversation naturelle) ويعنيان بالتخاطب الطبيعي التفاعل الشفوي سواء كان بالمواجهة أو عبر وسائط أخرى كالهاتف والرسائل الإلكترونية ؛ وبذلك يكون للوضعية المقامية دور أساسي في هذا التحليل . كما أنهما (تحليل الخطاب وتحليل المحادثة) يهتمان بالقواعد التي تضمن الاتساق في صلب الخطاب أو المحادثة . وهما يحيلان معا على منطق معين للأفعال ويتمثل ذلك في تحاليل خاصة في أعمال القول .

أما المميزات التي يختلف فيها تحليل الخطاب عن تحليل المحادثة فهي ثلاثة[٤] ، وهي :

- أولا ، ميدان المرجعية (domaine de référence) : يتصل تحليل الخطاب باللسانيات الشكلية ويأخذ منها منهجها ومنحاها الابستمولوجي أما تحليل المحادثة فله أساس في علم الاجتماع ، وبالتالي فإننا أمام اللسانيات مقابل علم الاجتماع .

---

(1) Larousse Grand Dictionnaire Linguistique et sciences du Langage, P34.

(2) Op.cit,P35

(3) Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Jacques Moeschler, Anne Reboule, Analyse du discours et analyse conversationnelle, P 471, Jacques Moeschler

(4) op.cit,P 473, 474, 475.

- ثانيا ، المنهجية : ويتمثل الاختلاف في استعمال قواعد التأليف (règles de constituance) بالنسبة إلى الخطاب مقابل التنظيم التفاضلي (organisation préférencielle) بالنسبة إلى تحليل المحادثة ، وتستند القواعد التأليفية للتحليل اللساني للخطاب إلى وحدات خطابية . أما التنظيم التفاضلي الذي يضمن حسن إجراء التفاعل الشفوي فيعتمد على تقسيم الخطاب إلى مقاطع .
- ثالثا ، اختلاف إبستيمولوجي حيث يقوم تحليل الخطاب على الاستنباط وهدفه نَمْذَجة (modèliser) المحادثة ، بينما يكون تحليل المحادثة تجريبيا استقرائيا ينحو إلى التعميم انطلاقا من عديد المعطيات التي تهم المحادثة .

أما في كتابهما «تداولية الخطاب» (pragmatique du discours) فقد بيّن كل من جاك موشلار وآن روبول أنّ الإشكالية الأساسيّة التي يسعى تحليل الخطاب لحلها هي تأويل الخطاب ، وقد لخّصا ذلك في السؤال التالي «كيف يمكن أن نعطي معنى للخطاب بما هو متتالية غير اعتباطية من الجمل ؟»[1] . وللإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من النظر إلى تحليل الخطاب لا باعتباره ملخّصا لمعنى كل الجمل ولا باعتباره أيضا معنى كل جملة على حده ، لأن التحليل لا يمكن أن يكون في مستوى الجملة الواحدة ولا يختزل في مجموع معاني الجمل .

يجب أن يكون تحليل الخطاب جامعا لهذين المستويين من التحليل . وهذا ما دعا بعض اللسانيين إلى البحث عن وحدة أكبر من الجمل لتحليل الخطاب ، فإلى جانب ما هو معروف من أن الفونيم (le phonème) هو وحدة الصوتيّات أو علم الأصوات ، والمورفيم (le morphème) وحدة معجميّة ، والجملة وحدة نحويّة ، فقد رأى كل من جاك موشلار وآن روبول أنه لا بدّ من إضافة الخطاب كوحدة لتحليل الخطاب .

قد تفطّن أصحاب الدراسات الأولى لتحليل الخطاب إلى أن اعتبار الخطاب وحدة لسانية لتحليل الخطاب يتطلب النظر إليه باعتبار فرضيتين ، فرضيّة أولى وهي اعتبار الخطاب مثل المورفيم والجملة له بنية داخلية وهذه الفرضية فرضيةٌ بنيوية أساسا . والفرضية الثانية هي اعتبار الخطاب مثل الجملة يستجيب لقواعد التركيب السليم ، وهذه الفرضية مبنيّة على وجود نحو الخطاب . ويرى المؤلفان جاك موشلار

---

(1) Jacques Moeschler, Anne Reboule, Pragmatique du discours, P14, Armand Colin, Paris 1998

وآن روبول أن «المقاربتين ترتبط إحداهما بالأخرى منذ البداية ، تحليل الخطاب يتطوّر مستوحيا تطور نموذج نحو الخطاب ومتماثلا مع محاولة لاستخراج مبادئ التركيب السليم للخطاب» [١] .

يرى نورمان فيركلاف أن تحليل الخطاب باعتباره مبنيا على اللغة لا يعني أننا نختزل المجتمع في اللغة ولا يعني أن كل شيء خطاب «فما تحليل الخطاب سوى إحدى استراتيجيات عديدة في التحليل[٢]» . وهو يوافق «فان دايك» في إمكانية تقسيم تحليل الخطاب إلى معالجة تتضمن تحليلا معمقا للنص يرتكز أساسا على السمات اللسانية للنص ، ومعالجة ثانية تستند إلى النظرية الاجتماعية . ولكنه يرى أنه من غير الضروري الالتزام بأحد المنهجين ، لأن كلا منهما يكمل الآخر «فمن ناحية ، إن أي تحليل للنصوص يريد أن يكون ذا شأن من منظور التحليل العلمي الاجتماعي ، يجب أن يرتبط بالمسائل النظرية التي تخص الخطاب (مثال لتلك المسائل : النتائج «التشييدية» (constructive) الاجتماعية للخطاب) . ومن ناحية أخرى لا يمكن التوصل إلى فهم حقيقي للنتائج الاجتماعية للخطاب من دون النظر عن قرب فيما يحصل عندما يتكلم الناس أو يكتبون[٣]» . يعتبر «فاركلوف» أن تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللساني للنصوص ولا على التحليل الاجتماعي وإنما هو كما يقول «يتأرجح» بين التحليل اللساني وما يسمّيه «نطاق الخطاب» (order of discourse) وهو الممارسة الاجتماعية .

وهـــذا الاتجاه لتعريف تحليل الخطاب نجده وإن بصفة مختلفة عند براون ويُول (G. Brown & G.Yule) في كتابهما «Discourse Analysis» الذي يرتكز على أن للغة – من جهة – وظيفة نقلية نقلا فعالا ، أي يمكن أن يؤدّي إلى الفهم دون التباس ، ومن جهة أخرى لها وظيفة تفاعلية بين اثنين أو أكثر ، دون أن ينفيا وجود وظائف أخرى يمكن أن تكون للغة[٤] . كما أنهما يولّيان أهمية كبرى لموقع الإنسان

---

(1) op.cit, P14.

(٢) نورمان فاركلوف ، تحليل الخطاب ، ص ٢٠ ، ترجمة طلال وهبة ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ٢٠٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٤) محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص ٤٨ .

في عملية التواصل عند تحليل الخطاب ، فاللساني يبحث عن مجموعة من القواعد التي تفسر الجمل المقبولة نحويا ، بينما يبحث محلل الخطاب في الخطاب في حد ذاته (الشكل اللغوي) وفي السياق الذي يحتوي هذا الخطاب ، وهدفه ليس إيجاد قواعد شاملة وإنما «أن يكشف الاطّرادات في معطياته وأن يصفها [١]» .

يصبح الشكل اللغوي وسيلة من ضمن وسائل أخرى (الأطراف المشاركة ، السياق ، الرسالة المقصودة ، فهم الرسالة . . .) لتحليل الخطاب ، وتصبح اللغة عنصرا ديناميكيا فعّالا في هذا التحليل ، وبالتالي فهما («براون» و«يول») ينكران اعتماد المقاربات التي تستند إلى وصف اللغة وإيجاد القوانين المتحكمة فيها لتحليل الخطاب بمعزل عن الوظيفة التواصلية التي يعتبرانها من أولويات البحث في مجال تحليل الخطاب . وهما لا يستغنيان أيضا عن المقاربات الأخرى ، الاجتماعية والنفسية والمعرفية[٢] . وقد طرحا سؤالا في مقدمة الكتاب يلخّص رؤيتهما لتحليل الخطاب وهو : «كيف يستعمل الإنسان اللغة من أجل التواصل ، وعلى الخصوص كيف ينشئ المرسل رسائل لغوية للمتلقي وكيف يعمل المتلقي في الرسائل اللغوية بقصد تأويلها[٣]» .

نستنتج مما سبق أن تحليل الخطاب مبحث غاية في عدم الاستقرار ، وذلك لأنه يوجد في مفترق طرق العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والنفسيّة واللسانيّة ، إلى جانب ما في كل علم من هذه العلوم من تيّارات داخلية تجعل دارسي تحليل الخطاب يميلون دائما إلى تغليب جانب على آخر في كل مقاربة .

٢-٢ أهم المدارس في تحليل الخطاب

نشأت منذ نهاية الستّينات عدّة تيّارات تهتمّ بتحليل الخطاب في الدول الغربيّة وكانت غير واضحة المعالم ، ذلك أن الحدود بينها كانت ضبابية . وفي نهاية السبعينات بدأت تتشكّل اتجاهات لكل منها ما يميزه عن غيره حتى أنه يمكننا

---

(1) G. Brown and G. Yule, Discourse analysis, Cambridge University Press, 1983.

(٢) محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص٥٠ .

(٢) مقدمة كتاب :

G. Brown and G. Yule, Discourse analysis, Cambridge University Press, 1983.

الحديث عن مدارس مختلفة أخذت طريقها في الانتشار «في الثمانينات بدأت هذه «المدارس» في تكوين فروع كثيرة خارج بلدانها الأصلية» [١] . ويمكن تمييز مدرستين كبيرتين هما : المدرسة الفرنسية ، والمدرسة الأنقلوسكسونية . ولقد تجاوزت نظريات هذه المدارس حدود نشأتها وأصبحت رافدا لكثير من الباحثين في مجال تحليل الخطاب ، ومثلت أحيانا كثيرة المرجعية التي يستند إليها محلّلو الخطاب .

لكن ثمة من يرى أن في وصف هذه التيارات بالمدارس بعضَ المبالغة إذ لا يمكن أن تكون سوى توجهات (tendences) ، وذلك بالرجوع إلى مقوّمات الفكر الذي يمكن اعتباره مدرسة قائمة بذاتها .

سنحاول في هذا العنصر التعرف على المدرستين الفرنسية والأنقلوسكسونية أما المدرسة الألمانية فسنؤجل الحديث عنها إلى حين تقديم التحليل النقدي للخطاب لأنها تمثل أساسا فلسفيا لهذا الاتجاه في تحليل الخطاب .

٢-٢-١ المدرسة الفرنسية

ورد في معجم تحليل الخطاب ، وبالتحديد في الحديث المخصص للمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب ، أن عبارة «مدرسة فرنسية» علامة «تسمح بالإشارة إلى تيار تحليل الخطاب الذي ساد في فرنسا في الستّينات والسبعينات . وهذه المجموعة من الأبحاث التي برزت أواسط الستينات ، كُرّست سنة ١٩٦٩ بظهور العدد ١٣ من مجلة لغات (Langages) بعنوان «تحليل الخطاب» وبكتاب «التحليل الآلي للخطاب» (analyses automatique du discours) لـ«م . بيشو (١٩٣٨-١٩٨٣) ، وهو المؤلف الأكثر تمثيلا لهذا التيار . ولم تبق هذه الإشكالية محصورة في الإطار الفرنسي فقد فرّخت في الخارج خاصة في البلدان الناطقة بالفرنسية وبلدان اللغات الرّومنية .

كانت نواة هذه الأبحاث دراسة عن الخطاب السياسي قام بها لسانيّون ومؤرّخون بمنهجيّة تجمع بين اللسانيات البنيوية و«نظرية في الإيديولوجيا» مستلهمة في الآن

---

(1) Analyse du discours et sciences humaines et sociales,P9, L’analyse du discours en Europe, par Johannes Angermuller, Ed, Simone. Bonnafous et Malika Temmar,2007 “Dans les années 1980, ces “écoles” commencent à produire de plus en plus de branches en dehors de leurs pays d origine”.

ذاته من إعادة الفيلسوف «لوي ألتوسار» قراءة آثار كارل ماركس ومن التحليل النفسي عند جاك لاكان . وكان الأمر يتعلق بالتفكير في علاقة الإيديولوجي باللساني مع تجنب اختزال الخطاب في تحليل اللغة وإذابة الخطابي في الإيديولوجي في الوقت نفسه[1] .

تتميز المدرسة الفرنسية باعتبار العوامل الخارجية لإنتاج الخطاب مكونا من مكونات الخطاب إلى جانب المكون اللغوي ، وكل خطاب يحتوي على مجموعة من المؤشّرات وهي ليست بالضرورة من خارج اللغة (extralinguistiques) ، فهناك مؤشرات قابلة للملاحظة وهي التي تعطي شكل الخطاب وتساهم في تعريفه كخطاب ، وهذه المؤشّرات تنتمي إلى المجال اللغوي . ارتكزت المدرسة الفرنسية على خلفية إيديولوجية ماركسية نضالية . ومن أهم الأعلام الذين أثروا في توجهاتها :

لوي ألتوسار (Louis Althusser) وميشال فوكو (Michel Foucault) وبيار بورديو (Pierre Bourdieu) ، وغيرهم ، وسنقتصر على دراسة أفكار كل من ألتوسار وفوكو وبورديو لما لهم من أثر كبير في هذا التوجه في تحليل الخطاب .

٢-٢-١-١ لوي ألتوسار

ولد هذا الفيلسوف الفرنسي في الجزائر وواصل تعليمه في فرنسا . وقد كان متأثّرا بالتيار الماركسي وهذا ما جعله يؤسس سنة ١٩٦٦ «اتحاد الشباب الشيوعيين الماركسيين اللينيين» (l'Union des jeunes communistes marxistes-léninistes) .

أعاد ألتوسار قراءة أفكار ماركس «من أجل ماركس» محاولا إبراز المنحى العلمي الذي تحمله هذه النظرية فبدأ بقراءة عميقة للماركسية لكي يستخرج محتواها الفكري وذلك في مقابل التأويلات الإديولوجية للأحزاب السياسية والخضوع لإديولوجية الدولة الستالينية المنتصرة ، وهو يرى بأنه شرع في إعادة قراءة ماركس لكي يخرجه من الصدإ الذي أصابه بفعل التاريخ .

وكان الدافع الأساسي لهذه القراءة هو الرد على النزعة الإنسانية التي روّج لها بعض الماركسيين الفرنسيين مثل «جارودي» (R.Garaudy) والتي عارضها ألتوسار ورأى

---

(١) معجم تحليل الخطاب ، ص ١٩٥ .

فيها إفقارا للماركسية وتجاوزا لطابعها العلمي[١] . أما الدافع الثاني فهو شعور ألتوسار بأن الماركسيّين في فرنسا قد ابتعدوا عن العمل على تطوير النظرية الماركسّية واهتمّوا بالسياسة ، وبذلك بقيت هذه النظرية بحاجة إلى مزيد من البحث والاهتمام .

يعتبر ألتوسار من بين الباحثين الذين درسوا كذلك مؤلفات «كرامشي» (Antonio Gramcsi)[٢] وتأثروا بها ، ويظهر ذلك في صياغته لنظريته وخاصة في محاولته التفرقة بين «النظرية عموما» (une théorie en générale) وبين «نظرية الإديولوجيات الخاصة» (une théorie des idéologies particulière) التي يمكن أن تكون دينيّة أو قانونيّة أو سياسيّة . . . ولكنها تعبّر دائما عن موقف فئة معينة[٣] . ويعرّف ألتوسار الإديولوجيا بأنّها « التمثيل الخيالي لعلاقة الأشخاص بالظروف الحقيقية لوجودهم[٤]» .

يرى ألتوسار أن الإديولوجيا مرتبطة باللاوعي الفردي والجماعي وذلك من خلال علاقات الأفراد فيما بينهم ، وهذه العلاقات تتجسم في الممارسات والأجهزة فيصبح الفرد ذاتا . «إن هذه البديهيّة ، على غرار جميع البديهيّات بما فيها بداهة أن الكلمة «تعيّن شيئا» أو «تكسب دلالة» (بما في هذا إذن بديهيّات «شفافيّة اللغة») هذه البديهيّة التي بمقتضاها أنت وأنا ذاتان– وألاّ مشكل في هذا– هي أثر إيديولوجي للأثر الإيديولودي الأوّلي[٥]» .

---

(١) عمر مهيبل ، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر ، ص ١٨٠ ، ديوان المطبوعات المركزية ، الجزائر ، ١٩٩١ .

(٢) أنطونيو قرامشي (١٨٩١–١٩٣٧) ، كاتب ومنظّر سياسي إيطالي من أصول ألبانية . كان عضوا مؤسسا للحزب الشيوعي الإيطالي الذي ترأسه لفترة . ذاق مرارة الاعتقال على يد نظام الديكتاتور موسوليني . جعله ميله الثقافي يدرس مسألتي الثقافة والسلطة فكان بذلك أحد أبرز المفكرين في التيار الماركسي . ومن احتهاداته المركزية مقابلتُه المادية الجدلية بفلسفة البراكسيس .

(3) “Idéologie et appareil idéologique d’État”, in Positions, P98, Paris, ed. Sociales, 1976.

(4) “Idéologie et appareil idéologique d’État”, in Positions, P99, Paris, ?d. Sociales, 1976: “L’idéologie est une représentation du rapport imaginaire des individus à leurs conditions réelles d existence”.

(5) Louis Althusser, POSITION (1964-1975), pp 67-125, Paris, les éditions sociales, 1976.

يرى ألتوسار أن المسألة الإيديولوجية لها خاصيّة لغويّة لا يمكن أن تكون بدونها فليس هناك إديولوجيا دون لغة ، ولا بدّ أن يمرّ الوصول إلى دراسة الإيديولوجيا دراسة علمية بآليّة تكون الوسيلة الأولى والأهم لهذه الدراسة ، وهذه الآليّة هي تحليل الخطاب الذي يمكن أن نعتبره التطبيق العملي (Praxis) الذي يمكّن من التفكيك العلمي للاديولوجيا التي يعتبرها ألتوسار مخزنا عميقا لتصوّرات للعالم يمكن وصف أغلبها بالخيالي وبالابتعاد عن الحقيقة والواقع . ويمكّننا تحليل الخطاب من أخذ مسافة من هذه التصوّرات ونقدها وإخراجها من طابعها الأسطوري والمقدس في أغلب الأحيان ، وقد ساهمت نظرية ألتوسار في تطوير اللسانيات حيث بدأ الاهتمام بالضمني في الخطاب وغير المصرح به[١] .

يبرّر ألتوسار توجّهه الماركسي بأن نظريّة ماركس قد قطعت مع الإيديولوجيا البورجوازيّة المحملة بالنزعة الإنسانية وركّزت على الاقتصاد كمحرّك أساسي لكل المجتمعات وبالتالي فهو المحدد الأول للخطاب معتمدا على قولة ماركس «إن المجتمع لا يتألف من أفراد ولا ينطلق منهج التحليل من الإنسان بل من الحقبة الاقتصادية المعطاة[٢]» . ويضيف ألتوسار معلقا على قول ماركس «هل يمكننا أن نتصوّر قطيعة أكثر جلاء» . ويرى ألتوسار أن قراءته لماركس قراءة غير بريئة تحاول الكشف عن باطن الخطاب وتعطي لنفسها الحق في الخطإ وهو يرى «أنه منذ فرويد بدأنا نتّهم السمع والكلام ، وبدأنا نتساءل عن القصد منهما[٣]» .

ترى ماريان جورجانسن و لويز فيليب (Marianne Jorgensen and Louise Phillips) في كتابهما تحليل الخطاب (Discourse Analysis) أن الخطاب لا يمكن أن يرتكز على دالة وحيدة هي الاقتصاد كما ذهب إلى ذلك ألتوسار بدفاعه عن الاتجاه الماركسي ، وبجعله بقية العوامل (الاجتماعية والثقافية . . .) مجرد ظلال بسيطة لا تؤثّر تأثيرا مباشرا في الخطاب . وفي هذه الحالة علينا بالاكتفاء بدراسة الاقتصاد «لو

---

(1) Henda Dhaouadi, De la pluridisciplinarité en analyse de discours, Université de Saint-Etienne, Paris, ressources-cla.univ-fcomte.fr/gerflint/Perou2/Henda.pdf

(2) Louis Althusser : Positions Ed. Sociales Paris, p. 159-172, contact@ebn-khaldoun.com

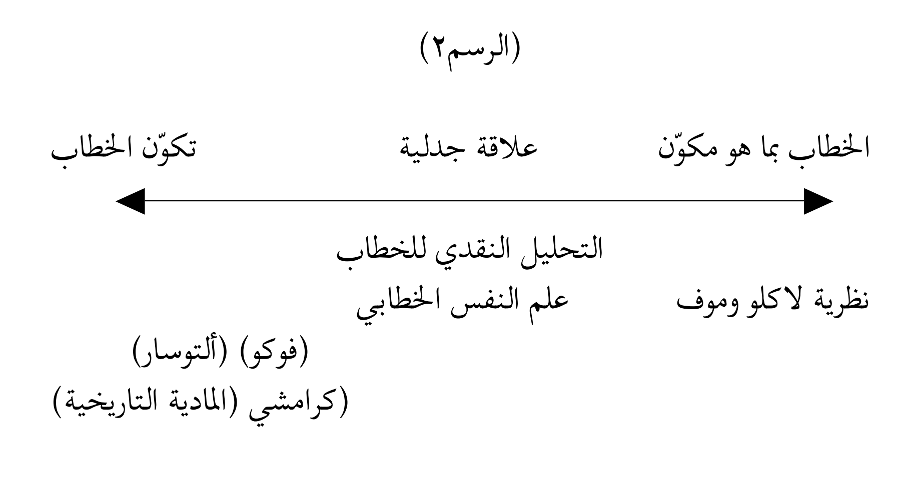
ترجمة محمد سبيلا .

(٣) http://www.anfasse.org عبد الوهاب شعلان ، لوي ألتوسار قارئا لماركس .

افترضنا مثلهم أن الخطاب ليس إلا إنتاجا ميكانيكيا لممارسات اجتماعيّة أخرى ؛ أي أن الخطاب يحدّده شيء آخر هو الاقتصاد ، فلا فائدة إذن من تحليل الخطاب ، وبدل ذلك يجب أن تنصرف الجهود إلى التحليل الاقتصادي مثلا[١]» .

وضعت الباحثتان مخطّطا [٢] يبين مدى القرب أو البعد عن العامل الاقتصادي والماديّة التاريخيّة ، وبعبارة أخرى عن بدايات نشأة الخطاب ، (على يمين المخطط) ومدى القرب أو البعد عن الخطاب باعتباره مكوّنا أساسيّا لتحليل الخطاب متجدّدا ومتنوع الأبعاد ، وعلى هذا المخطط الذي يمثل مسار تحليل الخطاب يمكن أن نلاحظ مكان كل من ألتوسار و فوكو مقارنة بـ لاكلو وموف (Laclau and Mouff) .

(الرسم٢)



دور الخطاب في تكوّن العالم

لقد أراد ألتوسار أن يؤكد على أن التاريخ كامن في المفهوم لا في الإنسان ، وذلك

(1) Marianne Jorgensen and Louise Phillips, Discourse Analysis as theory and Method, p 19, If one claims, as they do, that discourse is just a mechanical reproduction of other social practices - that is, discourse is fully determined by something else such as the economy - then there is no point in doing discourse analysis; instead, effort should be invested in economic analysis, for example.

(2) op.cit, P20.

بتخليص فكر ماركس من أوهام الإيديولوجيا ؛ وهذا ما يرى فيه بعض الباحثين تجميدا للفكر الماركسي وتكبيلا له أمام ما يمكن أن ينفتح عليه من أفكار أخرى تُطوّره . وعندما جعل ألتوسار التاريخ يتحقّق خارج إرادة الناس فقد جعلهم بذلك «ينقلبون مجرد حوامل لعلاقات الإنتاج ، وتُمسي الأخلاق والممارسة بصورة أعم خالين من أي معنى[1]» .

٢-٢-١-٢ ميشيل فوكو

الأساس الفلسفي الثاني لتحليل الخطاب يمثله ميشال فوكو (Michel Foucault) . ويظهر ذلك خاصة في كتابه (L'archéologie du savoir) . وقد كان «فوكو» أستاذا في الفلسفة ثم اختصّ بعلم النفس ودرسه في جامعة «ليل» ((Lille سنة ١٩٥٢ ثم في جامعة «كليرمون فرّان»(Clermont-Ferrand) سنة ١٩٦٢, وقد درّس بتونس الفلسفة وذلك سنة ١٩٦٦ ، وهي سنة إصدار كتابه (Les mots et les choses) .

يقول فوكو في كتابه (Dits et écrits) واصفا ما ينبغي أن يكون عليه الجامعي المثقف : «أن تكون في نفس الوقت جامعيّا ومثقّفا يعني أن تحاول تطبيق نوع معين من المعرفة وتحليل ما يقع تدريسه وتلقّيه في الجامعة بكيفية تجعلك لا تغير فقط تفكير الآخرين وإنما تفكيرك أنت أيضا[2]»

أعطى فوكو للإنسان في دراساته أهمية لم تكن له من قبل بحسب رأيه وهو يوضح ذلك بأنه إلى غاية القرن التاسع عشر ظلّ الإنسان على هامش الدراسات الفكرية ولم يتَّخذ موضوعا للمعرفة حيث لم تتوفّر إلى ذلك الوقت الشروط التاريخية لذلك ، وهو يدعم رأيه حين يتحدث عن غياب الاهتمام بالإنسان في الفلسفة

---

(١) روجي جارودي ، ماركسية القرن العشرين ، ص ٢٤٨ ، تعريب نزار الحكيم ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٨ .

(2) Pierre Bilouet, Foucault, Les belles lettres, P12, 1999, Paris." Etre à la fois un universitaire et un intellectuel, c'est essayer de faire jouer un type de savoir et d'analyse qui est enseigné et reçu dans l'université de façon à modifier non seulement la pensée des autres, mais aussi la sienne propre."

والعلوم والخيارات السياسية والثقافية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بقوله إن «الإنسان لم يكن موجودا آنذاك (ولا الحياة ولا اللغة ولا العمل)[١]» .

يفسر فوكو غياب الإنسان من مجالات المعرفة في الفترات السابقة للقرن التاسع عشر بعلاقة الفكر بالتاريخ وذلك أن التاريخ كان بالنسبة إلى الإنسان أحداثا تسير في خط مستقيم يحدّد فيها السابق اللاحق ولا تحيد عن هذا المسار المرسوم ، ولذلك كان الإنسان خارج منظومة الفكر وحركيّة التاريخ في حين أن هذا التاريخ يمكن أن يتخذ مسارات عديدة لا تتحكم فيها قوى خارجة عنه وإنما تحدّده صراعاته الداخلية . ولذلك يرى فوكو أن التأريخ للوجود البشري لا بد أن ينطلق من شروطه وبالتالي يسمح بإمكانية البحث عن سيكولوجية تاريخيّة ضمن هذا الوجود[٢] . وقد استفاد مما توصل إليه ديكارت وكانط ، فديكارت يرى أن البداهة التي عوضت الزهد (الذي كان من أساسيات بلوغ المعرفة والنفاذ إلى الحقيقة زمن السلطة المطلقة للكنيسة) في معرفة الحقيقة هي التي تجعل الذات قادرة على التعرف على أي شيء بديهي وهي التي تحدد نقطة التقاء الذات بالآخرين وبالعالم ، وبذلك تخلى ديكارت عن الأخلاق لفائدة العقل .

أما كانط فيقترح في كتابه «نقد العقل العملي» إيجاد ذات كونية للمعرفة تمتثل لكل ما هو كوني بما في ذلك الأخلاق . ينقل فوكو عن كانط قوله –وذلك في حوار له ضمن كتاب « ميشال فوكو : مسار فلسفي»– : «يجب أن أتعرّف على نفسي باعتبارها ذاتا كونيّة ، وذلك عن طريق امتثالي للقواعد الكونيّة» ويعلّق فوكو على ذلك بقوله : «هكذا أدخل كانط طريقا جديدة إضافية في تقليدنا ، وبفضله لم تعد الأنا (le soi) معطاة فقط ، بل مبنية في علاقة بنفسها كذات»[٣] .

مثلما بحث كانط في أولويّة استقلال التجربة عن المعرفة العلميّة وحركة الفكر والسياسة فقد بحث فوكو في الأولوية التاريخية للمعرفة والسلطة ، وهذا ما جعله

---

(١) ميشال فوكو ، الكلمات والأشياء ، ص ٢٨٣ ، الأعمال الكاملة لميشال فوكو ، ترجمة جماعية تحت إشراف مطاع الصفدي ، بيروت ، مركز الإنماء القومي ، ١٩٩٠ .

(٢) مجلة بيت الحكمة ، ص ١٠٠ ، ضمن حوار بين فوكو وهوبير دريفوس وبول رابيناو ، ترجمة محمد بولعيش ، العدد الأول ، السنة الأولى ، أفريل ١٩٨٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .

يستعمل عبارة «وصف الأرشيف» (la description de l archive) التي أخذت بعد ذلك مفهوما يتماشى مع تطور نظريّته . ولكن التأثّر لم يمنع فوكو من مناقشة أفكار كانط ، ويظهر ذلك في نقده لمقال كانط الموسوم بـ«(Qu est ce que les lumières) ليبيّن أن فكره ليس تواصلا لفكر من سبقوه وإنما هو تجديدٌ فيه التواصل وفيه القطيعة أحيانا كثيرة»[١] .

من هذا المنطلق تغيّرت نظرة فوكو للإنسان وللتاريخ ، وهو يرى أن الإنسان كان ميتا – بالمفهوم النيتشوي– من حيث إنه شرط لازم لنشأة المعرفة . وقد تغير ذلك بحلول القرن التاسع عشر ومعه انتشار الحداثة والقطيعة الجذرية مع أنماط التفكير السابقة . وقد استفاد فوكو من نيتشة خاصة خلال صياغته لمفهوم «الجينيالوجيا» (Généalogie) حيث أراد فوكو أن يؤسّس لجينيالوجيا الفكر والتقاليد والمؤسسات الجديدة والمدارس والسجون والزواج والمستشفيات والمعامل[٢] . وقد صرّح فوكو لاحقا بأنه حين يصوغ أفكاره فهو في نقاش دائم مع أفكار نيتشة وهيدغر [٣] .

تغيرت النظرة للتاريخ فأصبح خطابا يعيد المؤرّخ بناءه ويخضع للواقع ويرتبط بالحاجات النفسية للإنسان للربط مع الماضي ووصل اهتمامات حاضره وتطلعاته لمستقبله بتراثه وماضيه . وقد أجاب فوكو عن سؤال «من هم المفكرون والعلماء والفلاسفة الذين أثّروا فيك وطبعوا تكوينك الفكري؟» بقوله : «إنني أنتمي إلى جيل من الناس كان أفق تفكيرهم محدّدا من طرف هوسرل وسارتر وميرلو بونتي . . .ومن الواضح أن هذا الأفق عرف انقلابا بالنسبة إلينا . . . ووجدنا أنفسنا أمام ما يشبه الفضاء الواسع الخالي الذي صارت الخطوات داخله أقل طموحا بكثير ، وأكثر تحديدا وأكثر محلية . ومن الواضح أن اللسانيات ، كما مارسها جاكبسون ، أو تاريخا للديانات أو للأساطير على طريقة دوميزيل ، قد شكلت دعائم ثمينة جدا بالنسبة إلينا» [٤] . ومثلت الماركسية الخلفية الأساسية لهذا الانقلاب في الفكر وذلك مع محاولة مجموعة من المثقفين الشيوعيين إعادة الاعتبار للمفاهيم التي طرحها ماركس

---

(1) Pierre Bilouet, Foucault, Les belles lettres, P13, 1999, Paris- .

(2) op.cit, P13, 1999, Paris.

(3) Michel Foucault, Dits et Ecrits IV, P 780.

(٤) مجلة بيت الحكمة ، ص ٢٣ ، أفريل ١٩٨٦ .

وتحليلها من جديد لخدمة الفكر في ذلك الوقت .

كان لـ« ألتوسار» دور كبير في توجيه فوكو إلى أفكار ماركس ؛ فقد كان ألتوسّار يشرف على طلبة التبريز في ترشيح المعلمين وكان من ضمنهم فوكو فتشبّعوا من خلاله بالفكر النضالي[١] . هذا إلى جانب ما ساد في مطلع القرن التاسع عشر من مباحث اهتمّت باللغات الإنسانية وحاولت البحث عما يمكن أن يكون من ثوابت التفكير ، فتطور النحو المقارن ووصل إلى تعالقات منطقية أقصت الإنسان من جديد ودعت فوكو إلى التفكير في خطورة هذا الإقصاء . وكان لفظ «أركيولوجيا « في البداية يدل على نمط من التحليل للخطاب الموروث أو كما يسمّيه هو «الأرشيف» يختلف من جهة عن التاريخ باعتباره رواية للأحداث ومن جهة أخرى عن الابستيمولوجيا باعتبارها تحليلا داخليا لبنية العلوم . وهكذا بدأ مفهوم الأركيولوجيا يتضح ليدل على منهج يقوم على «وصف الأرشيف ، وليس أبدا اكتشافه بداية ، أو الكشف في واضحة النهار عن عظام رميمة» وذلك بحسب تعبير فوكو في كتابه «Dits et écrits»[٢] .

أما في كتابه «حفريات المعرفة»[٣] (archéologie du savoir 1969) فيرى فوكو أن الأرشيف هو تلك الخطابات التي تلفّظ بها أصحابها فعلا في ثقافة معينة ، وهي ليست مجرد وثائق لتسجيل الماضي أو نصوص صالحة لدراسة فكر من كتبوها وإنما هي بالخصوص إلى جانب كل ذلك «هذه الكتلة المعقّدة مما قيل فعلا ، وقد انتظمت في شكل منظومة خطابية عامة –داخل حقل الممارسات الخطابية لبني البشر– في تهيؤ ما يمكن لهؤلاء وما لا يمكنهم قوله»[٤] . وبالتالي فإن هذا الخطاب حي فاعل في حاضر الممارسة الخطابية في شكل قواعد موضوعيّة وتاريخيّة قبليّة تؤثّر في كلّ إنتاج للخطاب وتحدّد راهنه ومستقبله . وبذلك ابتعد هذا المنهج عن التوجّه المنطقي في التحليل الذي يعتمد الحكم بالصدق أو الكذب واستفاد كذلك من اللسانيات ليكون

---

(1) Pierre Bilouet, Foucault, Les belles lettres, P15, 1999, Paris.

(٢) عبد السلام حيمر ، في سوسيولوجيا الخطاب ، ص ١٧٩ .

(٣) ميشيل فوكو ، حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط ٢ ، ١٩٨٧ .

(٤) عبد السلام حيمر ، في سوسيولوجيا الخطاب ، ص١٨١ .

منهجا تاريخيا اجتماعيا يراعي الابستيمولوجيا التي نشأ في ظلّها الخطاب في ارتباطها بالشروط التاريخية لإنتاج هذا الخطاب . وبهذا يكون تحليل الخطاب عند فوكو تحليلا لأقوال حقيقية .

يعتبر نورمان فيركلاو «أن تحليل الخطاب عند فوكو هو تحليل مجال «الأقوال الخبرية» أي النصوص والمقولات باعتبارها عناصر مكونة للنصوص . لكن ذلك لا يعني الاهتمام بتحليل تفصيلي للنصوص إنما بالقواعد التي تحكم مجموعات من النصوص والمقولات» وهو يوضّح رأيه بأن فوكو استعمل لفظ خطاب بشكل مجرد للدلالة على الأقوال الخبرية واستعمل نفس اللفظ ليدلّ على محسوس وهو القول الممارس في نطاق ثقافة معينة ومجموع القواعد التي تتحكم في هذا القول [١] . ولقد اهتمّت هذه المقاربة الاجتماعية اللسانية للخطاب التي نشأت في فرنسا بتحليل الخطاب الاجتماعي وبالخصوص الخطاب السياسي الذي يمكن دراسته بأدوات علم الاجتماع وبالمقاربة اللسانية مع اعتبار دلالة الملفوظ في سياقه .

قد انطلق فوكو أساسا من فرضيتين : الأولى أن تاريخ الأفكار كان إلى ذلك الوقت متعاليا على المعرفة ؛ والثانية أن السلطة هي التي تحتكر الحقيقة ، ولذلك من الواجب دراسة خطاب السلطة لكشف المضمر ومعرفة الحقيقة الغائبة عن المجتمع المراقَب ، وهو خطاب يصبح بمرور الوقت خارج دائرة النقد أو التشكيك أو التحليل ، بل يصبح هو الحقيقة الوحيدة الشرعية ويتعالى بذلك على كل ضروب المعرفة .

رغم أن فوكو قد شارك ألتوسار في الاهتمام بالابستيمولوجيا إلا أنه أعطى التاريخ أهمية كبرى ، فارتكز بحثه على إيجاد وبناء تاريخ للفكر . وقد عالج الصلة بين الفكر الاستدلالي والممارسات الاجتماعيّة وهو يؤكّد وجوب دراسة الفكر من خلال أثر الحقيقة الذي ينتجه الخطاب ("l'effet de vérité" produit par le discours) .

وربط فوكو بين الخطاب أو مجموعات الأقوال (Les groupes d'énoncés) التي عمل عليها مع مجالات أخرى من خارج اللغة وهي تضم مسائل متنوّعة (اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة . . .)[٢] .

---

(١) نورمان فيركلاف ، تحليل الخطاب ، التحليل النصي في البحث الاجتماعي ، ص ٢٣٤ .

(2) Henda Dhaouadi, De la pluridisciplinarité en analyse de discours, Université de Saint-Etienne, Paris, ressources-cla.univ-fcomte.fr/gerflint/Perou2/Henda.pdf

لذلك فإن الأقوال ، ومن خلالها الألفاظ ، لا يمكن أن تكون لها فقط إحالة على أشياء أو أن تكون مجرد رموز وعلامات تحقق الإحالة بمفردها أو بعلاقات لغوية تربطها ببعضها (وهنا تكمن إضافته إلى ما استفاده من التيار البنيوي) ، بل يجب أن تكون لها إحالة أعم وأوسع قد تكون مثلا «قوانين الإمكانيّة» (Laws of possibility)[(١)] ويعتبر «دافيد هاريس» (David Harris) أن فوكو يحكم على الخطاب بانتمائه أو عدم انتمائه للعلوم بقدر قربه من «الملموسيّة» (Positivity)[(٢)] أو بعده عنها ، وبقدر هذا القرب أو البعد عن «الملموسيّة» أيضا يدخل الخطاب مجالات أخرى غير العلوم ، كما أن الخطاب الواحد يمكن أن تتقاسمه عدة علوم يصعب الفصل بينها أحيانا . وقد حاول دافيد هاريس تمييز هذه العلوم في المخطّط التالي[(٣)] الذي عَنْونه بـ«بنية المعارف وأشكالها» structures and forms of knowledge ، مع اعترافه بوجود حقول أخرى تستعصي على التمثيل مثل الأقوال التي يصعب فصلها عن الخطاب (الرسم٣) :

(1) David Harris, Teaching Yourself Social Theory, P186-187, SAGE Publications, London, Thousand Oaks, New Delhi, First published 2003.

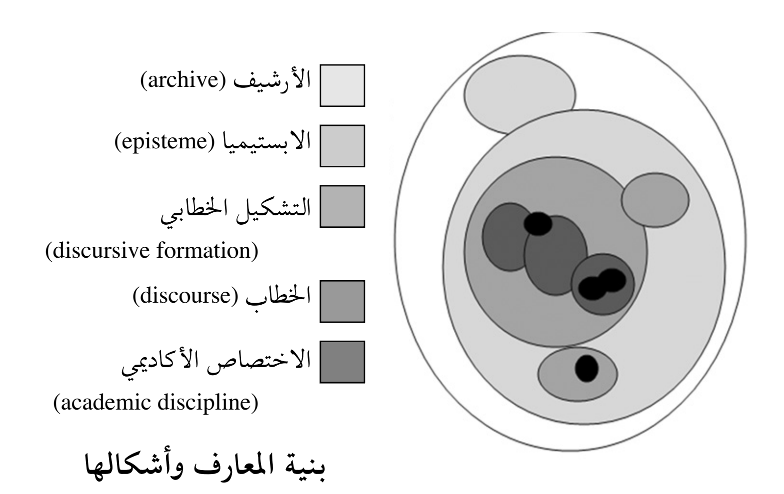
(٢) ترجمنا المصطلح إلى «الملموسيّة» وهي ترجمة تقريبية نظرا لتداخل ثلاثة معان نوردها كالآتي : «ثمة مصطلح يظهر فجأة في نهايات كتاب فوكو ؛ إنه مصطلح «الملموسية» ، وكذلك مصطلح «تشكيلات الملموسية» : يبدو أن لمصطلح الملموسية .

أ – معنى عام يحيل على ما نجعله وضعياً أو ملموساً ، شيء يكون نتيجةَ استراتيجيةٍ أو ممارسة .

ب– يستعمل فوكو هذا المصطلح أيضاً بمعنىً يلامس النزعة الوضعية ، وذلك من أجل تفنيد كل مستوى متعال من التحليل («لتطور الإنسان» ، مثلاً) متطلّبٍ لشرح انبثاق خطابات موضوعاته . وبهذا المعنى فكل موضوع ملموسٍ أكثرَ من أرشيفٍ ما يُعَدّ ملموسية .

ج– استُعمل المصطلح أيضاً (. . .) لشرح الفرق بين العلم والإيديولوجيا : فعلى العموم ، ينبغي للمباحث المعرفية أن تمرّ بعدد من المراحل ، أو أن تتجاوز عدداً من العتبات ، وهو ما ينطوي أساساً على قدر متزايد من الصَّوْرَنَةِ والتشفير والتجريد . وبهذه الطريقة تُحقِّق ضرباً مخصوصاً من الملموسية ، أي أنها تغدو علوماً» (ص . ١٨٦) من كتاب : Teaching Yourself Social Theory

(3) David Harris, Teaching Yourself Social Theory, p186, SAGE Publications, London Thousand Oaks New Delhi, First published 2003.



بنية المعارف وأشكالها

يجدر بنا الإشارة إلى أن فوكو حين أنزل الخطاب من عليائه ليجعله قابلا للتحليل وخاضعا لإكراهات التاريخ قد جعل منه جهازا معرفيا «مخاتلا فهو يوهم باستقلاله النسبي وحضوره الراسخ وحقيقته المطلقة نظرا لامتلاكه شروطا بنيوية ذاتية ومكونات مادية متميزة عن غيرها ، ويمنح توافر هذه الشروط الخطاب خصوصية في التداول ووجودا في الزمن وحضورا في الوعي . . .وإضافة إلى ذلك يستدعي الخطاب المؤسّسة التي تتبنّاه وتروّجه»[١] . وقد تمكن فوكو من دراسة خطاب الجنون الذي كان يعتبر انحرافا ولا يجب أن يدخل في ثقافة المجتمع ، فهو خطاب مرفوض . إلا أن فوكو رأى فيه مجالا يمكّن المجتمعات من التعرف على ذاتها في تلك الصورة المقصية والمرفوضة رغم وجودها حقيقة اجتماعية لا جدال فيها ؛ وقد اعتمد فوكو على معادلة تقول «إن البنية = اللاشعور = الرمز = النموذج = اللغة . وقد تركزت هذه السلسلة المتعاقبة من المتساويات الدلالية حول هوية أساسية هي أن البنية = الثقافة[٢]» ، أي إن البنية تساوي الثقافة .

لذلك دعا فوكو إلى عدم قبول الأشكال المسبقة الجاهزة والوقوف منها موقف

---

(١) هيثم سرحان ، خطاب الجنس ، مقاربات في الأدب العربي القديم ، ص ٢٧ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط١ ، ٢٠١٠ .

(٢) محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة ، دراسة في نقد النقد ، ص ٣٥ ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠٣ .

النقد والتساؤل لأنها تكون دوما نتيجة بناء لا بد من تفكيك عناصره والتعرف على شروط بنائه ومدى احتوائه على قواعد الاستدلال والبرهنة . وهو لا يدعو إلى مقاطعة هذه الأشكال الجاهزة ورفضها ، وإنما يدعو إلى إعمال العقل والتسلّح بالنقد وهما لبّ نظريّته في تحليل الخطاب .

لتأكيد ما ذهبنا إليه نورد ما قاله فوكو في كتابه «حفريات المعرفة» (L'Archéologie du savoir) ليبين دور محلل الخطاب «فنحن لسنا أمام موضوعات أو مفاهيم أو صيغ عبارية جديدة تنضاف بكيفية خطية واستمرارية للموضوعات والمفاهيم والصيغ القديمة ، بل أمام موضوعات من مستوى آخر (أعم أو أخص) ومفاهيم ذات بنية مغايرة ، وحقل انطباق مخالف وعبارات من نمط جديد ، دون أن تتغير مع ذلك قواعد التكون[١]» .

إن كل مقاربة لتحليل الخطاب لا توفّر لنا فقط طريقة لتحليل المعلومات ولكنها تمثّل مجموعة متكاملة عناصرُها أجزاء نظرية ومنهجية . ويمكن أن نلخّص محتوى هذه المجموعة في المكونات التالية : أولا ، الخلفيات الفلسفية (أنطولوجية وفلسفية) وتهم دور اللغة في البناء الاجتماعي للعالم . ثانيا ، النماذج النظرية . وثالثا ، الموجّهات المنهجيّة لميدان البحث . رابعا ، التقنيات الخاصة بالتحليل داخل الخطاب .[٢] وهذا ما يجعلنا نستنتج أن الباحث في تحليل الخطاب لا بد أن يقبل المقدّمات ذات الأساس الفلسفي مع اختياره للنظرية والمنهجيّة ويكون هذا المثلث بقاعدته الفلسفية وبضلعيْه النظري والمنهجي البوّابة نحو دخول عالم تحليل الخطاب .

٢-٢-١-٣ مقاربات فرنسية في تحليل الخطاب

رغم أن المدرسة الفرنسية قد انطلقت من أفكار ألتوسار وأعمال فوكو ، فإن تحليل الخطاب السياسي قد اتخذ طرقا متعددة وذلك بتعدد الغايات[٣] . وهكذا نجد المقاربة

(١) ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، ص ١٤٣ ، ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، ١٩٨٧ .

(2) Discourse Analysis, as Theory and Method, P15, Marianne Jørgensen and Louise Phillips, SAGE Publications, London, Thousand Oaks, New Delhi, 2002

(3) Les textes de méthodologie, Alpha Ousmane BARRY,. http://www.chaire-med.ca/

التي يغلب عليها طابع التحليل المعجمي باعتبار أن الخطاب كلمات . وتنطلق هذه المقاربة من العلاقة بين الوحدات المعجمية والتوجّهات السياسية ، وهي تستعين بالحساب [الإحصاء] المعجمي (Lexicométrie) وبالتحليل الأوتوماتيكي للمعلومات (الحوسبة) إلى جانب التحليل السيميائي والعلاقات الدلاليّة بين الوحدات المعجمية ويمثّل هذا الاتجــاه منغنو (D. Maingueneau1976) في كــتــابه «Initiation aux méthodes de l'analyse de discours» . ولكن هذا التوجه في تحليل الخطاب كان محدودا ولم يلق رواجا كبيرا لأنه اعتمد البنيوية التي أصبحت في ذلك الوقت عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات تحليل الخطاب .

هناك المقاربة التركيبية لتحليل الخطاب (l'approche syntaxique) وهي تهتمّ خاصة بكيفيّة تعالق الوحدات اللغوية بعضها ببعض ، وتدرس هذا التعالق من منظور لغوي لتستدل به على المعنى . وهذا الاتجاه يوظف ما توصّل إليه هاريس في بحوثه التي تغلب عليها التوزيعية .

أما المقاربة الآلية لتحليل الخطاب (l'analyse automatique du discours) فهي تعتمد على تخزين الخطابات في شكل قاعدة بيانات في الحاسوب ثم يقع تحليل هذه البيانات وفق تواتر مصطلحات معيّنة تحيل على اتجاه إيديولوجي دون آخر . وقد بدأ هذه المقاربة ميشيل بيشو (Michel Pêcheux,1969) ، -الذي يمكن اعتباره مواصلة لتوجه ألتوسار- ثم تطورت وازداد الاهتمام بها بتطور المعلوماتية . ويعتمد مقترح بيشو «في الآن نفسه على إجراءات الإعلامية الآلية (automatisées) وعلى لسانيات ز .س . هاريس وعلى نظرية كليّة للتأويل التي تجمع بين اللسانيات والتحليل النفسي والمادية التاريخية . ويندّد م .بيشو بأوهام المتكلم (وأوهام علم الدلالة التي تضاعف منها إذ يعتبر أن النص يخبر بمعنى يستطيع القارئ أن يستخرجه انطلاقا من التوليفات المتحكمة في كلمات وجمل هذا النص مفردا) وتحليل الخطاب يسمح على العكس من ذلك ، بأن نقول بأن المعنى تابع للتشكل الخطابي الذي ينتمي إليه النص[(١)]» .

لم تكن هذه التوجّهات حكرا على المدرسة الفرنسية وإنما نجد لها آثارا في المدارس الأوروبية الأخرى أو في أمريكا ، ولم تستمر هيمنة الاهتمام بتحليل

---

(١) معجم تحليل الخطاب ، ص ، ٣٩ .

الوحدات المعجميّة بشتّى طرقه بل طفا على سطح الدراسات التي تناولت تحليل الخطاب ، التحليلُ الاجتماعي اللساني (la sociolinguistique) وحقّقت هذه المقاربة شبه قطيعة مع المقاربة السابقة (تحليل الوحدات المعجمية معزولة) .

أصبح الاهتمام بالمعنى من خلال دراسة الأقوال العادية في المجتمع من حيث كونها أنشطة اجتماعية مهيكلة ، وهي بذلك تمثل موضوع الدراسة . على أن هذا لا ينفي ما نلاحظه من تأثّر فوكو بالبنيوية في تحليل الخطاب والتي يرى أنها تساعد كثيرا في تحليل الأرشيف وتفكيك أجزائه بعيدا عن الموجّهات الإيديولوجية التي تحد من عمل الفكر وتصادر الحقيقة ، ولكنه ينتقد الطريقة الميكانيكيّة التي يعالج بها البنيويون الخطاب للكشف عن مجموع العلاقات بين بنى متماثلة أو مختلفة ، وهو يرى أن البنيوية يجب أن تفهم على أنها توجّه في التفكير منفتح على بقية حقول المعرفة لتتمكن من الكشف عن الغامض والمسكوت عنه في الخطاب .

نستنتج مما سبق أن الدراسات المعرفية بفرنسا عرفت ظهور اتجاهات عديدة في تحليل الخطاب ، وكانت جلها تصب في نوع من القطيعة مع ما سبقها من دراسات قبل الستينات حيث لم يكن تحليل الخطاب مبحثا قائما بذاته ، حتى أن الخطاب في ذاته لم تكن حدوده كمفهوم واضحة المعالم . وقد استفادت في ذلك من التراكمات المعرفية والاتجاهات الفلسفية التي أرسى أسسها ألتوسار وفوكو وبورديو الذين أحدثت أعمالهم نقلة نوعية في ميدان تحليل الخطاب وفي اللسانيات بصفة عامة ، كما أن التطوّر التكنولوجي ووجود المختبرات الآلية (مثل مختبر التحليل الآلي للخطاب بسان كلو ، Laboratoire de l’analyse du discours politique de Saint-Cloud) ساهم في تعداد الألفاظ والدلالات لتحليلها وفق منهج التحليل الآلي للخطاب .

يضاف إلى هذا اهتمام بعض الباحثين بتحليل الخطاب السياسي اعتمادا على مبادئ الماركسية ، وتوظيف آخرين ما توصّل إليه التيار البنيوي . ونتيجة هذه الأبحاث المتنوعة أصبح الخطابُ في حدّ ذاته في ظروفه التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بقطع النظر عن التوجهات الايديولوجية التي كانت تتحكم فيه ، موضوعَ تحليل الخطاب .

٢-٢-٢ المدرسة الأنقلوسكسونية

تأثر الاتجاه الأنقلوسكسوني في تحليل الخطاب بالبحوث البراقماتية التي انتشرت في أمريكا ، وكذلك ببعض الاتجاهات الفلسفية التحليلية الانقليزية[١] ، كما استلهم التطور الذي عرفته البحوث اللسانية وذلك منذ أعمال ز . هاريس ضمن الاتجاه التوزيعي الذي تجاوز تحليله الجملة .

سنحاول أن ننظر في تحليل الخطاب في هذه المدرسة من خلال دراسة أهم التيارات اللسانية التي كونت مرتكزا له ووجهت أعمال الباحثين فيه ، وهي -خاصة- التيار التداولي والتيار البنيوي واللسانيات الوظيفية النسقية . وسنحاول تتبع مدى إفادة علماء هذه المدرسة من أعمال سابقيهم ومواقفهم من مختلف التيارات اللسانية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، والتعرف على ما أضافته إلى ساحة الدراسات اللسانية وخاصة دراسة تحليل الخطاب .

٢-٢-٢-١ المدرسة الانقلوسكسونية والتيّار التداولي

ورد في القاموس الموسوعي للتداولية التعريف التالي للتداولية : «وعلى وجه العموم تعرف التداولية بأنها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدا اللسانيات . وإذا تحدثنا عن استعمال اللغة فلأن هذا الاستعمال ليس محايدا ، من حيث تأثيراته ، في عمليّة التواصل ولا في النظام اللغوي في حد ذاته . فمن نافل القول ، فعلا ، أن نشير إلى أن بعض الكلمات (المشيرات الدالّة على الزمان أو المكان أو الأشخاص من قبيل الآن وهنا و أنا) لا يمكن تأويلها إلا في سياق قولها . وأقل سذاجة أن نذكر بأننا ، عند التبادل اللغوي ، نبلّغ من المعاني أكثر مما تدل عليه الكلمات . وليس من الساذج أن نقول أخيرا إن استعمال الأشكال اللغوية ينتج عنه بالمقابل إدراجٌ للاستعمال في النظام نفسه . فمعنى القول يقوم على شرح لظروف الاستعمال أي لأداء ذلك القول[٢]» . إن الغرض من إيراد هذا التعريف كاملا هو

(1) Analyse du discours et sciences humaines et sociales, P10, L'analyse du discours en Europe, par Johannes Angermuller, Ed, Simone. Bonnafous et Malika Temmar, 2007.

(٢) جاك موشلار وآن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، المقدمة ، التداولية واللسان والعرفان ، ص ٢١ ، ترجمة شكري المبخوت .

الوقوف على مفهوم التداولية وعلاقتها باللسانيات وكذلك صعوبة حذف جزء منه لاتصال المعنى وامتداده على كامل هذا التعريف . وهو يبرز أن الهدف من الاستعمال اللغوي ليس مجرد تحقيق المنطوق ، وإنما هو حدث اجتماعي يخضع لظروفه الخاصّة ، لأن الأساس هو العلاقة بين المعنى والفعل والاستعمال اللغوي المتّسم بعدم الحياد . فوراء الكلمات المنطوقة معان يقصدها المتكلم في نطاق مجال ثقافي واجتماعي معين . وهو يحدث لدى المتلقي تأثيرا وفقا للسياق ولطبيعة المقصود . ويمكن أن يكون التأثير ماديا كالاستجابة لنشاط معين ، أو معنويا كالرفض والقبول وغيرهما . كما أن التبادل اللغوي يمكن أن يجعل للكلمة معنى يفوق ما تدل عليه معجميا وذلك لارتباطها بطريقة التلفظ في حد ذاتها .

استند هذا المفهوم إلى أعمال فلاسفة أمريكيين وخاصة محاضرات وليام جايمس في جامعة هارفارد سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين ، وكذلك إلى أعمال أوستين الذي تمكن من إرساء أسس نظرية الأعمال اللغوية التي أصبحت بعد ذلك المحور الأساسي في التداولية .

يمكن تمييز مرحلتين في هذه النظريّة كان لهما التأثير المباشر في تحليل الخطاب وهما : المرحلة الأولى ، وتتمثل في التفريق بين الإثباتات التي تكون عملا وبين الإثباتات التي تصف الواقع . أما المرحلة الثانية فقد بيّن فيها أوستين أن الأعمال التي تصف الواقع هي في الحقيقة حالات خاصة من الإثباتات التي تكوّن أعمالا . غير أن الحدود بين هاتين المرحلتين غير واضحة زمنيا تمام الوضوح ، ومردّ ذلك إلى محاولة الباحثين استقراء النص المؤسس الذي كتبه أوستين (أوستين ١٩٦٢) : «How to do things with words» [1] . ومن خلال تحديد أوستين لثلاث خصائص للفعل اللغوي نميز مدى ترابط هذا الفعل مع الخطاب ؛ فأوستين يرى أنه :

«- فعل دال .

- فعل إنجازي ، أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات .

---

(1) Jacques Meoshler - Anne Reboule, Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, p53, E. du Seuil, Paris, 1994.

– فعل تأثيري ، أي يترك آثارا معينة في الواقع ، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا»[١] .

فتحت هذه البحوث آفاقا أمام البحوث التداولية وخاصة أمام تحليل الخطاب ، وذلك عندما أضافت إلى اللغة وظيفة أخرى غير الوظيفة الوصفية وهي الوظيفة العمليّة أي تحقيق أعمال هي الأعمال اللغوية ، وباهتمامها أيضا بالأعمال اللغوية وغير اللغوية المكوّنة للخطاب . وأمام هذا التشابك بين هذه المجالات (التداولية ، تحليل الخطاب ، العلوم الاجتماعية المختلفة) ذهب بعض الباحثين إلى تحليل الخطاب باعتباره فرعا من التداولية ؛ وهذا الأمر لا يستقيم والحال أن تحليل الخطاب استمد مصادره من التداولية والعلوم الاجتماعية وكذلك من اللسانيات البنيوية التي مثلت رافدا مهمّا للمدرسة الأنقلوسكسونية ، ومرد هذا التداخل يعود إلى الاتجاه الذي بدأ يسود بفعل تطوّر مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال ويتمثّل في رفع الحواجز بين ميادين الدراسة .

ساهمت ثورة الحاسوب في تغيير المفاهيم والممارسات في حقول اللغة وبرزت المعالجة الآلية التي مكنت الدارسين من استغلال كل ما يوجد من بحوث تخصّ مجال اللغة للبحث في قضايا لسانيّة نحويّة وتداوليّة وخطابيّة وتطوّرت هذه الدراسات في ظلّ نظرة توليفيّة حطّمت الحدود الصارمة التي كانت مرسومة بين التخصّصات المعرفية . وهذا ما يجعلنا اليوم نقف حائرين أمام تصنيف بعض معايير البحث ، فإلى أي مجال يمكن أن ننسب معيار الاتساق أو معيار الملاءمة أو المنطق؟ هل هذه المعايير هي أقرب إلى حقل التداولية أم إلى حقل تحليل الخطاب أم إلى غيرها من الحقول المعرفية الأخرى؟

٢-٢-٢-٢ المدرسة الانقلوسكسونية والاتجاه البنيوي

أفاد تحليل الخطاب في المدرسة الأنقلوسكسونية من التداولية وأفاد كذلك من التيار البنيوي وخاصّة أعمال رومان جاكبسون (Roman Jakobson, 1896-1982) . ورغم أن هذا الباحث من أصل روسي إلا أن هجرته إلى أمريكا مكنته من إثراء

---

(١) عبد الفتاح أحمد يوسف ، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة ، ص٤٥ ، الدار العربية للعلوم .منشورات الاختلاف ، ٢٠١٠ .

المدرسة الأنقلوسكسونية من خلال أبحاثه خاصّة في نظريّة التواصل ، ومما ساعد على انتشار أعمال جاكبسون هو تدريسه في عدّة مؤسّسات جامعيّة منها جامعة هارفارد ومعهد ماساسوسيتش للتكنولوجيا[1] ، وذلك منذ سنة اثنين وأربعين وتسعمائة وألف . وكان لصداقته مع كلود ليفي ستراوس الذي هاجر من فرنسا بعد سقوط باريس إلى الولايات المتحدة ودرس بها ، أثر كبير في توجهه البنيوي ؛ فقد اعتبر بعض الباحثين ليفي ستراوس أبا البنيوية بلا منازع[2] . لا جدال في أن البنيويّة أثّرت في كثير من الحقول المعرفية الأمريكية وخاصة في البحوث اللسانية .

وسّعت نظرية التواصل التي وضعها رومان جاكبسون اهتمامَ الباحثين بتحليل الخطاب وذلك على مستويين «مستوى الانفتاح على جوانب كانت مهمّشة إلى عهد قريب في فضاءات تحليل النص ، ومستوى ثان يتجسد في الدفاع عن ضرورة بناء نظريّة تحليليّة للخطاب تكون مؤهلة لمقاربته في جوانبه المختلفة . وقد ساعد هذان المستويان على ظهور آفاق جديدة على مستوى تحليل الخطاب[3]» . وركز جاكبسون – ضمن عمليّة التواصل– على السياق الذي تتمّ فيه هذه العمليّة دون إهمال جوانب الخطاب اللغوية والدلالية والإيقاعية ، وهذا ما دعا محلّلي الخطاب إلى أخذ هذه الجوانب كلها بعين الاعتبار في بحوثهم ، وذلك في أبعادها التواصليّة اللغويّة وغير اللغويّة . إن اعتبار التواصل أهم عمليّة في مجال الخطاب يجعل منه وظيفة أساسيّة للخطاب ومبحثا مهما لتحليل الخطاب ، وذلك لارتباط وظيفة التواصل بمنتج الخطاب وبمتلقّيه وبالسياق الذي يدور فيه ، ويصبح استعمال اللغة مرتبطا بإنتاج وظيفة معينة .

نلاحظ أن ما يجمع بحوث أغلب المنتمين إلى هذه المدرسة أو الذين أثّروا فيها هو الاتجاه التواصلي التفاعلي بين الباثّ والمتقبل وتأثير السياق في ذلك ، ويظهر هذا جليا في كتاب علمين من أعلام هذه المدرسة الأنقلوسكسونية وهما «جيليان براون وجورج يول» (Gillian Brown and George Yule) خاصة في كتابهما (١٩٨٣

---

(1) www.signosemio.com /Jakobson/index-asp

(٢) ايديث كريزويل ، عصر البنيوية ، ص ٣٣ ، ترجمة جابر عصفور ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٩٣ .

(٣) ميلود بالقاضي ، الخطاب السياسي بين خطاب السلطة وسلطة الخطاب ، ص ١٦ ، مكتبة دار السلام ، الرباط ، ط١ ، ٢٠١١ .

Discourse analysis) وقد وسم الباحثان فصلا من هذا الكتاب بـ«دور السياق في التأويل» [1] . وما يجمع أعمال براون ويول ببحوث جاكبسون هو الاهتمام بعمليّة التواصل من جوانبها المختلفة ؛ وهذا ما جعلنا نضعهما ضمن من تأثّروا بالتيار البنيوي الذي لا نعدم له أثرا في كل المجالات المعرفية المتّصلة بالخطاب في أمريكا . ويرى محمد خطابي أن «مقاربة براون ويول تندرج في إطار عام يسمّى تحليل الخطاب ، ولكنّها في نفس الوقت تتضمّن سمات تتميّز بها عن شبيهاتها ، ولكن هذا التميّز لم يمنعها مع ذلك من استعارة أدوات علوم أخرى مارست ولا تزال تمارس تأثيرا كبيرا في معالجة اللغة (اللسانيات الاجتماعية ، اللسانيات النفسية ، اللسانيات التحسيبية ، الذكاء الاصطناعي ، علم النفس المعرفي)[٢]» . وهذا الانفتاح على العلوم الاجتماعية وعلى مختلف مجالات اللسانيات مكنهما من معالجة الخطاب المكتوب والخطاب الشفوي معالجة تتميز بالتركيز على وظائف اللغة وعلى جعل الإنسان في مركز عملية التواصل التي من أجلها كان الخطاب .

يلخّص الباحثان وظائف اللغة في اثنتين ، وظيفة نقليّة ووظيفة تفاعليّة ، وذلك انطلاقا من منظور اللسانيين الذين اهتموا سواء بالجانب النّقلي للغة أو الجانب التفاعلي . وتتميّز الوظيفة النقليّة بأنها وظيفة أوّلية للغة ، وهما لا ينكران أهميتها في نقل التراث الإنساني ومساهمتها في تطور الجنس البشري «نحن كلنا نؤمن بأن ملكة اللغة هي التي مكّنت الجنس البشري من تطوير الثقافات المختلفة والتي لكل واحدة منها عاداتها الاجتماعية والدينية الخاصة ، وشعائرها ، وقوانينها ، وتقاليدها الشفوية ، وطرق معاملاتها ، إلى غير ذلك[٣]» ، وهذا ما أقرت به كل البحوث اللغوية وغير

(1) Gillian Brown and George Youle, Discourse analysis, p27, Cambridge University press, 1983.

(٢) محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص٤٧ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ .

(3) Gillian Brown and George Youle, Discourse analysis, p2 “we all believe that it is the faculty of language which has enabled the human race to develop diverse, eachcultures with its distinctive social customs, religious, observances, laws, oral traditions, patterns of trading, and so on”.

اللغوية التي سبقتهما أو عاصرتهما ، وهذه الوظيفة تمس بالأساس اللغة المكتوبة .

إلا أن هذه الوظيفة بالنسبة إليهما تبقى أوّلية ، وأهمّ وظيفة هي الوظيفة التفاعليّة التي اهتمّ بها بعض الباحثين دون غيرهم : «بينما اهتمّ اللسانيون وفلاسفة اللغة والباحثون في مجال اللسانيات النفسية اهتماما خاصّا باستعمال اللغة لنقل معلومات واقعيّة أو افتراضيّة ، فإن علماء الاجتماع والباحثين في مجال اللسانيات الاجتماعية كان اهتمامهم منصبّا خاصة على استعمال اللغة لتأسيس العلاقات الاجتماعية وتمتينها[1]» . ووظيفة اللغة من هذا المنظور هي إقامة العلاقات بين الأفراد والمجموعات والمحافظة عليها وذلك من خلال عمليّة التخاطب وتبادل الآراء والمواقف والتأثير في الغير ، وهذا ما يضمن ربط علاقات مختلفة بين أفراد المجتمع .

يرى الباحثان أن وظيفة التواصل يمكن أن تتحقّق في بعض السياقات التي يكون فيها الحديث مجرد ملء للوقت ويسوقان مثال شخصين غريبين عن بعضهما ينتظران في محطة الحافلات والطقسُ بارد ، ويقول أحدهما «إلهي الطقس بارد» ، فإن ذلك لا يمكن اعتباره نقلا لمعلومة بما أن المستمع يعرف مسبقا أن الطقس بارد ، ولا حشوا لا طائل منه ، وإنما يمكن اعتباره نوعا من السعي لربط علاقة مع المستمع غرضها تبادل الحديث ، وربما الوصول أحيانا إلى ربط أواصر الصداقة .

إلى جانب وظائف اللغة ، اهتم الباحثان في هذا الكتاب بالباث وبالمتقبل وكذلك بسياق وضعيّة التواصل ، وقد أعطيا أهمية كبيرة لمنتج الخطاب ولمتلقّيه بوصفهما مركز عملية التخاطب . وهذا ما خالفا فيه البحوث اللسانية التي جعلت اللغة مركز الاهتمام الأول والأخير . لكل من المتكلم والسامع سمات جسديّة وشخصيّة واجتماعيّة لا بد من أخذها بعين الاعتبار في تحليل الخطاب لأنها تساعد في عملية التأويل ، بل وتحدّدها أحيانا كثيرة .

يتّسم سياق وضعية التواصل كذلك بسمات تجعل منه مؤثّرا قويّا في عمليّة تحليل الخطاب ، ومن خلاله يمكن معرفة الهدف الأساسي من القول ، إذ يمكن أن

(1) op.cit, p3 whereas linguists, philosophers of language and psycholinguists have, in general, paid attention to the use of language for the transmission of "factual or propositional information, sociologists and sociolinguists have been particularly concerned with the use of language to establish and maintain social relationships".

يتلفظ متكلم الجملة نفسها في سياقين مختلفين فيختلف بذلك مدلولها رغم أن المتكلم لم يتغير والجملة لم تتغير . ويعتبر براون ويول أن دراسة السياق من التعقيد بمكان ، حيث أن هذا السياق يتميّز بالغنى وكثرة السّمات التي يصعب تحديدها في وضعية تواصل معيّنة ، وهما يستشهدان بقول اينكفيست (Enkvist "1980: 79") : «أوّل صعوبة تعترض تحليل السياق هي غناه[1]» .

يطرح الباحثان مجموعة الصعوبات التي يثيرها السياق منها : هل يمكن حصر مكونات السياق؟ هل يمكن اعتماد قواعد عامّة لتحليل السياق؟ ما السمات القابلة للظهور في وضعية معيّنة دون أخرى؟ هل أن السمات التي تبدو واضحة للمتكلم وبديهيّة هي كذلك بالنسبة إلى السامع؟[2] وإذا قارنّا هذه الاهتمامات التي تعطي أولويّة لأطراف عمليّة التخاطب ولظروف إنتاج الخطاب باهتمامات اللساني فإننا نجد أن هذا الأخير لا يهتم بالسياق ولا بالمتخاطبين وإنما يقتصر عمله على وضع قواعد معياريّة تضمن إنتاج جمل سليمة ومقبولة نحويا ودلاليا . ويظهر ذلك جليّا في أعمال مجموعة من اللسانيين الأمريكيين مثل سابير الذي يرى في كتابه «اللغة ١٩٢١» : «أن الحقيقة اللغويّة تتمثل في التصنيف والنمذجة الشكليّة للتصورات[3]» .

عرض بلومفيلد شكلا آخر من البنيوية بداية من كتابه «اللغة ١٩٣٣» ويعتبر هذا الباحث مؤسس التيار التوزيعي وهو يركز على التمشّي التحليلي الشكلي للغة باتباع قواعد الاستقراء . وكذلك الحال بالنسبة إلى نوعام شومسكي فقد أضاف مستوى البنية العميقة للغة وهي شبكة من العلاقات النحوية تحدد الدلالة بينما لا تمكننا البنية السطحية من الوصول إلى الدلالة لأنها تحوي المستوى الصوتي فقط ، وكانت بحوثه في إطار التيار البنيوي التوليدي .

---

(1) op.cit, p58.

(2) op.cit, p 58.

(٣) محمد عزام ، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة ، ص٤٧ ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٣ .

٢-٢-٢-٣ المدرسة الأنقلوسكسونية واللسانيات الوظيفية مثال م. أ. هاليداي

نتّخذ مايكل ألكسندر هاليداي (Michael Alexander Kirkwood Halliday) الباحث اللساني البريطاني مثالا عن اتصال المدرسة الانقلوسكسونية باللسانيات الوظيفية لأنه من الأوائل الذين بحثوا في هذا المجال وألحّوا على الوظيفة الاجتماعية للخطاب ، وهو يرى أن اللغة ظاهرة اجتماعية . وتعد أعماله امتدادا لأعمال أستاذه «فيرث» (Firth) حتى أُطلق عليها «النظرية الفيرثية الجديدة» (neo-Firthian theory) . وعرفت أعمال هاليداي باللسانيات النسقية الوظيفية التي حلّل في ضوئها الخطاب الشفوي والخطاب المكتوب ، والتي يمكن اعتبارها مقاربة تجريبية أقرب إلى المنحى الاستقرائي منها إلى المنحى الاستنتاجي . وهي تعطي أهمية كبرى للمعطيات الواقعية التي يجب أن تكون قاعدة لكل بحث . ويرى دافيد بانكس David Banks «أن كل النظريات اللسانيّة يمكن تجميعها في ثلاث مجموعات كبرى : الشكلانيّة والعرفانيّة والوظيفيّة . فالعرفانية تقوم على الاستنتاج وتُخضع النظرية إلى مقياس المعطيات الواقعية لإثباتها . أما المقاربات الوظيفية فلها طابع تجريبي يجعلها تضع معطيات الواقع قبل تكوين النظرية[١]» .

يؤكد هاليداي هذا الاختلاف بقوله «نحن نفسّر العرفان اعتمادا على التمشي اللساني ، عوض تفسير اللغة اعتمادا على التمشي العرفاني ،[٢]» ، ويتم ذلك في إطار العلاقات الاجتماعية الإنسانية ؛ أما الشكلانية فهي من خلال معالجتها مستوى الشكل يصبح كل نص قابلا للترميز بأشكال معينة ويبتعد بذلك محلّل النص عن الوضعيّة المنتجة للنص والظروف المحيطة به ، وهذا ما وقع مثلا حين صبّ بعض الباحثين اهتمامهم على الوظائف النحوية ، حيث «توجد الوظائف النحوية في

(1) David Banks, La Linguistique Systémique Fonctionnelle: Une approche sémantique et sociale, http://www.univ-brest.fr/erla/membres/banks.html. P 9-10.

(2) Halliday and Matthiessen, 1999, P x, "Instead of explaining language by reference to cognitive processes; - we explain cognition by reference to linguistic processes.

مستوى ترميز اللغة[1]» . ولذلك عارض هاليداي النحو التوليدي معتبرا أن «اللغة لا يمكن أن تُفهم على أساس أنها «مجموع الجمل النحوية» سواء أكانت هذه السلسلة من الجمل متناهية أو غير متناهية»[2] ، لأن اللغة لا يمكن فصلها عن المجتمع الذي ولّدها وكانت هي سببا في تكوينه .

ارتكز تحليل هاليداي للخطاب على الجانب الاجتماعي باعتباره محورا أساسيا في هذا التحليل[3] وهو يؤكد ذلك بقوله «في نطاق حرية اختياري زاويةَ نظر اخترتُ زاوية النظر الاجتماعية . اللغة صنيعةُ المجتمع البشري وهي صانعتُه»[4] . يحدد هاليداي في هذه القولة المنحى الذي يوجه أعماله و يبين كذلك سبب اختياره وهو أن اللغة في نظره وليدةُ المجتمع الإنساني الذي هو بحاجة لوسيلة تواصل ، وهي كذلك مولدة لهذا المجتمع لأنها السبب في تكوينه وتماسكه عبر العلاقات التي تتأسّس بوساطتها بين أفراده .

لا يرفض هاليداي الدراسات اللسانيّة التي سبقته ولا يلغي ما توصل إليه الباحثون في هذا المجال ، وإنما يضيف بعدا جديدا لدراسة اللغة وهو البعد الاجتماعي وما يمكن أن يفرضه من أحكام وضوابط على مستعمل اللغة أوّلاً إذ تجعله يلائم بين

---

(1) David Banks, La Linguistique Systémique Fonctionnelle: Une approche sémantique et sociale, P3.

(2) Halliday, M.A.K. 1985. Systemic Background. In "Systemic Perspectives on Discourse, Vol. 1: Selected Theoretical Papers" from the Ninth International Systemic Workshop, James D. Benson and William S. Greaves (eds). Ablex. Reprinted in Full in Volume 3 in The Collected Works of M.A.K. Halliday. London: Continuum. p. 192. < »cannot be equated with 'the set of all grammatical sentences', whether that set is conceived of as finite or infinite".

(3) Encyclopoedia Britannica Inc, 2012, web, www.britannica.com/Bchecked/topic/252852/MAK.Halliday.

(4) Halliday MAK, (2002) , A personal Perspevtive, In. On Grammar,volume1, in the collect works of MAK Halliday, London, Continuum, P6, "to the extent that I favoured any one angle, it was the social: language as the creature and creator of human society.

الاستعمال والسياق ، وثانيا على دارس اللغة عموما والخطاب بصفة خاصة لأنها تضع في اعتباره أنْ لا بد أن يكون كل خطاب مرتبطا بمجال اجتماعي معيّن ، لأن الخطاب عمليةُ تفاعل وتبادل للمعاني بين المتعاملين باللغة في الواقع الاجتماعي .
ومن خلال تحديد هاليداي لوظائف اللغة في كتابه «اللغة كسيميوطيقا اجتماعية» (Language as social semiotic, 1978)[(١)] ، تظهر النظرة الشمولية التي أراد هاليداي أن يضفيها على بحوثه ، فقد حدد وظائف اللغة كالتالي :

- الوظيفة التجريبية : وتكون في مستوى استعمال اللغة لتمثيل التجربة التي يعيشها المتكلم .
- الوظيفة التواصلية : وتكون بين مستعملي اللغة وتتحدد فيها علاقة بعضهم ببعض من منظور اجتماعي .
- الوظيفة النصيّة : تتضمن تراكيب اللغة المستعملة لإنتاج الخطاب .

نرى أن الوظيفتين التجريبية والنصّية وظيفتان وقع التركيز عليهما في الدراسات اللسانية السابقة ، أما إضافة هاليداي فتكمن في الوظيفة التواصليّة الناتجة عن اعتباره اللغة ظاهرة اجتماعية . ولذلك فإن ما توصلت إليه الدراسات السابقة يُعتبر غير كاف لفهم اللغة «نحن لا نستطيع فهم طبيعة اللغة إذا أخذنا في الاعتبار فقط أنواع الأسئلة التي يطرحها اللسانيون[(٢)]» ، ذلك أن أغلب اللسانين قبل هاليداي يبحثون في مسائل لغويّة بحتة إما تهمّ الشكل أو التركيب ويعتبرهما هاليداي ظاهرا مرئيا أو مسموعا ، بينما يهملون الجانب الاجتماعي للغة الذي يعتبره هاليداي أهم إطار للبحث اللساني وهو السياق وما يحيط بإنتاج النص . ومن ثم يجب أن يأخذ تحليل الخطاب هذه الجوانب (الظاهر المرئي أو المسموع والسياق وما يحيط بإنتاج الخطاب) بعين الاعتبار .

الخطابُ ، في رأي هاليداي ، حدث اجتماعي ولقاء سيميولوجي يتم عبره تبادل

(1) Halliday, Language as social semiotic, the social interpretation of language and meaning, Hariland, Parc Press,1978.

(2) op.cit, P3. "We shall not come to understand the nature of language if we pursue only the kinds of question about language that are formulated by linguists .

الدلالات التي تكوّن النّظام الاجتماعي[١] . وهذا الحدث لا بد أن يتمّ في وضعيّة معيّنة . ونلاحظ أن هاليداي يستعمل أحيانا وضعية (situation) وأحيانا أخرى سياق (context) ليحيل على المعنى نفسه . ويرى أن الوضعية يمكن أن تتحقق في ثلاث وظائف أساسيّة هي النشاط ، والمحتوى ، والشكل :

- حقل النشاط : ويهم النشاط أو الحدث الذي يتمّ ، ويكون الخطاب جزءا منه ، بما في ذلك المحتوى .
- حقل المحتوى : ويهمّ الفاعلين الذين لهم دور في حدث الخطاب ، وبذلك يضمّ العلاقات بين الباث والمتقبل .
- حقل الشكل : ويهمّ الصوت أو وسيلة التواصل حيث تكون العبارة المكتوبة أو الشفوية أنجع وسيلة لذلك[٢] .

من هذا المنطلق يرى هاليداي أن اللسانيات علم فريد ؛ فهي المعرفة الوحيدة التي يتطابق فيها موضوع البحث مع وسيلة البحث ، وترجمة هذا أن اللسانيات تدرس اللغة ودراسة اللغة لا تتم إلا بواسطة استعمال اللغة[٣] ؛ وهي علم فريد أيضاً لأنها توجد في مفترق طرق عدد من العلوم الأخرى وهذا ما ذهب إليه كثير من الباحثين ، وبذلك تكون الحدود في أغلب الأحيان متداخلة وفيها العديد من السمات المشتركة ، واللسانيات الوظيفية تشترك في جزء كبير من حدودها مع علم الاجتماع ، ولذلك يرى أن الجانب الاجتماعي لا بد أن يكون بارزا في كل مقاربة لسانية للغة «لأن اللغة جزء من النظام الاجتماعي[٤]» .

بما أن اللغة وليدةُ المجتمع ومولّدة له في الوقت نفسه ، فإن هاليداي يعتبر أن الوضعية الاجتماعية هي المولّدة للخطاب ، ثم إن هذا الخطاب نفسه يُكوّن جزءا من الوضعية ، وبالتالي يؤثر فيها ويغيّرها . ويمكن لهذه الوضعيّة الجديدة أن تُوَلّد خطابات أخرى . فالكلام عن اللسانيات النسقية الوظيفية يعني الكلام عن شبكة أو نظام من الاختيارات متوافرة أمام مستعمل اللغة بحيث يقود كل اختيار إلى اختيار آخر .

---

(1) Op.cit, P39.

(2) David Banks, La Linguistique Systémique Fonctionnelle : Une approche sémantique et sociale, P3 http://www.univ-brest.fr/erla/membres/banks.html

(3) Halliday, (1996), P384

(4) Halliday, 1978, P39, “Language is part of the social system”.

خلاصات

طرحنا في المدخل عنصرين كبيرين هما «الخطاب وأنواعه» ، و«تحليل الخطاب ، المدارس والاتجاهات» ، وينقسم هذان العنصران إلى عناوين فرعية حاولنا من خلالها دراسة طرح إشكالية الخطاب وتحليل الخطاب وتتبّع تطوّر هذين المفهومين ، وتوصّلنا إلى عدد من الاستنتاجات نوردها كالتالي :

- لم يحظ الخطاب بالدراسة مبكرا رغم أن كل العلوم والمقاربات تستعمله للتعبير عن مواضيعها ومناهجها في البحث .
- يجمع الباحثون على أن زيليغ هاريس هو أول لساني حاول توسيع حدود البحث اللساني بجعله يتعدّى الجملة إلى الخطاب .
- اختلف مفهوم الخطاب من دارس إلى آخر ومن مقاربة إلى أخرى باختلاف المنطلقات الفلسفية ووجهات النظر .
- بدأ الاهتمام بتقسيمات الخطاب مع الدراسات الأدبية ضمن مقولة الأجناس الأدبية ، واستفادت الدراسات اللسانية من هذه التقسيمات .
- مازالت تصنيفات الخطاب موضع تساؤل من قبل الباحثين وذلك لارتباطها باختلاف المنطلقات الفكرية .
- نشأ مبحث تحليل الخطاب مع تطوّر الدراسات اللسانيّة التي تهتمّ بالخطاب ، واستفاد من علوم أخرى كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع . . .
- في بداية الثمانينات بدأت تظهر اتجاهات واضحة في تحليل الخطاب ومنها المدرسة الفرنسية والمدرسة الأنقلوسكسونية .
- استندت المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب على أساس فلسفي يعود إلى مفكرين هما لوي ألتوسار وميشال فوكو .
- بالنسبة إلى المدرسة الفرنسية ، ترجع أهمية اعتبار الخطاب نتاجا لشروطه الخاصة ووليدا لظروف قوله إلى الفكر الماركسي الذي جعل الإطار الاجتماعي والبعد التاريخي يحدّدان الخطاب ، وقد غذّى هذا الفكرُ أغلب الدراسات التي اهتمّت بتحليل الخطاب في فرنسا واتخذت في البداية منحى بنيويا وتميّزت بالتنوع .
- استندت المدرسة الأنقلوسكسونية إلى ما توصّلت إليه مختلف التيارات اللسانية مثل التيار التداولي والتيار البنيوي واللسانيات الوظيفيّة النسقيّة .
- يمثل مبحث تحليل الخطاب ملتقى كثير من العلوم على أساس فلسفي متنوع يشرع

لامتداداته المفهوميّة ، وهذا ما جعله مجالا واسعا للأبحاث .

- ارتكز توجّه المدرسة الأنقلوسكسونية في تحليل الخطاب على البحوث التداولية وخاصة تلك التي اهتمّت بالأفعال الكلاميّة (أوستين) ، وكذلك التي تناولت تحليل وضعيات التواصل (براون ويول) ، واهتم هاليداي بالسياق وبدور المجتمع الإنساني في إنتاج الخطاب وذلك على خطى أستاذه فيرث (Firth) . وبذلك تمكّنت هذه المدرسة من فتح دراسة تحليل الخطاب على الدراسات الاجتماعية وعلى البحوث التي اهتمت بعملية التواصل في سياقات مختلفة .

الباب الأول:

التحليل النقدي للخطاب والخطاب الإعلامي

١ - استراتيجيات الخطاب

٢ - التحليل النقدي للخطاب

٣- الخطاب الإعلامي

٤- وسائل الإعلام والتواصل

مقدمة الباب

يتكون هذا الباب من أربعة فصول ؛ خصّصنا الأوّل للحديث عن استراتيجيات الخطاب لما لهـا من صلة بالتـحليل النقـدي للخطاب ، ووسـمنا الفـصل الثـاني بـ«التحليل النقدي للخطاب الإعلامي» ، أما الفصل الأخير فطرحنا فيه مسألة «الخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب» . ويعتبر التحليل النقدي للخطاب خيطاً ناظماً لكل الفصول في هذا الباب .

سنبحث في الفصل الأوّل في استراتيجيات الخطاب من حيث المفهوم والدور الذي تلعبه في التواصل أثناء استعمال الخطاب ، والهدف الذي تحقّقه ، وذلك لما لها من صلة بالتحليل النقدي للخطاب ، ذلك أنها تمثّل موضوعا من المواضيع المهمّة التي يتناولها بالدراسة .

سنتناول في الفصل الثاني الأساس الفلسفي للنظرية النقدية ، وميلاد مدرسة فرنكفورت مع أهم أعلامها مثل «جرونبرغ» و«هوركهايمر» وبعض الباحثين الذين واصلوا العمل ضمن توجّهها وساهموا في تطوّرها مثل «هربرت ماركيوز» و«جورج لوكاتش» ، و«أدورنو» . ثم المقاربة النقديّة التي استثمرت عطاءات مدرسة فرانكفورت الفكرية ؛ نعني اجتهادات «روث ووداك» و«فيركلاف» و«فان ديك» . وسنركّز في هذا الفصل على أبحاث «روث ووداك» التي اعتمدت مقاربة متعدّدة الاختصاصات تهدف إلى التأليف بين التداوليّة وتحليل الخطاب ، وتعطي أهميّة كبيرة لسياق الخطاب .

أما الفصل الثالث فإننا سنحاول أن ندرس فيه الخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب وسنقدّم نبذة عن بعض الدراسات التي اهتمّت بالتحليل النقدي للخطاب الإعلامي مركّزين على أعمال «نورمان فيركلاف» الذي تبنى التوجّه الاجتماعي الثقافي في تحليل الخطاب وتميّزت أعماله بالاهتمام بالتفاعلات الاجتماعية المنتجة للخطاب والمتلقيّة له .

سنحاول أن نقدّم في الفصل الرابع بعض جوانب التواصل في الخطاب

الإعلامي من خلال دراسة ممارسات إنتاج النص الإعلامي وتسويقه وتقبّله في الفضاء الاجتماعي الثقافي ، دون إهمال الجوانب الأخرى التي تؤثّر في طريقة التواصل في الخطاب الإعلامي وتتأثّر بها ، ومنها الجانب السياسي والجانب الاقتصادي .

هذا الباب هو محاولة للبحث في الإشكالية التالية :

ما هي الاستراتيجيات التي يتوسل بها الخطاب لتحقيق الإقناع؟

ما هو التحليل النقدي للخطاب وكيف استغل ما توصّل إليه مجال تحليل الخطاب وخاصة استراتيجيات الخطاب؟

كيف وقع تطبيق التحليل النقدي للخطاب على الخطاب الإعلامي ، وما هي حدود هذا التطبيق؟

الفصل الأول:
استراتيجيّات الخطاب

تمهيد

سنحاول في هذا الفصل تعريف مفهوم استراتيجيّة الخطاب تعريفا عامّا ، ثم نتناوله من خلال استعماله في تحليل الخطاب ، سواء من حيث إنتاج الخطاب أو فهمه أو إعادة إنتاجه . وهذا ما سيقودنا إلى دراسة العناصر التي تقوم عليها استراتيجية الخطاب . أما زاوية النظر التي سنتبنّاها فهي النظر إلى هذه المسألة من زاويتين : أوّلا ، الاستراتيجيّات التي يمكن أن نضعها في خانة الدراسات اللغوية واللسانية . ثانياً ، الاستراجيات التي تتصل بالعرفان وهي كيفية إدراك الإنسان للعالم وكيفية استغلاله لمعلوماته حول العالم لتنمية هذا الإدراك ، وتضمّ هذه الاستراتيجيات مواقف الإنسان واهتماماته ومعارفه وأهدافه . . . رغم أن الفصل بين هذين النوعين من الاستراتيجيات يبدو فيه بعض التعسف ، لأن الاستراتيجيّات اللسانية ما هي إلا جزء من معارف الإنسان ، ويبقى هذا التقسيم تقسيما إجرائيا لا غير .

١-١ مفهوم الاستراتيجية

وقع استعمال هذا المفهوم بداية في المعجم العسكري حين نتحدّث عن استراتيجية تنفيذ عملية هجوم أو عملية دفاع أو تحرّك للمقاتلين ثم توسّع إلى مجالات مختلفة يجمع بينها الاشتراك في التفكير للوصول إلى غاية محدّدة ، وانتهى به الأمر «إلى اكتساب معنى أعم يفيد كل عمل يتم القيام به بصفة منسقة لبلوغ هدف ما[(١)]» . وانطلاقا من مفهوم التنسيق الذي يحمله هذا اللفظ دخل في كل عمل يتمّ على أساس منظّم وهادف ، فاستعمل في السياسة والاقتصاد . . .» استراتيجيّة سياسيّة» و«استراتيجيّة اقتصاديّة» .

---

(١) باتريك شارودو ودومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب ، ص ١٣٣ .

يذكر باتريك شارودو ودومينيك منغنو الأمثلة التالية لبيان بعض استعمالات مفهوم الاستراتيجيّة في الفنون الفكريّة والعلوم[١] :

- «في نظرية الألعاب يطابق (مفهوم الاستراتيجيّة) «مجموعة القواعد المحدّدة لسلوك اللاعب في كل وضعيّة لعب ممكنة» (فون نيومان وموجانستارن١٩٤٤ : ٤٤) .
- في علم النفس العرفاني يطابق «تسلسل العمليات التي تعكس الاختبارات التي يتوخّاها المرء ليبلغ بأنجع الطرق وأقلها كلفة غاية محددة سلفا» (اسبارات ١٩٨٨ : ٨) .
- في علم النفس الاجتماعي اقترح كارون (١٩٨٣ : ١٥٥-١٥٦) «ألاّ نتحدّث عن الاستراتيجيّات إلا إذا توفّرت الشروط التالية : مقام عدم التيقّن ، (. . .) هدف يرمي إليه الفاعل عن وعي أو عن غير وعي ، **'قواعد اللعبة'** ، (. . .) تعاقب منظّم لاختيارات معبّرة عن خطّة عامّة» .

في تحليل الخطاب يرى المؤلفان أن لهذا المصطلح استعمالات مختلفة وذلك باختلاف تيّارات البحث واتجاهاته ، وهذا ما سنسعى لدراسته في العنصر الموالي .

يتفق فان دايك والتر كينتش (Van Dijk and Walter Kintcsh 1983) تقريبا مع ما ذهب إليه باتريك شارودو ودومينيك منغنو ، ذلك أن مفهوم الاستراتيجية بالنسبة إليهما لم يقع تحديده بشكل واضح رغم أنه استعمل في كثير من العلوم ، وقد أُخذ من العلوم العسكرية وكان يعني عند الإغريق القيادة العسكرية «واستُعمل للدلالة على تنظيم التحركات العسكرية وخاصة تلك التي تهدف إلى تحقيق غاية عسكرية»[٢] . ويشيران إلى أن هذا المفهوم استعمل أيضا في العلوم السياسيّة والاقتصاديّة وغيرها من العلوم أو المجالات التي تسعى إلى تحقيق غاية بما تقوم به من أعمال .

يعتبر مفهوم الاستراتيجية مماسا لمفهومين آخرين استعملا في مجالات متعددة وهما مفهوما المخطط (plan) والتصميم (design) اللذان يدلاّن عادة على أعمال تهدف إلى اتخاذ قرارات أو الانحياز إلى اختيارات معينة ، وهذا ما يجعلهما قريبين من مفهوم الاستراتيجية ، وكثيرا ما تستعمل هذه المفاهيم الثلاثة دون تمييز واضح

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٣١- ٥٣٢ .

(2) Teun. A. Van Dijk and Walter Kintsch, Strategies of Discourse Comprehension, P62, New York. Academic Press, (1983), “where it is used to denote the organization of military actions to reach a particular military gool.”

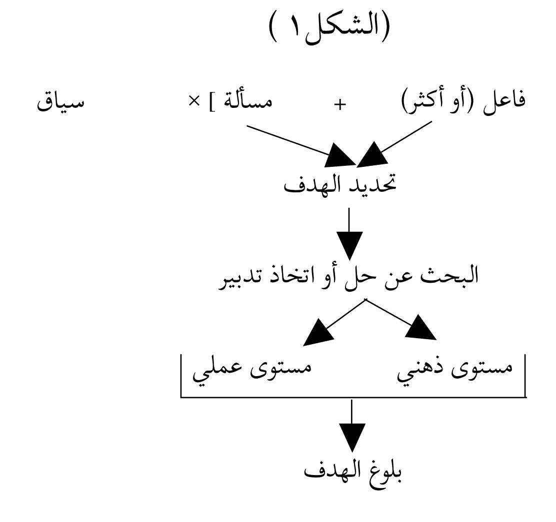
بينها ، ولذا لا يخصّص ما اطلعنا عليه من مراجع حيزا للتمييز بين هذه المفاهيم وإنما هي إشارات في الغالب إلى الاشتراك الدلالي بينها .

أمّا ما يمكن أن يميّز مفهوم الاستراتيجيّة عن المفهومين السابقين فهو استعماله ، خاصّة ، في النظريات التي تروم تحقيق غايات ما بطرق معيّنة ومدروسة ، و«المهم في كل ذلك ليس الهدف وإنما طريقة الوصول إليه (مثال : بسرعة وبنجاعة وبأقل التكاليف)»[1] . والاستراتيجيّة بهذا المعنى هي اختيار طرق معيّنة للقيام بمهمة أو لحلّ مشكلة ؛ وهي عموما مجموع العمليات والتدابير التي تُتّخذ قصد بلوغ غايات بعينها . ويمكن أن تتمّ الاستراتيجيّة عبر مرحلتين أساسيّتين :

- مرحلة ذهنيّة : وهي مرحلة التفكير في خطوط الاستراتيجيّة .
- ومرحلة عمليّة : وهي مرحلة تجسيد ما وقع التفكير فيه ووضعه موضع التنفيذ .

ويقوم بتنفيذ المرحلتين فاعل (أو أكثر) يهتمّ بتحليل السياقات ودراسة الإمكانات لوضع الاستراتيجيّة المناسبة لتحقيق الهدف . ويمكن تلخيص ذلك في الشكل التالي :

(الشكل١)



رسم مبسط لعناصر الاستراتيجية وعلاقة بعضها ببعض

(1) op.cit, P62, “where it is used to denote the organization of military actions to reach a particular military gool”.

تتغير الاستراتيجية بتغيّر أحد عناصرها أوبتغيّر الظروف المحيطة بها ؛ فلو تغيّر الفاعل مثلا وبقي الموضوع والهدف على حالهما فإن طريقة البحث عن الحل أو التدبير المناسب ستتغيّر ، وبالتالي يقع التغيير في المستوى الذهني والمستوى العملي . أما بالنسبة إلى تغيير الهدف أو المسألة فإن ذلك يؤدّي غالبا إلى تغيير مراحل الاستراتيجية . وبذلك فإن تغيّر بعض العناصر يستتبع تغيّر بنية الاستراتيجيّة التي وقع اختيارها . ويمكن لفاعل أن يختار أكثر من استراتيجيّة ، وذلك لضمان بلوغ هدفه احتسابا لتغيّر بعض العناصر السابقة وخاصّة السياق ، «وتعدّد الإمكانات هو تعدّد أوجه مفهوم الاستراتيجيّة نفسها»(١) .

يرى فوكو أن كلمة استراتيجيّة «تستعمل عادة بثلاث معان : أوّلا ، للتدليل على اختيار وسائل الإعلام المستخدمة للوصول إلى غاية معينة ، والمقصود بذلك هو العقلانية المستخدمة لبلوغ هدف ما .

ثانيا ، للتدليل على الطريقة التي يتصرف بها أحد الشركاء في لعبة معيّنة ، تبعا لما يعتقد أنه سيكون تصرف الآخرين ولما يخال أن الآخرين سيتصورون أنه تصرّفه هو ، وباختصار هي الطريقة التي نحاول التأثير بها في الغير .

أخيرا ، للتدليل على مجمل الأساليب المستخدمة في مجابهة ما ، لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام . . .وعليه تتحدّد الاستراتيجيّة باختيار الحلول الرابحة»(٢) . وهذا ما يجعلنا أمام مفاهيم متعدّدة للاستراتيجيّة ، لا أمام مفهوم واحد محدّد ومغلق .

نستنتج مما سبق أن الفرد (أو المجموعة) يمارس أفعالا كثيرة في سياقات مختلفة ويهدف من وراء هذه الأفعال إلى تحقيق غايات ، ولذلك كان عليه أن يختار الطريقة المثلى التي تمكنه من بلوغ هذا الهدف ، وتتنوّع هذه الأعمال فمنها الأعمال الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة واللغويّة ، وبما أن الاستراتيجيّة هي في جانب كبير منها محاولة للتكيّف مع المحيط فإنها حتما ستمس جميع ميادين الحياة .

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، ص٥٥ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ليبيا ، ٢٠٠٤ .

(٢) أوبيير دريفوس وبول رابينوف ، ميشيل فوكو (مسيرة فلسفية) ، ص٢٠٠ ، ترجمة جورج أبي صالح ، مراجعة وشروح مطاع الصفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط١ .

١-٢ الاستراتيجية في تحليل الخطاب

يتكوّن هذا المفهوم من عنصرين أساسيّين تربطهما صلة إضافة هدفها التخصيص ، وقد رأينا المفهوم العام للاستراتيجيّة ، والآن سنخصّص المسألة التي ستتناولها هذه الاستراتيجية ، ألا وهي تحليل الخطاب ، وهذا يحيلنا على البحث في استراتيجيّة تحليل الخطاب باعتبار أن هذه الاستراتيجيّة تفكير وتمسّ غايتهما الوصول إلى تحليل الخطاب تحليلا يقترب أكثر ما يمكن من الدلالة المقصودة منه .

دخل هذا المفهوم إلى ميدان تحليل الخطاب حيث استعمل استعمالات مختلفة باختلاف تيارات البحث[١] . واعتبره البعض «شروط إنتاج الخطاب[٢]» ، أو جملة المعطيات والقواعد التي يجب تتبّعها لتحقيق عمل لغوي يضاف إليه الاختيارات الفردية التي يختارها المتكلم ليقوم بهذا العمل[٣] . ويعتبرها آخرون أحد فضائين لهيكلة عمل اللغة «فضاء إكراهات يتضمّن المعطيات الدنيا التي ينبغي توافرها ليكون عمل اللغة صحيحا [. . .] وفضاء استراتيجيّة يطابق الاختيارات الممكنة التي في متناول المتكلمين ليقوموا بإخراج عمل اللغة[٤]» . وهي بحسب ديكرو «الإطار القانوني والنفسي المفروض» على الخطاب ، وهي تسمح بالحساب التأويلي للدلالات الضمنيّة المشتقة من الدلالات الحرفية[٥] .

---

(١) معجم تحليل الخطاب ص٥٧٣ .

(2) Bounnafous. S, Tournier.M, (1995), Analyse du discours, Lexicometrie, Communication et politique, Langages n 117.

(3) P. Charaudeau (1995), Une Analyse sémiolinguistique du discours,Langages n 117, P 102. “la structuration d’un acte de langage comporte deux espaces : l’un que l’on appellera espace de contrainte, parce qu’il comprend les données minimales auxquelles il faut satisfaire pou que l’acte de langage soit valide, l’autre que l’on appellera espace de stratégie parce qu’il correspond aux possibles choix que les sujets peuvent faire dans la mise en scène de l acte de langage”, P102.

(٤) باتريك شارودو ، ١٩٩٥ ، ب ، ص١٠٢ .

(٥) معجم تحليل الخطاب ، ص ٣٤٦ .

يرى كل من شارودو ومنغنو ثلاثة محدّدات للاستراتيجيّة :

١- أن تكون راجعة بالنظر إلى ذات (فردية أو جماعية) تُحمل على اختيار ، عن وعي أو عن غير وعي ، عدد من العمليّات اللغوية .

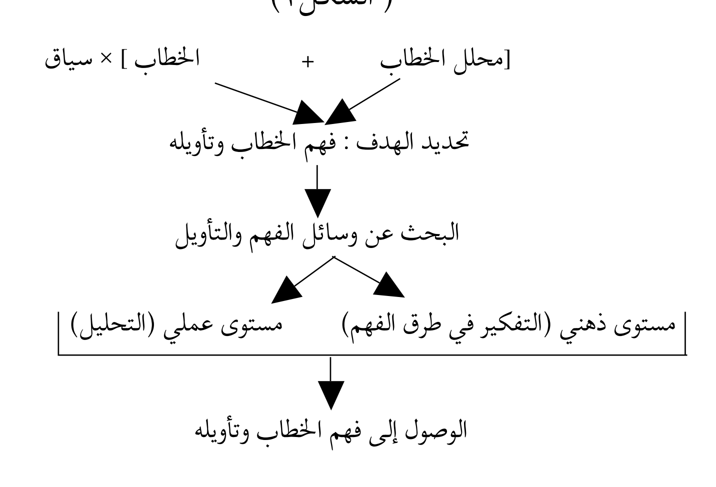
٢- لا بد أن تخضع الاستراتيجيّة إلى إكراهات مختلفة «قواعد أو معايير أو مواضعات» ، إذ أن الاستراتيجيّة تخضع «لإطار تعاقدي يضمن استقرار السلوكات وقابليّتها للتوقع» .

٣- تنبني الاستراتيجية على وضعيّة انعدام اليقين ، وهدفٍ يتمثل في تجاوز هذه الوضعية وحلّ المشكل .(١)

ويلخص الباحثان بناء الاستراتيجية في أربعة عناصر يعتبرانها رهانات متكاملة ولكنها متمايزة : «رهان تحقيق المشروعيّة الرامي إلى تحديد موقع سلطة الفرد [. . .] ورهان المصداقيّة الرامي إلى تحديد موقع الفرد من الصدق [. . .] ورهان الاستهواء الرامي إلى إدخال طرق التبادل التواصلي في إطار تفكير الذات المتكلمة(٢)» .

ولو عدنا إلى الرسم السابق (الشكل ١) وخصصنا «المسألة» فإن ذلك سيؤدي إلى تغيير في بعض العناصر الأخرى كما يحدده الشكل التالي :

(الشكل٢)



عناصر استراتيجية تحليل الخطاب

---

(١) باتريك شارودو ودومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب ، ص٥٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٥٣٣ .

إن الخطاب، كغيره من الأنشطة الاجتماعيّة، يتطلب التفكير ثم الإنجاز وذلك على مستوى منجز الخطاب لأن «الخطاب المنجَز يكون خطابا مخطّطا له بصفة مستمرّة وشعورية[١]» أو على مستوى متلقّي الخطاب ومحلّله، الذي يكون ملزما باختيار استراتيجيّة معيّنة لفهم الخطاب وتأويله. وللاقتراب أكثر من مفهوم استراتيجيّة تحليل الخطاب نقترح تعرف كيفية تفاعل العناصر الأساسيّة للخطاب (منتج الخطاب، المتلقي، السياق) مع الاستراتيجيّة.

١-٣ استراتيجيّة الخطاب من خلال منتج الخطاب ومتلقّيه وسياقه

أ- منتج الخطاب:

يمثل منتج الخطاب محورا أساسيّا في عمليّة التواصل. وقد اتفق على ذلك أغلب الباحثين في مجال جميع فروع اللسانيات وفي مجال تحليل الخطاب بصفة خاصة، وذلك منذ الأعمال الأولى التي اهتمت بالخطاب، مثل أعمال بنفينست الذي يرى أن المتكلم «حقيقةٌ خطابية» (c'est une réalité de discours)[٢]. وتنتفي فاعلية اللغة بانتفاء المتكلم لأنه هو الذي يضع النظام اللغوي موضع تنفيذ بإنتاجه للخطاب متبعا في ذلك استراتيجيّة معينة لبلوغ هدف معين.

منتج الخطاب هو «الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفّظ به، من أجل التعبير عن مقاصد معيّنة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه باعتماد استراتيجيّة خطابيّة تمتدّ من مرحلة تحليل السياق ذهنيّا والاستعداد له، بما في ذلك اختيار العلامة اللغوية الملائمة، وبما يضمن تحقّق منفعته الذاتية، بتوظيف كفاءته للنجاح في نقل أفكاره بتنوعات مناسبة.»[٣]. ويكون الفاعل بذلك في علاقة وثيقة ببقية عناصر الاستراتيجية الخطابيّة بداية من موضوع المسألة (الخطاب) وصولا إلى الهدف (فهم وتأويل الخطاب)، وبينهما يكون منتج

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص٥٦، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٤.

(2) Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1, p252, Edition Gallimard, 1974.

(٣) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص٤٥، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ٢٠٠٤.

الخطاب موكلا بوضع الاستراتيجيّة اللازمة لذلك ، وما يشرّع له هذا الدور هو كونه ركنا أساسيّا ومحوريّا في عمليّة إنتاج الخطاب .

وتتحقق استراتيجيّة تحليل الخطاب مع الفاعل رغم أنه لن يتولّى تحليل الخطاب وفهمه وإنما هو منجزه ، ذلك أنه سيبني خطابه وهو يتصوّر ردّ فعل المتلقّي ، أي أن استراتيجيّة خطابه ستكون متناسبة مع ما في ذهنه من تصوّرات حول الاستراتيجيّة التي ستعتمد في التحليل والفهم . وفي المرحلة الذهنيّة يعمد منتج الخطاب إلى تحليل السياق وتعرّف ملابساته ، ثم اختيار الألفاظ والتفكير في كيفية تنسيقها . وتأتي بعد ذلك المرحلة العملية حيث يطبّق ما وقع التفكير فيه ، وذلك بتحويله إلى أصوات أو حروف في شكل خطاب منطوق أو مكتوب ، ويجنّد منتج الخطاب في هذه المرحلة جميع قدراته التواصليّة وكفاءاته الذاتية ليصل إلى هدفه .

وتحيلنا محورية المتكلّم على مسألة أهلّيته ، لأن منتج الخطاب الشفوي أو المكتوب لا بدّ أن تتوفّر فيه شروط تجعل من جميع عناصر الاستراتيجيّة التي يتبعها في إنتاج خطابه موصلة إلى الغاية المنشودة ، ومثال ذلك إذا أعطى المتكلم أمرا فلا بد أن تتوفّر فيه شروط الآمر وإلا سقط أهم ركن من الأركان التي بُني من أجلها الخطاب وهو تحقيق الغاية .

ب- المتلقّي:

ما إن يتقمّص المتكلمُ دور المتكلم حتى يكوّنَ المخاطَبَ وينشئه ويرسيه بغضّ النظر عن كيفية حضوره : «فكل قول ، صريحا كان أو ضمنيّا ، كلامٌ يَفترض وجود مخاطب [. . .] وبمجرد ما يشرع المتكلم في إنجاز الخطاب يرسي متلقيّا[1]» . ويمكن أن يكون هذا الاستحضار عينيّا أو ذهنيّا ، وبذلك يمثل المتلقّي الجانب الآخر الذي يغدو ضرورةً لا مناص منها في إجراء الخطاب ، ويمثل بذلك موجّها هامّا لمنتج الخطاب في أثناء إنتاجه . وقد أشار أرسطو إلى ذلك في إطار ما كان يسمّى بفنّ الخطابة ؛ فجعل أقسام الخطابة ثلاثة : الخطيب والموضوع والسامع ، وربَط الغاية بالسامع لأن الغاية لا

(1) Benveniste, Problèmes de linguistique générale - T2, p82 “toute énonciation est, explicite ou implicite, une allocution, elle postule un allocataire (...) Dès que le locuteur se déclare locuteur il implante l autre en face de lui.”.

تتحقّق إلا إذا راعى المتكلّم الخطيبُ الأحوال النفسيّة والاجتماعيّة للسامع . وكذلك اهتمّ العرب بالمتلقّي خاصّة في الخطابة السياسيّة والدينيّة فيجنّد منتج الخطاب كل إمكانيّاته ليفهم نفسيّة المتلقّين فيطوّع خطابه وفقا لما يحسّه من ميل في نفوسهم[1] . وما يهمّنا ممّا ذكرنا أن المتلقّي له دور كبير في كيفيّة صياغة المخاطِب خطابه ، وبالتالي في قدرته على تنويع الاستراتيجيّات المعتمدة في هذه الصياغة ؛ ويبدأ ذلك من المستوى النحوي من تذكير وتأنيث وإفراد وجمع ، وصولاً إلى المستوى النفسي والثقافي والاجتماعي ، إلى غير ذلك من المستويات التي تكوّن شخصية المتلقي .

ج- السياق:

توجد ، على الأقل ، نظرتان لتعريف السياق الأولى لغويّة معجميّة والثانية خاصّة بمجال تحليل الخطاب ، ونجد في معجم «لاروس اللسانيات وعلوم اللغة» (Larousse Linguistique et sciences du langage) أن السياق «هو كل النصّ حيث تتموقع وحدة معيّنة ، أي العناصر التي تسبق والتي تلي الوحدة ، وتمثل محيطها [. . .] ؛ أما سياق الحال أو سياق الوضعية فهو جملة الشروط الطبيعيّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي ترد فيها القولة أو يرد فيها الخطاب[2]» . وسننظر في النوع الثاني من أنواع السياق لصلته بموضوعنا .

يتطلّب سياق الحال خلفيّة معرفيّة أساسيّة يمكن أن تنقسم إلى قسمين :

- معارف عامّة ثقافيّة يحملها أغلب الأشخاص في أذهانهم وتتّصل بجميع ميادين الحياة .
- معارف خاصّة سماها خوان كوتينق (٢٠٠٢) «معارف مشتركة» وهي تخصّ في غالب الأحيان تاريخ المتكلمين أنفسهم[3] .

ويذهب براون ويول (١٩٨٣) إلى أن اللسانيين تزايد اهتمامهم بالسياق منذ

---

(١) أحمد محمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص٥٩ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٢ .

(2) Larousse linguistique et sciences du Langage, P116, Larousse, editionn°2, 2007.

(3) Joan Cutting, Pragmatics and Discourse, P4, Routledge, 2002

سبعينات القرن الماضي وذلك لأنهم تفطّنوا إلى أهميّته في تأويل الجمل[1] . ويفسّر محمد خطابي نظرتهما إلى السياق بقوله «والسياق لديهما يتشكّل من المتكلّم/الكاتب ، والمستمع/ القارئ ، والزمان والمكان لأنّه يؤدّي دورا فعّالا في تأويل الخطاب ، بل كثيرا ما يؤدّي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين[2]» . أما خصائص السياق فقد تقارب الباحثون في تحديدها ، وإن جمعتهم بعض العناصر المشتركة كالمرسل والمتلقي والموضوع فإن كل باحث ركّز على عنصر (أو أكثر) وذلك بحسب الغرض من تحديد السياق ، فـ«براون ويول» كان غرضهما تأويل الخطاب وفهمه إذ لا يمكن فهم الخطاب ما لم يوضع في سياقه . واهتم «ليفيس» (١٩٧٢) بغرض منطقي وهو معرفة صدق الخطاب أو كذبه ، وبالتالي ركّز على العوالم الممكنة والظروف والضمائر والإحالة خارج اللغة . كما اهتمّ «هايمس(١٩٦٤) بتحديد خصائص السياق ولكنّه أشار إلى أنّها ليست كلّها ضروريّة ، فالباحث يختار منها ما يلائم الحدث التواصلي الذي يحلّله[3] .

بعبارة موجزة نقول إن السياق هو جميع العناصر المحيطة بإنتاج الخطاب بما في ذلك طرفا الخطاب وزمانه ومكانه والمعارف العامّة والمعارف المشتركة . . . وكل ما من شأنه أن يؤثّر في إنتاج الخطاب ، ولا تكتفي هذه العناصر بلحظة التلفّظ وإنما تمتدّ لتشمل الواقع الذي يسبقها وتستشرف المستقبل الذي يمكن أن يليها . بذلك يكون السياق عنصرا أساسيّا في تحديد استراتيجيّة الخطاب ، ويؤدّي تحليل السياق إلى اختيار أنسب الاستراتيجيّات التي تضمن تحقيق الهدف .

١-٤ أهداف استراتيجية الخطاب

جعل عبد الهادي الشهري هدف الخطاب معيارا من بين معايير تصنيف

---

(1) Gillian Brown & George Yule, Discourse analysis, P35, Cambridge Textbooks in Linguistics, 1983.

(٢) محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص٥٢ ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، ٢٠٠٦ .

(٣) محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص٥٣- ٥٤ ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، ٢٠٠٦ .

استـراتيـجيّـات الخطاب والتي يحـدّدها بثـلاثة معـايير : معـيار العـلاقة بين طرفي الخطاب ، ومعيار شكل الخطاب ، ومعيار هدف الخطاب ، وقد بنى تصنيفه هذا على تعـريفه للخطاب بأنه «كلّ منطوق موجه به إلى الغيـر للتعـبيـر عن قصـد المرسل ولتحقيق هدفه . إذ يتركّب هذا التعريف من محاور ثلاثة هي : أن الخطاب يجري بين ذاتين ، وأنه يعبّر به المرسل عن قصده ، وأنّه يحقق هدفا[1]» .

يُعـتـبَـر هدفُ الخطاب ، انطلاقـا من هذا التـعـريف المحـدّد والمسلّم به من قـبل الباحث ، معياراً من معايير تصنيف الاستراتيجيّات ، ولم يشر الباحث إلى إمكانيّة أن تكون هذه العناصر مفتوحة وقابلة للإثراء . ويميّز الشهري بين الهدف والقصد في الخطاب ويرى أن الهدف هو ما نسعى إلى تحقيقه بأفعالنا اللغوية التي يتضمنّها الخطاب ، أما القصد فهو ينبني على جانبين : أولاً ، جانب إرادة التلفّظ عند المخاطِب ، وثانيا المعنى الذي يريد المخاطِب إبلاغه للمخاطَب . وهو يعتبر أن الهدف هو الباعث على إنتاج الخطاب ، وبذلك فهو يؤثّر تأثيرا مباشرا في الاستراتيجية التي يتبنّاها المخاطِب أثناء إنتاج خطابه ، ويمكن التصريح بهذا الهدف عند الضرورة لتأكيده .

للنصّ هدف استراتيجيّ يظهر جلياً لمستقبِل النص من خلال النصّ نفسه ، كما يتجلى في جميع وسائل الإعلام الدلاليّة والتداوليّة التي تتضافر لإيصاله إلى مستقبله . وينبغي والحال هذه أن يُعلم أن الأهداف الاستراتيجيّة قد تتعدّد ، ولا يمكن أن يحدّها حدٌّ معيّنٌ . لذلك فإنه من غير الصواب تصنيف الاستراتيجيّة بناء على الهدف المتغير المتعدّد المتنوع دون النظر في الجوانب الاستراتيجيّة الأخرى .

ينبـغي عـدم الخلط بين هدف النصّ وهدف منتج النصّ ؛ لأن هدف منتج النصّ إضافة إلى احتمال توافقه مع هدف النصّ قد يكون شيئاً آخر يتوسّل إليه إما بواسطة تحقّق هدف النصّ أو تحقّقه بطريقة ما أو حتّى عدم تحقّقه ، ولذلك ينبغي لمستقبل النصّ أن يحاول إيجاد هدف آخر للنصّ غير الهدف المعلن فيه ، إذا ما أراد فهم هدف منتج النصّ لا هدف النصّ فحسب ؛ ومن ثم يكون مخيّراً في التعامل مع أي الهدفين شاء .

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، ص٨٦ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ليبيا ، ٢٠٠٤ .

خلاصات

نشأ مفهوم الاستراتيجية في الحقل العسكري ، وانطلاقا منه انتشر في حقول عديدة وحافظ على المعنى العام الذي اكتسبه في حقل النشأة ، وهو مجموعة الطرق المختارة للقيام بمهمة أو لحلّ مشكلة أو بلوغ غاية بعينها .

تتحقق الاستراتيجيّة ، عموما ، عبر المرور بمرحلتين :

- مرحلة التفكير : ويتم فيها التخطيط ذهنيّا
- مرحلة الإنجاز : تنفيذ ما تمّ تخطيطه .

في الخطاب يتحدّث الباحثون عن الاستراتيجيّة باعتبارها شرطا من شروط إنتاج الخطاب ، تلازم إنتاج الخطاب لأنها تمثّل مجموعة الاختيارات الممكنة التي يتوخّاها المتكلّم حين يستعمل اللغة . وبذلك تخضع الاستراتيجيّة إلى الذات والمجموعة باعتبارهما وعاءين حاملين لمجموعة من الإكراهات المتمثّلة في القوانين والمواضعات والمعارف المشتركة .

نستنتج كذلك أن الاستراتيجيّة الخطابيّة تقوم أساسا على الذات المتكلمة وعلى مجموعة القواعد والمواضعات وعلى الغاية والهدف من الخطاب . ويدمج مفهوم المواضعة المخاطَب الذي سيفهم الخطاب انطلاقا من هذه المواضعة والقوانينَ المتحكمة في عمليّة إنتاج الخطاب

الفصل الثاني:
التحليل النقدي للخطاب

تمهيد

ارتكزت النظريّة النقديّة على المقاربات النظريّة للفنّ أو للنقد الأدبي الاجتماعي وعلى تضافر بعض الاختصاصات العلميّة ، وهي بذلك تقوم على أصول نظريّة متعدّدة . وقد ظهرت النظريّة النقديّة بين الحربين (العالمية الأولى والعالمية الثانية) وسمّيتْ «مدرسة فرانكفورت» . ومن مميّزات هذه النظريّة أنها تحاول دمج التفكير الفلسفي ببعض العلوم التجريبيّة . ويرى أغلب المنتمين إلى هذه المدرسة أن التحليل النقدي للخطاب ليس موقفا محدّدا سواء على الصعيد النظري أو المنهجي ، وهم يعتقدون أن التحليل النقدي للخطاب يستند إلى تقاليد متنوّعة «منها النقد الإيديولوجي ، وعمل ألتوسار ، والماركسية ، وأعمال مؤسّسي مدرسة فرانكفورت ، وميخائيل باختين في نظريّته الحواريّة للغة وعمله على الجنس الأدبي ، وفوليشينوف في فلسفة اللغة ، وميشيل فوكو في نظرية الخطاب ، والنظرية المعرفية .

واستنادا إلى هذه النظريّة النقدية نشأ التحليل النقدي للخطاب حقلا يحاول أن يستقلّ بذاته رغم اتصاله بعديد المجالات العلمية الأخرى يفيد من منهجها ومن معارفها في مجال تحليل الخطاب .

٢-١ الأساس الفلسفي للنظريّة النقديّة

اعتبرت روث وُوداك أن التحليل النقدي للخطاب وليدُ أصول نظريّة متعدّدة منها الانثروبولوجيا والفلسفة وعلم النفس الاجتماعي والعلوم المعرفيّة والتداوليّة والدراسات البلاغية . وتحدد وُوداك مجموعة من الأسس النظريّة التي يمكن أن نجدها في التحليل النقدي للخطاب وهي الابستيمولوجيا ، والنظريّات الاجتماعيّة ، والنظريّات الاجتماعيّة النفسيّة ، ونظريّات الخطاب ، والنظريّات اللسانية[(١)] .

(1) Wodak, R. & Meyer. M, Critical discourse analysis: History, agenda, theory and methodology, P34, 35 (2009).

نلاحظ أن ما يجمع كل البحوث التي أسّست للتحليل النقدي للخطاب أو البحوث التي تتالت بعدها في نفس الاختصاص هو الفكر الماركسي مع وجوب الإشارة إلى أن النظر إلى هذا الفكر يختلف من باحث إلى آخر .

يرى بعض الباحثين أن ثلاثة أجيال من الفلاسفة أسّسوا للنظرية النقدية[1] :

– الجيل الأول من الثلاثينات إلى الستينات ويرتكز خاصة على أعمال ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو . ويُعدّ مقال «النظريّة التقليديّة والنظريّة النقديّة» الذي نشره هوركايمر سنة ١٩٣٧ حاسماً في دخول مصطلح «النظريّة النقديّة» رسمياً إلى البحوث ، وقد بيّن أنه يستعمل كلمة «نقدي» : «بمعنى أقرب إلى النقد الديالكتيكي للاقتصاد السياسي منه إلى النقد المثالي للعقل الخالص عند كانط» ، وأضاف مؤكداً أهمية الجانب الاقتصادي : «إن أي هجوم على الإيديولوجيا ، إذا كان لا يقوم على تحليل الجانب الاقتصادي ، يعدّ نقداً متهافتاً أو بالأحرى ليس نقداً على الإطلاق»[2] . وبذلك فقد ارتبط مفهوم النقد في هذه الفترة بنقد الإيديولوجيا السائدة انطلاقاً من أسسها الاقتصادية أولاً باعتبار أن الاقتصاد هو المسيّر والموجّه للعلاقات الاجتماعية والمسار الإيديولوجي العام .

يمكن الحديث أيضا في هذا الجيل عن تأثير «كورش» و«لوكاتش» في النظريّة النقدية . فقد عايش المفكّران الأحداث التي وقعت بعد الحرب العالميّة الأولى ، وانتمى لورش إلى الحزب الشيوعي الألماني قصد النهوض به من جديد بعد سقوط الثورة الألمانيّة . وعاش لوكاتش ظروفا مشابهة إذ كان من المنتمين إلى حركة الشيوعيّة المجريّة وشارك في اندلاع الثورة ببلاده التي سرعان ما أُجهضت ورجع النظام الرأسمالي بتدخل غربي ، ولذلك لجأ لوكاتش إلى فيينا .[3]

كان لسقوط الثورتين تأثير كبير في اتجاه عدد من المفكرين إلى إعادة النظر في

---

(1) Encyclopedia of Social theory, edited by Austin Harrington-Barbara L. Marshall- Hans Peter Müller, P113, Routledge, London and New York.

(2) Georg Lukacs, History and Class Consciousness, Studies in Marxist Dialecties, Ch 1 "What is Orthodox Marxism" P1, Translated by Rodney Livingstone, Merlin Press, 1971.

(٣) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ٩٤ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣ .

الطرح الماركسي وإيجاد نظرية تُطوّر الجانب النقدي في فكر ماركس ، لاسيّما وأن الثورة السوفياتية قد حققت نجاحا وبرهنت على أن هذا الفكر يمتلك من الفاعليّة ما يمكّنه من تطبيق نظرياته على الواقع والنجاح في محاربة الرأسماليّة . ولكن النقاش كان أساسا حول كيفيات التطبيق على أرض الواقع بالنظر إلى خصوصية هذا الواقع . ولذلك طرح كل من كورش ولوكاتش هذه القضية .

يرى لوكاتش أن النظرية النقدية تعني عدم التسليم بنتائج التفكير الماركسي ، يقول في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» وبالتحديد في الفصل الأول الذي عنْونه بـــــ«ماذا تعني الماركسية الأرثودوكسية؟» : «الماركسية الأرثودوكسية . . .لا تعني التسليم غير النقدي بنتائج البحث الماركسي ، وهي لا تعني الإيمان بأطروحة معينة ، وهي ليست تفسيرا لكتاب مقدس ، عكس ذلك تماما فإن الماركسية الأرثودوكسية تعود حصريا بالنظر إلى المنهج . إنها القناعة العلميّة بأن الجدليّة الماديّة هي السبيل الوحيد إلى الحقيقة ، وأن مناهجها قابلة للتطوير والتوسّع والتعمّق على طول الخطوط التي رسمها لها مؤسّسوها .»[١] ونشير إلى أن لوكاتش ألف هذا الكتاب بين سنتي (١٩١٩) ألف وتسعمائة وتسعة عشر ، وألف وتسعمائة واثنتين وعشرين (١٩٢٢) .

يهدف لوكاتش من خلال النقد إلى جعل طبقة البروليتاريا تعي وضعها ، لأن ذلك الوعي هو السبيل إلى تخليصها مما تعانيه من اضطهاد وحرمان ، وهذا الوعي يتم عبر إحساس هذه الطبقة بمسؤوليتها التاريخية ، «إن معرفة الذات ، سواء الذاتيّة أو الموضوعية ، بالنسبة إلى البروليتاريا في مرحلة معيّنة من تطورها هو في الوقت نفسه معرفة لمرحلة التطور التي تحققت عن طريق المجتمع كله»[٢] .

يرى لوكاتش «أن وعي الناس ليس هو المحدّد لوجودهم بل على عكس ذلك فوجودهم هو المحدّد لوعيهم[٣]» ، ولذلك فإن العالم بالنسبة إليه هو نتاج للنشاط البشري وهو يتّفق مع ماركس في أن الايديولوجيا عبارة عن إسقاط الطبقة البرجوازية لوعيها على طبقة البروليتاريا ساعية من وراء ذلك إلى منع البروليتاريا من الوصول إلى

(1) Georg Lukacs, History and Class Consciousness, Studies in Marxist Dialecties, Ch 1 “What is Orthodox Marxism” P1, Translated by Rodney Livingstone, Merlin Press, 1971.

(2) op.cit, Ch 1" What is Orthodox Marxism” P1.

(3) op.cit, P5.

درجة الوعي التي تمكنها من الثورة على أوضاعها ، وهي كما يصفها ماركس وأنجلز في كتابهما «الإديولوجيا الألمانية» مجرد «امتداد للبناء العلوي للطبقة الحاكمة» ، وأن أفكار الطبقة المسيطرة ماديا تكون هي الغالبة في المجتمع وتمثّل القوّة الفكريّة المهيمنة التي تسعى إلى تشويه الحقائق خدمةً لمصالحها ، لذلك يقول عنها انجلز إنها «وعي كاذب» .

انتقد كورش الماركسية التي تدّعي أنها علم مادي ، ودعا في بحث بعنوان «الماركسية والفلسفة» إلى أن تعود الماركسية إلى المنهج الجدلي كما تصوّره هيغل ، لأن نقد ما هو قائم لا يكون إلا عبر هذه النظرية[(١)] .

– الجيل الثاني بداية من الستّينات إلى التسعينات ويمثله يورغن هابرماس أحد أبرز روّاد المدرسة الألمانية في النقد في ذلك الوقت ، وبرز تأثير التفكير الماركسي جلياً في أعمال رواد هذا الجيل . واشتهر يورغن هابرماس بالنقد الاجتماعي والسياسي ، لذا تبنى النظرة الهيغليّة الماركسية للتاريخ ولتطوّر المجتمع . انتقد يورغن هابرماس الإيديولوجيا انطلاقا من علاقتها بالوعي الاجتماعي على المستويين النظري والمادي «وعلى المستويين يربط مفهوم الإيديولوجيا بنقد الإيديولوجيا ، وبالنقد الاجتماعي ذلك أن نقد إيديولوجيا ما يستلزم كشف القوة الاجتماعيّة صاحبة المصلحة في ترويج أفكار بعينها[(٢)]» .

ما دعا يورغن هابرماس إلى نقد إيديولوجيا الطبقة البرجوازية هو كونها تمثل غطاء للحقائق يعطي الانطباع الذي تريد الطبقة البرجوازية إيصاله إلى المجتمع ، ويخفي حقيقة البؤس الذي تعانيه الطبقة الشغيلة . ولذلك يقترح يورغن هابرماس أن تكون وظيفة النقد هدما وإزاحة لهذه الأفكار المغالِطة ثم بناء وتجديداً لأفكار تنادي بالمساواة والحريّة وحفظ حقوق الفقراء والأقليات . «ويعلّق يورغن هابرماس أهمية خاصة على نقد الأيديولوجيا ، ذلك أن التحليل الناقد يقوم على مستوى المجتمع ، ويقوم النقد الأيديولوجي بكشف ما يخبئه النظام السائد من خلال الهيمنة الأيديولوجية مما

---

(١) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ٩٧ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣ .

(٢) أحمد أنور ، النظرية والمنهج ، ص٤ .

ينطوي عليه النظام من استغلال وقهر ، ويقوم النقد الأيديولوجي بتبديد الأوهام والدعاوى الأيديولوجية الزائفة»[١] .

نادى يورغن هابرماس بضرورة الاستفادة من العلوم الاجتماعيّة وعلم النفس ، وعدم الاقتصار على العلوم الحقّة التي تكوّن أساس النظريّة الوضعيّة . واهتمّ بالخطاب وخاصّة بوضعيّة التواصل ولاسيّما في كتابه «نظرية الفعل التواصلي»[٢] . وسنعرض لنظرية هذا الباحث بأكثر تفصيل في عنصر «ميلاد مدرسة فرانكفورت أو النظريّة النقديّة» .

– أما الجيل الثالث فقد بدأ يبرز منذ الثمانينات واقترن بأعمال «أكسال هونّاث» وبعض الباحثين الآخرين[٣] . وقد اتفق هؤلاء الباحثون على التزام النضال الاجتماعي ونقد الواقع الاقتصادي والسياسي .

لهذه الأجيال الثلاثة تأثير مباشر في فهم النقد في التحليل النقدي للخطاب إذ أنها مثّلت الأساس النظري لهذا المجال وجعلت من النقد أداة تحليل للخطاب ومبضع تشريح لما ينتجه المجتمع من خطابات في شتّى المجالات .

على هذا الأساس الفكري والنظري واصل فان دايك وكذلك وُوداك ، وغيرهما من مؤسّسي التيار النقدي الحديث في تحليل الخطاب ، أعمالهم رافضين قبول المسلّمات منتقدين ومسائلين الأفكار المنتشرة في المجتمع . وعلى الرغم من اعتراف هؤلاء الباحثين بأن لمصطلح النقد معانيَ وتفسيرات متنافرة في سياقات ثقافيّة مختلفة فإنهم لا يتجاوزون تعريفه ؛ ومن ذلك ما ذهب إليه فان دايك محدداً هذا المفهوم في مجال التحليل النقدي للخطاب بكونه «استعمال التفكير العقلاني لمساءلة البراهين أو الأفكار المقبولة ، وترجمتُه عدم قبول شيء ما على أنه متّفق عليه ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص٦ .

(٢) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابيرماس ، ترجمة محمد حسين غلوم ، عالم المعرفة ، العدد ٢٤٤ ، أبريل ، ١٩٩٩ .

(2) Encyclopedia of Social theory, edited by Austin Harrington-Barbara L. Marshall- Hans Peter Müller, P113, Routledge, London and New York.

وبالتالي تحدّي المعاني السطحية وتمحيصها»[1] . وقد جعلت هذه النظرة إلى مفهوم النقد تحليلَ الخطاب عند هؤلاء الباحثين يهدف إلى تقديم صيغة أخرى أو منظور آخر من أجل التنظير والتحليل والتطبيق في الحقل برمته[2] .

٢-٢ ميلاد مدرسة فرانكفورت أو النظريّة النقديّة

تستخدم عبارة مدرسة فرانكفورت على نطاق واسع ، لكن بطريقة فضفاضة أحيانًا ، لتدلّ في آن واحد على مجموعة من المفكرين وعلى نظريّة اجتماعيّة بعينها . وحدّد محمد حسن محمد في كتابه «النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز» ، مراحل نشأة هذه المدرسة وربطها أساسا بمفكّرين صدرت أبحاثهم في إطار معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعيّة ، الذي يرجع الفضل في تأسيسه إلى مجموعة من الباحثين هم فيلكس فايل (Felix Weil) وفريدريك بولوك (F.Pollock) وماكس هوركهيمر (Max Horkheimer) . وفي سنة ١٩٢٢ صدر بيان حول نشأة المعهد ، «وحدد «فايل» هدف المعهد بأنه معرفة وفهم الحياة الاجتماعيّة في شموليتها بدءا من الأساس الاقتصادي حتى البناء الفوقي[3]» . وأكّد فايل استقلاليّة المعهد وعدم ارتباطه بأي تيّار حزبي ، ولكنه مع ذلك يبحث في المشكلات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في ضوء الماديّة التاريخيّة .

تولى إدارة المعهد باحثون متميزون تركوا بصماتهم على التوجّه العام لهذه المؤسّسة ويمكن أن نتحدّث عن مراحل ترتبط كل منها بشخص من تولى الإدارة :[4]

---

(1) Teun.A.Van Dijk, Critical Discourse Analysis, P40, The Handbook of Discourse Analysis, Edited by Deborah Schiffrin, Deborah Tannen and Herdi E.Hamilton, Blackwell publishers, Ltd, USA, UK, 2001.

(2) Van Dijk, Encyclopedia of Social theory, edited by Austin Harrington-Barbara L. Marshall- Hans Peter Müller, P113, Routledge, London and New York.

(٣) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ١٠٠ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

٢-٢-١- مدرسة فرانكفورت في فترة التأسيس: «كارل جرونبرج»

تولى جرونبرج إدارة المعهد سنة ١٩٢٣ ، وكان يميل إلى النظريّة الماركسيّة وحاول من خلالها نقد الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي السائد والمتميّز ، بحسب رأيه ، بالظلم والاستبداد وسحق طبقة البروليتاريا ومعاداة الأقلّيات العرقيّة خاصّة عندما صعد النازيّون إلى الحكم .[١] ولم يتوضّح كثيرا التوجّه النقدي لمدرسة فرانكفورت في هذه الفترة مثلما صار في الفترة التي تلتها ، ولكن المنخرطين فيها حدّدوا موضوعات رئيسية للبحث ، وحددها Philip Slater كما يلي :

- المادية التاريخيّة والأساس الفلسفي للماركسيّة .
- الاقتصاد السياسي .
- مشكلات الاقتصاد المخطّط .
- مهام البروليتاريا .
- علم الاجتماع .
- تاريخ المذاهب والأحزاب الاشتراكيّة .[٢]

برز باحثون في صلب المعهد ومنهم هنريك جروسمان (H.Grossmann) الذي نشر بحثا انتقد فيه النظام الرأسمالي وبيّن أن الثورة لا تكون من طبقة البروليتاريا وحدها وإنما تتمّ بمساعدة المثقّفين الذين يناضلون لصالحها ، وما يجمع «جروسمان» و«جرونبرج هو إيمانهما بالنظريّة الماركسيّة الأرثودوكسيّة كما جاء بها ماركس وارتباطهما بتجربة الاتحاد السوفياتي . وألّف «فريدرك بولّوك» في هذه الفترة نفسها «تجارب التخطيط الاقتصادي في الحكومة السوفييتية ١٩١٨-١٩٢٧» وفيه درس الباحث الشيوعيّة الماركسيّة من خلال تجربة واقعيّة محدودة زمانيا ومكانيا ، وهذا ما أعطى أهميّة كبيرة لبحثه . وفعل «كارل أوغست فيتفوجل» الشيء نفسه بأنْ خصّص دراسته للمجتمع الصيني في كتابه «الاقتصاد والمجتمع في الصين» .

---

(1) Phil Elliot Slater, Origin and significance of the Frankfurt school, Rotledge and Kegan Paul, London, 1980.

(٢) ترجمة حسن محمد حسن ، ص ,١٠٢

٢-٢-٢- مدرسة فرانكفورت في مرحلة النضج: «ماكس هوركهيمر»

واصل المعهد في هذه الفترة – التي بدأت مع تولّي «ماكس هوركهيمر» الإدارة سنة ١٩٣١– السير في خطّ بعيد عن الانتماءات السياسيّة الحزبيّة ولكنه لم يكن وفيّا للماركسيّة الارثودوكسية كما يراها «بولّوك» باعتبارها علما لا يُناقش ، وإنما ركّز هوركهيمر على الفلسفة في صلب النظريّة النقديّة الاجتماعيّة . وهذا لا يعني أنه تنكّر لمشروع المعهد وهو «الماديّة التاريخيّة» وإنّما أراد أن تكون دراسة الماديّة التاريخيّة من وجهة نظر فلسفيّة ؛ وهذا ما حدا به إلى أن يجعل عنوان مقالته الافتتاحيّة «الحالة الراهنة للفلسفة الاجتماعيّة وواجبات معهد الأبحاث الاجتماعية .»(١)
وعندما تولّت القوّات النازيّة الحكم بدأت مدرسة فرانكفورت النضال ضد معاداة الساميّة ودراسة علاقة الفرد بالسلطة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي . وظهر في تلك الفترة كتاب مشترك بين عدد من الباحثين منهم «هوركهيمر» و«هربرت ماركيوز» و«إيريك فروم» بعنوان «دراسات في السلطة والأسرة» أعقبه بحث مشترك كذلك بعنوان «الشخصية المتسلّطة»(٢) .

مثّل تولّي الحزب النازي الحكم عائقا أمام نشاط المعهد خاصة بعد تسبّبه في وفاة أحد المنتمين إليه وهو والتر بنيامين (Walter Benjamin)(٣) . كما أن الصبغة الماركسيّة التي تنضوي تحتها بحوث المجموعة المنتمية إلى هذا المعهد جعلت مواصلة نشاطه أمراً صعباً ، زيادة على أن أغلب أعضاء المعهد كانوا في ذلك الوقت يهودا . ونتيجة لذلك نقل هوركهيمر نشاط المعهد إلى فرعه بجنيف ثم إلى أمريكا . وتواصل إنتاج البحوث على المنهج نفسه وفي المسار نفسه الذي رُسم للمعهد عند تأسيسه . وفي سنة ١٩٣٧ نشر هوركهيمر بحثا بعنوان «النظرية التقليدية والنظرية النقدية» ، ونشر ماركيوز «الفلسفة والنظرية النقدية» ، وأحدث كتاب «خسوف العقل»

---

(١) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ١٠٤ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣ . .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ .

(٣) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ص ٢١٢ ، ترجمة محمد حسين علوم ، مراجعة محمد عصفور ، عالم المعرفة ، ١٩٩٩ .

(l’éclipse de la raison) ردوداً انقسمتْ بين من اعتبروه متشائما وبين من رأوا فيه نقدا لاذعا للايديولوجيا .

تجلّى تطوير هوركهيمر لدور الفلسفة خاصة في نقده للمذهب الوضعيّ الحديث modern positivism ، كما أنه زعزع أسس الميتافيزيقا بل واعتبرها قد انتهت على يديه ، وذلك من خلال مقاله «الهجوم الأخير على الميتافيزيقا» الذي صدر سنة ١٩٣٧ . ويرى توم بوتومور (Tom Bottomore)[١] أن ذلك تمّ عبر مستويين :

المستوى الأوّل ، «يؤكّد فيه الارتباط بين أسلوب التفكير وموقف الجماعة الاجتماعية ، من خلال إطار الأفكار المشتقّة من علم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge [. . .] وهو ما يتّضح في قوله «إن الميتافيزيقا الرومانسيّة الجديدة والوضعيّة الراديكاليّة على حد السواء ، توجد جذورهما في الحالة الكئيبة الراهنة للطبقة المتوسطة» أو عندما يذكر «أن النظام الشامل للمذهب الأمبيريقي الحديث ينتمي إلى عالم الليبيراليّة الذي ولّى»»[٢] .

أمّا المستوى الثاني فيهمّ نقد الوضعيّة التي يعتبرها نظريّة تتعالى على طبيعة البشر ، وتعتبرهم أشياء مجرّدة داخل أنظمة محددة وميكانيكيّة ، وهي كذلك تتصور العالم مبنيا على التجربة فقط ، وأخيرا فهو يعيب على الوضعيّة فصلها المعرفة عن مصلحة المجتمع . ويقدّم هوركهيمر البديل في النظرية الجدليّة التي يرى أنها تراعي الواقع ، ومن خلالها يتمكّن الإنسان الذي يملك الحسّ السّليم من الوعي بما يحيط به ويساهم في تغيير الأوضاع المزرية التي تعيشها الطبقات المهمّشة .

ترتكز النظريّة النقديّة عند هوركهيمر على رفض المنهج التقليدي في التعامل مع الحقائق من وجهة نظر معيّنة تخدم مصالح طبقة معيّنة ، ويدعو إلى أنّ «الحقائق في نشأتها من فعل المجتمع ، ليست كلها عرضيّة بنفس الدرجة ، حيث أنها بالنسبة إلى التفكير النّقدي . . العالم الواسع المعرفة . . مدفوعة اليوم بالجهد المبذول حقّا من أجل التفوّق على التوتّر وإلغاء التعارض بين أهداف الفرد ، وعفويّته ، وعقلانيّته ، وبين هذه

---

(١) توم بوتومور ، مدرسة فرانكفورت ، ص ٤٣ ترجمة سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٣ .

العلاقات المعتملة التي يقوم عليها المجتمع»[1] ويرى هوركهيمر أن الحقائق نفسَها النابعة من وضع البروليتريا لا يمكن اعتبارها مصدرا لمعرفة سليمة لأن هذه الطبقة لا تكون عادة واعية بوضعيتها ، وتكون معرفتها للواقع معرفة سطحية . ولذلك على الناقد (والمدرسة النقديّة بصفة خاصّة) أن يتولّى مهمّة تقديم هذا الوعي للطبقة الشغيلة ولبقيّة طبقات المجتمع الأخرى حتى تتّضح الوظائف صلب المجتمع . إن عدم ثقة هوركهيمر في الطبقة العاملة مَصدراً للمعرفة الاجتماعية كان سببا من الأسباب التي عمّقت نظرته التشاؤميّة وتسليمه بعدم وجود قوّة من داخل المجتمع قادرة على التغيير .

نجد هذه النظرة كذلك لدى لوكاتش في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» . ويعتبر هوركهيمر أن «القبول النّقدي بالمقولات التي تحكم الحياة الاجتماعية ، يحتوي على إدانتها في وقت واحد[2]» ، وهذا هو في الحقيقة التوجّه العام الذي تبنّته مدرسة فرانكفورت في أغلب تياراتها ، وذلك إلى جانب مبادئ أخرى نادى بها هوركهيمر ومثّلت أسسا للمدرسة ، وأهمّها أن المبدأ التجريبي من خلال الإدراك الحسّي لا يوصل إلى الحقائق وبالتالي فهو مبدأ غير ملائم ، وكذلك نقد الوضعيّة بما هي تصفيف لحقائق منعزلة عن أصولها الاجتماعيّة ، ثم إصراره على أن الوضعيّة لا ترى من الأشياء سوى مظهرها الخارجي وأنها لا تبحث في جوهرها الذي يتّصل مباشرة بالحياة الاجتماعيّة .

يرى توم بوتومور أن هوركهيمر انتقل إلى نوع من الفكر الديني قادته إليه خيبة أمله في الوصول إلى الحقيقة كما أرادها هو . وينسب إليه القول بأن المهم في اللاهوت هو «الوعي بأن العالم مظهر ، وأنّه ليس الحقّ المطلق أو الغاية النّهائيّة [. . .] وإنني لا أعتقد أنه توجد هناك أيّة فلسفة يمكن أن أقبلها وتكون غير مشتملة على عنصر لاهوتيّ[3]» . ولكنّ هذا التشاؤم لم يطل كل مفكّري مدرسة فرانكفورت بل واصل أغلبهم النضال دفاعا عن الفئات المهمّشة والضعيفة وخاصة التي كانت من أصل يهودي .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٥ ترجمة .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٥ مأخوذ عن (Horkheimer,M..Op.Cit.,p183) .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٨ .

٢-٣ تطور مدرسة فرانكفورت

٢-٣-١ هربرت ماركيوز

انضمّ ماركيوز إلى معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية سنة ١٩٣٢ ، وشغل وظيفة الخبير المقيم للمعهد في شؤون الفلسفة والنظرية السياسية[١] ، وخضعت أبحاثه للتيار الذي كان سائدا في مدرسة فرانكفورت واتسم بسمة ماركسيّة واضحة . ولم يُسلّم ماركيوز مثله مثل أدورنو وهوركهيمر بالتحليل الماركسي للبنية الاجتماعية مثلما فعل لوكاتش لأنهم رأوا أن الرأسمالية التي حللها ماركس لم تعد موجودة بنفس الصورة التي كانت عليها عندما حلّلها ماركس «هي رأسماليّة لم تعد قائمة» كما يقول «إيان كريب» . ويرى كريب أيضا أن لوكاتش ومن سبقه «لم يقدموا تحليلا بنائيا بديلا» بينما مثّلت أعمال ماركيوز ركيزة أساسيّة في بلورة النظرية النقدية[٢] .

ما يؤيد توجهه نفس الوجهة مع هوركهيمر هو اشتراكهما في كتابة بعض الدراسات مثل «دراسات في السلطة والأسرة» و«الشخصية المتسلطة» . وقد ركزت هذه الدراسات على التحليل الاجتماعي للسلطة ولبعض الظواهر التي طرأت في المجتمع مثل صعود الفاشيين للحكم سنة ١٩٣٣ ، وتأثير ذلك في المجتمعات الغربيّة . وانتقل ماركيوز إلى الولايات المتحدة بانتقال المعهد إليها وذلك سنة ١٩٣٤ ، وواصل البحث ونشر سنة ١٩٣٧ «الفلسفة والنظرية النقدية» ، وكان بحثا يندرج ضمن سلسلة من البحوث أطلق عليها ماركيوز عنوانا شاملا هو «مقالات في النظرية النقدية» شرح فيها توجّه هذه النظريّة القائم أساسا على علم الاجتماع والفلسفة الجدلية ونقد الاقتصاد السياسي .

ثم نشر سنة ١٩٤١ كتابا لاقى صدى طيبا في الأوساط العلمية وهو «العقل والثورة» . وتتالت مؤلّفات ماركيوز في نفس التوجّه مع الاهتمام بالجانب النفسي وذلك في كتابه «أيروس والحضارة» الذي أصدره سنة ١٩٥٥ واهتمّ فيه بفكر فرويد ، وبالتحديد بما سمّاه «الاتجاه الخفي في التحليل النفسي» إذ كان يعتبر أن تحليل فرويد

---

(١) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ١٠٥ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ٨٨ .

(٢) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ص ٢١٣ ، ترجمة محمد حسين علوم ، مراجعة محمد عصفور ، عالم المعرفة ، ١٩٩٩ .

يتضمّن اتجاها نقديّا خفيّا . وفي كتابه «الماركسية السوفييتية» ١٩٥٨ حلّل ماركيوز تحليلا نقديّا التطور الذي عرفه الاتحاد السوفياتي منذ عهد «لينين» إلى ما بعد «ستالين»[١] ، وخرج بذلك عن مجرد التأريخ للجوانب السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لهذا البلد ، باقتراح نظرة نقديّة تحلّل الظواهر تحليلا اجتماعيا نفسيا . وبذلك أسّس للنظريّة الجدليّة التي ارتكزت بشكل مباشر على فلسفة فريديريك هيجل[٢] .

٢-٣-٢ جورج لوكاتش (١٨٨٥-١٩٧١)

سنعتمد في تقديم نظريّة هذا المفكر أساسا على كتاب إيان كريب «النظريّة الاجتماعيّة من يارسونز إلى يورغن هابرماس» (Ian Craib, Modern social theory) . يرى مؤلف هذا الكتاب أن أفكار جورج لوكاتش التي وسمها بالماركسيّة الهيغليّة قد مثّلت أساسا فلسفيّا للمدرسة النقدية ، بل واعتبر أنها إحدى طرق البحث عن مخرج للأزمة التي يرى أن المدرسة الألمانيّة مرّت بها في بحثها عن الطريق الأمثل لمساعدة الطبقة العاملة والفئات المهمّشة على تحسين وضعيّتها . ويمكن أن نذكر بهذا الصدد بعض المفاهيم ومنها :

- مفهوم «الكل» (totality)

ويفيد «أنّ المجتمع البشري والحياة يشكّلان كلاّ متناسقا»[٣] . ومن خلال هذا المفهوم يرى لوكاتش أن المعرفة الإنسانيّة تعتمد على الوضع التاريخيي العام للبشريّة وليس للأفراد ؛ كما أن هذه المعرفة قابلة للتفاضل أي أننا يمكن أن نجد معرفة أشمل من أخرى ، وبالتالي فالمجتمعات في تطوّرها يمكن أن تُنتج معارف ونظريّات متنوعة

---

(١) حسن محمد حسن ، النظرية النقدية عند هاربرت ماركيوز ، ص ١٠٧ ، دار التنوير ، بيروت ، الطبعة ١ ، ١٩٩٣ .

(٢) توم بوتومور ، مدرسة فرانكفورت ، ص ٤٧ ترجمة سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨ .

(٣) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ص ٣٠٣ ، ترجمة محمد حسين علوم ، عالم المعرفة ، ١٩٩٩ .

ومتفاوتة . أما معيار الاختيار فهو مدى قدرة نظريّة على الإحاطة بالظواهر وشموليّتها .

تعطي هذه النظريّة أهميّة كبرى لمعرفة الكل وليس لمعرفة الأجزاء ، لأن المعرفة الحقّة في هذا المنظور هي إدراك الأشياء في كليّتها ، مع مراعاة كيفيّة انتظام العناصر داخلها . ونجد آثار هذه النظريّة – التي أخذ لوكاتش أصولها من ماركس– في البحوث الحديثة التي تهتمّ باكتساب الطفل المعرفة ، إذ رفع بعض الدارسين في هذا المجال شعار «معرفة الأجزاء لا تعني معرفة الكلّ» ، ومثّل ذلك معرفة آليّات الحساب من جمع وطرح وضرب وغيرها لا تعني أن الطفل قادر على حلّ وضعيّة رياضيّة شاملة يتطلّب حلّها استعمال هذه الآليات . وهذا ينطبق على تعلّم القراءة ، فالقراءة الشّاملة هي إدراك الجمل كوحدات قبل تعلّم الكلمات والحروف التي تكوّن هذه الجمل .

المثال الذي يذكره ايان كريب لتفسير مفهوم «الكل» في نظريّة لوكاتش قريب جدّا ممّا ذكرناه سابقا ، يقول «وهذا الرأي يفترض مسبّقا أن المعرفة الحقّة هي معرفة الكلّ وليست معرفة أجزاء مختلفة منه ، وليس من الممكن أن أعرف شكل الغرفة عن طريق معرفة شكل أجزائها المختلفة ، ذلك أنني أستطيع أن أكوّن فكرة جيّدة عن الكراسي والطاولة ولون السجّادة والحيطان وغيرها ، بيْد أنّني لن أعرف الغرفة إلا إذا عرفت الطريقة التي تنتظم فيها هذه الأجزاء جميعا في كلّ واحد[(١)]» . وهذا ما طبّقه لوكاتش على المجتمع ، إذ اعتبر أن معرفة المجتمع التي يمكن أن تقود إلى تغييره والفعل فيه لا بدّ أن تكون معرفة عامّة ، مع مراعاة العلاقات التي تربط مختلف الفئات الاجتماعيّة بالنظم الاقتصاديّة والثقافيّة وغيرها . ويرى لوكاتش أن الوعي بأهميّة مفهوم «الكلّ» هو الذي سيمكّن من محاربة الرأسماليّة بنفس السلاح الذي تستعمله للهيمنة وهو استغلالها لهذا المفهوم .

- مفهوم «الممارسة» (praxis)

يقترح لوكاتش ضمن نظريّته مفهوما آخر هو مفهوم «الممارسة» ، ويتمثّل في جميع الأنشطة التي يقوم بها الإنسان (فردا أو مجموعة أفراد) داخل المجتمع ، بما في ذلك التفكير والتخطيط والتنفيذ وربط العلاقات مع الغير (أشخاصا أو هيئات

---

(١) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ص ص ٣٠٤-٣٠٥ ، ترجمة محمد حسين علوم ، عالم المعرفة ، ١٩٩٩ .

أومنظمات اجتماعيّة) . وتمكّن الممارسة من تطوير المعرفة بأمور المجتمع ، ووضع معرفة الفرد في إطار أكبر يجعلها قابلة للتطوّر ، ويمكّن بالتالي من تقليص صفة النسبيّة التي يرى لوكاتش أنها تلازم كلّ معرفة مهما كان نوعها .

٢-٣-٣ ثيودور أدورنو

تتمثّل مساهمة أدورنو في إثراء النظريّة النقديّة من خلال توجّه النقد الثقافي ، وقد وضّح ذلك في كتاب له بالاشتراك مع هوركهيمر كُتب سنة ١٩٤٤ بعنوان «جدل التنوير»[١] ، وفيه ينقد أدورنو النزعة الوضعيّة والعلم الذي يعتمد على الحواس كمصدر رئيسي للمعرفة . ويرى أغلب الباحثين أن أدورنو كرّر ما كان هوركهيمر يقوله من قبيل أن الوضعيّة لا تهتمّ إلا بالحقائق السطحيّة وتهمل كل ما هو نابع من التحليل الدقيق والعميق للأشياء . ويرى أن الوضعيّة تساهم في الانحطاط الثقافي للمجتمعات ، ولذلك «تغرق البشريّة في نوع جديد من الوحشيّة بدل أن تدخل إلى حالة إنسانيّة حقيقيّة[٢]» . ويعتبر أدورنو أن العلم الوضعي هو الذي يساعد على نموّ الهيمنة وتصاعد الفوارق بين الطبقات . ومقابل ذلك يطرح مقترحا يهتمّ بالثقافة ويعبّر عنه بـ«صناعة الثقافة» ، ذلك أن التقدم التكنولوجي قد أنتج ثقافة تخدم مصالح البرجوازيّة وتنتهك حقوق الطبقة العاملة والفئات الضّعيفة ، وبذلك فهو يتناقض مع الفكر النّقدي .

يرى أدورنو أن تجليّات الفكر البشري هي الطريقة الأنسب لفهم العلاقات السّائدة في المجتمع وبالتالي المساهمة في نقده ومحاولة تغييره من منظور اجتماعي ثقافي نفسي . واعتمد أدورنو هذا التوجه لينتقد معاداة الساميّة ، وخصّص له مقالا ضمن كتاب «جدل التنوير» بعنوان «عوامل معاداة السّاميّة» . ويرى أن التحرّر من الهيمنة والظلم الذي تسلطّه الطبقة الحاكمة والمالكة لوسائل الإنتاج لا يتم إلا عبر الفنّ الذي يرى أنه يملك القوّة لمواجهة العلم ولإعادة بناء المجتمع من جديد .

يتّفق أدورنو مع هوركهيمر في مقالاته الأولى في أن الطبقة المضطهَدة ليست

---

(1) English edition, Herder and Herder, N. Y., 1972.

(٢) توم بوتومور ، مدرسة فرانكفورت ، ص ٤٩ ترجمة سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨ .

واعية بأنها تمثّل طبقة لها مقوّماتها ، ولذلك يعتبرها عقيمة اجتماعيّا[١] ولا يمكن أن ينطلق منها السعي إلى التغيير ، ولكن ذلك لا يعني أن الصراع داخل هذه الطبقات سيظل كما هو . ويؤكد أدورنو أن هذا النوع من النظام داخل المجتمع الطبقي يمكن أن يؤدّي إلى الانفجار في أي وقت وإلى تحطيم الطبقيّة داخله أو تغييرها ، وذلك بدافع من قوى لاشخصيّة للعقلانيّة التقنية[٢] (impersonal forces) داخل النظام في حدّ ذاته . وقد طوّر ماركيوز بعد ذلك نظريّة قوّة العقلانيّة التقنيّة .

لا يمكن أن نعمّم الحكم على مؤلّفات أدورنو بأنها كانت تكرارا لما توصّل إليه هوركهيمر ، وذلك لأن أدورنو ترك بصمته في مدرسة فرانكفورت وأدخل عليها تعديلات نابعة من إيمانه بأهميّة الجانب الثقافي والجانب النّفسي في صياغة النظريّة النقديّة . وقدّم أدورنو نظريّته النقديّة كنقد محض لا يروم من ورائه إيجاد البديل وإنما هي سيرورة نقدية وتمشّ يمكن تطبيقه لنقد الوضعيّة وما ولّدته من طبقيّة وفوارق اجتماعيّة اقتصاديّة وعرقيّة .

٢-٤ مفهوم التحليل النقدي للخطاب

اعتبر أغلب الباحثين مقالَ هوركهيمر «النظريّة التقليديّة والنظريّة النقديّة» بمثابة وثيقة ميلاد النظريّة النقديّة وإثباتٍ لهويتها . وترى روث وُوداك أن مفهوم النقد ينطوي على دلالات شديدة الاختلاف ؛ تقول : «ينتسب بعض الباحثين إلى أفكار مدرسة فرانكفورت ، وبعضهم إلى تيار النقد الأدبي ، والبعض الآخر إلى أفكار ماركس» . وبالأساس يمكن أن يُفهم من النعت نقدي تركُ مسافة بيننا والمعطيات ، ووضعها في سياقها الاجتماعي ، وجعل المواقف السياسية المتبادلة واضحة ، والقدرة على مراجعة

(1) Adorno, Reflexionen zur Klassentheorie,, 1942, Vol 8, P373, in Gesammelte Schriften, Suhkamp, Frankfurt. 1972.

(عن كتاب مدرسة فرانكفورت لتوم بوتومور) .

(٢) توم بوتومور ، مدرسة فرانكفورت ، ص ٧٧ ترجمة سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨ .

الذات بوصفك باحثاً جامعياً ينجز بحثاً .»[١] إن ما تضيفه وُوداك إلى تعريفات من سبقها هو ربطها لمفهوم النقد بالطابع التطبيقي للنتائج معتبرةً ذلك في غاية الأهمية بالنسبة إلى كل الذين يهتمّون بالـتحليل النقدي للخطاب (ت .ن .خ) .

هناك مفهوم آخر يستعمل لتعيين هذا الحقل وهو مفهوم «اللسانيات النقدية» ، وترى وُوداك أن هذين المفهومين كثيراً ما استُعملا على نحو مترادف ، ولكن الغالب الذي وقع الاتفاق عليه هو استعمال «التحليل النقدي للخطاب» . على أن وُوداك تفضّل هذه التسمية التي تتخذ الخطاب موضوعاً والتحليل النقدي منهجاً .

يرى فيركلاف[٢] أن تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللساني للنصوص ؛ يقول «أرى أن تحليل الخطاب يتأرجح بين التركيز على نصوص معيّنة والتركيز على ما أسمّيه نطاق الخطاب (ordre de discours)» ويفسر مفهوم «نطاق الخطاب» بـ«البناء الثابت نسبيا للغة الذي يشكّل مكوّنا في بناء الممارسات الاجتماعية والشبكة التي تؤلّفها ، الثابتين نسبيا أيضا» . أما التحليل النقدي للخطاب في رأي فيركلاف فيهتم بنطاق الخطاب أكثر من اهتمامه بالنصوص في حد ذاتها ، وفي هذا المستوى يكون التحليل أوسع مما يقع داخل النص من تفاعلات لسانيّة .

على الجملة فإن فيركلاف يرى أن يجمع التحليل النقدي للخطاب بين التحليل اللساني «ما يحصل في النصوص بعينها» وبين نطاق الخطاب الذي يضمن «التحليل التفاعلي للخطاب» (interdiscursive Analysis) على حد تعبيره ، ويقصد بذلك معالجة النصوص انطلاقا من الاتجاهات المختلفة للخطاب واستعمال الأساليب المتنوعة للنقد . ويشير إلى أنه يستعمل مفهوم النص بمعناه الواسع ، ويعتبر أن أي تمظهر للغة في الاستعمال نصٌّ : «أستخدم مصطلح «النص» بمعنى واسع جدّا .

---

(1) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P9, http://semen.revues.org/8538.

تحيل وُوداك في هذا الشأن على رايسكل وُوداك ٢٠٠١ ، وسايار ٢٠٠٦ ، وذلك للاطلاع على نظرة شاملة لتعريف النقد .

(٢) نورمان فيركلاف ، تحليل الخطاب ، التحليل النصي في البحث الاجتماعي ، ص٢١ ، ترجمة طلال وهبة ، مراجعة نجوى نصر ، المنظمة العربية للترجمة ، سلسلة معرفة للجميع ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٩ .

النصوص المكتوبة والمطبوعة -كقائمة المشتريات ومقالات الصحف- هي «نصوص» ، لكن مدوّنات المحادثات واللقاءات المحكية نصوص أيضا ، كذلك الأمر بالنسبة إلى برامج التلفاز ، وصفحات شبكة المعلوماتية . ويمكننا القول إن أي ظهور فعلي للغة في الاستخدام هو «نص» مع محدوديّة هذا التعريف ، إذ أن برامج التلفاز كنصوص لا تتضمّن فقط اللغة ، وإنما أيضا الصور المرئية والمؤثرات الصوتية[1]» . وبهذا المعنى فإن مفهوم النص عند فيركلاف يتقاطع مع مفهوم الخطاب عند وُوداك وغيرها من الباحثين في مجال التحليل النقدي للخطاب ، خاصة وأن هؤلاء الباحثين مثلهم مثل نورمان فيركلاف ربطوا بين التحليل النقدي للخطاب وبين التفاعلات الاجتماعيّة ، وذلك أن الفاعلين الاجتماعيين ليست لهم الحرية المطلقة في أفعالهم وإنما تخضع هذه الحرّيّة ولو جزئيا لقيود اجتماعية ويخضع فعل كل فرد لقوى سببية فردية وجماعية . ولذلك يرى فيركلاف أن النصوص لا تنتُج فقط من البنى اللسانيّة اللغويّة وإنما تنتَج أيضا من مختلف البنى الاجتماعية الأخرى ومن الممارسات الاجتماعية في كل جوانبها . ويستنتج أنه يصعب الفصل بين العوامل التي تتحكم في نشأة النصوص وبلورتها ، وبالتالي في نشأة الخطاب بصفة عامة .

يمثل الخطاب عموما عند باحثي التحليل النقدي للخطاب منتجاً ومعيداً لإنتاج علاقات السلطة داخل المجموعات ؛ ولذلك فهو الوسيلة الملائمة لِفرض السلطة في المجتمع . ولهذه الأسباب جعله هؤلاء الباحثون موضوعاً لبحثهم وحقلَ تطبيق للتحليل النقدي لخطابات من الواقع السياسي والاجتماعي .

يمكن أن نستنتج مما سبق أهميّة النقد في مجال التحليل النقدي للخطاب ، فهو وسيلة التحليل وبذلك فهو المنظور الأساسي الرابط بين المحلّل والخطاب . وبذلك فإن هذا الحقل يرتكز على نقطتين أساسيتين هما : الاهتمام بالخطاب اهتماماً مخصوصاً من جهة ، وهذا يعكس فهماً خاصّاً للغة ، ووضعُ فرضية نقدية للتحليل قيد الإنجاز ، من جهة ثانية ، لذلك ترى وُوداك أن التحليل النقدي للخطاب يهتم بالطرق التي

(١) نورمان فيركلاف ، تحليل الخطاب ، التحليل النصي في البحث الاجتماعي ، ص٢٢ ، ترجمة طلال وهبة ، مراجعة نجوى نصر ، المنظمة العربية للترجمة ، سلسلة معرفة للجميع ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٩ .

تُستخدم بها الأشكال اللغوية في مختلف تعابير السلطة وإدارتها[١] . وتولي هذه النظرية التطبيقَ أهمية كبيرة ، لذا تنادي بتطبيق نظرياتها على الخطاب في الواقع الاجتماعي في كل أبعاده .

٢-٥ التحليل النقدي للخطاب: المفاهيم المحوريّة

تقترح وُوداك أربعة مفاهيم ترى أنها ضرورية جدا في التحليل النقدي للخطاب وهي : مفهوم السلطة ، ومفهوم النقد ، ومفهوم التاريخ ، ومفهوم الإيديولوجيا . وهي مفاهيم يوظّفها «عدد من المختصّين في التحليل النقدي للخطاب ، وهي عبارة عن معجم نمطي من قبيل السلطة ، الهيمنة ، السيطرة ، الايديولوجيا ، الطبقة ، النوع (gender) ، العرق ، الميز ، المصالح ، إعادة الإنتاج ، المؤسسات ، البنية الاجتماعية ، النظام الاجتماعي . .[٢]» . هذه المفاهيم تفرضها طبيعة مجال التحليل النقدي للخطاب من حيث موضوعه ومنهجه . وقد تعرضنا إلى مفهوم النقد في الفقرات السابقة ، وسنعرض باختصار المفاهيم التي ترى وُوداك أنها ذات أهمية خاصة .

٢-٥-١- السلطة:

يعتبر هذا المفهوم مركزيا في التحليل النقدي للخطاب ، ولكي لا نتيه في تعريفات متعدّدة ومتنوّعة للسلطة بداية من أفلاطون إلى مفهومها الحالي في مختلف المجالات (الأدبية والفلسفية والتاريخية . . .) ارتأينا أن نكتفي ببعض ما أشار إليه فان دايك وهو أحد مؤسسي التحليل النقدي للخطاب إلى جانب رؤية وُوداك .

يرى فان دايك أن السلطة هي «المراقبة» وتتعدد أنواعها بتعدد المصادر المستخدمة لممارستها . يذكر سلطة القهر العسكرية وسلطة المال بالنسبة إلى الأغنياء وسلطة

(1) Ruth Wodak, Pragmatique et Critical Discourse Analysis : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P10, http://semen.revues.org/8538

(2) Teun A. Van Dijk, Critical Discourse Analyis, P 353, The Handbook of Discourse Analysis,Edited by Deborah Schiffrin, Deborah Tannen and Heidi E. Hamilton, Blackwell publishers, Ltd, USA, UK, 2001.

المعرفة أو المعلومة بالنسبة إلى الآباء والمدرسين والصحافيين ، ويرى أن المجموعات المحكومة قد تقبل وتخضع لهذه السلطة وتتواطأ معها مما يعطيها شرعية ، وقد تقاومها مقاومة متفاوتة من حيث الشدة والضعف . وحين تدرج السلطة في نصوص قانونية أو تقاليد ومواضعات وتحظى بشبه إجماع تتحول إلى هيمنة .

يتفق فان دايك مع وُوداك في أن السلطة يمكن أن تمارس بأسلوب تمويهي في شكل مجموعة من الأفعال التي تحظى بالقبول . ويعتبر فان دايك الخطاب مصدر سلطة ، خاصة خطاب السياسيّين والإعلاميّين والعلماء ، واستنتج أنّ مراقبة عقول مجموعة ما من خلال خطابها تمكن من سهولة التحكم فيها[١] .

واهتمت وُوداك اهتماما خاصّا بسلطة الخطاب السياسي في النمسا وخاصّة الخطاب المعادي للسامية وخطاب الميز العنصري ونبذ الأقليّات ، وهي ترى أن اللغة تشير إلى السلطة وتعبّر عنها ، ويمكن أن تضفي عليها الشرعية وتدعمها أو تتحدّاها وتقاومها . وتساهم اللغة كذلك في إعادة توزيع السلطة وتساهم في توضيح الاختلافات داخلها[٢] . وترى وُوداك أن الخطاب أو النص هو موقع صراع من حيث إنه يحمل آثار مختلف الخطابات والإيديولوجيات التي يواجه بعضها البعض وتتصارع من أجل السلطة . واللغة توفر أساسا خصبًا وقواعد دقيقة لتوجيه الاختلافات على السلطة ، وتعتبر وُوداك أن الأشكال اللغوية كثيرا ما توضع في خدمة السلطة أو ضدها .

٢-٥-٢ -التاريخ:

يمثّل مفهوم التاريخ خيطا ناظما لمقاربة وُوداك للتحليل النقدي للخطاب ، وهو ما يميز توجهها . فهي تعتبر أن التاريخ هو الشريك المهم للتحليل النقدي للخطاب النقدي

(1) op.cit, P 355.

(2) Ruth Wodak, What CDA is about- a summary of its history, important concepts and its developments, Ruth Wodak and Michael Mayer, Methods of Critical Discourse Analisys, P 3-48, SAGE Publications, London (2001)

إلى جانب علم الاجتماع السياسي[١] . ولا يمكن تجاهل تأثير التفكير الماركسي وفلسفة فوكو في فهم وُوداك للتاريخ . وهكذا ترى أن الخطاب لا يمكن عزله عن سياقه التاريخي ، وأن هذا السياق لا بد أن يخضع للدراسة والتحقيق ويُؤخذَ بعين الاعتبار في التحليل النقدي للخطاب وهو ما سمّته السياق الموسّع الذي سنفسّره لاحقا .

يأتي البعد التاريخي في التحليل النقدي للخطاب في إطار ما تسميه وُوداك تضافر الاختصاصات إلى جانب البعد الاجتماعي النفسي والبعد اللساني ، وذلك حين يتعلق الأمر بتحليل واقعة خطابية بعينها وتأويلها . تسمي وُوداك مقاربتها بـ«المقاربة التاريخية للخطاب» (Discourse Historical Approch) . وهي لا تريد بذلك الدراسة الدياكرونية للخطاب ، وإنما دراسته في لحظة تاريخية بعينها هي لحظة إنتاجه ولحظة تقبله .

٢-٥-١٣ الإيديولوجيا:

يستند مفهوم الإيديولوجيا في مقاربة وُوداك للتحليل النقدي للخطاب أساسا إلى تفكير «ماكس هوركهيمر» منظّر الاتجاه الاجتماعي في البحث في مدرسة فرانكفورت . وتحيل وُوداك أيضا على جون بروكشاير طومسون (John Brookshire Thompson)[٢] ، وتتبنّى مفهومه للإيديولوجيا والثقافة بصفة عامّة . يرى طومسون أن لهذا المفهوم دلالات عديدة ومتنوّعة بحسب تطور العصور ، فهو يحيل على «الأشكال والتمشيات الاجتماعية التي تنتقل بداخلها وبواسطتها الأشكال الرمزية في العالم الاجتماعي»[٣] . وترى وُوداك أن التحليل النقدي للخطاب يعتبر الإيديولوجيا وسيلة مهمة لإنشاء العلاقات غير المتكافئة داخل السلطة والحفاظ

---

(1) Philippe Chepens, Criyical Discourse Analysis I, les notions de contexte et d'acteurs socieaux, Semen : revue sémio-linguistique des textes et discours, n°27/2009.

(2) Thompson, J. B, Ideology and Modern Culture. Cambridge, Polity Press, (1990).

(3) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P 9, http://semen.revues.org/8538

عليها . ويهتم هذا المجال بدراسة الكيفيات التي تظهر من خلالها الإيديولوجيا في الخطاب ، ويعمل التحليل النقدي للخطاب على إزالة الغموض في الخطابات وذلك بحل شيفرة الإيديولوجيا التي تتضمنها .

٢-٦ من أعلام التحليل النقدي للخطاب

لا مناص لكل باحث يلج ميدان التحليل النقدي للخطاب من الاطلاع على أعمال ثلاثة أقطاب أسّسوا هذا المجال وطوّروه وهم : روث وُوداك وفان دايك ونورمان فيركلاف . وسنتولى تقديم أعمال هؤلاء الباحثين بالتوالي :

٢-٦-١ روث وُوداك

ترتبط أعمال وُوداك بمدرسة فيينا للتحليل النقدي للخطاب ، وهي ترى أن هذا المجال (التحليل النقدي للخطاب بمفهومه الحالي) قد نشأ رسمياً سنة ١٩٩١[١] ، وذلك في إثر الانتهاء من أعمال ندوة في أمستردام شارك فيها فان دايك و «فيركلاف» و«فان لوفن» و«وُوداك» . وقد ساعدت مجلة فان دايك «الخطاب والمجتمع»[٢] في التعريف بهذا الميدان الجديد نسبياً في الدراسات اللسانية الحديثة .

تبحث وُوداك في العلاقات بين التحليل النقدي للخطاب والتداولية ، ويظهر ذلك من عنوان إحدى دراساتها : «التداولية والتحليل النقدي للخطاب : مثال عن تحليلٍ في مفترق الاختصاصات» ، وهي تبين من خلال التحليل التفصيلي لثلاثة ملفوظات مقتطفة من خطاب انتخابي ليورغ هايدر ، السياسي اليميني النمساوي ، كيف تفلحُ مقاربةٌ تؤلّف بين تحليل الخطاب والتداولية في إدراك مدى تعقيد الدلالات العنصريّة ومعاداة الساميّة .

وتتبنى وُوداك ، كما سنبيّن لاحقاً ، مقاربة تعتمد التضافر بين الاختصاصات في

(1) Ruth Wodak, "What is Critical Discourse Analysis?" Forum : Qualitative social, vol 8, n 2 (29 MAY 2007), (in conversation with Kendall), http:// www.qualitative.Research.net.

(2) What CDA is about - A Summary of its history, important concepts and its developments, P3, Ruth Wodak and Michel Meyer, Methods of Critical Discourse Analysis, Sage Publications, London,(2001).

ظل تحليل سياقي متعدّد المستويات تستوجبه طبيعة الخطاب الذي تتناوله بالدراسة ، وهو خطاب سياسي مشحون بدلالات عنصرية معادية للسامية . أما غايتها فتتمثّل في البحث في طريقة (طرق) إنتاج هذه الدلالات في الخطاب وإعادة إنتاجها [١] .

٢-٦-١-١ ما تؤاخذه وُوداك على الباحثين في مجال التحليل النقدي للخطاب.

تسوق وُوداك مثالين من المقاربات الحديثة عن التحليل النقدي للخطاب وهما مقاربتان عرفانيتان ، مع بعض الاختلافات في التوجه التحليلي ؛ الأولى مقاربة فان دايك والثانية مقاربة «شيلتون» . وتبيّن وُوداك قصورهما عن الوصول إلى تحليل الدلالات الحقيقية للخطاب .

تلاحظ وُوداك أن فان دايك يفترض نماذج سياقية للخطاب لا يمكن وصفها إلا في إطار نظرية ما للمعرفة ، ولكنه لم يفصّل القول في ذلك ولم يبيّن كيف تُبْنى هذه النظرية التي تعتمد على الجانب التصوري العرفاني لجوانب السياق التي تحفّ بالخطاب ، كما أنها ترى أن مثل هذه النظرية لا تستقيم إلا من خلال زاوية نظر تعطي أهمية لتضافر الاختصاصات[٢] .

من خلال عمل شيلتون على كتابات «هتلر» في سيرته الذاتية (Mein Kampf)[٣] ترى وُوداك أنه استفاد من التطور الذي عرفته الدراسات العرفانية في مجال اللسانيات ، واهتم بالاستعارات التصوريّة بصفة خاصة ، وفكّك كتابات هتلر معتمدا هذه الاستعارات التي تتضمنّها ، وذلك رغم أن معاداة هتلر للسامية واضحة وصريحة ولا تحتاج لمثل هذا النوع من التحليل . ويعتبر شيلتون أن مقاربته متطورة مقارنة بما سبقها من المقاربات في التحليل النقدي للخطاب ، أمّا وُوداك فهي ترى أن مقاربةً «تكتفي بالبعد العرفاني عاجزةٌ عن تفسير المكونات الوجدانية والشعورية

---

(1) Ruth Wodak, Pragmatique et Critical Discourse Analysis : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P1, http://semen.revues.org/8538

(2) op.cit, P 3.

() Chilton P. A. (2005), “Missing links in mainstream CDA : Modules, blends and the critical-in stinct” In Wodak & Chilton (eds), 19-52.

للبلاغة المعادية للساميّة ، وكذلك عن تفسير مجموعة كبيرة من العوامل السياقيّة الضروريّة للتأثير النفسي الجماهيري في لحظة معيّنة وفي سياق معين»[1] . كما أن المقاربة العرفانية عاجزة عن دراسة التلميحات والدلالات الكامنة التي يزخر بها الخطاب السياسي .

رغم أن شيلتون في كتابه «تحليل الخطاب السياسي» يرى أن التداولية تعتبر نفسها مكمّلة للدلالة ، وتهتمّ بالسياق المباشر (المتكلم ، المخاطب ، مقام التواصل ، المقصد . . .) فقد ظل ذلك غير واضح في مقاربته التحليل النقدي للخطاب ، ولم يُوظَّف بطريقة تعين على فهم دلالة الخطاب ، فتُرك للدارس استعمال الحدس للفهم .

٢-٦-١-٢ الهدف من هذه المقاربة

تهدف مقاربة وُوداك إلى الوصول إلى تحليل الدلالات الحقيقية المضمَّنة في الخطاب ، ككل مقاربة للتحليل النقدي للخطاب ؛ ولتحقيق ذلك بطريقة فعّالة ترى وُوداك أن استغلال الصّلات بين التداولية والتحليل النقدي للخطاب يساعد على فهم وتأويل الخطابات ، وخاصّة خطاب النخبة السياسيّة ، لأنها تعتبر أن هذا النوع من الخطابات أشد تعقيدا من غيره من الأنواع الأخرى ، وذلك نظرا لاتصافه بالالتباس وانفتاحه على إمكانيات عديدة للتأويل . وترمي وُوداك إلى إيجاد مقاربة تستطيع تفسير المكونات الوجدانية التي يتضمنها الخطاب وتجيب على أسئلة من قبيل : لماذا تتأثّر فئة معيّنة في لحظة معينة بخطاب ولا تتأثر أخرى؟ ولماذا يصبح هذا التأثر – في بعض الأحيان– ممارسات إيديولوجية يمكن أن تؤدي إلى إبادة الملايين من البشر؟

تسعى وُوداك أيضاً إلى «بيان المجموعة الموسعة والمنتظمة من الأدوات المنهجية التي نحتاجها للحصول على تحليل لساني سليم وواضح وقابل للاقتفاء» على حد تعبيرها . فهي تحرص على الوصول بتحليلها إلى تحقيق هدفين الأول نظري في إطار مقاربة تجمع بين التحليل النقدي للخطاب والتداولية والاستفادة من العلوم المجاورة . والثاني منهجي يتمثل في بيان طريقة التحليل وأدواته ومراحله بصفة مضبوطة .

(1) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens, P4 http://semen.revues.org/8538

٢-٦-١-٣ التأليف بين تحليل الخطاب والتداولية

اختارت وُوداك أن تربط بين التحليل النقدي للخطاب والتداولية ، وهي ترى أن هذه العلاقة يمكن أن تكون مثمرة ومفيدة في عمليّة التحليل .

وفي ما يخصّ تاريخ العلاقة بين الخطاب والتداولية فإن الحدود بين المفاهيم في كليهما غير واضحة ، وذلك منذ أعمال «سورل» و«أوستين» و«غرايس» و«سبربر» و«ولسن» وغيرهم ؛ ونذكر مثلا «قوانين المحادثة» أو «أفعال الكلام» أو «السياق» إلخ ، فهذه المفاهيم هي من صلب عملية التخاطب ، ولا يسمح المجال لتفصيل القول في تعاريف التداولية ودراسة مفاهيمها . ويمكن الرجوع في ذلك إلى عدد من المؤلفات والقواميس المعروفة[١] .

من بين من أفادوا من أعمال من سبقهم من علماء التداولية خوان كوتينغ (Joan Cutting) الذي حاول أن يربط هذا المجال بالخطاب وذلك في كتابه «التداولية والخطاب» (٢٠٠٢)[٢] ، وبسط في هذا الكتاب مفاهيم تتعلق بهذين الحقلين معا مثل «النص» (texte) و»السياق» (contexte) و«أفعال الكلام» (actes de parole) و«سياق المقال» (cotexte) و«الإحالة» (référence) و«المحادثة» (conversation) .

في مجال التحليل النقدي للخطاب نبّه فان دايك إلى الحيل اللغويّة والتداوليّة التي تلجأ إليها النخبة السياسية في خطاباتها وذلك لأن مستواها التعليمي وثقافتها يمكّنانها من ذلك وهذا على خلاف خطابات العامة التي تعتمد المباشرة والتصريح[٣] . ولم يهمل فان دايك الجانب التداولي في مقاربته للتحليل النقدي للخطاب ، ولكنه لم يركز عليه مثلما فعلت وُوداك .

عالجت وُوداك في مقال لها بعنوان «سيميولوجيا العنصرية : التحليل النقدي

---

(١) نذكر من بين الأعمال التي عُنيت بالتداولية ودرست أهم أعمال هؤلاء المؤسسين الاوائل ، كتاب «التداولية اليوم» لـ «آن روبول» . وكذلك القاموس Reboul, Mocshler, La Pragmatique aujourd hui, Ed du Seuil, (1998) و«جاك موشلار» الصادر سنة ١٩٩٨ : الموسوعي للتداولية لنفس المؤلفَين وقد ترجمه عدد من الباحثين التونسيين ، هذا إلى جانب مؤلفات كثيرة تتناول التداولية من زوايا نظر مختلفة .

(2) Joan Cutting, Pragmatic and Discourse, Routledge, London and New York, (2002)

(٣) انظر فان دايك ٢٠٠١ و فان دايك ٢٠٠٥ .

والتاريخي للخطاب»[١] ، مسألة الإيحاء وإمكانيّات التأويل في الخطابات العنصرية ، التي عادة ما تكون حمالة أوجه وتقبل التأويل وضده لما تزخر به من مراوغات لغويّة ولعب بالكلمات .

لهذه الأسباب ترى وُوداك ضرورة الالتجاء للتداولية لما توفّره من آليّات لتحليل خطابات «شديدة التعقيد» من قبيل الميز العنصري ، ومعاداة السامية ، ومشاكل الأقليات .

في هذا الذي نحن بصدده خير مثال على ربط وُوداك الصلة بين التداولية والتحليل النقدي للخطاب لدراسة ملفوظات من خطاب «يورغ هايدر» السياسي اليميني النمساوي . وترى وُوداك أن تحليل خطابه تحليلا أحادي المقاربة (لساني ، أو عرفاني ، أو اجتماعي ، أو نفسي) لا يعيننا على فهم وتأويل ملفوظاته تأويلا سليما ، ولهذا فإن معرفة العناصر التداولية في هذا الخطاب تصبح ضرورة في عملية التحليل .

من بين هذه العناصر : مكانة المتكلّم في المجتمع وثقافته ، ومكانة المتقبّل وثقافته ، والظروف المكانية والزمانية لإنتاج الخطاب وتلقّيه ، والإحالات الثقافية لجماعة ما ، إلى غير ذلك من العناصر التي تدرَس ضمن حقل التداولية .

تتمثل إضافة وُوداك في أنها لاحظت أن التداولية في مستوى تحليل الخطاب «تعنى بالمتكلمين والمخاطبين في مستوى لساني مصغر»[٢] ، ولا تعنى بالبعد التاريخي للخطاب كما أنها في رأيها تجاهلت عوامل تصورية أخرى رغم أنها تبسط مفاهيم مهمة تستدعي الجانب التصوري في الذهن ، مثل الاقتضاء والاستلزام اللذين يتطلبان افتراضات نظرية مهمة تخصّ السياق . وهذا ما سعت وُوداك لبيانه من خلال تحليل خطاب هايدر الذي يستعمل -كما سنرى في الجزء الثاني من هذا

(1) Rhuth Wodak, the semiotics of racism analysis, Discourse of course, An overview of research in discourse studies, P 311, Edited by Jan Renkema, Johan Benjamins, Publishing Company, Amesterdam, Philadelphia, 2009.

(2) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P2, http://semen.revues.org/8538

العمل– ألفاظا يمكن أن تكون محايدة لو أُخرجت من سياقها ومن التصوّر الملتصق بها في ذلك الوقت وفي النمسا بالتحديد . وهو ما جعل وُوداك وفيركلاف يذهبان إلى أن تحليل الخطاب تحليلٌ تأويلي تفسيري بالدرجة الأولى ، واعتبرا ذلك من المبادئ الكبرى التي يقوم عليها التحليل النقدي للخطاب[١] .

في نطاق اهتمامها بالعلاقة بين التداولية والتحليل النقدي للخطاب أبرزت وُوداك دور التورية والإيحاء واللعب بالكلمات والاقتضاء والاستلزام ، وهي ترى أن هذه الآليات لم تأخذ حظها من الدراسة في التحليل النقدي للخطاب ، بل تكاد تكون منعدمة خاصّة في تحليل الخطابات السياسية ، وفي حال دراستها لا يُعنى بوظائفها المتعددة ضمن ما أطلقت عليه وُوداك «البلاغة السياسية» التي تُبنى في غالب الأحيان على عدم التصريح وعلى اللغة المشفّرة القابلة لتأويلات متعدّدة تصل إلى حدّ التناقض ، كما سنرى في تحليلها لخطاب هايدر . وهذا ما جعل وُوداك تلجأ إلى «صندوق أدوات التداولية» على حد تعبيرها .

٢-٦-١-٤ تضافر الاختصاصات

لا يقتصر تحليل وُوداك للخطاب السياسي على استغلال العلاقة بين التداولية وتحليل الخطاب وإنما ينفتح على مختلف العلوم المجاورة يمتح منها نظريا أو يستمد منها سبلا للتحليل الملموس والصريح[٢] . وهذا يوافق ما ذهب إليه فان دايك من أن الخطاب شأنه شأن كل معرفة يحتاج ليتطور إلى غيره من العلوم [٣] ، وهو «من الناحية العمليّة متعدّد الاختصاصات» وهذا التعدّد تفرضه الأهداف التي رسمها

(1) Ruth Wodak, Norman Fairclough, (1997), P 80-271.

(2) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P 6.

(3) Teun A. Van Dijk, The discourse-Knowledge Interface,P85 , Critical Discourse Analyis, Theory and Interdisplinarity, Edited by Gilbert Weiss and Ruth Wodak (2003).

التحليل النقدي للخطاب لنفسه[١] . ولكن فان دايك رغم ذلك لم يولِ اهتمامًا كبيرًا لتعدد الاختصاصات في دراسته للتحليل النقدي للخطاب بل ركز على الجانب العرفاني واعتبره الطريق المثلى لكشف دلالات الخطاب .

هذا بينما تقترح وُوداك نظريّة مدمجة تؤلّف بين التداولية وتحليل الخطاب من جهة وعلم الاجتماع النفسي والعلوم السياسية وغيرها من العلوم من جهة أخرى ، وهي لا تستبعد أي علم يمكّن من الرقي بمستوى التحليل والوصول إلى التأويل السليم للخطاب وفهم مقاصده الحقيقية . وتشير وُوداك إلى ضرورة جودة اختيار أدوات التحليل المستعارة من العلوم الأخرى لتحقيق هذا الهدف .

٢-٦-١-٥ مخطط مقاربة وُوداك للتحليل النقدي للخطاب.

تقترح وُوداك ثلاث نقاط كبرى لتحليل الخطاب في ظلّ التحليل النقدي للخطاب ، وهذه النقاط هي التالية :

١ . معالجة السياق الموسع –وسنفسر هذا المفهوم لاحقا– للخطاب وذلك بدراسة ما يمكن أن يتوفر من معلومات تاريخية/سياسية تهم الحالة المدروسة .

٢ . بسط أهم المفاهيم اللسانية التي سيقع الإفادة منها ، لأن كل مقاربة هدفها الأول هو الفهم والتفسير ، ولكن الميل إلى تبني اتجاه محدّد في التحليل اللساني هو ما يميّز بينها .

٣ . بيان الإطار النظري الإدماجي للتداولية والتحليل النقدي للخطاب وتضافر الاختصاصات . وذلك بالتطبيق على مثال ، ومعالجة السياق المصغر[٢] .

وفي هذه المقاربة تعمل وُوداك وفق «مبدإ التثليث» (le principe de la

(1) Teun A. Van Dijk, Critical Discourse Analyis, P 352-371, The Handbook of Discourse Analysis,Edited by Deborah Schiffrin, Deborah Tannen and Heidi E. Hamilton, Blackwell publishers, Ltd, USA, UK, 2001.

(2) Ruth Wodak, Pragmatique et *Critical Discourse Analysis* : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), P 6, http://semen.revues.org/8538

triangulation) الذي أخـذته عن «سـيكورال»[1] . ويعـمل هذا المبـدأ على دمج اختصاصات متعددة لمقاربة التحليل النقدي للخطاب . وبينت وُوداك أنّ هذا المبدأ يقوم على الثلاثي التالي : المقاربة التاريخية (l'approche hystorique) والمقاربة الاجتماعية التاريخية (l'approche sociopolitique) والمقاربة اللسانية (l'approche linguistique) . وهذا المبدأ يفرض كذلك أن يكون المتن الذي تعمل عليه متنوعا ، (خطابات مكتوبة ، خطابات شفوية ، أنواع أخرى مختلفة) . ولكي يكون التحليل مفيدا لا ترفض وُوداك أي طريقة تستند إلى تضافر الاختصاصات وتمكن من كشف الدلالات الإيديولوجية الكامنة .

تقترح وُوداك سبع مراحل أثناء التطبيق على مثال من الخطاب السياسي ؛ وقد طبقتها على خطاب «يورغ هايدر السياسي اليميني النمساوي» في أثناء حملته الانتخابية لسنة ألفين ، ودرست وُوداك هذا الخطاب في مقال لها صدر بمجلة Semen[2] ، كالتالي :

«١- تحليل تاريخي (يعني تحليل «اللغة المشفرة») .

٢- تحليل اجتماعي عرفاني للذاكرة الجماعيّة وضروب التأطير التي توجّه اكتساب المعارف المخصوصة التي تمكن من فهم «اللغة المشفرة» .

٣- تحليل اجتماعي سياسي للخطاب ، (الأبعاد الثلاثة تشكل السياق الموسع) .

٤- نظريّة أنواع ؛ وظائف الخطابات السياسية (استراتيجيات الإقناع ، التقديم الإيجابي للذات/السلبي للغير ، البلاغة الشعبوية ، الخ) .

٥- مقام التواصل ، المتكلمون ، إلخ ؛ الملفوظات الملموسة : هذا يعني السياق المصغّر .

٦- سياق كل ملفوظ .

٧- أخيراً ، يجب أن تحلَّل التعابير الشفوية باعتبار المقاربات اللسانية التداولية/النحوية (الاقتضاءات ، والتورية ، والاستلزامات ، الخ .»)[3] .

---

(1) Cicourel, A. Method and Measurement in Sociology, New York, The Free Press, (1969).

(2) Ruth Wodak, Pragmatique et Critical Discourse Analysis : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines Traduction assurée par Adèle Petitclerc, assistée de Philippe Schepens), http://semen.revues.org/8538

(3) op.cit, P 6, Paragrahes: 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23.

ينبني التحليل بحسب هذه الخطوات التي تعرضها وُوداك على تضافر المقاربة التاريخية والمقاربة الاجتماعية العرفانيّة والمقاربة الاجتماعيّة السياسيّة . وتستعير الباحثة مجموعة من أدوات التحليل من حقليْ التداوليّة واللسانيات لفكّ شيفرة الخطاب السياسي . وهي بذلك تقترح إدماج مجموعة من السمات اللسانيّة والمجازات البلاغيّة والأنماط الحجاجيّة تمكّن من دراسة الخطاب في سياقه المصغّر (المتكلمون ، مقام التواصل . . .) وفي سياقه الموسّع ؛ أي داخل خطابات أخرى .

٢-٦-١-٧ السياق (contexte)

اهتمت وُوداك بالسياق في مقاربتها التي تعتمد على مبدإ التثليث ، وجعلت هذا المبدأ محكوما بنظرتها إلى السياق ، وتحدثت عن «السياق المصغّر» (le contexte reduit) والسياق الموسّع (le contexte élargi) . وقسّمت دراسة السياق في التحليل النقدي للخطاب إلى أربعة مستويات ، وهو ما سمّته «السياق رباعي المستويات» يتطلب كل مستوى منها نوعا معينا من التحليل .

- السياق الموسع (contexte élargi)

ترى وُوداك أن ما يُشرِّع لها البحث في مفهوم السياق الموسع للخطاب السياسي هو السؤال التالي «لماذا يقع التعبير عن الدلالات في الخطاب السياسي بطريقة مشفّرة؟»[1] ، وترى أن الإجابة توجد في الاطلاع على الخلفيّة التاريخيّة لهذا الخطاب ، فهي تربط الخطاب بالتطوّرات السياسيّة التي يمكن أن يكون لها تأثير كبير الأثر في صياغة الخطاب السياسي . وما دعا وُوداك إلى هذا البحث في السياق الموسّع هو أن الدلالات في الخطابات السياسية ظلّت موجودة بطرق متعدّدة وكامنة . ووصفت وُوداك خطاب «يورغ هايدر» بالخطاب التلفيقي ، أي أنه لجأ إلى كل أنواع الصور النمطيّة القديمة والجديدة المعادية لليهود ليحصل على أكبر عدد من الناخبين لحزبه اليميني ، وهو يعرضها بطريقة مشفّرة ، ولا يفهمها إلا من كان على علم بخلفيّة التلميحات والإيحاءات والاقتضاءات المستعملة .

---

(1) op.cit P 7, paragraphes: 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23.

- السياق المصغّر (contexte réduit)

السياق المصغّر ويوافق السياق المقالي المباشر ، أي مواضيع الخطاب المطروحة طرحا مباشرا بواسطة الأساليب اللسانيّة البلاغيّة الواضحة .

- السياق رباعي المستويات (contexte à quatre niveaux)

ترى وُوداك أن اعتماد مقاربة متضافرة الاختصاصات ترتكز على مبدإ التثليث وليدُ الحاجة إلى تحليل سياقي متعدد المستويات تفرضه دراسة خطابات سياسيّة معقّدة وتمليه مسائل شائكة كالميز العنصري ومعاداة الساميّة . وهذا السياق المتعدّد المستويات من شأنه أن يمكن من دراسة هذه المسائل من حيث إنتاجها في المجتمع وإعادة إنتاجها في الخطاب .

يوفّر السياق رباعي المستويات أربع طبقات سياقيّة تحتوي كل منها على معارف مختلفة وهذه المستويات هي :

١- «السياق المقالي لكل ملفوظ أو لكل قضيّة» وهو سياق في مستوى اللغة ، وفي هذا المستوى يمكن مثلا دراسة التردّد والإيقاع وأشكال التفاوض في نص شفوي ، ودراسة النحو والاتساق . . . في نص مكتوب .

٢- «السياق في النص الكلّي» ، وتفسّر آدال بوتيكلارك النص الكلّي بكونه المستوى الذي يحوي النص كلّه ويقابله المستوى اللساني الجزئي الذي يحيل على السياق المقالي المباشر ، وهو كما ذكرنا الموضوع المطروق ظاهريا .

في هذا المستوى يُدرس الخطاب «كلاّ « (في كليّته) ويقع تناول مواضيعه مع مجموعة من المواضيع التي تتداخل معها في خطابات أخرى ، ضمن علاقات بينصية تنضوي تحت ما سمته وُوداك تحليل النوع (l'analyse du genre) ، وفيه يمكن دراسة الظواهر الحوارية مثل الاستفزاز والإيحاء إلخ .

٣- السياق الاجتماعي السياسي «لحدث الكلام» (évènement de parole)

يأخذ هذا المستوى بعين الاعتبار وضعية التواصل الاجتماعي التي أُنتج فيها النص ووقع نشره أو إلقاؤه وكذلك تقبله ، وهذا يعني اعتبار بعض المقاييس من خارج اللغة مثل الإطار المؤسّساتي ، المكان ، مستوى المتقبلين وانتماءاتهم السياسيّة والعرقيّة إلخ .

٤- مستوى العلاقات بين الخطابات وعلاقات التناص التي يقيمها الحدث الكلامي

مع أحداث أخرى مناسبة ، ويتمثّل هذا المستوى الرابع من مستويات السياق في دراسة الخطاب من حيث وجوده في إطار اجتماعي سياسي معيّن وفي فترة تاريخية بعينها ، وذلك مقابل فترات تاريخية أخرى وممارسات اجتماعية أخرى[1] .

يتطلب كل مستوى من هذه المستويات تحليلا خاصّا به ، وهذا يعني أن وُوداك تُخضع الخطاب لأربعة أنواع متمايزة من التحليل ، ولكن هذا التمايز لا يمكن أن يظهر بوضوح في مقاربتها خاصّة وأن الفصل بين هذه المستويات ليس سوى فصل منهجي تفرضه احتياجات التحليل ، لأن هذه المستويات الأربعة متداخلة في الخطاب والحدودُ بينها غير واضحة تمام الوضوح .

٢-٦-١-٧ بعض المفاهيم التداوليّة التي طبقتها وُوداك في تحليل الخطاب

سنتناول بعض هذه المفاهيم مفردة مثل اللعب بالكلمات أو في شكل ثنائيّات تتقارب وظائفها في الخطاب : الإيحاء/التلميح ، والاقتضاء/الاستلزام ، والتورية/الاستعارة . وسنرى كيف وظّفتها وُوداك لفهم الخطاب السياسي واستخراج الدلالات الضمنيّة منه .

- الإيحاء والتلميح (allusion, connotation)

في معجم تحليل الخطاب لباتريك شارودو ودومينيك منغنو ترجم الأستاذان عبد القادر المهيري وحمادي صمود لفظ connotation بـ«المعنى الحاف» ، «وهذه الكلمة بدأ استعمالها المناطقة ثم أُضيفت إلى معجم اللسانيات (بل إنها أصبحت اليوم ، وإلى حد ما ، من اللغة العادية حيث يكون الفعل [أتى بمعنى حاف] ضربا من المعادل لفعل évoquer [أوحى ، أثار] .»[٢]

يرى مؤلفا المعجم أن المعنى الحاف –وهو ما وسمناه في هذه الورقة بـ«التلميح»–

---

(1) Adel PetitClerc, Introduction aux notions de contexte et d’acteurs sociaux en Critical Discourse Analysis, Semen [en ligne], n°27/2009, http//www.Semen.revues.org/8540.

(٢) باتريك شارودو ، دومينيك منغنو ، معجم تحليل الخطاب ، ص١٢٩ ، ترجمة عبد القادر المهيري و محمد صمود ، المركز الوطني للترجمة ، تونس .

هو بمثابة قيمة دلالية مضافة للمعنى المعجمي الأوّل ، ويمثّل عددًا لا محدودًا من المعاني الثانية ولكنها في الوقت نفسه ليست ثانويّة وإنما يمكن أن تكون هي المعنى الأول من وراء استعمالها . وبهذا المعنى لا يختلف التلميح عن الإيحاء لأن المقصود من كل منهما في الخطاب السياسي هو نية نقد المعارضين وانتقادهم في كثير من الأحيان ، وهي تمكّن من :

- التنصّل من مسؤوليّة ما قيل ضمنيا ، عند الضرورة .
- خلق ضرب من الحميميّة مع المخاطَب الذي يحسّ أنه يتقاسم سرّا مع المخاطِب . . ويستعمل السياسيّون في خطبهم عبارات من قبيل «ونحن نعلم جميعا ما يعنيه هذا» ، وهي مقصودة لكسب الثقة والدعوة إلى الإحساس بالحميميّة .

ترى وُوداك أن الإيحاءات –على خلاف الشعارات– تتطلّب تفكيرا منطقيا حيويا ، ومتقبلين ذوي فطنة ، وهذا يتوفر في عناصر الخطاب السياسي . فكل الناس غير قادرين على فهم المقصود ، ولكن من يقدر على ذلك عليه أن يفعل شيئا ويكشف الدلالة التي سريعا ما يتنصّل منها قائلها ، وبذلك تكون الإيحاءات دائما مثار جدل ، وتستعصي على التصنيف .

- الاقتضاء والاستلزام (présupposition/implicature)

اهتمّ كل من «سورل» و«أوستين» بتحليل مفهوميْ الاقتضاء والاستلزام في اللسانيات وذلك في إطار نظريّة الأعمال اللغويّة ، وما توصّلا إليه طوره بعدهما بعض الباحثين ، ومكّن ذلك من تفسير الافتراضات الضمنيّة التي يزخر بها الخطاب السياسي . واستعمال الإيحاء ينتج عنه إنشاء استلزامات ، وهذا ما نجده في خطاب هايدر الذي يحاول زرع اقتضاءات بهذا الإنشاء لدى المتقبّلين في شكل «حقائق مشتركة» . وتستغل وُوداك ما توصل إليه «جورج يول[1]» في تقسيمه للاقتضاءات في دراستها لخطاب هايدر ، فقد قسّم «يول» الاقتضاءات إلى ستة أنواع وهي : وجودي ، ووقائعي ، وغير وقائعي ، ومعجمي ، وبنيوي ، وضد وقائعي . وتقدم وُوداك هذا الجدول الذي أخذته عن «يول» لإعطاء مثال عن كل نوع :

(1) Yule George, Pragmatics, chapitre 4, Oxford, Oxford University Press, (1996).

أنواع الاقتضاءات

نوع الاقتضاء	مثال	الاقتضاء
وجودي	«الـ س»	س موجود
وقائعي	«أنا نادم على فعل ذلك»	فعلتُه
غير وقائعي	«زعم أنه مدرّس»	ليس مدرّساً
معجمي	«أفلحتْ في الهروب»	حاولت الهروب
بنيوي	«من جاء؟»	جاء أحدهم
ضد وقائعي	«لو لم أكن مريضاً . . .»	أنا مريض

تساهم هذه الأنواع من الاقتضاءات -التي يمكن أن يحويها الخطاب السياسي- في انخراط المتقبل في مضمون الخطاب وخاصّة الاقتضاءات الوجودية .

- التورية والاستعارة والمجاز (insinuation, métaphore)

مثال ذلك ما استعمله السياسي اليميني النمساوي يورغ هادير ليلمّح إلى اللوبي اليهودي في نيويورك ، وذلك عندما استعمل عبارة الساحل الشرقي ، وكان يعرف أن مستمعيه سيفهمون قصده الأساسي من ذلك ؛ لأنه لم يكن يقصد المكانَ الجغرافي «مدينة نيويورك الأمريكية» وإنما اللّوبيات اليهودية الغنية التي تستوطن هذا المكان . وتفيد الدلالة الكامنة أن الحزب الاشتراكي تابع لهؤلاء اليهود .

- اللعب بالكلمات

يعتبر اللعب بالكلمات من بين وسائل الإعلام التداولية المستعملة في الخطاب السياسي عامة ، وهو يقوم على التباس الكلمات المستعملة أو النطق المتماثل لكلمتين لهما دلالتان مختلفتان . ويستعمل هايدر اللعب بالكلمات في كل حملته الانتخابية . ففي أحد الأمثلة تلاعب هايدر بكلمة آريال وهو الاسم الشخصي لموزيكانت «آريال موزيكانت» ، والجمهور يعرف أن كلمة آريال هي اسمٌ أيضا لمادة تنظيف وهو ما أثار ضحك الجمهور وأعطى إمكانيات للتأويل ، وذلك في نطاق الأفكار المسبقة المنتشرة خاصة . هذا بالإضافة إلى استعماله عبارة «الغسيل القذر» ؛

سيؤدي هذا كله حتما لفهم معين لشخصية موزيكانت ، وأشار أيضا إلى قائد الحزب الديموقراطي «ألفراد قوسنباور» بكلمة «قروسالباور» وهي تعني المشاكس . وترى وُوداك أن ذلك يعتبر تعدّيا على هويّة الشخص وتشويها لها .

٢-٦-١-٨ الهدف من هذه الوسائل التداولية /اللغوية

نلاحظ أن هايدر استعمل أولا وسائل لغوية متنوعة تصب معظمها في أشكال مجازية ، ليبين أن الحزب الاشتراكي تابع لليهود بما تحمله هذه الصفة من أحكام مسبقة منتشرة في المجتمع تعود أساسا إلى الفترة النازية . وذهب هايدر بعيدا في ذلك حيث اعتبر آريال مجرما تلطخت يداه بالتجاوزات القانونية خاصة خلال المفاوضات التي تناولت جبر ضرر اليهود ضحايا المحرقة ، وكان هايدر يريد من هذا التحدي إثارة خصمه ودعوته للجدال ، وهذا ما تمّ فعلا حيث رفع آريال دعوة قضائية ضد هايدر .

أما التوجه الثاني الذي ركز عليه هايدر في مهاجمته لخصمه فيعتمد على أسلوب نحوي ، قسّم من خلاله المواطنين النمساويين إلى صنفين : صنف «لهم قلب قُدّ من فيانا» واستعمل لذلك ضمير المتكلم الجمع «نحن» ، وصنفٌ تابع للساحل الشرقي أي لليهود ذوي النفوذ واستعملَ لتعيينه ضمير الجمع المذكر المسند إلى الغائب «هم» . وبهذا التقسيم استعمل هايدر صورة نمطية متداولة قبله وهي مقابلة النمساويين الحقيين بغيرهم من النمساويين اليهود أو من أصل إثني آخر .

تعتبر وُوداك أن وسائل الإعلام تربط السياقين (السياق الموسع والسياق المصغر) وهذا يعني أن هناك أساليب تداولية لسانية تشير إلى سياقات خارجية غير لغوية ، مثل الإيحاء والتورية والاقتضاء والاستلزام واللعب بالكلمات ، والضمائر ، التي استعملها هايدر ليصف «آريال موزيكانت» رئيس الجالية اليهودية في فيانا بأنه وسخ اليدين رغم دلالة اسمه «آريال» . واعتبر هايدر أن ما قاله لا يتجاوز الدعابة ؛ وذلك لأن هذا النوع من الخطاب يقبل التأويل وضدّه ويستطيع قائله أن يتبرأ وذلك «بإثبات أن ما فمهمه الآخرون ليس هو ما أراد قوله» . وهاجم هايدر من خلال ذلك الحزب الشيوعي واعتبره تابعا لليهود الأغنياء واعتبر طلبهم التعويضات مطلبا غير شرعي بل هو مشكل مفتعل لا أساس له من الصحة .

٢-٦-٢ نورمان فيركلاف والتحليل النقدي للخطاب

يعمل نورمان فيركلاف في إطار البحث الاجتماعي الثقافي في التحليل النقدي للخطاب ، وهو المجال الذي يغلب على طابع أعماله ولكنه لا ينفي حاجة الباحث إلى استغلال ما توصّلت إليه الاتجاهات الأخرى التي تبنت التحليل النقدي للخطاب من وجهات نظر مختلفة ؛ مثل التحليل اللساني والتحليل العرفاني والتحليل الأجناسي الثقافي وتحليل المحادثة . وهو بذلك ينحو منحى روث وُوداك في أن التحليل متعدّد الاختصاصات يمكّن من معالجة الخطابات معالجة نقدية ، مع الإشارة إلى أن وُوداك تغلّب المقاربة التداولية[1] بينما يغلّب فيركلاف المقاربة الاجتماعية .

تبنّى نورمان فيركلاف المقاربة الاجتماعيّة لأنّه يعتبر الخطاب ممارسة للغة في المجتمع ، وهذا ما دعاه إلى النظر إلى الخطاب نصوصا لها أجناس مختلفة تتصل بالممارسات الاجتماعية (جنس الأخبار ، جنس الإعلان ، جنس المقابلة . . .)[2] . ويشمل مفهوم الخطاب عنده إلى جانب النصوص والمحادثات أنظمة سيميائية أخرى (الإشارات والحركات . . .) وهو يرى أن «الممارسة الخطابية تعدّ لحظة من كل ممارسة اجتماعية تربطها علاقة جدلية مع اللحظات الأخرى من ممارسةٍ اجتماعية ما»[3]

يهتم فيركلاف بالخطاب من خلال دراسة إنتاجه وتلقّيه في إطار ممارسة اجتماعية . ويشدد فيركلاف من خلال التحليل الذي تبناه على الروابط المتينة بين الخطاب وظروفه الاجتماعية المساهمة في طريقة إنتاجه وطريقة تأويله ، إذ لا يمكن دراسة الخطاب بما هو نتاج اجتماعي ثقافي بعيدا عن سياقه الاجتماعي الثقافي وبمعزل عن نصوص أخرى ذات صلة .

يمكن النظر إلى مقاربة فيركلاف من خلال زاوية نظره للعلاقة بين الخطاب والمجتمع ، ذلك أنه يرى أن الخطاب يتأثر بالبعد الاجتماعي لأن الممارسة الخطابية هي إعادة إنتاج للممارسة الاجتماعية ، والخطاب يؤثّر بدوره في المجتمع من خلال إبراز

---

(1) Ruth Wodak, Pragmatique et Critical Discourse Analysis : un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines.

(2) Norman Fairclough, Media Discourse, 1995.

(3) Discourse Analysis as Theory and Method, Marianne Jorgensen, Louise Philips, P19, SAGE Publication Ltd, UK, 2002.

ممارسات اجتماعيّة ما ، وتسويق أبعاد اجتماعية بعينها وغضّ النظر عن ممارسات أخرى ؛ المجتمع ينتج ممارسات والخطاب يعيد إنتاجها وفق قواعد لغويّة وأطر اقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة وليدة تفاعلات هذا المجتمع .

لن نطيل الحديث عن مقاربة نورمان فيركلاف للتحليل النقدي للخطاب لأننا سنفصّل القول في ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا البحث .

٢-٦-٣ فان دايك

انطلق فان دايك من البحث في نحو النص ثمّ اتجه إلى تحليل الخطاب وبالتحديد إلى التحليل النقدي للخطاب ، وذلك منذ أن بدأ هذا المجال في البروز واحتلال مكانة في الأعمال التي تهتم بالخطاب مع بحوث عدد من العلماء منذ ١٩٨٠ نذكر منهم روجي فولر (Rogrer Fowler) وكونتار كراس (Gunther Kress) وبوب هودج (Bob Hodge) وطوني ترو (Tony Trew) ثم روث وُوداك (Ruth Wodak) ونورمان فيركلاف (Norman Fairclough) وغيرهم ممن ناضلوا في كتاباتهم ضد الميز العنصري ودافعوا عن الأقلّيات والفئات الضعيفة .

استند فان دايك في بحوثه على ما توصلت إليه العلوم العرفانيّة لذلك اتسمت أعماله بسمة الاتجاه العرفاني في التحليل النقدي للخطاب ولكنه لم يهمل الجانب الاجتماعي وذلك ما صرح به في قوله : «ركّزت تركيزا خاصا على إدماج المقاربتين الاجتماعيّة والعرفانيّة للخطاب والتحليل النقدي»[1] .

درس فان دايك خطابات الميز العنصري في إطارها الاجتماعي بوسائل عرفانيّة ، لأن مثل هذه المواضيع اجتماعيّةٌ بالأساس ، لكنّها مواضيع لها أيضاً بعد عرفاني باتصالها بالذهن . وهو يرى أنه يجب على كل باحث أن يختار ، من بين عدّة توجّهات متاحة ، التوجّهَ الذي يراه مناسبا وملائما لموضوع عمله ، لذلك اختار دراسة عرفانيّة اجتماعيّة لتحليل خطابات من يستغلّون نفوذهم لسحق الأقليّات والطبقات الضعيفة .

سعى فان دايك إلى إبراز العلاقة الوثيقة بين أفعال الجماعات والمنظمات التي

---

(1) Teun A. van Dijk, Research in Critical Discourse Studies, Website Teun A. van Dijk, www.discourses.org.

تمارس الميز العنصري وبين الجانب الذهني للفرد والجموعة الذي تكوّنه نماذج تُبنى انطلاقا من الأحداث المتصلة بالأعراق والأحكام المسبقة المشبعة بالميز العنصري ، والخطاب الحامل لإيديولوجيا هذه الجماعات . وهذا ما جعل فان دايك يعتبر أن الخطاب يمثل واجهة (interface) بين ما هو اجتماعي وما هو عرفاني(١) .

يطرح فان دايك إشكاليّة ما إذا كان التحكّم في أذهان الناس شكلا من أشكال إعادة إنتاج السيطرة والهيمنة ، وذلك قياسا على التوجه القائل بأن من يتحكّم في الخطاب يتمتع بشكل من أشكال السلطة . وهو يرى أن «التحكم في الذهن» (mind control) يتطلب أكثر من مجرد اكتساب معرفة شاملة بالمعتقدات المتعلقة بالعالم ، من خلال الخطاب والتواصل(٢) .

تمكّن السلطة والهيمنة من التحكّم في الذهن من خلال استعمال خطابات مخصوصة لوضعيّات بعينها . ويعود فان دايك إلى عملية «الإقناع» منذ الفكر اليوناني القديم أي على مدى أكثر من ألفي سنة من البلاغة التي تقرّ بوجوب استعمال المتكلم لاستراتيجيّة معيّنة وأساليب محدّدة تمكّنه من التأثير في المتلقي ، وهذا لا يتمّ إلا عبر معرفة ولو جزئية بكيفيّة اشتغال الذهن البشري .

يؤدي البحث في التحكم في الذهن من خلال الخطاب إلى التساؤل عن مميزات الخطاب وأساليبه التي تمكّن من هذا التحكم . ويرى فان دايك أن ما يجعل الخطاب مؤثرا في الذهن لا يقتصر على مميزات خاصّة بالخطاب في حدّ ذاته وإنما يتدخّل السياق كذلك في صياغة هذا التأثير وفي تحديد درجاته .

يتدخل الأسلوب المختار من بين أساليب الخطاب في تشكيل وتغيير النماذج الذهنية والتمثلات الاجتماعية . وليفسّر ذلك يسوق فان دايك مثال قدرة تأثيرِ أسلوبِ خطابِ مجموعة مهيمنة وبالتحديد خطاب نخبتها في المتلقين من كافة شرائح المجتمع ، ولكنه يبيّن أن تلك القدرة لها حدودها التي تتماشى مع طبيعة المعتقدات والثقافة القابلة للتغيير والتطوّر ، ولذا فإن قدرة تأثير خطاب ما في مجموعة

---

(1) op.cit, "Discourse, thus is at the interface of the social and the cognitiive: It is itself a social practice".

(2) Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. IJamilton, The Handbook of Discourse Analysis, P357, Blacwell Publishers, 2001.

تتحدد بنوعية الخطاب وبنوعية المجموعة التي تتلقاه كذلك والسياق الذي بُثّ فيه .

عالج فان دايك في إطار التحليل النقدي للخطاب العلاقة بين الخطاب والسلطة وانتهى إلى أن دراسة هذه العلاقة تتّسم بالتعقيد لأنها تتمّ في إطار معقّد تشكّله مكوّنات مختلفة ، ويعتبر أن مقاربته محاولةٌ من ضمن عدة محاولات تناولت هذا المجال بالدراسة لكل واحدة صعوباتها النظرية والمنهجية التي تحاول تجاوزها .

من بين الصعوبات التي اعترضت فان دايك في مقاربته صعوبةُ تحديد الخطاب بما هو واجهة بين البنى الذهنية والسياقات الاجتماعية الخاصّة والعامّة ، وكذلك الهوّة التي لاحظها بين الدراسات اللسانية للنصوص والمقاربات الاجتماعية ؛ إذ تنحو الأولى إلى تجاهل الحديث عن استغلال السلطة في الخطاب لتكريس عدم المساواة ، بينما لا تهتم المقاربات الاجتماعية بالتحليل المفصل للخطاب ، لذلك من المهمّ محاولة دمج اختصاصات مختلفة في التحليل النقدي للخطاب .

٢-٦-٤ استنتاجات:

- لا تختلف الاتجاهات العديدة في التحليل النقدي للخطاب على أن الخطاب هو وليد العلاقات الاجتماعية ومولّد لها بصفة أو بأخرى ، إلا أن ما يميّز هذه التوجهات هو الأساس الفلسفي الذي ترتكز عليه والذي يحدّد العلاقة بين المجتمع أو الفرد واللغة .
- نجد في صلب الخلفيّة النظرية الواحدة مقاربات مختلفة وذلك باختلاف منهج التحليل كما هو الحال مثلا في مقاربتيْ فان دايك وروث وُوداك . فبينما ارتكز تحليل فان دايك على المقاربة العرفانية للخطاب اختارت وُوداك تحليلا يستغلّ الصلات بين الخطاب والتداولية[1] ، رغم أنهما يتفقان في الاستناد إلى خلفية نظرية واحدة .
- أرادت وُوداك أن تثبت من خلال تحليل يعتمد تضافر الاختصاصات أن التحليل النقدي للخطاب يجب أن يكون منفتحًا على بقية العلوم ينهل من مناهجها ومن موضوعاتها .
- لم تقدم وُوداك مثالا مغلقا ومكتفيا بنفسه في التحليل النقدي للخطاب ، بل

(١) انظر عنوان المقال المدروس «التداولية والتحليل النقدي للخطاب : مثال عن تحليل في ملتقى الاختصاصات» .

تركت المجال مفتوحا للباحثين لاستغلال مختلف العلوم الأخرى التي يمكن أن تساعد على تحليل أعمق لدلالات الخطاب ؛ وهي تعتبر أن مقاربتها إنما هي دعوة للبحث في إمكانيات جديدة للتحليل النقدي للخطاب .
– اعتبرت وُوداك التداولية والعلوم اللغوية من أهم المجالات التي يمكن أن يعتمد عليها التحليل النقدي للخطاب .
– قدمت وُوداك مثالا تطبيقيّا لمقاربتها للتحليل النقدي للخطاب ، وهو عبارة عن مقتطفات من خطاب يورغ هايدر السياسي اليميني النمساوي ، ولكنها لم تكتف بهذه المقتطفات بل لجأت أحيانا إلى ما ورد في بقية خطابه لتتخذه دليلا على بعض أبعاد نظريتها .
– حلّلت وُوداك خطاب السياسي هايدر في ظل مقاربة اعتمدت على مبدإ وسمته بمبدإ التثليث ، نسبة إلى تضافر ثلاثة مجالات علمية هي : المقاربة التاريخية ، والمقاربة الاجتماعية العرفانية ، والمقاربة الاجتماعية السياسية .
– وضعت وُوداك خطاب هايدر ضمن سياق رباعي المستويات يراعي تضافر العلوم المذكورة سابقا ، إضافة إلى ما سمته السياق المقالي المباشر والسياق الموسع . ونلاحظ أن هذه المقاربات تتناسب مع مستويات السياق التي اقترحتها ، أي أنها وضعت هذه المقاربات موضع تطبيق من خلال تقسيمها لمستويات التحليل بحسب سياق رباعي .
– ما توصلت إليه وُوداك يبقى في نظرنا محدَّدا باختيارها للمنهج الذي اتبعته في التحليل ، ولاختيارها لعيّنة الخطاب التي أرادت أن تطبق عليها هذا المنهج .

خلاصات

حاولنا في هذا الفصل تسليط الضوء على مجال التحليل النقدي للخطاب باعتباره حقلا جديدا نسبيا ولكن جذوره الفلسفية تمتد إلى أواخر النصف الأول من القرن العشرين ، ثم توضّحت ملامحه مع ميلاد مدرسة فرانكفورت للتحليل النقدي للخطاب في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات . وتوصّلنا إلى جملة من الخلاصات نسوقها كالتالي :
– تستند النظريّة النقديّة إلى ما توصل إليه ماركس من أن البديل للماهيّة الإنسانيّة في تحديد تشكيلة اجتماعية معينة هو «علاقة» ولكنها لا تختزل في العلاقة بين

الأفـراد ، أو بين الجـمـوعـات بل هي عـلاقـة مـزدوجـة بين الناس وبين الناس والأشياء ، ويقصد بالأشياء وسائل الإنتاج ؛ وبذلك تشمل العلاقات الاجتماعية وسائل الإنتاج المأخوذة من الطبيعة المادية .

- تأسست النظرية النقدية على جهود عدة أجيال برز في الجيل الأول ماكس هوركهايمر الذي ساهم مساهمة كبيرة في توضيح مفهوم النقد ، وطبعت أعمال يورغن هابرماس أعمال الجيل الثاني وتدعم بذلك النقد الاجتماعي السياسي ، أما الجيل الثالث فقد كانت بدايته مع أعمال أكسال هوناث الذي ركّز على نقد الأوضاع الاقتصادية والسياسية .
- ساهم عدد كبير من الباحثين في تطوّر مدرسة فرانكفورت للتحليل النقدي للخطاب ومنهم هربرت مركيوز وجورج لوكاتش وثيودور أدورنو ، وركّز هؤلاء الباحثون على مفاهيم رأوا أنّها محورية في التحليل النقدي للخطاب مثل : السلطة والتاريخ والاديولوجيا .
- استفاد التحليل النقدي للخطاب من مجموعة من العلوم والمقاربات نذكر منها الفلسفة والعلوم الاجتماعيّة والعرفانيّة والنظريّات النفسيّة واللسانيّة .
- عرفت فترة التسعينات وما بعدها تطوّرا هامّا في مقاربات التحليل النقدي للخطاب بفضل باحثين أمثال روث وُوداك وفان دايك ونورمان فيركلاف الذين جعلوا أعمالهم في خدمة قضايا إنسانية واجتماعية مثل مقاومة الميز العنصري والدفاع عن الأقليات .
- تبنت روث وُوداك منهجا تحليليا نقديا يفيد من التداوليّة وخصّت السياق بعناية خاصة ، وهي تدعو إلى مقاربة متعدّدة الاختصاصات .
- اختار فان دايك توجها عرفانيا ، ولكنه لم يهمل الجانب الاجتماعي إذ يعتبر أن الذهن يؤثر في الممارسات الاجتماعيّة ، كما تؤثّر هذه الأخيرة في البنى الذهنية للإنسان .
- وجه نورمان فيركلاف بحثه وجهة اجتماعيّة ثقافيّة ، ويعود ذلك إلى نظرته إلى مفهوم الخطاب ، إذ يعتبره شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية .
- تتّفق كل البحوث في التحليل النقدي للخطاب في الاهتمام بالمسائل الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، والدفاع عن الفئات الضعيفة ومحاربة الرأسماليّة ، والبحث عن بدائل للمجتمعات التي تعاني الظلم والاستبداد .

الفصل الثالث:
الخطاب الإعلامي

تمهيد

سنهتم في هذا الفصل بالتحليل النقدي للخطاب الإعلامي ، ضمن منظور التحليل النقدي للخطاب . ويعتبر الخطاب الإعلامي حقلاً منفتحاً على اختصاصات متعدّدة ؛ فهو موضوع اهتمام للدراسات الإعلاميّة بجميع أصنافها والدراسات الثقافيّة وعلم النفس وعلم الاجتماع ودراسات السياحة ، وهو كذلك موضوع للدراسات اللسانيّة ، وعلى وجه الخصوص الدراسات التي تهتم بتحليل الخطاب وتحليل المحادثة والتحليل النقدي للخطاب وإثنوغرافيا التواصل ؛ ولهذا السبب ارتأينا أن نبسط أولا مختلف التيارات التي تناولت الخطاب الإعلامي بالدراسة النقدية .

ثم سنقدم مقاربة نورمان فيركلاف ذلك أنها مقاربة منفتحة على اختصاصات متعددة ومجالات علميّة مختلفة ، وهي المقاربة التي سنتبنّاها في بحثنا مع تطعيمها بمختلف الدراسات التي سبقتها في مجال التحليل النقدي للخطاب الإعلامي والتي تجعلها في نظرنا قابلة للتطبيق على المتن الذي نروم دراسته .

وسنعتمد في هذا الفصل أساسا على كتاب نورمان فيركلاف «الخطاب الإعلامي» (١٩٩٥)[1] ، ثم على كتاب جون ريتشاردسون «تحليل الصحافة ، مقاربة من زاوية التحليل النقدي للخطاب»(Analysing Newspapers)[2] .

٣-١ مقاربات التحليل النقدي للخطاب الإعلامي

٣-١-١ التحليل اللساني والاجتماعي اللساني

يتمثل هذا التحليل في دراسة الاستعمال المخصوص للغة مثل اختيار بنيات

---

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, 1995.

(2) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discours Anallysis, Palgrave Macmillan, 2007.

نحوية وتراكيب أسلوبية بعينها تعطي الخطاب الإعلامي أهمّية كبيرة في نظر الباحثين اللسانيين على اختلاف مشاربهم ، ويذكر فيركلاف في هذا الصدد عناوين الجرائد التي تكون ذات خصائص تركيبية مميزة يمكن أن يعتبرها اللسانيون شاذة نحويا في أحيان كثيرة ، ولكنها تهدف لتحقيق غايات معينة من الخطاب الإعلامي ، واختارها واضعوها عن وعي ودراية بالمتلقي المؤوّل .

لتفسير هذه الفكرة ، يذكر فيركلاف الصحافي الباحث آلان بيل Bell (1991) الذي وظّف التحليل اللساني والاجتماعي اللساني بطرق تنير التحليل الاجتماعي الثقافي لأخبار وسائل الإعلام . ويلاحظ فيركلاف أن قسطا كبيرا من أعمال آلان بيل يُزاوج بين التركيز على الخصائص اللسانيّة المتغيّرة والمظاهر المتغيّرة للسياق الاجتماعي .

يمثّل فيركلاف لطريقة التحليل التي اعتمدها آلان بيل بالتغيّرات التي تصيب المقاطع الأخيرة من الكلمات كما ينطقها مُقدّمو البرامج في الإذاعة ، ويسوق مثالا ذكره في كتابه (١٩٨٤) وهو نُطق مقدمي البرامج عبارة west coost cool كالتالي wes coos cool ؛ والملاحظ أن هذا النطق يتغيّر بحسب المحطات الإذاعيّة في نيوزيلاندة ، مراعاة لاختلاف المستمعين .

يختم فيركلاف بالتعليق على عمل آلان بيل قائلا «تتمثّل قوّة هذا العمل في عنايته بالتفاصيل اللسانيّة وبشكل النصوص و«نصّيّتها» . . .[1]» . ويُؤاخذ عليه في الوقت ذاته أنه لا يحاول إبراز الصلات النسقيّة بين اللغة والسياق الاجتماعي الثقافي .

٣-١-٢ تحليل المحادثة

يُرجع فيركلاف هذه المقاربة إلى مجموعة من الباحثين من علماء الاجتماع المعروفين باسم «الاثنوميتودولوجيين» . ويشرح الاثنوميتودولوجيّة بأنها مقاربة تأويليّة لعلم الاجتماع ، تركّز على الحياة اليوميّة باعتبارها إنجازا مَهَاريّا (من المهارة) وعلى الطرق التي يستعملها الناس في إنتاجها . هذا دون إغفال التذكير بأن بعض هؤلاء الباحثون يهتم على وجه الخصوص بالمحادثة والطرق التي يستعملها الناس من أجل

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, P21, 1995.

إنتاجها وتأويلها . وقد ركّز تحليل المحادثة بالأساس على المحادثة غير الرسميّة بين الأقران (مثلا محادثة هاتفيّة) ، على الرغم من أن البحوث اليوم تعتني بأنواع الخطاب المؤسّسي بما في ذلك الخطاب الإعلامي .

لتوضيح هذه المقاربة يحيل فيركلاف على دراسات الاستجواب الإعلامي التي أنجزها باحثون أمثال هيريتايج (1985) Heritage (١٩٨٥) ، وغريتباتش (١٩٨٦) Greatbatch و«هوتشبي» Hutchby (١٩٩١) . ويركز الباحث هيريتايج على 'الصياغات' التي يستعملها المستجوِبون خلال الاستجوابات ، ويقدّم مثالا[1] ثم يُعلّق بأن الجملة الأخيرة الواردة على لسان المستجوِب صياغة تُستعمل كثيرا من قبل المستجوِبين لتلخيص ما قاله المستجوَبون .

يبرز هذا الإجراءُ (أي إعادة الصياغة) بعضَ جوانب ما قيل أكثر من غيرها ، ثمّ يُبلور في غالب الأحيان ما قيل بعرض استلزاماته ؛ وهذا ما حدث في المثال (المذكور في الهامش) حيث لم يقل المستجوب بأنّ الأمر سيّان عنده ، وإنما ضمّنه كلامه .

يرى هيريتايج أن الصياغة إجراءٌ تقني يلجأ إليه المستجوِبون ليظلّ الاستجواب خاضعاً للقيود التي يجب على المستجوِبين العمل في ظلّها ، ويتمثل أحد تلك القيود في وجود جمهور مستمع . ومن ثمّة فالصياغات طريقة للتأكد من أن الجمهور المستمع يتتبع الاستجواب عن طريق توضيح ما يقوله المستجوَبون ، واستخلاص استلزامات من ذلك . ويتمثّل القيد الآخر في مطلب محافظة المستجوِبين على 'الحياد' الشكلي ، وبذلك تَمنح الصياغات البديلة وسيلة خفيّة لتقويم ما قيل وجعله أسهلَ أو أصعب على إدراك المستجوَبين ، وذلك بدفع وجهة الاستجواب في اتجاه دون آخر .

يعلّق فيركلاف على وجهة نظر «هيريتاج» بخصوص مميّزات الاستجوابات الإخباريّة بأنها تركّز على الحلول التقنية لمشكلات مؤسّسيّة ، ومع ذلك فهي وجهة نظر مفيدة لأنها تبيّن تجذّر الممارسات الخطابيّة في البنيات والممارسات المؤسّسيّة ولكنّها ليست كافية في حدّ ذاتها ، أمّا لماذا هي ناقصة فيُعبّر فيركلاف عن ذلك كما يلي : «من أجل إضفاء المعنى على الممارسات الاستجوابيّة الحديثة يحتاج المرء إلى

---

(١) مستجوِب : هل ستسعَد بأن يصبح الأمير شارل ملكَ ويلز؟

رجل : طيب ، لا أستطيع -تعرف- لا أهتمُّ بمن سيصبح ملكاً ومن لا يحبُّ ذلك (٠,٥)

مستجوِب : تعتقد أن الأمر سيان . (انظر : نورمان فيركلاو . المرجع نفسه . ص . ٢٢) .

أن يعرف كيف تصوغها التغييرات الثقافيّة والاجتماعيّة ، وكيف تُسهم هي (الاستجوابات) في صياغة هذه التغييرات»[١] . ويضيف فيركلاف معلّقا على وجهة نظر هيريتايج بأنها تشدّد على الجانب المعياري في الاستجوابات الإخباريّة وما تشترك فيه ، أي قواعدها الأُسيّة المضمرة .

يستدرك فيركلاف بأن الاستجواب الإخباري ليس نوعا واحدا وذلك بسبب وجود تنوّع كبير عائد إلى اعتبارات ثقافيّة ، لا تاريخيّة فبحسب ، (الاختلاف بين استجوابات حقبة تاريخية ومثيلتها في حقبة أخرى) ، أما في الإذاعات الحديثة فذلك يتوقف على وسائل الإعلام ونوع البرامج والأسلوب الخاص بالمستجوِب .

وتتمثّل إحدى القواعد الأسّيّة للاستجواب -من زاوية معياريّة- في أن المستجوَبين ينبغي أن يلتزموا بالإجابة عن الأسئلة لكنهم ، كما يشير إلى ذلك غريتباتش[٢] لا يفعلون ذلك دائماً ؛ فهم يجيبون في بعض الأحيان عن السؤال ثم ينطلقون إلى موضوعات تهمّهم ، وفي أحيان أخرى يتحدّثون في موضوعات من اقتراحهم ثم يشرعون بعد ذلك في الإجابة عن السؤال ، وأحيانا لا يجيبون عن السؤال بالمرّة .

المثال :

«سؤال : هل تحبّه؟

جواب : طيب ، أنا -أظن في السياسة كما تعلم . .أنا- ليس الأمر متعلّقا بحبّ الناس من عدمه وإنما هي مسألة تعامل مع الناس . ثمّ تمكّنتُ دائما من التعامل جيّدا مع السيد ويلسون ثمّ- فعلا كان إلى جانبي»[٣] .

في هذا المثال لا يجيب المستجوَب عن سؤال المستجوِب ، وإنما بدأ كلامه بدحض وجاهة السّؤال منصرفا إلى ما يعتبره سؤالا وجيها ، ثمّ متحدّثا عنه (ما يعتبره وجيها) ، ومع ذلك يرى غريتباتش أن في مثل هذه الأمثلة خرقا للقاعدة التي ينبغي أن يلتزم بها المستجوَبون وهم يجيبون عن الأسئلة . بيد أن ما يهمّه هو اعتراض المستجوبِين على هذا الخرق أو تسامحهم في شأنه .

---

(١) ن . فيركلاف . المرجع نفسه . ص . ٢٢ .

(٢) يُنظر ن . فيركلاف . المرجع نفسه . ص . ٢٣ .

(٣) المرجع نفسه .

يرى فيركلاف أن هذا الرأي ينسى أن ضروبا من الاستجوابات الإخباريّة يُنظر إليها اليوم على نحو روتيني بأنها مناسبات يتحدّث فيها المستجوَبون عن موضوعاتهم . مع تنبيه خفيف إلى لزوم انسجام موضوعهم مع الأسئلة المطروحة أو ربطه بها . ويشير إلى أن هذا السلوك ليس خرقا وإنما هو جزء من تغيّر ثقافي مهمّ أصاب نوعا إعلاميّا دُرست تشعّباته وحلّلت من قبل طولسن Tolson (١٩٩١) .

يقرّ فيركلاف بأن تحليل المحادثة يشترك حالياً مع التحليل اللساني والتحليل الاجتماعي اللساني في عناصر تهمّ الوصف المفصّل للخصائص المؤسّسيّة للغة الإعلام . واتسعت الدراسات اللسانيّة الوصفيّة من خلال تحليلها تنظيمَ التفاعل (أخذ الدور في الكلام ، التحكّم في الموضوع ، الصياغة) ولكنها في الوقت ذاته تجاهلت عددا من الخصائص التي يُعنى بها الوصف اللساني .

معنى ذلك أنّ تحليل المحادثة يعتني بالمظاهر العلاقيّة للمحادثة ، من حيث إنجاز التفاعل وقضايا التمثيل ، بينما تُصرف عناية أقل إلى الخصائص اللسانيّة المرتبطة بها . كما أن هذا التحليل مازال يُقاوم ويرفض ربط خصائص الحديث بخصائص من مستوى أعلى من قبيل المجتمع والثقافة ؛ أي علاقات السلطة والإيديولوجيّات والقيم الثقافيّة .

٣-١-٣ التحليل السيميائي

يعتبر فيركلاف أن التحليل السيميائي يُعامل النصوص باعتبارها مكوّنا أساسيّا من مكوّنات التحليل الثقافي للإعلام . ويحيل في هذا على كتاب هارتلاي Hartley (١٩٨٢) الذي درس فيه خطاب الجرائد . وركّز في عمله هذا على الشفرات السيميائيّة والمواضعات السيميائيّة التي توجد في أساس المظاهر اللغويّة والبصرية للأخبار .

يتّسع تحليل الشيفرات البصريّة بحسب رأي فيركلاف ليشمل مختلف صيغ التقديم في التلفاز ؛ مقدّم الأخبار مواجها الكاميرا ، استعمال الرسوم البيانيّة ، والصّور ، وأنواع الأحداث المختلفةُ أو تغطيتُها ، وكذلك تأطير الصور وحركات الكاميرا وتقطيع المشاهد .

أشار فيركلاف إلى أن «هارتلاي» حلّل عددا من الشيفرات المتصلة باللغة وبالمواضعات الاجتماعية ، وتتضمّن تصنيف الأخبار إلى عدد محدود من الموضوعات

الرئيسيّة ، وبيّن تأثير التوجه الإيديولوجي للأخبار في معالجة الموضوعات وتوجيه الرأي العام والرد على الرأي المعارض والسعي إلى إقناع الجمهور المتلقي .

لا يمكن أن يخلوَ كل اختيار من بين اختيارات متاحة في استعمال الشيفرات البصرية والتقنية المتصلة بعمل الكاميرا من معان اجتماعية وخلفية ايديولوجية تتجلّى في تصرّف المذيعين كوسطاء يترجمون الأخبار إلى لغة مشتركة يفهمها الجمهور ، واستعمال أسلوبٍ تواصليٍ محادثتيّ ، وبنينة قصص الأخبار ، وإعادة بنينتها .

يركّز التحليل السيميائي على الإيديولوجيا المضمرة في نصوص الأخبار ويعتبر هذا التركيز محوراً نمطياً يمكن ملاحظته في كل بنيات الأخبار ، وتنحو الأخبار منحى تشخيص الأحداث (personnaliser) ، ذلك أن مقولة الفرديّة مقولة مهمة في هذا السياق يقع إبرازها مقابل مقولة الذات الاجتماعية التي يقع طمسها حين تقديم الخبر . وتُقدَّم الأحداث والتجاذبات بين الأطراف التي تظهر على سطح النص (يذكر فيركلاف مثال التجاذبات بين رؤساء العمل والعملة المضربين ، أو بين دولة وحلفائها وبين خصومها . . .) على أساس تجاذبات مضمرة بين «نحن» و«هم» .

يرى فيركلاف أن أحد أهم إنجازات هذا العمل يكمن في ذهابه إلى أنّ تحليل النصوص يُعتبر جزءا أساسيا من التحليل الاجتماعي الثقافي لوسائل الإعلام ، وذلك عن طريق ربط خصائص النصوص بالإيديولوجيات وعلاقات السلطة والقيم الثقافيّة . ويذكر بأن هذا الهدف العام اعتنَتْ به المقاربات التي تنقد اللّسانيات وتحليل الخطاب اللذين يشتغلان مع ذلك وَفْق تصوّر للنص أساسه لسانيّ .

ويختم فيركلاف عرضه هذه المقاربة بمُؤاخذة هي التالية : إذا قورن التحليل السيميائي مع المقاربات ذات التوجه اللساني (اللسانيّات ، اللسانيّات الاجتماعيّة ، اللسانيّات النقديّة . . .) ، فهو يشكو من قصور مفاده أنه لا يُعنى عناية نسقيّة بالخصائص المفصّلة لنصيّة النصوص[1] .

٣-١-٤ اللسانيّات النقديّة والسيميائيّات الاجتماعيّة

تعَد اللسانيّات النقديّة نوعا من تحليل الخطاب أرْست أُسُسه مجموعة تنتمي

(١) المرجع نفسه . ص . ٢٥ .

إلى جامعة east Anglia في العِقد السابع من القرن الماضي ، ويُعدّ خطاب الإعلام أحد أهم اهتماماتها . تتأسس اللسانيّات النقديّة على النظريّة اللسانيّة «النسقيّة» (هاليداي ١٩٧٨-١٩٨٥) .

تستعين اللسانيات النقديّة في تحليل الخطاب الإعلامي بالآراء المتعلقة بالنص ؛ أي اعتبار النص إنتاجاً متعدّد الوظائف : مُمثّلا للعالم (الوظيفة الفكريّة) ومجسّدا للعلاقات الاجتماعيّة والهويّات (وظيفة التفاعل بين الأشخاص) ، ومدركاً للنصوص وحداتٍ تُبنى من الاختيارات داخل الأنظمة المعجميّة والتركيبيّة المتاحة ، وقس على هذا .

يُنظر إلى الخطاب في هذه المقاربة «حقلا من التمشّيّات الإيديولوجيّة والتمشّيّات اللغويّة . . . باعتبار العلاقة الحميمة بين هذين النوعين من التمشّيّات»[1] . هذا دون إغفال أن الاختيارات اللغويّة الواردة في النصوص يمكن أن يكون لها معنى إيديولوجي .

يرى فيركلاف أنّ الجانب الكبير من التحليلات (في هذا النوع من تحليل الخطاب الإعلامي) يدور حول التمثيل والوظيفة الفكريّة ، أي كيف تُمثّل الأحداث والناس والأشخاص (طريقة تقديم الخبر والناس) في الجمل الإخبارية البسيطة .

يتمثّل العنصر الأساسيّ في أن الأحداث المشفّرة في اللغة تتضمّن اختيارات من بين النماذج التي يتيحها النحو ، وليس من المستبعد أن تكون لهذه الاختيارات دلالة إيديولوجية (هذا يذكرنا بالتحليل السيميائي) مثال ذلك تعليقٌ في برنامج today في BBC راديو ٤ (١١ مارس ١٩٩٣) على «الثمن البخس» للسمك الروسي «الملقى[2]» في السوق البريطانيّة ، «الأمر العجيب هو عدم تنقّله بنفسه إلى المستهلك وثمنُه بخس إلى هذه الدرجة» .

هذا المثال يمكن أن يُعبّر عنه بطريقة أخرى على سبيل المثال : «يحمّل التجار المعنيون بتوزيع السمك المستهلكَ فوق طاقته»[3] ، ولكن وقع تشفير التعبير عن ثمن السمك باعتباره عملاً له فاعل مسؤول هو (التجار) بواسطة فعل يدل على التنقل

---

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, P25, 1995.

(٢) المقصود أن السوق أُغرقت بالسمك الروسي مّما أدّى إلى انخفاض مهول في ثمنه .

(٣) ينظر ن . فيركلاف . المرجع السابق . ص . ٢٥ .

مستعمَلا في صيغة المطاوعة وتحويل سيرورة الثمن إلى حالة «ثمن بخس جداً» . مع حذف المسؤوليّة والفاعليّة .

يلاحظ فيركلاف في هذه الاختيارات لتقديم الأحداث ، وفي هذا الميل المطّرد في التقارير الإخباريّة إلى مثل هذه الاختيارات بخصوص الحدث وأنواع المشاركين ، (أي الميل إلى عدم تحديد الفاعليّة والمسؤوليّة على هذا النحو) ، معنى إيديولوجيا . وهذا ما وقع في المثال السابق حيث أن الثمن حُوّل من عمليّة إلى حالة ، و يعتبر هذا النوع من التحويل إحلالا للاسميّة مكان الفعليّة ، وهو اختيار من بين اختيارات أخرى ممكنة .

كما أن هناك تغييراً آخر يتجلى في تغيير جملة من صيغة البناء للمعلوم (الفاعل) إلى البناء للمجهول ، مثلا مِن «يُلقون السمك في السوق» إلى «السمك مُلقى في السوق» . والنتيجة أن هذه التحويلات يمكن أن تكمُن وراءها مبرّرات إيديولوجيّة ؛ أي أن كليهما (التحويلان) يسمحان بأن يُحذف العامل أي المسؤول عن الفعل ، ومن ثمّة يغدو الحذف المطّرد للفاعليّة أو مواراتُها ، خاصيّةً إيديولوجية دالّة في النصوص .

يشير فيركلاف إلى أنّ Trew أنجز في كتابه ١٩٧٩ أ و١٩٧٩ ب ، عملا مثمرا حول الخطاب المحوَّل في الجرائد ، والمقصود به تحويل المواد الإخباريّة من وكالة الأخبار وغيرها من المصادر إلى تقارير إخباريّة ، وكذلك التحويلات التي تخضع لها قصّة ما من تقرير إلى آخر أو من تقارير إلى تحاليل معمّقة إلى افتتاحيّات ، وذلك خلال فترة زمانيّة معينة .

وبهذا الخصوص يحيل Trew إلى التغطية التي أنجزتها مجلّة The times لإطلاق الشرطة النار في زمبابواي سنة ١٩٧٥ . عنوان التقرير الأول

«مجموعة من مثيري الشغب السود قُتلوا برصاص الشرطة يوم لقاء قادة حزب المؤتمر الإفريقي» .

يعرّف الشرطة فاعلا لكن بوضعه في وسط العنوان ممّا أفرغه من شحنة التبئير ، بينما جُعل المتظاهرون في رأس العنوان (أي أن فاعل القتل زُحزح إلى وسط العنوان ممّا يُخفّف من بشاعة الفعل ، وعُوّض بفعل المتظاهرين بنقله إلى رأس الجملة بحيث يتحوّل القتل إلى نتيجة منطقيّة لفعل معيّن) ، وذلك ما تبيّنه بقية المقال :

«مجموعة من مثيري الشغب السود قُتلوا برصاص الشرطة يوم لقاء قادة حزب المؤتمر الإفريقي .

هذا المساء ، أُطلقت النار على ١١ إفريقياً وجُرح ١٥ آخرون عندما أطلقت

الشرطة النار على حشد يتكون من حوالي ٢٠٠٠ شخص [...]في سالزبوري في الفقرة السابقة أُستعمل البناء للمجهول (أُطلِقت النار و . . .جُرِح) ، أما رجال البوليس فحضورهم المصرّح به ليس إلا فاعلا للنار المطلقة على تجمّع عدد من المشاغبين ، وذلك بدل أن يكونوا هم من أطلقوا النار على المتظاهرين .

يلاحظ فيركلاف كذلك في إحدى الافتتاحيات (الشغب والموتُ (فقدان الحياة) في ساليزبوري) ، وذلك عوض «الشغب واليأس يُفقِدان الحياة في ساليزبوري» . في هذه الجملة يغدو العنصر «الوقائعي» مسؤولا ، ومعناه أن البوليس أخلي من المسؤوليّة بحذفه كفاعل .

يعتبر فيركلاف المثال السابق جزءا من مجموعة من التحويلات التي تتمّ في وسائل الإعلام وذلك في كل الفترات الزمانيّة وفي أغلب الأمكنة في العالم ، وهدفها الرئيسي هو التستّر على أعمال الشرطة ، وهو يرى أن هذه التحويلات إيديولوجية بامتياز دون أن ينفي عنها بطبيعة الحال الصفة اللسانيّة . إنها تُحمّل – مسبقا– مسؤوليّة الأحداث المعقّدة لأطر إيديولوجية لأجل تمثيل العلاقات السياسيّة في جنوب أفريقيا .

تشمل التمشّيات اللسانيّة أيضاً استعمال ألفاظ بدل أخرى وكذا إحداث تغيّرات تركيبيّة ، ومثاله إحلال فقدان الحياة محلّ إطلاق النار . تُعتبر مثلُ هذه التمشيّات اللسانيّة الإيديولوجية أيضا تمشيّات صراع حيث قد يعني اختيار تمثيل حدث بطريقة ما رفضَ تمثيله بطريقة أخرى رغم أَنها متاَحة .

تركّز اللسانيّات النقديّة في نظر فيركلاف على دور الاختيارات المعجميّة في عمليّات التصنيف . ويمكن أن نأخذ بعين الاعتبار مثلا – في دراسة التمييز بين الجنسين في التغطية الإعلاميّة – كيفيّة تصريف الاختلافات في المعجم المستعمل للإحالة على الرجال والنساء ، وهذا يقودنا إلى تحديد ضربٍ من ضروب الإيديولوجيا الموجودة مسبقا عند دارس هذا النوع من التمييز .

هل تُمثَّل النساء على أساس دورهن في الأسرة أم على أساس أنوثتهنّ في نظر الرجال؟ وما هو نوع المشاركين في التمشّي (رجال/ نساء) ، مثلا هل تسند لهما معا وظيفة الفاعلين في الأعمال؟ وأين تسند لهم هذه الوظيفة؟[1] . وبهذا الخصوص

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر فولر ، ١٩٩١ ، الفصل٦ .

يُستعمل مفهوم الجهيّة modality بمعنى واسع للإشارة إلى الخصائص التي «تُعبّر في النصوص عن مواقف المتكلمين إزاء أنفسهم وإزاء مخاطبين وإزاء موضوع الحديث»[1] . وتندرج اختيارات الضمائر والأفعال المساعدة والأعمال اللغويّة وغيرها في مفهوم الجهيّة .

يعتبر فيركلاف أن حدود إمكانات اللسانيّات النقديّة نُوقشت مناقشة واسعة من قبل المعنيّين بها وأنصارهم من الباحثين (فولر١٩٨٧ ، كْراس Kress ١٩٨٩ ، ريتشاردسن Richardson ١٩٨٧) . فبخصوص تمييز الممارسة النصيّة وخاصة في مثال Trew وقع التركيز على النص وعلى الممارسات الإنتاجيّة ، لكن ثمّة ميل إلى تأويل النصوص من قبل المحلّل دونما إحالة على الممارسات التأويليّة لدى الجمهور . أما الدراسات الإعلاميّة فقد حوّلت اهتمامها من تحليل النصّ إلى تلقّي الجمهور ، ولكنّ ذلك لم يؤدّ إلى النقد وهذا ما يدعو إلى التساؤل .

بخصوص الممارسة الاجتماعية-الثقافية هناك ميل إلى رأي وحيد لدور الإعلام في إعادة الإنتاج الإيديولوجي وهذا الدور يقلّص مدى التنوّع والتغيّر في الممارسات الإعلاميّة وخطاب الإعلام ، وعلى الرغم من وجود عناية بالمظاهر التفاعليّة في النصوص فإن التركيز وقع أكثر مما ينبغي على كيفية تمثيل الأحداث والأشخاص في الخبر الإعلامي .

يبيّن فيركلاف أن قضايا الهويّة الاجتماعيّة يجب أن تكون في طليعة الاهتمام أكثر ممّا هي عليه . وعلى الرغم من وجود عناصر من التحليل التناصّي لتشكّل النصوص ، باعتبار الخطابات والأنواع ، فإن هذا الجانب ظلّ متخلّفا إذا قيس باللسانيات والتحليل التركيبي في نهاية المطاف . كما أن التحليل اللساني يركّز كثيرا على الجمل ممّا يعني عناية قليلة بالخصائص التنظيمية العليا للنصوص في كلّيتها (الاهتمام بالمستويات الجزئية وإهمال المستويات الكلية) .

عندما يذكّر فيركلاف بهذه الحدود فليس الغرض من ذلك التقليل من شأن إنجازات اللسانيات النقديّة ، لاسيّما وأن الدراسات في هذا الميدان قد عكست انتقالات في بؤر الاهتمام كما عكست تطويرا وتحديثا للنظريّة في العقدين الماضيين ،

(١) روجي فولر وآخرون ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠٠ .

وإنما يهدف في رأينا إلى توسيع النظر إلى هذا النوع من التحليل وإبراز نقاط قصوره ليبرّر تجاوزه لها .

أما بالنسبة إلى التحليل النقدي الذي يستند إلى السيميائيات الاجتماعية فيرى فيركلاف أنه ساهم في تطوير مقاربة مختلفة نوعا ما عما سبقها (انظر من أجل تفصيل أكثر١٩٨٨ and Kress Hodge ، و Kress and van Leeuwen ١٩٩٠) . وهو يثمّن اهتمامها بالسيميوزيس البصري وكذلك باللغة ، وهذا ما يجعل هذه المقاربة مفيدة على الخصوص في مقاربة البرامج التلفزيونيّة . ونشير كذلك إلى أنّ الممارسات الإنتاجيّة والتأويليّة غدت تحظى باهتمام أكبر ، وهكذا نجد توجّها نحو دراسة الصراع والتغيّر التاريخي في الخطاب ، وكذلك توجها نحو وضع أسس نظريّة النوع[١] وتحليل التناص في النصوص .

٣-١-٥ النموذج الاجتماعي العرفاني: فان دايك

يُعتبر فان دايك أهم من يمثّل النموذج الاجتماعي العرفاني في التحليل النقدي للخطاب الإعلامي وقد وضع جملة آرائه في مجموعة من الدراسات (١٩٨٨- أ ، و١٩٨٨- ب ، و١٩٩١) وجعلها إطاراً لتحليل الأخبار (الجرائد خاصة) ، باعتبارها خطابا . وهو إطار يشبه بعض الشبه رؤية فيركلاف للخطاب ، رؤيةٌ تنبني على أبعاد ثلاثة أطلق عليها : النص ، والممارسة الخطابيّة ، والممارسة الاجتماعة الثقافية . وعلاوة على التركيز على الممارسة الخطابيّة تمكّن فيركلاف من إيجاد طريقة للربط بين التحليل النصي كما يراه والتحليل الاجتماعي الثقافي .

أما فان دايك فقد أنجز هو الآخر انتقالا مهمّا من التحليل النصّي -الذي ظلّت اللسانيات النقديّة وفيّة له- إلى تحليل الخطاب . وإذا تجاوزنا هذه الأرضيّة المشتركة ، فإن بينهما بعض الاختلافات المهمّة كما سنرى لاحقا .

إن تحليل فان دايك لممارسات إنتاج الأخبار وفهمها يركّز -من زاوية نفسيّة اجتماعيّة- على عمليّات العرفان الاجتماعي ، أي على كيفيّة صوغ «النماذج» و«الخطاطات» العرفانيّة للإنتاجَ والفهم ، بينما يركّز فيركلاف - في الكتاب المعتمَد عندنا أو في كتبه الأخرى- على كيفيّة تأويل الخطابات المتاحة اجتماعيّا .

(1) Van Leeuwen, 1987-1993.

ويتمثّل الحافز الرئيسي عند فان دايك ، وهو يربط بين النصوص الإعلاميّة والسياق ، في إبراز أن العلاقات والسيرورات الاجتماعيّة ، من قبيل إعادة إنتاج العنصريّة تتمّ على مستوى جزئي بواسطة ممارسات روتينيّة . ومقابل ذلك يهتم فيركلاف بإبراز أن تغيُّر اللغة والممارسات الخطابيّة في الإعلام يكون تغيّرا اجتماعيّا وثقافيّا[1] .

يحلّل الإطارُ الذي تبناه فان دايك نصوصَ الأخبار على أساس ما يسمّيه «بنيات الأخبار» وعمليّات إنتاج الأخبار ، وعمليّات فهم الأخبار . ويسعى التحليل إلى إبراز العلاقات بين النصوص وعمليّات الإنتاج وعمليّات الفهم من جهة ، ومن جهة أخرى إلى إبراز الممارسات الاجتماعيّة الواسعة التي تندرج فيها .

في أثناء تحليل بنيات الأخبار يتم التمييز بين البنيات «الكليّة» والبنيات «الجزئية» لخطاب الأخبار . وتتّصل الأولى بمحتوى النص في كليّته ، والثانية بشكل النصّ في كليّته . وتسمى الأولى البنية الموضوعاتيّة وتسمى الثانية البنية الخُطاطيّة .

يُعدّ مفهوم البنية الكلية محوريًا في تحليل البنية الموضوعاتيّة : البنية الكليّة أو الشاملة في النص هي تنظيمه الشامل على أساس موضوعات أو «تيمات» ، إنه تنظيم سلّميّ بمعنى أننا يمكن أن نتعرّف موضوع نص بأكمله وتلخيصه في صورة قضيّة (proposition) واحدة ، ويمكن أن يُترجم هذا الموضوع إلى عدد من الموضوعات المتفرعة عنه والتي تبدو أقل أهمية منه ، وهذه بدورها يُمكن أن تُترجم إلى موضوعات أخصّ ، وهكذا دواليك .

أما البنية الخطاطيّة للنص فقد عرّفها بأنها تلك المبادئ الموجِّهةُ لطريقة تنظيم محتواها الموضوعاتي . وهكذا يرى فان دايك أنّ للتقرير الإخباري على نحو نمطي عنواناً أو موجّهاً يكُون عنصرا حدثيّا يغطّي الأحداث الرئيسيّة للقصة ، وربّما عنصرا يمنح القصّة ردود أفعال لغويّة ، ويمكن اعتباره عنصرَ تعليق .

يوافق كل عنصر من البنية الخطاطيّة موضوعا عامّا في البنية الموضوعاتيّة . ويصوغُ عنوانُ تقرير إخباري الموضوعَ الشامل للنص . ويُشار إلى أن إحدى أهم خصائص البنية الخطّاطيّة لنصّ معيّن تُمثّله المبادئ المتحكّمة في الطرق التي يُرتّب بها المحتوى الموضوعاتي .

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, Ch4, 1995.

في مثال التقارير الإخباريّة يوجد مبدأ الملاءمة وهو مبدأ يتطلب معلومات أعم توضع في المقدّمة ، ثمّ تليها معلومات تفصيليّة أكثر فأكثر . وعلى هذا النحو يمكن القول إنّ العنوان الأصلي والعناصر الموجِّهة للتقارير الإخباريّة تتضمّن -على نحو نمطيّ- معلومات أعمّ .

أما البنيات الجزئية لخطاب الأخبار فيحللها فان دايك معتمدا العلاقات الدلاليّة بين القضايا ؛ أي علاقات الانسجام ومنها العلاقة بين السبب والنتيجة ، وقس على ذلك . وممّا يعتني به التحليل على المستوى الجزئي تلك المميّزات التركيبيّةَ والمعجميّة لأسلوب الجرائد وكذلك الخصائص البلاغيّة للتقرير الإخباري .

يعدّ مفهوم البنية الكليّة والبنية الخطاطيّة مركزيين في تحليل إنتاج الأخبار وفهمها وتحليل بنياتها . وتعتبر هذه البنيات الكلية مولّدة للنصوص . ويشمل تأويل النصوص تَعرُّفَ بنياتها الشاملة التي ترفدها . هذه البنيات محايثة للنماذج الذهنيّة للأحداث وللوضعيات التي يسخّرها مقدّمو التقارير في تأويل الأحداث ومصادرِ النصوص ، نماذجُ يحاول مقدّمو التقارير إبلاغها إلى الجمهور من خلال الطرق التي يحرّرون بها التقارير .

يساعد هذا المنظور العرفاني على تحديد كيفيّة تأثير «قيم الأخبار» أي القيم التي تتحكّم في إنشاء الأخبار وبنينتها والتي تصوغ التغطية الأخباريّة بالذات ، في الطريقة التي تنتج بها التقارير . ويسلّط هذا المنظور الضوء أيضا على كيفيّة تحويل النصوص -التي يحصل عليها الصحافيّون من وكالات الأخبار وغيرها من المصادر- في أثناء إنتاج التقرير ، كما أنه يلقي الضوء (أي المنظور العرفاني) على الأشكال التي تخزّن بها تقارير الأخبار في الذاكرة ، وكذلك على الآثار بعيدة الأمد التي قد تحدثها في الإدراك والعرفان والعمل .

يرى فيركلاف أن هذا الإطار الذي يقترحه فان دايك يتّسم بالصلابة والقوّة ، ومع ذلك فهو إطار محدود ذلك لأنه -في رأي فيركلاف- يتّسم بما يلي :

أولاً ، يركّز على التمثيلات وطرق التقديم ، أمّا العلاقات الاجتماعيّة والهويّات في خطاب الأخبار فلا يمنحها ما تستحقه من العناية .

ثانيا ، تحلّل النصوصُ في هذا الإطار تحليلا لسانيّا ، لا تحليلا تناصيّا (ونحن نعلم أن من الخصائص الأساسيّة لمقاربة فيركلاف أن التحليل اللساني يحتاج إلى أن يُكمّل بتحليل تناصيّ) .

ثالثا ، يهتم فان دايك بجانب واحد من ممارسات صناعة الأخبار ؛ أي باعتبارها بنيات قارّة تُسهم في إعادة إنتاج علاقات السيطرة والايديولوجية العنصريّة ، وهي سمات تكمن في خلفيّة تنوّع الممارسات وعدم تجانسها .

٣-١-٦ التحليل الأجناسي الثقافي(١)

اعتمدت بعض الدراسات البريطانيّة لخطاب الإعلام على الدراسات الثقافيّة المرتبطة بمركز الدراسات الثقافيّة في جامعة بيرمينغهام(٢) . ينطلق الباحثون ممّا سمّاه «ريموند وليامس» : رؤية «ثقافيّة ماديّة» للنوع ، ويعني به الجنس لأنهم أدركوا تجديدا في الجنس باعتباره «تمفصلا – عن طريق اكتشاف تقنيّ – لتغيّرات في الوعي تُعدّ بدورها أشكالا من وعي التغيّر»(٣) . ويعتبرون تحليل شكل النوع صيغة من التحليل الثقافي .

من أهم سمات هذه المقاربة عنايتها بالتفاعل والتمثيل بشكل متزامن . وتعتمد هذه المقاربة على مؤلَّف Goffman ١٩٨١ ، الدائر حول كيفيّة مخاطبة المذيعين في الإذاعة الجمهورَ والتوجّه في تحليل المحادثة نحو كيفية تحقُّق العلاقات الاجتماعيّة في أثناء الحديث ، وكذا تعتمد على رؤية هاليداي المتعددة الوظائف للنص .

يتّخذ فيركلاف دراسة Montgomery لبرنامج «our tune» الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة ويبثّه راديو BBC1 حيث يلخّص منشّطه Simon Bates رسائل القرّاء في شكل قصصي بحسب منهج «لابوف» Labov ١٩٧٢ . يقدّم مونتغوميري تقريرا عن بنية النوع في قصص برنامج «آور تون» في صورة مكوّنات بعضها لازم وبعضها اختياري ؛ مكوّناتٌ تتخذ ترتيبا مخصوصا رغم أنّ هذا الترتيب ليس صارما . وتماشيا مع الممارسة المألوفة في التحليل السردي يميّز «مونتوغوميري» بين تحليل المادة القصصيّة وتحليل تمثيلها الخطابي .

ويشمل التحليل الأخير المظاهر السرديّة التي تحوّل رسالة خاصّة إلى قصّة عامّة تُذاع على العموم ، وتشمل أيضا تلك المظاهر المعَدَّة لفائدة الجمهور المتقبّل للقصّة ؛ أما

---

(1) op.cit, P31,32.

(2) pour plus de détails voir Montgomery 1999 et Tolson 1990.

(3) Williams, 1981, P142.

التوترات التي تميز الثقافة الإعلاميّة فتُحتوى في التقديم الخطابي لهذا النوع ، ومثاله : التوتّر بين الطبيعة العموميّة لخرْج وسائل الإعلام والظروف الخاصّة للتقبّل الإعلامي يتجلّى على نحو واضح «في مزيج دقيق من الأصوات المؤسسيّة وأصوات الجمهور - خطابات خاصّة في فضاء عمومي ، استشفاء عمومي مبني على تجربة شخصيّة[1]» .

يحاول برنامج «آور تون» أيضا أن يحتوي عمليّا التوتّر بين ضغوط الأخبار وضغوط التسلية عن طريق تحقيق توازن بين أسلوب قصصي مُسَلّ يعتمد على نماذج تخيّليّة مثل مجالات القصص ، والتزام بحكي صادق لقصص المستمعين . تشير هذه الأمثلة إلى تحليل التناصّ في النصوص كتجميع هجين للأنواع وخطابات تتحقق في خصائص لسانيّة غير متجانسة .

سعت المقاربة الثقافيّة- الأجناسية نحو ربط التغيّرات الحاصلة في إذاعة الأجناس (generies) بالتطور الذي أصاب الدائرة العموميّة[2] للبثّ . وصف Scannell ١٩٩٢«الصورة التواصليّة» للبث -التي ظهرت بظهور المذياع- على أساس ظهور أساليبِ برمجة وأسلوبِ تواصل يستوعب الظروف المحليّة والخاصّة للتلقّي الإعلامي . وقد طوّرت أنواع البثّ صيغاً تحاكي لغة المحادثة العاديّة .

يرى فيركلاف أن مونتوغوميري ١٩٨٨ استكشف خاصية متعارفاً عليها ، أي مخاطبة الجمهور مخاطبة مباشرة تتحقق نصّيا بضميريْ المخاطبة ، والجمل الاستفهاميّة ، والجمل الأمريّة إلخ . وبيّن كيف يُنشَأ الجمهور باعتباره مركّبا ومختلفا ، وذلك من خلال الانتقال المباشر في مخاطبة قطاعات من هذا الجمهور .

تبيّن مثل هذه الأمثلة أنّ خصائص النوع ذات صلة بإنشاء أنماط الجمهور . وهذا طولسن قد بيّن ، في دراسته تطوّرَ نوع الاستجواب في الأشرطة الوثائقيّة والبرامج الحواريّة ، أنَّ التطور النوعي للاستجواب يؤثّر في انقسام حدث في الجمهور المستهدف ، مشيراً إلى زوال الجمهور العام من الدائرة العموميّة للبث .

يضاف إلى هذا أن عمل طولسون أبرز أيضا كيف يرتبط التجريب في مزج أشكال البث (الحوارات ، المنوّعات ، الكوميديا) وتداعي الأجناس في نصوص متناصّة مركبة وهجينة ، بميول واسعة في التغيُّر الثقافي . وتتضمّن هذه الميول

---

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, P32, 1995

(٢) المقصود نوع الجمهور .

التصديق الثقافي على الفردانيّة والانعكاسيّة (reflexivity) التي عُدّت خاصيّة عامّة تميّز الثقافة المعاصرة .

تبدو الانعكاسيّة على سبيل المثال في صورةِ «ميتا خطابٍ منعكس على الذات» من جانب المشاركين في برنامج حواري حول التلفاز ، وحولَ شخصيّاتهم باعتبارها منشآت ، وحول البوح الظاهر المتعلّق بالذات الحقيقيّة لشخص ما في البرامج الحواريّة كلعب فحسب .

٣-٢ مقاربة نورمان فيركلاف للخطاب الإعلامي

٣-٢-١ تقديم كتاب فيركلاف «الخطاب الإعلامي»

الفصل الأول من هذا الكتاب بسط لنظريّة فيركلاف وتوضيح لبعض المفاهيم التي سيستعملها في متن الكتاب .

تقدم الفصول من ٢ إلى ٧ نظرة عن الخطاب الإعلامي وإطارا لتحليله . يمثّل الفصلِ الثاني تقديما ومراجعة للأعمال الأساسيّة المنجزة سابقاً ، وفي الوقت ذاته تعريفاً بالاتجاهات ذات الصيت في مقاربة الخطاب الإعلامي . ويتفاوت التقديم والمراجعة من اتجاه إلى آخر ؛ هذا دون إغفال مساعي فيركلاف وطموحه إلى تحليل نقدي للموضوع (خطاب الإعلام) .

يقدّم الفصلان الثالث والرابع بسطة عن النظريّة الاجتماعيّة لخطاب الإعلام ، ومعالجة للتواصل في الإعلام الجماهيري في الفصل الثالث ، ووصفًا لإطار التحليل النقدي للخطاب الذي يوظّفه في الفصل الرابع من الكتاب . ويهتمّ الفصل الخامس بالتحليل التناصّي لنصوص الإعلام ، أي كيفيّة تحويل النصوص الإعلاميّة وامتصاصها لنصوص أخرى ، وبعبارة أخرى الطريقة التي تعرض بها وتُوَلَّف أنواع الخطاب .

يتعامل الفصلان السادس والسابع مع التحليل اللساني لنصوص الإعلام مع تركيز الفصل السادس على المظاهر التمثيليّة في النصوص ، والفصل السابع على مظاهر النصوص التي لها صلة بالعلاقات والهويّات .

الفصلان الثامن والتاسع يعالجان حالات أو أمثلة من أنواع بعينها من خطاب الإعلام . يمثّل الفصل الثامن دراسة لمثال برنامج تلفزي بريطاني عنوانه «ساعة الجريمة[1]» ، ويدرس الفصل التاسع الخطاب السياسي في وسائل الإعلام .

(1) “crime watch”.

٣-٢-٢ بسط نظريّة فيركلاف

يَعتبر فيركلاف اللغة «جزءاً من الحياة الاجتماعيّة لا يمكن اختزاله ، وبينها وبين عناصر الحياة الاجتماعيّة الأخرى علاقة منطقيّة جدليّة تجعل من الضروري أن يأخذ البحث والتحليل الاجتماعي اللغة بعين الاعتبار(١)» . وهذا لا يعني أن فيركلاف يختزل الحياة الاجتماعيّة في اللغة ، وإنما يرى أن تحليل الخطاب استراتيجيّة إلى جانب استراتيجيّات أخرى في التحليل الاجتماعي مثل مبحث الأعراق ودراسة الثقافة ودراسة المؤسّسات وغيرها من الدراسات التي تجعل المجتمع موضوعا لها .

على هذا الأساس يتناول فيركلاف الخطاب الإعلامي بالدراسة في ضوء رؤية تخصُّ الجانبَ الاجتماعي بأهميّة كبرى ، مشيراً إلى أن المقاربة التي يعتمدها جديدة ولكنها لا تقطع الصلة مع ما سبقها من المقاربات التي تناولت الإعلام بالدراسة ، وذلك من قبيل الدراسات التي اهتمّت بالتناصّ أو الدمج بين الأنواع .

لّما كانت وسائل الإعلام الجماهيرية تحتلّ مكانة مركزيّة في الأنظمة الاجتماعيّة الحديثة فإن لها مركز الصدارة في كل ما يحدث من تغيّر في المجال الاجتماعي الثقافي . ولهذا فإن دراسة لغة وسائل الإعلام من شأنه أن يساهم في تسليط الضوء على البحوث الحديثة التي تعتني بدراسة التحوّلات الاجتماعيةّ في حياة الشعوب .

ونلاحظ أن مقاربة فيركلاف للتحليل النقدي للخطاب الإعلامي تحاول الابتعاد عن التحليل الشكلي الفجّ للغة الذي تبنّته بعض الدراسات اللغويّة السابقة وخاصّة الدراسات التي أهملت الجانب التداولي للغة إهمالا تاما وركّزت على الجانب اللغوي فقط ، ولذلك درس فيركلاف الخطاب الإعلامي من زاويتين ، الأولى زاوية لسانيّة والثانية زاوية خطابيّة .

يحدّد فيركلاف لمقاربته ثلاثة أهداف أساسيّة هي :

أوّلا ، أن يتمكّن من وضع إطار لتحليل لغة الإعلام بإمكان القرّاء استغلاله وتوظيفه في دراسة وسائل الإعلام الجماهيري ؛ وهو بذلك يتوجّه إلى نوعين من القرّاء ، النوع الأول من لهم اهتمامات لسانيّة وستعنيهم في دراسته تحليل لغة الإعلام ، والنوع الثاني هم من يشتغلون بالدراسات الإعلاميّة ويعنيهم

---

(١) نورمان فيركلاف ، تحليل الخطاب ، التحليل النصّي في البحث الاجتماعي ، ترجمة طلال وهبة ، المنظمة العربيّة للترجمة ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

الاطلاع على تحليل الخطاب الإعلامي تحليلا لسانيّا ولكن من زاوية خطابيّة . وهو يقصد بالخطاب استعمال اللغة منظورا إليها بطريقة مخصوصة أي شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعيّة (التركيز على العناصر التداوليّة) .

ثانيا ، إقناع القارئ بأن لغة الإعلام جديرة بالدراسة والتحليل لأنها تساهم في التغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة ، ويُعتبر تحليلها عنصرا مهمّا في تحليل التمشّيّات المعاصرة لكلّ تغيّر في صلب المجتمع ، ولأن لها (لغة الإعلام) تأثيرا كبيرا في تغيّر القيم الثقافيّة في المجتمع وتأسيسِ هويّات جديدة للشعوب مثل التحرّر من التقاليد والعادات وتبنّي عادات جديدة تصبح ضمن مكوّنات الثقافة الجماعيّة لمجتمع ما ، كما أن اللغة الإعلاميّة لها دور كبير في تغيير موازين القوى والتأثير في علاقات السلطة .

ثالثا ، «إلقاء الضوء على الطبيعة اللغويّة والخطابيّة لسلطة وسائل الإعلام والتركيز على ما يمكن أن يسمّى إعلام الشؤون العامّة مثل الأخبار والبرامج الوثائقيّة والبرامج الأسبوعيّة التي تُعنى بالسياسة والشؤون الاجتماعيّة والعلم . .[1]» .

أما المتن الذي اعتمده فيركلاف فهو عبارة عن نصوص من وسائل الإعلام البريطانيّة (الجرائد ، الإذاعة ، التلفاز) في الفترة الممتدّة بين ١٩٩٢ و١٩٩٣ ، وبعضَ النصوص من الإعلام الأمريكي والإعلام الأسترالي . وتجدر الملاحظة أن فيركلاف يحوّل المسموع إلى مكتوب (يدوِّنُه) لدراسته ، وهكذا يحوّل ، مثلا ، لقاء إذاعيّا بين صحافي وضيفه إلى نص مكتوب قبل دراسته .

ولعلّ أهم دافع لقيام فيركلاف بهذا البحث هو ما صرّح به في بداية الفصل الأول من كتابه وهو معايشتُه في ذلك الوقت أحداثا جلبت اهتمامه وهي فوز برلسكوني في الانتخابات في إيطاليا ، وفوز طوني بلار في بريطانيا ، وسطوع نجم الملياردير روبرت مردوخ الاسترالي ، وهجرة الرواندين إلى الزايير .

لاحظ فيركلاف ارتباطا وثيقا بين هذه الأحداث وبين سلطة الإعلام . فبرلسكوني كان يملك قنوات تلفزيّة ، وطوني بلار كلّف بحملته الانتخابيّة شخصيّة

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, CH 1, P2, 1995.

(بيتر ميدِلْسون) خبيرة في العلاقات العامّة ومحبوبة ومؤثّرة اجتماعيّا وقد جعل هذا الرجل من طوني بلير فائزا قبل موعد الانتخابات وذلك عبر وسائل الإعلام . أمّا المهاجرون الرواندّيون فإن الصور التي تداولتها وسائل الإعلام عنهم أثّرت تأثيرا كبيرا في المشاهدين فتعاطفوا مع قضيّتهم .

كانت وسائل الإعلام كذلك السبب في شهرة روبرت مردوخ وجعْله نجما يتابع أخباره ملايين المشاهدين ، ذلك أنه يملك قنوات تلفزيّة وإذاعيّة عديدة تتوجّه إلى ثلث سكان العالم تقريبا . وبهذا تأكد فيركلاف من أن سلطة الخطاب في وسائل الإعلام لها دور كبير في صنع المشاهير بل وصنع قادة البلدان وزعمائها .

٣-٢-٣ أمثلة عن التحليل النقدي للخطاب الإعلامي في مقاربة فيركلاف

تناول فيركلاف بالدراسة عدّة أمثلة من الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية وسنختار مثالين تظهر فيهما سمات مقاربته جليّة ، الأوّل مثال من التلفزة ، والثاني مثال من الإذاعة المسموعة ، وذلك قصد توضيح مقاربته وإعطاء مثال تطبيقي للتحليل النقدي للخطاب الإعلامي .

المثال الأوّل

المثال الأول مقتطف من برنامج تلفزيوني من قناة الــبي بي سي ١ في ١٠ أوت ١٩٩٢ وعنوانه «بانوراما» ، ويبسط هذا البرنامج مسألة معالجة «الفيول» Fuel النووي في بريطانيا .

«في الأسبوع المقبل ستُبحر هذه السفينة «شيكيشيمي» لتحرس حمولةً قاتلة» ، في رحلة خطيرة حول العالم . ستكون حمولتها من بلوتونيوم ، وهو من أشد المواد سمّية في العالم ، وكذا من المواد الخام في صناعة الأسلحة النوويّة . وستكون فاتحةَ تجارة دوليّة في البلوتونيوم الدائرة حول الفيول النووي البريطاني الموجود في حقل سيلافيلد . يقول المنتقدون إن الشحنة برمتها عبارة عن تشيرنوبيل عائم . في هذه الليلة يتساءل]برنامج [بانوراما : هل تستحق تجارة البلوتونيوم المخاطرةَ ؟ [١] .

يبدأ فيركلاف بوصف المشهد ثمّ يُحرّر كلام مقدّم البرنامج «جون تايلور» في شكل نصّ (كما أثبتنا ذلك في الفقرة السابقة) ، وهو لا يغفل عن تذييل النص

---

(1) op.cit, CH 1, P3, 1995

بوصف جينريك البرنامج الذي يتبنّى منذ البداية وجهة النّظر القائلة بخطورة معالجة النفايات النوويّة لأنه يُظهر الكرة الأرضيّة وهي تتعرّض إلى انفجارات قويّة ومتتالية .

ينطلق فيركلاف في التحليل مستعينا بالجانب اللساني والجانب الخطابي (كما يراه هو وكما فسّرناه سابقا) ، فيلاحظ بداية أن النص يتكوّن من جمل تقريريّة باستثناء الجملة الأخيرة في نهاية النص ، وهي جملة الاستفهام الوحيدة .

ما يلفت الانتباه هو أن الجمل التقريريّة الثلاثة الأولى هي عبارة عن تقرير لأشياء لم تقع بعدُ ، ووقوعها رهين بالمستقبل . وعلى الرغم من أن المستقبل يظلّ مجهولا فإن هذه التصريحات قاطعة وحاسمة مع غياب أي لفظ يفيد الاحتمال (مثل ربّما أو لعلّ) ، ونلاحظ التأكيد على السمة التقريريّة لهذه الجمل وعدم احتوائها على أدنى شك في وقوعها .

يساهم هذا التقرير الواضح والمؤكّد في بناء العلاقة بين مقدّم البرنامج والمشاهد/المستمع ، وتظهر الهويّة الاجتماعيّة للمقدّم باعتباره شخصا عارفا بالموضوع متمكّنا من كل تفاصيله وهذا ما يمنحه الحق في «القول» باعتباره مالكا لحقيقة الوقائع ، وتظهر كذلك الهويّة الاجتماعيّة للمشاهد/المستمع باعتباره متقبّلا ينتظر أن يقع إخباره بالحقيقة التي يتوق إلى معرفتها من مصدر» موثوق به» .

هنا تشتغل سلطة اللغة إلى جانب سلطة الصورة لجلب اهتمام المتفرّج والتأثير فيه بل وإقناعه بصحّة ما يُقال ؛ فمقدّم البرنامج شخصيّة مشهورة على الصعيد الإعلامي وهو يخاطب الجمهور الذي ينتظر منه مزيدا من المعلومات ، على الهواء ، ولكن العلاقة بين المقدّم والمتلقّي أعمق من ذلك وأشدّ تعقيدا إذ هنالك الجانب المسكوت عنه وهو جانب التسلية ، فالمقدّم يسلّي المشاهد باعتباره مستهلكا لا يبذل مجهودا فيما يُعرض عليه .

يبرز جانب التسلية خاصّة في تفنّن المقدّم في الجمع بين الكلام الذي يُضفي عليه مسحة مأساويّة وبين الحركات المناسبة ، إلى جانب القدرة البلاغيّة فهو يستعمل مثلا الاستعارة «تشيرنوبيل عائمة» عندما يتكلّم عن السفينة التي تحمل الفيول النووي ، وهو يعلم طبعا أن ذلك سيثير في ذهن المتلقّي حادثة أليمة وقعت سابقا وأثرت في تاريخنا وهي حادثة انفجار المفاعل النووي تشرنوبيل . وهو بهذا الربط بين عمليّة نقل الفيول في السفينة وهذه الحادثة الأليمة يؤكّد خطورة ما هو بصدد الحديث عنه .

يُحوّل المقدّم عن قصد الحالةَ المعروضة على الجمهور (سفينة واحدة فيها حمولة من البلوتونيـوم وهو الفـيول النّووي ترسو في الميناء ولم تغـادره إلى ذلك الوقت) إلى حالة عامّة وشائعة فيتحدّث عن التجارة الدوليّة في البلوتونيوم، وبالتالي يوجّه فهم المستهلك الوجهة التي يريدها هو لا الوجهة التي يفرضها وضع الحالة التي يقدّمها في ذلك الوقت، وذلك بسرد حادثة «التجارة الدوليّة في البلوتونيوم» باعتبارها قصّة لم تقع أحداثها بعد إنما يُتَوقّع حدوثها، وليس باعتبارها أحداثا وقعت كما جرت به العادة في معظم القصص. وتتضاعف قوّة توقّع الحدث الدرامي «المسليّ» بوجود صورة السفينة راسيةً في خلفيّة المشهد. إن اختيار المقدّم بين ما يبرزه وما يتجاهله اختيارٌ واع من أجل تحقيق هدفه.

ما يمكن ملاحظته بيسر هو نوع اختيار المعلومات المقدمة للجمهور والذي لا يخضع لحاجة المتلقّي إلى المعلومة المفيدة، بقدر ما يخضع لما يخدم أغراض المقدّم. ففي هذا البرنامج هناك بعض التفاصيل التي كان من المتوقّع أن يستغني عنها المقدم بما أنها معروفة وبديهيّة ولكن المقدّم جعلها بارزة وركّز عليها.

مثال ذلك وصفه حمولة السفينة بأنها قاتلة وخطيرة مذكّرا بأن البلوتونيوم يُعدّ أحد أخطر المواد السّامة في العالم، وأنه المادّة الخام للأسلحة النوويّة، ويُشدّد المقدّم أثناء النّطق، على كلمات مثل؛ قاتلة وخطيرة وسامّ، وذلك لمخاطبة وجدان المتلقّي الذي يُنتظر منه مسبّقا تبنّي رأي سلبي وانتقادي لهذا النوع من التجارة بحسب رأيه (لأن المقدّم يعتبرها تجارة دوليّة)، وهو ينتهز هذه الفرصة ليقحم قضيّة «سيلافيلد»[١] وليبيّن أن التجارة تدور بين «سيلافيلد» واليابان.

ليُبيّن المقدّم الحياد المطلوب منه في مثل هذه المواقف يلجأ إلى العبارة التالية «يقول النقّاد»، وهي عبارة تمكنّه من التبرّء من مسؤوليّة حكم الإدانة، وذلك عن طريق إسنادها إلى مجهولين (النقّاد دون تعيينهم بالضبط). ولكنه غير محايد فعليّا وغير ملتزم بدوره التقليدي المتمثّل في تقديم الخبر. وهناك صراع بين هذا الدور التقليدي وبين ما تفرضه عليه متطلّبات مشاعر الجمهور باعتباره مسلّيا. على أن

---

(١) Sellafield موقع سيلافيلد هو الموقع الأساسي في المجموعة الإلكترونوويّة البريطانيّة، كان اسمه ويندسكال وإثر حادثة خطيرة وقعت في أحد محرّكاته غُيّر اسمه. وهو يوجد بالشمال الغربي لأنقلترا ويتألّف من ٤٠٠ بناية موزعة على ١٠كلم ٢ ويشغّل ١٠٠٠ شخص- ويكيبديا.

التوتّر بين غايات تقديم المعلومات والتسلية شديدة الانتشار في وسائل الإعلام الحديثة .

تبيّن دراسة المثال السابق كيف أن تحليل لغة النصوص الإعلاميّة عامة (ما يُقال في البرامج المُذاعة وما يُكتب في الصحف) تلقي الضوء على ثلاث مجموعات من الأسئلة حول خرْج وسائل الإعلام (حصيلة ما تبثّه وسائل الإعلام) :

أ -كيف يقع تقديم العالم (ونعني بذلك الأحداث التي تقع في العالم)؟

ب-ما نوع الهويّات المُنشأة للمعنيّين في البرنامج (مقدمو البرنامج ، المشاهدون ، الأطراف الأخرى المُحال عليها أو المستجوَبَة)؟

ج- ما العلاقة المُنشأة بين المعنيّين ، ونعني بذلك نوع العلاقة مثلا بين : مقدم البرنامج والمتفرجين ، أو خبير في مجال ما والمتفرجين ، أو سياسي والمتفرّجين . . .؟

المثال الثاني

المثال الثاني مأخوذ من برنامج إذاعي اسمه «اليوم» (Today) ، وهو برنامج أسبوعي على موجة بي بي سي راديو٤ (BBC. Radio4) هذا البرنامج أذيع طوال الحملة الانتخابيّة لسنة ١٩٩٢ وقد اختار منه فيركلاف حلقة يوم ٨ أفريل ١٩٩٢ ، وفي هذه الحلقة يسأل مقدّم البرنامج «برايان رادهيد» (Brian Redhead) ممثّلي كلّ من الأحزاب السياسيّة الثلاثة (الحزب المحافظ ، وحزب العمال ، والحزب الديموقراطي الليبيرالي) . السؤال هو التالي :

«لِمَ سيصوّت لك»ناخب متردّد» ؟

«برايان رادهيد : الآن يخاطبك ناخبنا المتردّد سيد براين كولد (براين كولد : نعم) اسمعْ حقيقة لست واهما بخصوص حكومة محافظة لقد أُتخمنا بهذا لكني لا أستطيع حقا إقناع نفسي بالتصويت لكم لأنكم كنتم خارج الوزارة الأولى مدة غير يسيرة لا خبرة لديكم إن ولجتم المدينة قد تقولون إنكم تعرفون الشيء الكثير لحكم البلد أنا قلق فالتصويت لكم سيكون نوعا من الفرار من السجن .

(جواب براين كولد ، سؤال من برايان رادهيد . لديس ويلسون ، وجواب ديس ويلسون محذوف)

برايان رادهيد : ديس ويلسون شكرا لكم ، الآن تخيّل أن هذا الناخب المتردد

رفيق فعلي لثلاثتكم ، يعرفكم شخصيا وأنه مختلف تماما عن الموجودين هنا خلال الانتخابات وأنه استمع إلى جميع البرامج الانتخابية ذات الصلة (أحدهم : ولد محظوظ) حتى أصيب بالتخمة (أحدهم : كلنا كذلك) . يهاتفكم ليطرح السؤال نفسه على كل واحد منكم . يقول : كريس لم كانت حملتك كريهة . أعني أنك احتقرت ذكاء الناخبين ، ولاسيما أنا . لمَ كل هذا التعتيم والضلال»[1] .

تتبّع فيركلاف في هذا المثال الطابع المحادثي للخطاب من خلال التركيز على الطبيعة غير المعياريّة لاستعمال الكلمات وبعض العبارات .

هناك ملاحظة مهمّة فيما ورد في المثال السابق وهي التضمين الملحوظ في كلام المقدّم . يتكلم المقدّم باسم الناخب المتردّد ، و يتكلّم الناخب المتردّد بدوره باسم المدينة ، وهكذا يغدو المقدّم متكلّماً باسمهما معا في البرنامج ؛ وهذا ما عبّر عنه فيركلاف بتعدّد الأصوات في المحادثة وهو في الحقيقة تعدّد مصنوع ، وجميع هذه الأصوات وقع إخضاعها للمحادثتيّة[2] . وهذا لا يساعد فحسب على جعل الاستلزام الايديولوجي طبيعيا ، وإنّما يستلزم ، من زاوية إيديولوجية ، أنّ المقدّم والناخب المتردّد والمدينة ينتمون كلّهم إلى نمط الحياة نفسه وإلى نفس العالم المتّسم بالخبرة العاديّة شأنهم في ذلك شأن عامّة الجمهور .

بالنسبة إلى فيركلاف لا يمكن أن تختزل المحادثتيّة فيما هو إيديولوجي فحسب ، يمكن أن تستثمر المحادثتيّة ايديولوجيّا أو يقع احتواؤها ايديولوجيّا وهذا ما يقع فعلا ، في غالب الأحيان ، ولكنها لا تمثّل أبدا درجة من دَمَقْرطة الثقافة . ويمكن أن نأخذ مثالا على ذلك محاولة دمقرطة التكنولوجيا بتقريبها من الناس وذلك بالرفع من منزلة لغة وخبرة الحياة العاديّة واستعمالها لتبسيط العلم وجعله في متناول عامّة الناس واستبعاد الطابع النخبوي والغامض المرتبط بالعلم حين يتحدّث عنه العلماء المختصّون مستعملين لغة خاصّة بهم تغلب عليها العبارات التقنيّة .

---

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, CH 1, P9-10, 1995.

(2) conversationalization

٣-٢-٤ استنتاجات

يشير فركلوف إلى أن الأمثلة السابقة تسفر عن نوعين من التوتّر يصيبان لغة الحديث :

أ- التوتّر بين الإخبار والتسلية

ب- التوتّر بين العام والخاصّ

وهذان التوتّران يشيران إلى توجّهين اثنين لخطاب وسائل الإعلام وهما :

١- توجّه إعلام الشؤون العامّة نحو أن يصبح ذا طابع محادثي على نحو متزايد .

٢- توجّه الإعلام بصفة عامّة وعلى نحو متزايد نحو التسلية ، أي أن يصبح خاضعا للسوق أكثر فأكثر بتعلّة 'الجمهورُ يريد هذا' .

هذا يعني أن قسطا كبيرا من الإعلام يتّجه نحو التسلية (الدراما ، العروض الهزليّة ، عروض التسلية والألعاب ، إلخ) ، ومن ثمّة فإن ما يتضمّنه في البنية الداخليّة يكتسب شيئا فشيئا نوعا من الرخاوة في الحدود بين الشأن العام والتسلية .

يمكن أن يُعتبر هذا التغيّر بصفة عامّة جزءا من عمليّة «تسويق» مكثّفة للإعلام ، وذلك بسبب الضغوط التجاريّة المتنامية والتنافس المتزايد . أصبح الإعلام مجبرا على العمل ضمن قواعد السوق داخل صناعة 'الترفيه' ، ولعلّ وجها من وجوه هذا يتجلّى في الضغط الكبير من أجل التسلية ولو في الإنتاج الإعلامي المتصل بالشأن العام .

لم يمس التسويق الإعلام وحده وإنما تعدّاه إلى مجالات اجتماعيّة أخرى أُجبرت على العمل وفق قواعد السوق ومنها المؤسّسات التعليميّة كالمدارس والجامعات ، وكذلك الخدمات الصحيّة وقطاع الفنون .

يعتبر فيركلاف ما توصل إليه بخصوص دراسة خطاب وسائل الإعلام من سمات النزعة التاتشيريّة[١] (Thatcherism) في بريطانيا والأنظمة السياسيّة المشابهة لها في بلدان أخرى في العالم . وقد صاحب التغيّرَ الاقتصادي تغيّرٌ ثقافيّ جعل بعضهم يشير إلى المجتمعات الحديثة باعتبارها مجتمعات 'استهلاكيّة' أو 'ترويجيّة' .

يرى فيركلاف أن هذه التحوّلات تستحقّ الدراسة ولذلك فهو يطرح بعض التساؤلات من قبيل : هل يُعدّ الإكراه التجاري في الإعلام (في التلفزة خاصّة) من

---

(١) نسبة إلى «مارغريت تاتشر» الوزيرة الأولى البريطانية التي امتدت فترة حكمها بين سنة ١٩٧٩ وسنة ١٩٩٠ ، وتعني مجموع المبادئ التي ارتكزت عليها سياستها الاقتصادية خاصة .

أجل التسلية المتواصلة – دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة البرنامج – متوافقا مع تقليد معلوم يقع التمييز فيه بين وسائل الإعلام التي تكون في خدمة الصالح العام وبين غيرها المخصّصة كليّا للتسلية؟

إذا كان الجمهور مُنشأ ومتنافَسا عليه باعتباره مستهلِكا ولو حتى في برامج الأخبار وبرامج القضايا اليوميّة ، ألا ينفي هذا مزاعم البثّ (عمليّة إذاعة برنامج) من أجل إنشاء دائرة عموميّة ينخرط الناس في إطارها باعتبارهم مواطنين وذلك في مناقشة جادّة للقضايا الآنيّة؟ وإن كان الإعلام لا يدعّم دائرة سياسيّة عموميّة ففي أي مكان يُمكن أن يقع إنشاؤها في مجتمعنا المتخم إعلاميّا (مثلا ربّما كان صنع الشبكات المضادّة والمقاومة للطريق المرسوم سلفاً تشير إلى وجود إمكانيّات أخرى)؟

٣-٢-٥ علاقة الإعلام الجماهيري ببقيّة المجالات الاجتماعيّة

أشار فيركلاف إلى الخصائص البنيويّة للتواصل في وسائل الإعلام الجماهيريّة إذ يَرى أن التواصل ينتصر دائما للمحادثتيّة ، ومن هذه الخصائص التعارض بين الطبيعة العموميّة للإنتاج الإعلامي والطبيعة الخاصّة للإعلام الاستهلاكي .

يمكن أن نلاحظ أيضاً وجود صلة بين المحادثيّة والتسويق وذلك في الانتقال من نموذج الإعلام المحايد إلى نموذج إعلام الاستهلاك والتسلية ، وهذا يمكن أن يكون بتأثير انتقال وقع في صلب الاقتصاد الحديث وهو النزوع إلى الطبيعة الاستهلاكيّة ، وأن هذا الانتقال نجم عنه تغيّر في موازين القوة التي انتصرت للمستهلكين على حساب الإنتاج ، وصاحب ذلك أيضا تحوّل أعمّ في العلاقات الاجتماعيّة ينتصر للإنسان العادي وممارساته وثقافته وقيمه ، بما في ذلك اللغة التي يستعملها في محادثته .

يبرز فيركلاف عنصرين في علاقة الإعلام الجماهيري ببقيّة الأطراف الأخرى من شبكات المؤسّسات الاجتماعيّة التي يشتغل فيها ، وهما :

أ –علاقة الإعلام الجماهيري مع الحياة العاديّة للنّاس والأسرة من جهة ،

ب–علاقة الإعلام الجماهيري مع مجال الاقتصاد وعالم الأعمال من جهة ثانية .

ما نلاحظه هنا هو وجوب عدم إغفال أن العلاقة الثانية تُعدّ على نحو ما علاقة داخليّة باعتبار أن وسائل الإعلام الجماهيريّة يُنظر إليها في الأساس بأنها مجال أعمال (business) .

٣-٢-٦ وسائل الإعلام في نظر فيركلاف

يرى فيركلاف أن وسائل الإعلام تشتغل داخل نسق اجتماعي وهذا ما يعطي أهميّة لفصل مظاهر بعينها ، مثل العلاقتين المذكورتين أعلاه ، عن الطريقة التي تشكَّل بها وسائل الإعلام والطريقة التي تسهم بها في تشكيل النظام في كلّيّته .

هنا يمكن لنا القول إن فيركلاف قد لامس مسألة السلطة في وسائل الإعلام ، وذلك بطرحه أسئلةً عن الكيفيّة التي تؤثر بها موازين القوة (علاقات السلطة) في وسائل الإعلام الجماهيرية داخل النسق الاجتماعي . ومن بين هذه العلاقات يمكن أن نذكر العلاقات بين طبقة اجتماعيّة وأخرى ، والعلاقات بين النوع (الجنس : ذكر/أنثى) ، والعلاقات الإثنيّة ، وكذا العلاقات بين مجموعات بعينها من قبيل السياسيّين أو العلماء وعامّة الناس .

على غرار عدد من الباحثين درس فيركلاف هذه العلاقات تحت مسمّى الإيديولوجيا ، ولكنّ دراسته تتميّز بطرحه لكيفيّة اشتغال الإيديولوجيا في لغة وسائل الإعلام . يرى أن الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في دراسة الخطاب الإعلامي بما هو مجال طرح لموضوعات الهويّات والتمثيلات والعلاقات .

يتضمّن اشتغال الإيديولوجيا في لغة الإعلام طرقا معيّنة لتمثيل العالم (مثلا نجد تمثيلات معيّنة للعرب أو للاقتصاد الرأسمالي) ، ويتضمّن كذلك إنشاءات بعينها للهويّات الاجتماعيّة (مثل الإنشاء بطرق معيّنة للخبراء في ميدان العلوم والذين ينتجون برامج تلفزيّة أو إذاعيّة) وإنشاء العلاقات الاجتماعيّة (إنشاء علاقات بين رجال السياسة والجمهور) .

بالنظر إلى عمليّة التسويق في وسائل الإعلام يمكن اعتبار الإنشاء المتزايد لجمهور المشاهدين مستهلكين وكذلك الضغط المتزايد على المنتجين من أجل التسلية ، جزءا من تنميط وتطبيع سلوك المستهلك وثقافته وهو ما يتضمّن بدوره الإشهار وتمثيل الناس عبر جميع البرامج (عروض المسابقات ، والحفلات الموسيقيّة ، والرياضة ، والدراما ، والأخبار . . .) ، وهكذا نكون أمام أصوات متعدّدة ، غير أن هذه الأصوات المتعدّدة مقنّنة إلى حدّ أنّ النسق يُدَعَّم بالنظر إلى الاستهلاك والنزعة الاستهلاكيّة ، ويُعاد تدعيمه باستمرار .

يقيس فيركلاف الحقل السياسي بما سبق ذكره عن التسويق في المجال الإعلامي ، والفرق الوحيد هو أنّ المتفرّج يتحوّل هنا من مواطن مشارك (وهو ما ينبغي

أن يكون) إلى متفرّج على الأحداث متلقّيا لها غير فاعل فيها .

أما بخصوص المحادثات فيلاحظ فيركلاف وجود ازدواجيّة ترجمها في العبارة الاستفهاميّة التالية : هل تُعبّر الممارسات الخطابيّة التي خضعت لقاعدة المحادثتيّة عن تحوّل حقيقي في علاقات السلطة لصالح عامّة الناس ، أم أنّه ينبغي اعتبارها مجرّد استراتيجيّة يتبنّاها من يملكون السلطة لأجل استقطابٍ فعّال للناس كجمهور والتأثير فيهم اجتماعيّا وسياسيّا؟

ينبّه فيركلاف إلى أن روجي فولر يتبنّى محتوى الشطر الثاني من السؤال بقوله «تتمثّل الوظيفة الإيديولوجية للمحادثة في تطبيع العبارات (جعلها تبدو طبيعية) التي يُمثّل بها الواقع[١]» . وفي هذا المثال يتّضح أن هناك حكما مضمرا مفاده أن الانتقال المفاجئ لرؤوس الأموال على الصعيد الدولي سببه عدم كفاءة حكومة ما ، والحال أن انتقالها سببه البحث عن الربح حيثما كان[٢] .

يستنتج فيركلاف أن الإيديولوجيا المشتغلة في وسائل الإعلام هي «أن يكون المعنى في خدمة السلطة ، والايديولوجيا بهذا المعنى هي مجموعة قضايا توجد بصفة عامّة كافتراضات مضمرة في النصوص ، وهو ما يسهم في إنتاج علاقات السلطة غير المتكافئة وإعادة إنتاجها وكذا علاقات السيطرة»[٣] .

لكي نبيّن بحسب رأي فيركلاف أن المعاني تشتغل اشتغالا ايديولوجيّا ، يجب أن نبرز أنها تخدم بالفعل علاقات السيطرة في حالات بعينها . وهناك مبدأ منهجي من الضروري اتباعه وهو أن المحلّل ينبغي أن يتساءل دائما وهو أمام نصّ ما عمّا إذا كان يشتغل اشتغالا ايديولوجيّا؟ وكيف؟ ولكن يُتوقّع أن تتنوّع الإجابات .

---

(١) يحيل نورمان فيركلاف على : Roger Fowler, 1991, P57 .

(٢) مقتطف من الكتاب الأبيض للحزب العمّالي الجديد (١٩٩٨) «بناء اقتصاد المعرفة» (ويُقصد بذلك الاقتصاد المعتمد على المعرفة) : «في اقتصاد اليوم السائر سيراً حثيثاً نحو العولمة ، لن نتمكّن من التنافس بالطرق القديمة . رأس المال متحرّك ، والتكنولوجيا يمكن أن تهاجر بسرعة ، والسلع يمكن أن تصنع في بلدان منخفضة التكلفة ثمّ تُشحن إلى أسواق البلدان المتقدّمة» . ورد ضمن كتاب :

Fairclough Norman, Discourse, Social Theory and Social Research: The Discourse of Welfare Reform. Journal of Sociolinguistics 4(2): 163-195.

(3) Roger Fowler, op. cit.

فالايديولوجيا تهمّ قضيّة في بعض النصوص أكثر ممّا هي في نصوص أخرى .

ويُعتبر اكتشاف ما إذا كانت قضيّة معينة مضمرة أو مجموعةٌ من القضايا تشتغل إيديولوجيًا مسألةً تندرج في مجموعة عامة من الأسئلة القابلة للطرح من قبيل : هل يمكن أن نتحدّث عن قضيّة ما كلما وقع اختيار تمثيل ما بدل تمثيلات أخرى متاحة ، أو كلّما أُنشئت هويّات أو علاقات بطريقة بعينها دون طرق أخرى متاحة؟ ويحصر فيركلاف هذه القضايا في الأسئلة التالية :

أ- ماهي الأصول الاجتماعيّة لهذا الرأي؟ من صاحب هذا الرأي؟ وما مصدر هذا الرأي؟ (تمثيلُ مَن هذا ، على سبيل المثال؟) .

ب- ما الحوافز الداعية إلى تبنّي هذا الاختيار؟

ج- ما هي آثار هذا الاختيار ، بما في ذلك تأثيراته الإيجابيّة والسلبيّة في مختلف مصالح المعنيين به؟

يذهب فيركلاف إلى أن مسألة ما إن كانت القضيّة المتفق عليها تساعد على إنتاج أو إعادة إنتاج علاقات السيطرة ، مستقلّة عن أحكام صدقِها أو كذبِها ، ومع ذلك لا يمكن للتحليل النقدي أن يغضّ الطرف عن مسائل الصدق والكذب سواء أتعلّقت بالطرق التي تستعملها التقارير في التزييف وذلك بحذف جزء ممّا أُنجز أو فُعل أو قيل ، أم تعلّقت بقضايا إيديولوجية خاطئة ، ويسوق فيركلاف مثالا على ذلك وهو : إذا افترض نصّ ما أن النساء أقلّ ذكاء من الرجال أو أن الزنوج أقل ذكاء من البيض ، فينبغي أن يشير جزءٌ من التحليل إلى أن هذا الافتراض الايديولوجي خاطئ[1] .

إن البحث في قضايا السلطة والايديولوجيا والتوتّر بين العام والخاص في وسائل الإعلام أمر في غاية الأهميّة ، ولكن يمكن لنا أن نتساءل عن مدى نجاعة هذا البحث عن طريق التركيز على اللغة وخاصّة التركيز على جزئيات دقيقة في عدد محدود من النصوص . وبخصوص هذا التساؤل يعترف فيركلاف أن تحليل اللغة في خرْج وسائل الإعلام يميل إلى أن يكون مفصّلا وهو تحليل يهتمّ بنصوص معدودة ، إلا أنه لا يعتبر هذا التحليل مكتفيا بذاته بل هو تحليل من ضمن عدد من أنواع التحليل التي ينبغي أن تُطبّق معا على وسائل الإعلام ، بما في ذلك أشكال تكميليّة من التحليل يمكن أن

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, CH 1, P15.

تُعمّم على كميّة كبيرة من الخرْج الإعلامي (مثل أشكال تحليل المحتوى وأشكال التحليل الثقافي والسوسيولوجي) .

يضيف فيركلاف أن تحليل النصوص له بعض الإيجابيّات التي تفتقر إليها الأشكال الأخرى من التحليل ، فلا يمكن مثلا أن نتفطّن إلى التوتّرات والتناقضات في الأمثلة السابقة المدروسة إلا عن طريق الانتباه إلى عدم تجانس معاني النصوص وأشكالها . فالنصوص هي التي توفّر مادة لغويّة يمكن من خلالها دراسة المفارقات التي يقع فيها الناس وذلك بسبب التوترات والتناقضات التي تؤطّر تلك النصوص . ويمكن أن يكون التحليل النصّي مَنْفذا إلى الآليّات المفصّلة التي تنشأ من خلالها التناقضات الاجتماعيّة وتضمحلّ ، وكذلك التغيّرات الخفيّة التي تخضع لها في أحيان كثيرة .

يرى فيركلاف أن من الاعتراضات التي يمكن أن يسوقها محلّلو وسائل الإعلام على التحليل اللغوي هي أنه يخصّ تحليل النصوص بتركيز مفرط وغير ضروري ، وربما كان السبب كامنا في أن الدراسات الإعلاميّة كانت بعيدة عن تحليل النصوص مولّية وجهها شطر دراسة عمليّة تقبّل هذه النصوص ، على الرغم من وجود إشارات دالّة على الالتفات ولو جزئيّا إلى النصوص .

يعَدّ هذا الرأي ردّ فعل على تحاليل النصوص الإعلاميّة التي تفترض المعاني والتأثيرات بما في ذلك التأثيرات الإيديولوجية دون أن تأخذ بعين الاعتبار الكيفيّة التي يتقبّل بها الجمهور النصوص فعليّا . ويرى الباحث في تلقّي خرْج وسائل الإعلام أن النصوص ليست لها معان فريدة أو وحيدة ، وإنّما هي متنوعة التأويل بسبب اختلاف الجمهور والأفراد المشكّلين للجمهور ، ومن ثمّة تكون تأثيرات النصوص متنوّعة ومتعدّدة .

ويُقرّ فيركلاف بأهميّة دراسات التقبّل من أجل فهم المعاني والتأثيرات ، وهو يشير في الوقت نفسه إلى أنّ ما يسمّيه «التحليل اللغوي الجاف[1]» مازالت له الكلمة العليا في عدد من أقسام اللسانيات في المؤسّسات الجامعيّة ، ويرى أنّ هذا النوع الأخير من التحليل اللغوي لا يمكن أن يُتّخذ أساسا لعمل متعدّد

(١) فيركلاف ١٩٩٥ ، ص١٥ ، و يقصد فيركلاف بهذه العبارة تحليلا لا يقيم أي اعتبار للسياق - الاجتماعي للغة .

الاختصاصات يروم تحليل خطاب وسائل الإعلام .

يرى فيركلاف أن التحليل اللساني يجب أن يكون جزءا من تحليل خطاب وسائل الإعلام ولا يكون هو السبيل الوحيد للتحليل ، لأن هذا النوع من التحليل يعتني بالنصوص في معناها الواسع (برامج شفوية ، مقالات مكتوبة) ، بينما يعتني التحليل النقدي للخطاب بالممارسات الخطابية والاجتماعية والثقافية مثلما يعتني بالنصوص ، يقول فيركلاف بهذا الصدد «تحليل الخطاب تعنيه الممارسات كما النصوصُ وتعنيه كذلك الممارسات الخطابيّة والممارسات الاجتماعية الثقافية[١]» .

هو يقصد بالممارسات الخطابيّة على سبيل المثال الطرق التي تُنتج بها النصوص من قبل العاملين في وسائل الإعلام في إطار المؤسسات الإعلاميّة ، والطرق التي تُتقبّل بها النصوص من قبل الجمهور (القرّاء والمستمعون والمشاهدون) وكذلك الطرق التي تُوزّع بها النصوص الإعلاميّة على الصعيد الاجتماعي .

يمكن أن نضع ضمن طرق إنتاج الخطاب وطرق تأويله ما يسميه فيركلاف «مستويات الممارسة الاجتماعية الثقافية[٢]» التي يعتبرها أجزاء من سياق الممارسة الخطابيّة . وهو يرى أنه من المفيد التمييز بين المستوى المقامي والمستوى المؤسّسي والاجتماعي أي المجريات الاجتماعيّة المخصوصة التي يُعتبر الخطاب جزءا منها ، والإطار أو الأطر المؤسّسيّة التي يظهر فيها الخطاب ، وسلسلة الخطاب الاجتماعيّة الواسعة . يمكن اعتبار تحليل الخطاب محاولة لإبراز الصلات النسقيّة بين النصوص والممارسات الخطابيّة والممارسات الاجتماعية الثقافية .

٣-٢-٧ النص والخطاب في مقاربة فيركلاف

يقصد فيركلاف باستعماله مصطلح النص في التحليل النقدي للخطاب الإعلامي ثلاثة مستويات وهي :

أ- يستعمل هذه الكلمة كما هي مستعملة عادة من قبل اللسانيين حيث تعني اللغة مُتكلّمة ومكتوبة ، وهكذا فإن تحرير برنامج مُذاع أو مُتلْفز يُعتبر نصاً .

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

ب- إن كان النص متلفزا ، من المفيد إدراج الصور المرئيّة والمؤثّرات الصوتيّة باعتبارها جزءا من النصوص ، وبالتالي النظر إلى التحليل اللساني جزءا مما سُمّي التحليل السيميائي الاجتماعي . ولم يفته التنبيه إلى أنّ النصوص المكتوبة في المجتمعات الحديثة أضحت مرئيّة على نحو متزايد .

ج- الإطار الذي يتبنّاه لا يُهمل الطابع متعدّد الوظائف للنصوص وهو إطار مستوحى من النظريّة اللغويّة النسقيّة . ويحيل فيركلاف في هذا الشأن على كتاب هاليداي language and social semiotic الذي يرى أن وظائف اللغة ثلاثة ، وظيفة فكريّة ووظيفة تفاعليّة بين الأشخاص ووظيفة نصّية ، وتعمل هذه الوظائف متزامنة في كلّ نصّ بل في كلّ جملة أو قول .

ويمكن صوْغ العلاقة الوثيقة بين اقتراح فيركلاف وهاليداي على النحو الآتي :

فيركلاف	هاليداي
التمثيلات	الوظيفة الفكريّة
العلاقات	الوظيفة التفاعليّة بين الأشخاص
الهويّات	الوظيفة النصّيّة

تكمن نقطة الالتقاء الثانية بينهما في إشارة فيركلاف إلى أن العناصر الثلاثة متوازية وإشارةِ هاليداي إلى أن هذه الوظائف متزامنةٌ (متوازية في النصّ ومتزامنة في النصّ) ، ويوضّح فيركلاف ذلك بقوله «تُمثِّل الوظيفة الفكريّة للغة وظيفة توليد تمثيلات العالم ، وتتضمّن وظيفة التفاعل بين الأشخاص اشتغال اللغة في تكوين العلاقات والهويّاتالهويّات» .

تكمن أهمية إدراك النصوص على هذا النحو في تسهيل أمر ربط التحليل اللغوي بالهموم الأساسيّة للتحليل الاجتماعي : قضايا المعرفة ، الاعتقاد والايديولوجيا (التمثيلات الوظيفيّة الفكريّة) .

يلاحظ فيركلاف تفاوتا في العناية بالعناصر الثلاثة التي تحدّث عنها سابقا

---

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, CH 1, P17.

(التمثيلات ، العلاقات ، الهويّات) ، ذلك أن التمثيلات قد حظيت بعناية كبيرة بحكم ارتباطها بالأحكام المسبقة والتحكّم والايديولوجيا في وسائل الإعلام ، بينما لم يحظ عنصرا الهويّات والعلاقات بالعناية نفسها .

يرى أن التأثير الاجتماعي لوسائل الإعلام لا يقف عند التمثيلات فحسب وإنّما يتجاوزه إلى أيّ نوع من أنواع الهويّات الاجتماعيّة التي يُروّج لها الإعلام أو يركّز عليها ، أي القيم الثقافيّة التي يتضمنها خطاب وسائل الإعلام (يمكن أن تكون قيم النزعة الاستهلاكيّة أو الفردانيّة ، أو تأليه الأشخاص) ، ويتجاوزه إلى كيف تحدّد وسائل الإعلام العلاقات الاجتماعيّة (وعلى وجه الخصوص بين عموم الناس الذين يُعتبرون جمهورَ خرْج وسائل الإعلام ذات الشعبيّة) وبين السياسيّين والعلماء ورجال الكنيسة والمذيعين أنفسهم .

يذكر فيركلاف زاوية نظر أخرى إلى النص يمكن أن نسمّيها الانتقائيّة ؛ أي وجود إمكانيّات عديدة سواء على صعيد المعجم أو التركيب أو الأسلوب ، فيختار منها المتكلّم أو الكاتب إمكانيّة واحدة ، مثال : الاختيار بين البناء للمفعول والبناء للفاعل أو المعلوم ، أو بين الأسلوب التقريري والأسلوب الإنشائي . . .ويرى فيركلاف أن لهذه الاختيارات – في حقيقة الأمر– صلةً وثيقة بالمعاني ، أي أن المعاني هي التي تُملي اختيارا ما معجميّا أو تركيبيّا إلخ . ولم يفته التنبيه إلى أن الحديث عن الانتقاء أو الاختيار والإمكان ذو طبيعة منهجيّة غايته تحليليّة تمكّن من الكشف عن البعد الاجتماعي أو الايديولوجي إلخ .

ويضيف إلى التحليل النصّي عنصرا يراه غاية في الأهميّة ويعني به التنّاص ، وقد وضّحه في الفصل الرابع من كتابه .

يرى فيركلاف أن مصطلح الخطاب يُستعمل بكثرة وفي بعض الأحيان استعمالا ملتبسا في اختصاصات متنوّعة (ويحيل في ذلك على فيركلاف ١٩٩٢ أ . وفوكو ١٩٧٨ ، وفان دايك ١٩٨٥) ويقترح التمييز بين مدلولين أساسيّين ، الأوّل سائد في الدراسات اللغويّة : الخطاب باعتباره عملا أي فعلا وتفاعلا اجتماعيّا ؛ أي تفاعل الناس في وضعيّات اجتماعيّة واقعيّة . والمعنى الثاني سائد في النظريّة الاجتماعيّة ما بعد البنيويّة (في عمل فوكو على سبيل المثال) : الخطاب باعتباره إنشاء اجتماعيّا للواقع وشكلا من المعرفة .

أما استعمال فيركلاف لمصطلح الخطاب فيشمل المعنيين معا ، يتعلّق أوّلهما

عنده بوظيفة التفاعل اللغوي بين الأشخاص ومفهوم النوع ؛ ويتعلّق الثاني بالوظيفة الفكريّة للغة وبالخطابات .

يلحّ فيركلاف على أن منظوره لا يعالج تحليل النصوص منعزلة عن تحليل الممارسات الخطابيّة والممارسات الاجتماعي الثقافية . ونظرا إلى أن كتابه هذا يدور حول لغة وسائل الإعلام فإنه يُركّز تركيزا على النصوص بدل الممارسات ، وعلى المظاهر اللغويّة للنصوص بدل المظاهر السيميائية من قبيل الصور المرئيّة في التلفاز ؛ على أنه يمزج بين الاعتبارات النصيّة والأبعاد الأخرى التي يتضمّنها الإطار الذي اختاره للعمل .

خلاصات

يمكن أن نذهب إلى أنّ نظريّة فيركلاف ومن اتبع منهجه من الباحثين بعده ، تتّخذ شكلَ مخطط مستوحى من مختلف المقاربات التي سبقته ولا سيّما الجوانب القويّة فيها مضيفا إليه إطاره النظري الخاص به ، ويعتبر ذلك برنامج بحث نلخّصه في النقاط التالية :

- إن أحد المحاور التي ينبغي أن يركّز عليها التحليل هو ما يلي : كيف تنعكس التغيّرات التي تحدث في المجتمع والثقافة ، في الممارسات الخطابيّة لوسائل الإعلام؟ (ينبغي أن يراعي اختيارُ المعطيات المستقرَّ وغير المستقر من المجالات) .
- ينبغي أن يتضمّن تحليل النصوص الإعلاميّة عناية مفصّلة بلغة ونصيّة تلك النصوص .
- ينبغي أن يُطعّم التحليل بتحليل ممارسات إنتاج النص واستهلاكه ، بما في ذلك العناية بالتغييرات التي تخضع لها النصوص بانتظام عبر شبكات الممارسات الخطابيّة .
- ينبغي أن يؤسّس تحليل النصوص والممارسات على السياق المؤسّسي والاجتماعي الشامل والثقافي للممارسات الإعلاميّة ، بما في ذلك علاقات السلطة والايديولوجيات .
- ينبغي أن يشمل تحليل النص التحليل اللساني والتحليل التناصّي كليهما باعتبار الأجناس والخطابات . وينبغي أن يُعترف بأن النصوص هجينة تناصيّا وتحتوي

أخلاطا من الأجناس والخطابات ، وأن هذه الهُجنة تعكسها الخصائص اللسانيّة غير المتجانسة .

- ينبغي أن يُدرك التحليل اللساني للنصوص ادراكا متعدّدَ الوظائف وأن يُوجَّه نحو تمثيل وإنشاء العلاقات والهويّات كتمشّيات متوازية في النصوص والعلاقات المهمّة بينها .
- يشمل التحليل اللساني للنصوص تحليل عدد من المستويات منها الصوتي والمعجمي والتركيبي والبنيات الكبرى والخطاطات .
- ينبغي أن تدرك العلاقة بين النصوص والمجتمع/الثقافة إدراكاً جدليّاً . وتصاغ النصوص صياغة اجتماعية/ ثقافيّة ولكنّها هي الأخرى تشكّل المجتمع والثقافة بطرق قد تكون تحويليّة وقد تكون إعادة إنتاج .

الفصل الرابع:
وسائل الإعلام والتواصل

تمهيد

للتواصل الإعلامي الجماهيري خصائص تميزه عن باقي أنواع التواصل ، ويمكن أن تعود نسبة كبيرة منه إلى التكنولوجيا التي يستعملها هذا التواصل . بالإضافة إلى أن التواصل الإعلامي يأخذ بعين الاعتبار عدة أمور من بينها اقتصاد الإعلام وسياسة الإعلام ، أي أنه يولي أهميّة لطبيعة السوق التي تشتغل فيها وسائل الإعلام وعلاقتها بالدولة ، وقس على ذلك .

عند دراسة التواصل في وسائل الإعلام من المهم أن لا نغفل العناية بمظاهرها المؤسّسيّة بما في ذلك ممارسات إنتاج النص الإعلامي داخل مؤسسات الصحافة والمذياع والتلفاز ، بالإضافة إلى ممارسات استهلاك النص الإعلامي وتلقّيه في البيت وداخل الأسرة . مع الاعتناء أيضا بالسياق الاجتماعي/الثقافي في معناه الواسع للتواصل في وسائل الإعلام الجماهيريّة ، وكذلك بالبنيات الثقافيّة والاجتماعيّة والعلاقات والممارسات والقيم التي تؤطّر وسائل الإعلام وتصوغ جانبه التواصلي .

سنجيب في هذا الفصل عن سؤال محوريّ هو : ما الذي يميّز التواصل في وسائل الإعلام؟

ولما كان خَرْج وسائل الإعلام متنوّعا ومتعدّدا فإن فيركلاف يحدّد المتن الذي سيطبّق عليه بحثه حول التواصل في وسائل الإعلام وهو الأخبار والقضايا الجارية (قضايا الساعة) والوثائقي .

٤-١ خصائص التواصل في وسائل الإعلام

يرى فيركلاف أنّ الأحداث التواصليّة تختلف من حيث عنصرا الزمان والمكان ، ويشمل الحدث التواصلي في وسائل الإعلام من قبيل الوثائقي التلفزي اختلافات زمانيّة ومكانية ؛ ويكمن الأمر الأساس في أنّ زمان ومكان إنتاج النص التواصلي

الجماهيري مختلف عن زمان ومكان استهلاكه ، أي زمن مشاهدته أو سماعه أو قراءته من قبل جمهور مّا .

يُستهلك النص التواصلي في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة لا سيّما اليوم بفضل انتشار استعمال آلات الفيديو ، وإنتاج هذه النصوص يكون متفاوتا مكانا وزمانا ، ومثال ذلك أن إنتاج شريط وثائقيّ قد يتطلّب شهورا كما يتطلّب التصويرَ التنقل إلى عدّة أماكن وعدد من البلدان .

إنّ انتشار تكنولوجيا البث الفضائي وما يتّصل بها من عولمة وسائل الإعلام ، إضافة إلى السيطرة الشاملة لأمريكا الشماليّة وأروبا على هذا المجال ينجُم عنه مزيد من الاهتمام بالفروق الزمانيّة والمكانيّة التي تؤثّر في خرج وسائل الإعلام وبالتالي في نوعيّة التواصل ، بمعنى أن هذه الفروق تُعدّ الآن فروقا ثقافيّة ، ومثاله أن ما يُنتج في الولايات المتحدة أو أروبا يمكن أن يشاهده جمهور في الهند وجنوب شرق آسيا .

تعني خصائص المقام الزماني والمكاني أنّ الحدث التواصلي في وسائل الإعلام الجماهيري يمكن إدراكه فعليّا كـ'سلسلة' من الأحداث التواصليّة . ففي حال الوثائقي التلفزي ، على سبيل المثال ، لا نكون أمام البث الحالي فحسب وإنّما أمام الأحداث التواصليّة التي تشكّل إنتاج الوثائقي (وهي وحدها سلسلة معقدة) ومشاهدته .

يُعدّ البث الحالي ، بمعنى من المعاني ، حدثا تواصليا ناقصا من حيث غياب تواصل مباشر بين الباث والجمهور ، ويمكن أن تُوسّع السلسلة لتشمل الأحداث التواصليّة المصدر(مثل الحوارات أو الاستجوابات السياسيّة) التي يقع تحويلها إلى وثائقي من جهة وأحداث تواصليّة فرعيّة (محادثات ، ومراجعات ، وتعليقات . . .) من جهة أخرى ، يغدو فيها الوثائقي نفسه مصدرا مُحوَّلا .

ينبّه فيركلاف إلى أن مثل هذه السلسلة تربط المجال العام بالمجال الخاص : تُنتج البرامج في المجال العام مستعملة مصادر ماديّة من القطاع العام بصفة خاصّة (مثلا الأحداث السياسيّة) ، ولكنها تستهلك (أي البرامج) في المجال الخاص ، ولا سيّما البيت وداخل الأسر . ثمّة خاصيّة حاسمة تسم وسائل الإعلام الجماهيري هي أنها 'تتوسّط' بين المجال العام والمجال الخاص .

للوسيط (أي وسائل الإعلام) أثر كبير في رسم الحدود بين الحياة العامة والحياة الخاصّة والمؤسّسات ، وذلك بإعادة رسمها بالأساس . فالأحداث العامّة مثل حفلات

التتويج أو مناقشات البرلمان التي لم تكن متاحة إلا لمن يشاهدونها مباشرة ، غدت اليوم متاحة أمام الاستهلاك الخاص بفضل بثّها أو نقلها . وعلى العكس فالأحداث الخاصّة مثل الحياة الخاصّة للمشاهير (الأسرة المالكة في بريطانيا مثلا) أو فقدان أبوين طفلهما في حادثة ، أضحت أحداثا عامّة تستحقّ منزلة الأخبار .

ساهمت وسائل الإعلام في إعادة بنينة توقّعات الناس بخصوص الحد بين ما سمّاه Goffman[1] «الوجه» و«القفا» في السلوك ؛ أي في سلوك الاستهلاك العام في مقابل السلوك في السياقات الخاصّة . ومثال ذلك الطريقة التي أضحت الكاميرات تركّز بها على الوجوه الشديدة الحزن والوجوه الباكية في إذاعة الأخبار التلفزيونيّة .

يختلف التواصل في وسائل الإعلام الجماهيرية عن أشكال أخرى من التواصل من حيث التكنولوجيا المعتمدة ، مما يجعل ميزة فروقها الزمانية والمكانية ممكنة . أما زيارة الطبيب مثلا فهي تواصلٌ وجهاً لوجه (مباشرٌ وآنيٌ) يشمل التفاعل عن طريق اللغة المُتكَلَّمة والتواصل غير اللغوي (الحركة ، التعبير ، اللمس . . .) . إن عمليّة التواصل مع الطبيب زائلة بينما يسجَّل البرنامج التلفزيوني في صورة دائمة وقابلة لإعادة الإنتاج .

لا تهدف الملاحظات التي يخطّها الطبيب إلى تمثيل الزيارة في شموليّتها ، يمكن أن تسجَّل الاستشارة ويمكن أن تغدو حدثا إعلاميّا ببثّها ، غير أن الإمكانيّات ليست خصائص محايثة للنوع (=زيارة الطبيب) . وعلى عكس ذلك يمكن أن يُخزَّن وثائقي تلفزي إلى 'الأبد' ، ويمكن أن يُعاد إنتاجه في عدد كبير من النسخ ، ويستعمل ويعاد استعماله لغايات متنوّعة في أزمنة وأمكنة مختلفة . وعلى الجملة يمكن أن يقع إنتاجه وتوزيعه واستهلاكه كسلعة ثقافيّة .

يرى فيركلاف أن هناك اختلافات كبيرة بين مختلف أنواع وسائل الإعلام فيما يخصّ قنواتها التواصليّة والتكنولوجيّات المعتمدة ، فالصحافة تستعمل قناة بصريّة ، لغتها مكتوبة وتعتمد تكنولوجيّات إعادة الإنتاج الفوتوغرافي ، والتصميم الغرافيكي والطباعة .

أما المذياع فيَستعمِل بحسب رأيه ، على خلاف ذلك ، قناةً شفويّة ولغة متكلّمة ، ويعتمد تكنولوجيات تسجيل الصوت وإذاعته . ويؤلف التلفاز بين تكنولوجيّات الصوت

(1) Goffman, 1969.

والصورة والتسجيل والبث ، وتعدّ العلاقة بين القناتين الشفويّة والبصريّة في التلفاز مسألة غاية في الأهميّة تستحقّ عناية مفصّلة حالة بحالة ، وعلى عكس الفيلم يمكن أن يُوصف التلفاز بعبارة فضفاضة استعملها فيركلاف وهي أنه «مترسّخة شفويّا» (verbally anchored) ، ولا تستعملُ الصور إلا دعائم للكلمات .

لهذه الاختلافات المتعلّقة بالقناة والتكنولوجيات اِستلزامات مهمّة باعتبار المعنى الكامن للوسائل المختلفة ، فعلى سبيل المثال تُعدّ الطباعة أقلّ اتصالا بما هو شخصي من المذياع أو التلفاز . يسمح الراديو للنزعة الفرديّة والشخصيّة بالبروز من خلال نقل الصفات الفرديّة للصوت .

يدفع التلفاز العمليّة إلى ما هو أكبر من ذلك بجعل الشخص في مجال الرؤية أي قابلا لأن يُرى ، لا على النحو البارد لمصوّري الجرائد ، وإنّما متحرّكا وعاملا . إنّها تكنولوجيا منسجمة مع ثقافتنا المعاصرة التي تركّز على الفردانيّة والتوجّه نحو إبراز الشخصيّة .

يلاحظ فيركلاف أن التلفاز من حيث هو تكنولوجيا يشجّع أيضا الحركة (action) بدل التأمّل ، ويُبرز الحاضر ويدعمه ويُعلي من شأنه ؛ وحتى حين تكون البرامج مسجّلة سلفاً يظلّ وَهْم البث المباشر والآنيّ قائما . وتولِّدُ الفواصلُ بين الصور الحركةَ والإثارة ، بينما تقلّص الصور التي تُقرّب الناس (التركيز على قسمات وجه المتكلّم أو تقريب صورة وجهه إلى المشاهد في الشاشة) المسافةَ الاجتماعيّة بين الذي وقع تصويره وبين المشاهد ، وتنقل صورة مساواة مع المشاهد .

يمكن أن يُتّخذ التوليف المكثّف في ظرف ثلاثين ثانية بين الأصوات والصور في قناة تلفزيونيّة تجاريّة ذات ميزانيّة ضخمة أنموذجا حيّا لإمكانيّات هذه الواسطة الإعلاميّة ، وهكذا فإن الشكل الثقافي المسيطر في التلفاز متواليةٌ متقطّعة من المقاطع القصيرة لا تتجاوز مدّتها خمس دقائق . وهذا النموذج الأصلي وقع اعتماده كأساس في البرامج الإخباريّة وعروض الغناء وما شابهَ ذلك ، وهذه الحركية تجلب انتباه المشاهد وتبعد عنه الملل الذي يمكن أن يتسرب إليه عند قراءة خبر في صحيفة مثلا ، وبذلك يضمن صانع الخبر التواصل مع المتلقي بشد انتباهه .

تتضمّن أنواع التواصل المختلفة أصنافا مختلفة من المشاركين ، ففي حالة زيارة الطبيب يكون المشاركون الأساسيون هم على نحو واضح ، الأطبّاء والمرضى ، وقد يكون هناك غيرهم مثل الممرضات أو بعض أقارب المريض . أمّا أصناف المشاركين في

وسائل الإعلام فهي تابعة لطابع التواصل الجماهيري المدروس أعلاه المتمثّل في التوسّط بين المجال العام والمجال الخاص .

يرى فيركلاف أن الأطراف الأساسيّة المشاركة في الأشرطة الوثائقيّة التلفزيّة على سبيل المثال هي : مغطّو الأحداث (وهم صنف من الوسطاء) ، والجمهور ، وأصناف متنوّعة من المجال العام وهو طرف ثالث يمكن أن يكون معنيّا (مثال : سياسي ، نقابي ، عالم ، خبير ، أكاديمي . . .) . وهناك أيضا صنف آخر مهمّ من هذا الذي يُسمّى طرفا ثالثا نجده في وسائل الإعلام الحديثة وله صلة بالمجال الخاص ، وهم ناس عاديّون يمكن أن يكونوا شهودا أو يمثّلون أنماطا من السلوك أو ردود الفعل النمطيّة . ويحيل فيركلاف على هذا الطرف الثالث بعبارة «vox pop» وهي اختزال لعبارة «voice of the people» أي «صوت الشعب» .

إنّ السؤال الذي يجب طرحه بحسب فيركلاف -إلى جانب التعرف على المشاركين وتحليل العلاقات بينهم- هو :

كيف يقع إنشاء علاقات وهويّات المشاركين في أنواع البرامج المختلفة؟

للإجابة عن هذا السؤال يبحث فيركلاف في خصائص وسائل الإعلام ، ويرى أن أهم خاصية هي الطبيعة الجماهيرية لهذه الوسائل . ومن الناحية المبدئيّة تعمل وسائل الإعلام مثلا على أن يكون الوثائقي التلفزيوني في متناول معظم الناس . وهناك رغبة اقتصاديّة قويّة إزاء توسيع قاعدة الجمهور المتابع ، خاصة في وقت الذروة في التلفاز .

كما تعتبر الأحداث التواصليّة ضروبا من المونولوغات تكون تحت طائلة سلطة وسائل الإعلام . ولا يستطيع الجمهور المشاركة المباشرة في التواصل ، ويقارن فيركلاف هذا بمثال التواصل بين الطبيب والمريض فيستنتج أن الطبيب والمريض يتبادلان دوريْ المتكلّم والمستمع أثناء الاستشارة الطبيّة ، عكس حالة البرامج الإعلامية .

يظلّ الجمهور بحسب فيركلاف مستمعا أو قارئا أو مشاهدا فحسب (باستثناء وجود برامج تلفزيّة يمكن للمستمع أن يكون فاعلا فيها عن طريق الهاتف) . وذهب[1] Thompson نفس المذهب بتسميته للتواصل في وسائل الإعلام «شبه تفاعل موسّط» وليس تفاعلا تامّا .

---

(1) Thompson, 1990, P228.

يفتقر منتجو وسائل الإعلام إلى رجع الصدى الآني من الجمهور . وهو متوفّر مسبقا في مثال الطبيب وذلك فيما يقوله الناس ، وما لا يقولونه ، وفي الطرق التي يتصرّفون بها في أثناء الاستشارات الطبيّة . ونتيجة لذلك يفترض المنتجون وينشؤون جمهورا 'مثاليّا' بناء على التخمينات حول استجابة الجمهور ، وهي تخمينات تعتمد على التجربة وعلى أنواع مختلفة من البيّنات غير المباشرة مثل معدّلات مشاهدات البرامج أو سبر الآراء حول عمليّة التسويق . وهناك جدل واسع حول قضايا التحكم والسيطرة الثقافيين والإيديولوجية ، لاسيما حين تكون الفجوة عميقة بين المنتج والجمهور .

يرى فيركلاف أن جميع أشكال التواصل الجماهيري التي تهدف إليها وسائل الإعلام تثير أسئلة تتعلّق بطريقة الوصول إليها (أشكال التواصل) في شبه التفاعل الموسّط الذي تحدّث عنه طومبسون ؛ ولذلك فإن للتعرف على أيّ الفئات الاجتماعيّة قادرة على الكتابة وعلى التعليق وأيّها غير قادرة ، أهميّةً كبيرة .

إن من يملكون أشكالا من السلطة الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة يتمتّعون بالنفاذ إلى وسائل الإعلام ولذلك نادرا ما نجد فيديوهات أو برامج تخدم مصلحة بعض الجماعات التي تمثل الأقليات أو النقابات المواجهة للسلطة ، ذلك أن خرْج وسائل الإعلام خاضع لمراقبة مهنيّة ومؤسسيّة شديدة .

تحاول بعض الأطراف (من خارج السلطة) إيصال أصواتها عبر وسائل الإعلام بالبحث عن طرق تمكّنها من ذلك ، وهذا ما حدا بها إلى استغلال بعض البرامج التي تعتمد على مشاركة الجمهور في النقاش عبر الهاتف ، وهي تهدف من ذلك إلى التقليص من التوزيع غير العادل لاستعمال وسائل الإعلام للتعبير عن الرأي والنفاذ إلى المتلقي .

وتتم هذه المحاولات عبر ما يسميه فيركلاف «صوت الشعب» «vox pop» والاتصالات الهاتفيّة أثناء إذاعة البرامج ، حيث يطرح بعض أفراد الجمهور أسئلة أو يعلّقون على المشاهير والشخصيّات العامّة ، وهناك برامج يشارك الجمهور في مناقشتها ، وكذلك تبرز جليّا محاولة النفاذ من خلال برامج حيث تُمنح المجموعات والأفراد المنتمون إلى توجّهات معيّنة فضاء خاصّا لعرض موادّها .

ويعتبر البعض هذا التجديد محدودا جدّا وهامشيّا . لانه يبقى مجرد محاولة اختراق لجدار تسيّجه السلطة حول وسائل الإعلام العمومية . ورغم هامشيتها فهي

تعتبر أحداثا تواصلية تمثل شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية أمام أشكال أخرى لممارسات اجتماعية مختلفة . وتختلف الأحداث التواصليّة في حقول النشاط الاجتماعي الذي تقدّمه وفي كيفيّة تمثيل هذه الحقول .

ومن ثمّة فالسؤال الذي يحرص فيركلاف على طرحه هو : ما هي حقول الممارسات الاجتماعيّة المقدَّمة في أنواعِ من الأحداث التواصليّة على وجه الخصوص؟

يرى فيركلاف أن الاستشارات الطبيّة تتعامل في أغلب الأحيان مع ممارسات اجتماعيّة في الحياة الخاصّة ، ومثالُها عادة الأكل عند الناس ، أمّا أشكال التواصل الجماهيري مثل الوثائقي التلفزيوني فتتعامل مع ممارسات اجتماعيّة شديدة التنوّع في المجال العام على الأخصّ ، وذلك من قبيل الممارسات الاجتماعيّة للسياسة والتعليم والقانون . ولا شكّ في أنّ الفكرة التي تعتَبر التواصلَ الجماهيري سلسلة ممتدّة من الأحداث التواصليّة مفيدةٌ هنا ، وذلك بربطها الأحداث التواصليّة في المجال الخاصّ لتقبُّل وسائل الإعلام واستهلاكها .

هذا يقود إلى طرح السؤال : كيف تُحوَّلُ الأحداث التواصليّة المنتمية إلى المجال العام وهي تنتقل عبر السلسلة؟ وفي رأي «فن لوفن» (Van Leeuween ١٩٩٣) يمكن أن نتساءل عن كيفيّة تغيير حدث تواصليّ من نوع ما أحداثا تواصليّة أخرى؟ وما التمثيلات المخصوصة والتحويلات التي ينتهجها؟ وكيف تختلف هذه عن التغييرات في سياق الأحداث نفسها؟

الفكرة العامّة هي أنّ الأحداث التواصليّة والممارسات الاجتماعيّة يُعاد وضعها في سياق آخر بطريقة مغايرة لأنّ ذلك يتوقّف على أهداف وقيم وخصائص التواصل الذي يتّسم به السياق الجديد .

في مجال تحليل النصوص يمكن أن يقع تمييز مثل هذه الاختلافات التي تهم التمثيل على أساس استعمال «خطابات» مختلفة . ويستعمل فيركلاف هنا الخطاب باعتباره اسما معدودا أي قابلا للعدّ فردا وجمعا ، وهو خطاب باعتباره نوعا معيّنا من اللغة المرتبطة بتمثيل بعينه من زاوية نظر مخصوصة لممارسة اجتماعيّة .

يمكن أن نعتبر الاستشارة الطبيّة نوعا عمليّاً وذاتيّاً من التواصل يُعنى بكيفيّة إنجاز الأشياء ، إذ يأتي المريض إلى الطبيب من أجل مساعدة متخصّصة ، ويحاول الطبيب تشخيصَ طبيعة المشكلة بدقّة ووصفَ مراحل المعالجة . أمّا أحداث وسائل

الإعلام فهي على وجه العموم أقلّ وضوحا من حيث غاية وطبيعة الأمر الذي يحدث .

ففي حالة الوثائقي التلفزيوني على سبيل المثال قد يكون ما يجري تمشّيًا تعليمياً وإخباريًا ، إذ يمنح البرنامج المشاهدين فهما جيّدا لقضيّة آنيّة تثير الاهتمام . وتميل الأشرطة الوثائقيّة مع ذلك إلى الإقناع فهي تحاول جعل المشاهدين يرون الأمور بطريقة بعينها . وتسعى إلى التسلية أو الترفيه ، وتقديم قصّة جيّدة ، وكذلك بناء برهان مقنع ، وإنتاج فيلم مسلّ ، وذلك على غرار ضروب أخرى من البرامج . ويرى فيركلاف أن الأشرطة الوثائقيّة تقع تحت ضغوط اقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة معقّدة .

٤-٢ وسائل الإعلام مؤسسات اقتصادية

يمثّل اقتصاد المؤسسة محدّدا مهمّا لممارساتها ، وللنصوص التي تنتجها ؛ وللتمثيل لذلك يسوق فيركلاف مثالا من الصحّة العمومية من اجل المقارنة وتقريب المفهوم ، فنظام خدمة الصحّة الوطنيّة في بريطانيا يُقيّد الخدمةَ التي يقدّمها الأطبّاء للمرضى ، ومن ثمّة يصوغ التفاعلات بين الأطبّاء والمرضى والنصوص المنتجَة ، وذلك بالتحكم في إمكانات التفاعل التي يجعلها مقيدة بمدة الفحص حيث لا يسمح للأطباء بتجاوز خمس دقائق لفحص الفرد الواحد .

وبالمثل يصوغ المحيط الاقتصادي الذي توجد فيه وسائل الإعلام ممارساته ونصوصه . فالصحافة والبث التجاري هيئتان ربحيّتان بامتياز ، تأتي أرباحهما من الإشهار ويفعلان ذلك لتحقيق نسبة معيّنة من القراء أو المستمعين أو المشاهدين مقابل أدنى معدّل من المصاريف ، وحتى المنظمات غير التجاريّة مثل الـBBC مجبرة على الخضوع إلى منطق السوق ، إنها تخوض منافسة مع البثّ التجاري ، وتعتمد على معدّلات متابعة جمهورها لتبرير المصاريف التي تُقتطع من المال العام .

من هذا المنظور تُعدّ نصوص وسائل الإعلام وبرامجها سلعا رمزيّة وثقافيّة منتجة داخل ما يُعتبر بالفعل صناعة ثقافيّة تروج في الأسواق من أجل الربح ومن ثمّة فهي واقعة تحت تأثير ضغوط تجاريّة . وبالتالي تسعى المؤسسات الإعلامية إلى زيادة أنواع من البرامج تحقّق أعلى نسبة من المتابعة وتمارس جاذبيّة على الجمهور .

تؤدّي محاولات زيادة جذب الجمهور إلى أنواع أخرى من البرامج مثل الأخبار وشؤون الساعة والأشرطة الوثائقيّة ، ويُشار عادة إلى ما سبق بـ«الخضوع لمنطق

السوق» ، ويؤدي ذلك على إلى زيادة التركيز على صناعة برامج الترفيه وبالمقابل إلى نقص التركيز على جودتها الإخباريّة والتعليميّة أو التربويّة .

ويؤثّر العامل الاقتصادي لوسائل الإعلام خاصّة في المحتوى والأسلوب التواصلي ، ومثاله أن اعتبارات ما (قد يكون «تلفازاً جيّداً» ، رغم أن هذا يشمل أحكاماً تجاريّة ومهنيّة /جماليّة معقّدة) يمكن أن تظهر ظهوراً من خلال اختيار موضوعات معينة لأجل إنتاج أشرطةٍ وثائقيّة وفي طرق معالجة هذه الموضوعات ؛ إذ لا بدّ أن تتضمّن أشكالاً دراميّة تتجاوز التقديم العادي المباشر ، معتمدة على نماذج تخييليّة وتركيز على مقدّمي البرامج ، وإبراز الأنواع الخاصّة من الشخصيّة التي «يشجّعونها» ، وإنشاء علاقة محادثيّة غير رسميّة بين المقدّم والجمهور .

يميل المنتجون إلى الاعتقاد بأن انتقالا نحو ما هو شخصي يضاعف جذب الجمهور ، كالتركيز مثلا على الأمومة ومآسي الناس في البرامج الإخباريّة ، وإدراج موضوعات من الحياة الخاصّة تميل إلى مواكبة محاكاة أساليب الحياة الخاصّة . لكن فيركلاف يذهب إلى أن ضغوط السوق لا تفسّر وحدها (ليست السبب الوحيد) مثل هذه التطورات في الأسلوب التواصلي .

تُعدّ أساليب الملكيّة مؤثرا مهما كذلك– ولو أنها غير مباشرة– في صياغة خطاب وسائل الإعلام . يوجد المالك في إطار تجمّع إعلامي ضخم عملُه صناعةُ الثقافة ، حيث تغدو وسائل الإعلام منصهرة في المصالح الاقتصاديّة الوطنيّة والدوليّة للمالك مقوّيةً بذلك ارتباطها مع مصالح الطبقة الرأسماليّة .

يتجلى هذا في عدد من الطرق ومن بينها الطريقة التي تبنْين بها المؤسّسات الإعلامية لتضمن المؤسّسة السياسيّة أن صوتها هو المسيطر[1] ، وتتجلّى كذلك في القيود الموضوعة على النفاذ والوصول إلى وسائل الإعلام .

يمثل هذا الأمر صورة ممتازة للرأسماليّة كما أشار إلى ذلك وليامس في قولة له حول السيطرة الشاملة للولايات المتحدة على التلفاز : «ينبغي من ثمّة أن يُنظر إلى طابع التلفاز على مستويات عدّة ، كقناة للإشهار وكشكل ثقافي وسياسي تصوغه مباشرة ، ويتوقّف ذلك على مواضعات مجتمع رأسمالي يبيع سلعا للمستهلك «وأسلوبَ حياة» قائما عليها (المواضعات) ، في صورةٍ مولَّدة محليّا من قبل مصالح

(1) Norman Fairclough, Media Discourse, CH 1, P49.

وسلطات وطنيّة ، ومنظّمة دوليّا من قبل القوّة الرأسماليّة المسيطرة»[1] . هذه الصورة جليّة وقابلة للتحليل في نصوص وسائل الاتصال .

٤-٣ السياسة والايديولوجيا في وسائل الإعلام

يلاحظ فيركلاف وجود توتّر بين الضغط لزيادة معدّلات المتابعة من خلال الانحياز الكبير إلى مزيد من الترفيه ، وضغط أداء الخدمة العموميّة في الأخبار والتربية ، لأن كل وسيلة إعلام مجبرة على تقديم خدمات عمومية ، بينما يفرض واقع التواصل اللجوء أكثر فأكثر إلى برامج الترفيه والبرامج ذات التوجه الخاص (التي تعتني بحالات خاصة وتجارب فردية) .

ويبدو الضغط أكبر في بريطانيا حيث إن تقليد الخدمة العمومية في BBC تقليدٌ أعرق مما هو في الولايات المتحدة حيث يسيطر فيها البثّ التجاري منذ البداية . غير أن تقليد الخدمة العموميّة مهدّد اليوم حتى في BBC لأنه مفروض عليها الولوج إلى سوق لغته المنافسة الشديدة ، وخصوصا بعد مجيء البث الفضائي وتلفاز الكابل والإذاعة التجاريّة .

أشار «يورغن هابرماس» ١٩٨٩ إلى زوال وسائل الإعلام كدائرة سياسيّة فعليّة منذ زمن طويل ، وفضاء لنقاش عقلاني وتدارس للقضايا السياسيّة ، وذلك بعد تأثير عمليّة التسويق التي تعود إلى القرن التاسع عشر . ولقد أحال على الطابع «الإقطاعي الجديد» لوسائل الإعلام العموميّة الموسَّطة حيث يصبح الجمهور متفرّجا لا مشاركا ، يُخاطَب مستهلِكا للترفيه ، لا مواطنا .

يرى فيركلاف أن النزعة التسويقية المكثّفة التي اتسمت بها وسائل الإعلام في العقود الأخيرة -لا سيّما منذ ظهور التلفزيزن والراديو التجاريين- أدّت إلى بروز دراسات تحليليّة تكاد تكون متماثلة وإلى سعي واضح للدفاع عن نموذج الخدمة العموميّة ومع ذلك يرى سكانال ١٩٩٢ وطولسن ١٩٩١ أن الإعلام السياسيّ الذي يتّخذ من وسائل الإعلام العموميّة ممرا له للمتلقي تطوّر ولم ينقص بتأثير هذه الدراسات .

وسطّر «كارديف» (Cardiff 1980) وسكانال (Scannell 1992) الخطّ التطوّري

---

(١) نقلاً عن فيركلاف . المرجع السابق . ص . ٤٣ .

لبثّ الصورة التواصليّة القائمة على تسييس الممارسات المحادثتيّة للمجال الخاص . وعلى عكس ذلك يرى «طولسن» أن الإعلام العمومي تخترقه تناقضات ملازمة له ، وهكذا يتأرجح هذا الإعلام بين متطلّبات الأخبار والوقائع ومتطلبات الترفيه .

يرى فيركلاف في الصياغة التي أنجزها طولسن مساعدة وإفادة في التحليل النقدي ؛ ولذا فهو يوظفها بعد ذلك في كتابه . ومع ذلك يرى أنه لا بدّ من التعامل مع مفهوم الأخبار بحذر . فقد اعتنى قدْرٌ كبير من تحليل خطاب وسائل الإعلام بالمظاهر الإخباريّة الموجِّهة لخرج هذه الوسائل (في برامج الأخبار على سبيل المثال) ويعني فيركلاف بذلك الصياغة الإيديولوجية للأخبار .

يلخص فيركلاف العلاقة الوطيدة بين خطاب وسائل الإعلام وبين السلطة بوجود تمثيلات تشتغل ايديولوجيّا في نصوص وسائل الإعلام ، ما دام هذا الخطاب يسهم في إعادة إنتاج علاقات السيطرة والاستغلال الاجتماعيين .

تكون التمثيلات الإيديولوجيّة ، على العموم ، ضمنيّةً أكثر مما هي صريحة في النصوص ، كما أنها متجذّرة في طرق استعمال اللغة التي تعتبر طبيعيّة ومشتركة عند مقدّمي التقارير الإخباريّة وغيرها والجمهور ومختلف أصناف الطرف الثالث (العلماء والمختصون والخبراء . . .) ، هذه التمثيلات والافتراضات تخضع لما هو متعارف عليه اجتماعيا ، وعليها يتوقّف انسجام الخطاب أو الطرق العاديّة التي تغيّر بها الاستجوابات لصالح جهة سياسيّة معينة .

يرى فيركلاف أن من المفيد التمييز بين المظاهر الإيديولوجية للخطاب والمظاهر الإقناعيّة على الرغم من أن كليهما يعدّ من المظاهر السياسيّة للخطاب التي تسائل الفكرة الذاهبة إلى أن وسائل الإعلام «تقدم المعلومات» ، لا غير . فالشريط الوثائقي على سبيل المثال يتبنّى على نحو نمطي رأيا بعينه يهمّ موضوعه ومن ثمّة يستعمل أساليب بلاغيّة من أجل إقناع الجمهور بأن يرى الأمور كما يراها هو (الشريط) .

أمّا الإديولوجيات فهي على عكس ذلك لا يقع تبنّيها عادة وإنما تعتبر أمرا متفقا عليه كأرضيّة مشتركة بين المقدّم والطرف الثالث من الجمهور ، دون اللجوء إلى الأساليب البلاغيّة . حيثما ركّز تحليل وسائل الإعلام على التأثيرات الإيديولوجية لخطاب وسائل الإعلام يتمّ الإيحاء بتوجه إيديولوجي معيّن بشكل من التواطئ بين وسائل الإعلام والطبقات الاجتماعيّة أو المجموعات المسيطرة . غير أن هذا النوع من التواطئ في رأي فيركلاف لا ينبغي افتراضه ، وإنما يحتاج إلى دراسة عملية التلقي

في جميع جوانبها وتقديرها حالة بحالة .
يرى فيركلاف أنه حين تبدو بعض قطاعات وسائل الإعلام أحيانا أصغر نوعا ما وأضعف -مقارنة بقطاعات أخرى- من أدوات المصالح المسيطرة فإن وسائل الإعلام في نهاية المطاف تكون ذات علاقة أشدّ تعقيدا وتنوّعا مع مثل تلك المصالح القوية . وفي بعض الأحيان ثمّة صراع مباشر بين وسائل الإعلام ذات الصولة والحكومة أو بين وسائل الإعلام ورأس المال ، وحيثما وُجدت علاقات التواطئ اتخذت أشكالا شديدة التنوّع . ثمّة حالات من «ديناصورات» وسائل الإعلام (أشخاص أمثال روبرت مردوخ وروبرت ماكسوال وكونراد بلاك) الذين يتحكّمون تحكما مباشراً في أسواق وسائل الإعلام التي يملكونها ملكيّة خاصّة ويستخدمونها لتحقيق مصالحهم .
هناك أيضا أمثلة في بريطانيا عن التدخّل المباشر من قبل الدولة لمراقبة خرْج وسائل الإعلام والمثال الأبرز على هذا ، حالة تغطية الأزمة في إيرلندا الشماليّة . وفي عدد آخر من البلدان حيث تراقب الدولة البث العمومي مراقبة روتينيّة . وعلى خلاف هذا نادرا ما سمحت الـBBC في بريطانيا بأن يقع التحكم فيها تحكما سياسيّا مباشرا ، على الرغم من أنها ظلّت تعمل أداةً تابعة للحكومة طوال الإضراب العام سنة ١٩٢٦ .
للدولة مصلحة كبيرة في مراقبة خرْج وسائل الإعلام ، وللوسائل ولا سيّما التلفاز بجماهيره الواسعة سلطةٌ وتأثير كبيران وكامنان في منتَجاتها ، ويتضمّن هذا قدرة على التجنيد ، وهذا بسبب الإمكانيات الإيديولوجيّة التي تتوفر عليها وسائل الإعلام . ومن الأمثلة الراهنة التي أحال عليها فيركلاف تأثيرُ تغطية التلفاز في الولايات المتحدة لحرب فيتنام التي غيّرت رأي الجمهور وجعلته يناهض الحرب ويضغط لانسحاب أمريكا ، وتأثير الفيلم التلفزيوني عن المجاعة في أفريقيا في دفع الحكومات إلى أن تُظهر أنها تفعل ما بوسعها من أجل تخفيف حدة الفقر في العالم الثالث . وكذلك تأثير التغطية التلفزيونيّة لأحداث ١٩٨٩ في بلدان أوروبا الشرقيّة الاشتراكيّة في التعبئة والتجنيد في الاحتجاجات الشعبيّة .
يُضاف إلى ما سبق أن المحاولات التي تبذلها الدولة في المراقبة تتفاوت من فترة إلى أخرى ومن وضع لآخر ، فخلال حرب الخليج الأولى مارس الجيش مراقبة لصيقة على وسائل الإعلام حازما أمره على أن لا تتكرّر تجربة حرب الفيتنام حيث كان الإعلام متابعا لكل تفاصيل الحرب ولعب دورا كبيرا في توجيه الرأي العام .

في حرب الخليج ، يرى فيركلاف أنه كان بالإمكان أن يخفّف الجيش الرقابة اللصيقة على الـBBC نظرا للتوجه العام لهذه المجموعة الإعلامية ، ولكنها كانت في أحيان ضحيّة مراقبة قويّة وانتقادا من قبل الحكومة ، لا سيّما في سنوات حكم مارغريت تاتشر ، وذلك بعد الثقة التي تمّ بناؤها بين الوزراء والصحافيين والمديرين في شبكات تجميع الأخبار . وتظلّ وسائل الإعلام جهازا إيديولوجيّا قويّا في كل الحالات يخدم أغراضا سياسية بطريقة ليس من الضروري أن تكون صريحة ومفضوحة .

يستشهد فيركلاف بتاريخ الـBBC ، ويعتبره حالة مهمة في هذا الخصوص . ويشير إلى أنه في المناخ المضطرب والتنافسيّ الذي شهدته بداية الستينات كان على الـBBC أن تتخلّى عن مطلب كونها صوت الإجماع الثقافي الوطني . ولقد تغيّر صوتها- الذي يشخّصه الذين يقومون بالإشهار فيها وقرّاء الأخبار والمقدّمون- في اتجاه شعبوي ، مدعية انتماءها إلى الأرضيّة المشتركة لعامة الشعب (أرضية الطبقة الوسطى) وإلى الحس المشترك مع الجمهور ، متبنيّة في غالب الأحيان موقفا ساخرا متحدّيا بل عنيفا إزاء عدد من المؤسسات والشخصيات الرسميّة بمن فيهم وزراء الحكومة على سبيل المثال ، وربما هذا ما دعا الحكومة البريطانية إلى أن تفرض عليها حصارا بعد ذلك في حرب الخليج .

يلاحظ فيركلاف أن افتراضات الحس المشترك ومضمراته التي بُني عليها خطاب وسائل الإعلام الرئيسيّة تجعلها ذات طابع ايديولوجيّ قويّ ، خاصة إذا اعتبرت الخصائص الأساسيّة للمجتمع الرأسمالي المعاصر وقيمه الاستهلاكية أمرا طبيعيّا يخضع له الخطاب الإعلامي .

يستلزم مفهوم الايديولوجيا في الغالب اتباع طريق الزّيفَ ، وتبني الوعي الزائف تجاه الأحداث والأفكار ، والتحكم في الحقيقة وتحويرها من أجل تحقيق مصالح خاصّة . والطريقة الوحيدة في وسائل الإعلام إلى الوصول إلى الحقيقة هي تمثيلها وتقديمها للمتلقّي باختيار تمثيل من بين تمثيلات عديدة متاحة ، وتشمل التمثيلات وجهات نظر معيّنة ومختلفة وقيما وأهدافا معيّنة ومختلفة .

يدعو فيركلاف أثناء تحليل الخطاب الإعلامي إلى الانتباه إلى اختلاف هذه التمثيلات قبل اصدار أحكام «الانحياز» ، ففي تحليل وسائل الإعلام يقارن المرء بين التمثيلات ويقيّمها على أساس ما تدمجه وما تقصيه وما تبرزه وما تخفيه ، من أين تجيء وما العوامل والمصالح التي تؤثّر في صياغتها وفي إسقاطاتها ، وقس على ذلك ،

ولكن «الحقيقة» في معناها المطلق تُعدّ دائما ذات طبيعة إشكاليّة .

الأجدر بحسب رأي فيركلاف أن تقع المقارنة بين التمثيلات على أساس الجزئيّة والاكتمال والأهميّة ، وانطلاقا منها يمكن الوصول إلى الخلاصات عن نسبيّة صدق أو عدم صدق التمثيلات المقدمة في وسائل الإعلام . وينجز الناس عادةً هذه التقييمات من خلال مواقف وزوايا نظر معيّنة ، غير أنّ هذه يمكن -هي أيضا- أن تُقارن بناء على مدى حيويّتها وأهمّيتها لدى العموم . وبالتالي نستنتج أن الحقيقة بالنسبة لفيركلاف تُعتبر زَلِقة ولكن التخلّي عنها كليّة أمر غير مقبول على الإطلاق .

فقد التحليل الايديولوجي لوسائل الإعلام قسطاً كبيراً من الامتياز الذي حظي به خلال السبعينيّات من القرن العشرين ، ويعود جزء من السبب إلى المناخ السياسي الذي تغيّر وجزء آخر إلى الصعوبات التي تعترض مثل هذا التحليل الذي يفترض التأثير على المتلقي قبل حصوله .

لقد وُجّهت له انتقادات بخصوص افتراضه تأثير النصوص في الجمهور تأثيراً إيديولوجياً دون عناء البحث الفعليّ في كيف «يقرأ» الجمهور النصوص . ولقد غدت اليوم دراسات تقبّل الجمهور مشهورة على حساب التحليل الإيديولوجي إلى حدّ ما . وعلاوة على ما تقدّم يميل التحليل الإيديولوجي أيضا إلى أن يكون اختزاليّا في مقاربته النصوص ، وهي كما يرى فيركلاف ليست أبدا إيديولوجية بهذه البساطة ، ولكن ثمّة خطر في ردّ الفعل إزاء التحليل الإيديولوجي المنتمي إلى السبعينات ، ويكمن الخطر في أن استنتاجاته المهمّة معرّضة للانقراض .

خطاب وسائل الإعلام في نظر فيركلاف ينبغي أن يُدرس باعتباره موضِعاً لتمشيّات معقّدة ومتناقضة في غالب الأحيان بما فيها التمشيات الإيديولوجية ، ولا ينبغي أن ينظر إلى الايديولوجيا كحضور ثابت وقابل للاستخلاص من جميع خطابات وسائل الإعلام ، وبدل ذلك ينبغي أن يتحلى دارس هذا الخطاب بمبدإ عملٍ مفاده أن مسألة ما العمل الإيديولوجي المنجَزُ في الخطاب ليس السؤال الرئيسي الذي ينبغي أن يكون المحلّلون على الدوام مستعدّين لطرحه من بين أسئلة أخرى بخصوص خطاب وسائل الإعلام ، وذلك مهما توقّعنا تنوّع الإجابات .

لا ينكر فيركلاف أن الخطاب في وسائل الإعلام يشتغل إيديولوجيّا في إطار من المراقبة الاجتماعيّة وإعادة الإنتاج الاجتماعيّة ، ولكنّه يشتغل أيضا كسلع ثقافيّة في سوق يطبعها التنافس ويحكمها العرض والطلب . وهذا الخطاب هو جزء من تجارة

الترفيه عن الناس ، ولذلك فهو مصمَّم لإخبار الناس على الصعيدين السياسي والاجتماعي ، ولا يمكن أن يخلو هذا الإخبار من إيديولوجيا تخدم جهة سياسية معينة على حساب جهة أو جهات أخرى ، وقد تكون الإيديولوجيا أبرزَ في بعض الحالات والأنواع من خطابات وسائل الإعلام أكثر مما هي في أنواع أخرى منها .

الخطابات في ذاتها مصنوعات ثقافيّة لها جماليّات خاصّة ، وفي الوقت ذاته تعكس تغيّر القيم الثقافيّة والهويّات وتسهم فيه . ولا يخفى بالنسبة إلى فيركلاف أنّ ثمّة تداخلا بين هذه الأوجه المتنوّعة لكن كما هي مختلفة في بروزها النسبي بين نصوص وسائل الإعلام المختلفة ، فإنها تتضمّن مظاهر مختلفة من أشكال النصوص ومعانيها ، وقد تكون النتيجةُ نصوصا متعارضة من حيث أشكالها ومعانيها .

٤-٤ إنتاج نص وسائل الإعلام واستهلاكه

يرى فيركلاف أن هناك بعدا آخر إضافيا للتواصل في وسائل الإعلام الجماهيري وهو الممارسات المؤسّسيّة المتصلة بإنتاج نصوص وسائل الإعلام واستهلاكها معا . وتُدار تمشّيات إنتاج النصوص من خلال الروتين المؤسّسي . وتتّسم المنظّمات الحاضنة لوسائل الإعلام بطرق روتينيّة في جمع المواد الأوّليّة وفرزها وتحويلها إلى نصوص نهائيّة .

ويعتبر إنتاج النص عمليّة جماعيّة تشمل الصحافيين والمنتجين وأصنافا متعدّدة من طاقم التحرير وكذا الطاقم التقني . ويقدّر بعض الباحثين في الخطاب الإعلامي[١] أن معدّل حجم الطاقم الصحافي لجريدة ما يفوق ثمانية أشخاص يسهمون في إنتاج «قصّة» ، وبالتالي قد يصل عدد صيغ القصّة إلى ثمانية .

ويشير فيركلاف إلى تعقيد مماثل تطرّق إليه بعض الباحثين ، ويتمثل في إنتاج الشريط الوثائقي ، وذلك يعني أن النسخة الأولى قد يغيّرها رئيسُ التحرير أو المشرف على إنجاز الشريط أو المنتج أو النائب عن رئيس الإنتاج أو نائب المشرف على الصفحة . . . وعلاوة على ذلك ما أن ينجز قسط مهم من المادّة الأولى لموضوعات الأخبار المنتَجة سلفا من قبل وكالات الأخبار حتى تخضع القصّة للعمليّة نفسها في

---

(١) يحيل فيركلاف على :

- Roger T. Bell, Translation and translating: theory and practice, Longman, 1991.

مكاتب الصحفيين قبل أن تظهر في صحيفة أو بثّ للأخبار .

وبالتالي للأشرطة الوثائقيّة وللأخبار ولغيرها من أنواع خطاب وسائل الإعلام طابع ملازم وطبقيّ (متألّف من عدّة طبقات) ، وذلك يعني أنّ النُّسخ السابقة محتواةٌ في النُّسخ الأخيرة وتشكّل بذلك عدّة طبقات . في كل مرحلة من مراحل بناء القصّة تُحوَّل النسخُ السابقة ويعاد إخضاعها لسياق جديد (تسييقها) بطرق تلائم اهتمامات المرحلة الراهنة وأولويّاتها وأهدافها .

غير أن التحويل لا يقف عند حدّ النُّسخ السابقة والنسخ التي أعيد تسييقها واحتواؤها في النص النهائي ، وإنما يطال أيضاً مصادر الأحداث التواصليّة التي تتأسّس عليها القصص في النهاية ، كالاستجوابات ، والحوارات السياسيّة ، والأشرطة الوثائقيّة البوليسيّة إلى غير ذلك . وبناء عليه يمكن النظر إلى إنتاج نصوص وسائل الإعلام كسلسلة من التحويلات عبر ما سماه فيركلاف سلسلة من الأحداث التواصليّة التي تصِل مصدر الأحداث في المجال العمومي بالمجال الخصوصي لاستهلاك نصوص وسائل الإعلام .

بالنظر إلى مصادر الخبر في وسائل الإعلام ، ثمّة خاصيّة لافتة في إنتاج الأخبار وهي الارتباط القوي للصحافيين بمجموعة محدَّدة متماسكة من الموظّفين الرسميين ومصادر أخرى شرعيّة معتمدة بشكل مطّرد وذلك من خلال شبكة من العلاقات والإجراءات ، باعتبارهم مصادر «وقائع» وتأكيد «وقائع» أخرى .

تتضمّن هذه المصادر مصادرَ وطنيّة ومحليّة على صعيد الحكومة والشرطة والعاملين في المنظّمات والنقابات وعلماء وخبراء تقنيين من الجامعات . أما المنظمات التي لا ينظر إليها باعتبارها مصادرَ شرعيّة مثل ما يسمّى الأحزاب أو المجموعات السياسيّة المتطرّفة ، فتُقصى أو نادرا ما يُرجع إليها .

أما الإنسان العادي بما في ذلك أعضاء المنظّمات والمنتمون إليها فيظهرون باعتبارهم يوفّرون ردود الفعل النمطيّة إزاء الأخبار ، لا مصادر أخبار ، وكما ذهب إلى ذلك سكانال ١٩٩٢ يُعتمدون بالنظر إلى خبراتهم لا بالنظر إلى آرائهم . والنتيجة تكريس الرؤية القائمة للعالم المتجليّة نصيّا في الطرق التي يُعامل بها الحديث المُرافق للريبورتاج .

يشير فيركلاف إلى أن بعض الباحثين مثل هرمن وشومسكي ١٩٨٨ وغيرهم ذهبوا إلى أنّه حيثما وُجد التضارب فثمّة بالتأكيد انقسامات بخصوص الأعراف

المؤسّسيّة القائمة . إن ضيق الأفق والنزعةَ المحافظة المحايثة لشبكة المصادر الشرعيّة يمكن أن تُنسب إلى الطرق التي تكون بها وسائل الإعلام محتواة اقتصاديّا وتابعة للوضع القائم على أساس المِلكيّة والربحيّة ، وتشكّل تبعيّة الصحافيين لمصادرهم تقييدا غير مرئي لحملاتهم الحماسيّة .

لا شكّ أن لمثل هذه التنوّعات أهميّة حين يتعلّق الأمر بتقدير تقبّل خطاب وسائل الإعلام ، وخاصة برامج التلفاز وآثارها . ولقد شدّدت دراسات التقبّل أيضا على تنوّع تأويلات هذا الخطاب وتنوع الاستجابات لها . وهكذا تحتاج مناقشة «معنى» خطاب إعلامي إلى أن يؤخذ تنوّعُ المعاني التي يمكن أن تضفى عليه من قبل الأصناف المختلفة من الأفراد المشكّلين للجمهور . ومن المجدي في رأي فيركلاف أن نتصوّر استهلاك نصّ من نصوص وسائل الإعلام وكذلك إنتاجه بناء على التحوّلات التي يخضع لها عبر الأحداث التواصليّة المتسلسلة .

لعلّ البيّنة على تأويلات الجمهور لنصوص وسائل الإعلام يتمثّل في المقام الأوّل في رد فعل الجمهور (حديث أو كتابة) ، وتُحوَّل هذه النصوص بطرق مطّردة إلى محادثات الجمهور ، مع احترام المسافة الزمانيّة والمكانيّة بين الاستهلاك الأصلي لنص وسائل الإعلام ، وأنواع أخرى من خطاب الجمهور مكتوبة أو متحدّثة . يعترف هذا المنظور بأنّ وسائل الإعلام تعتبر في نفس الوقت مصدرا مهمّا وموضوعا لأنواع أخرى من الخطاب وتأثيرا بانيا لها .

قد يستأثر برنامج تلفزيوني ما على سبيل المثال بعناية المشاهدين واهتمامهم بينما تكون مشاهدة التلفاز في أحايين كثيرة مجرّد نشاط مرافق لأنشطة أخرى أسريّة من قبيل تناول الطعام مثلا . كما أن مشاهدة التلفاز قد تكون نشاطا فرديّا أو نشاطا جماعيّا لكنّه جارٍ في صمت ، وقد يكون جزءا من هذا النشاط الجماعي فيكون بذلك موضوعَ محادثةٍ بين المشاهدين .

٤-٥ السياق الاجتماعي/الثقافي

إنّ إحدى قضايا تحليل الخطاب تتمثّل في مدى ملاءمة السياق للبحث في ممارسات الخطاب . ويركّز عدد من المحلّلين على المقام الآني للحدث (سياق المقام) ، وربّما أحالوا على بعض عناصر السياق المؤسّسي ، غير أنهم لا يقولون الشيء الكثير عن السياق الثقافي والاجتماعي الأوسع .

أما فيركلاف فيرى أن السلسلة السياقيّة يجب أن يتم الاعتناء بها لأنها تصوغ الممارسات الخطابيّة بطرق مهمّة ، والعكس صحيح . وهذا الأمر جليّ على نحو خاصّ في حال كل وسائل الإعلام ، على أنّ عوامل السياق المؤسّسي لا يمكن أن تقدّم إلا فهما جزئيّا لممارسات وسائل الإعلام .

ناقش فيركلاف في الفصل الثاني من كتابه -الذي ننطلق من آرائه- تحليلَ هيريتايج (Heritage 1985) للاستجواب في وسائل الإعلام الذي يقدّم تفسيرا متينا لكيفيّة توظيف خصائص إخراج الاستجواب للتكيّف مع القيود المؤسسيّة .

أما ما لا يستطيعه مثل هذا التحليل الموجَّه نحو ما هو مؤسّسي فتمثّله بعض التغيّرات الجارية في استجواب وسائل الإعلام الذي يبدو أنه جزء من تغيّرات سوسيو-ثقافيّة أوسع تؤثّر في المجتمعات المعاصرة ؛ ومثال ذلك الطريقة التي تغيّرت بها الاستجوابات السياسيّة بين الخمسينيّات واليوم في بريطانيا من تفاعلات رسميّة بين مقدّمين مجهولين في الغالب والمشاهير المنشَئين باعتبار منزلتهم الاجتماعيّة ، تغيّرت إلى تفاعلات غير رسميّة أكثر فأكثر بين مقدّمين ذوي شهرة في وسائل الإعلام والمشاهير المنشئين هم أيضا فائقة بوساطة أجهزة الترويج كشخصيّات .

كانت العلاقة بين المستجوِب والمستجوَب تعكس اختلافات قائمة على المنزلة أما اليوم فإنها أكثر انفتاحا ومرونة ، ذلك أنّ الحديث بين رجل السياسة ومقدّم البرنامج يكون بين قرينين متكافئين ، وفي عدد من الحالات تُستوحى شخصيّات المقدّمين من نماذج الحياة الخاصّة حيث يقومون بإسقاط ذواتهم كأشخاص لديهم عالمُ الحسّ المشترك نفسه الذي لدى جمهورهم ، مستعملين أسلوبا تواصليّا معتمدا جزئيا على خصائص المحادثة . وفق هذه التغيّرات تغيّر خطاب الاستجوابات السياسيّة تغيّرا ملحوظا .

يرى فيركلاف أن هذه التطوّرات ليست فحسب خصائص تميّز الاستجواب في وسائل الإعلام ، فقد انتقل الشريط الوثائقي كذلك من التركيز على قضايا اجتماعيّة عامّة ، حيث يظهر الناس ممثِّلين لأنواع اجتماعيّة ، إلى هاجس إنشاء الناس الذين يقدّمهم كأفراد لهم شخصيّاتهم التي تميّزهم عن غيرهم . وهكذا فإن الانتقال نحو الطبيعة غير الرسميّة ونحو خطاب يحاكي المحادثة اليوميّة يُعدّ انتقالا عامّا لا يخصّ وسائل الإعلام فحسب وإنّما يتعدّاها إلى مجالات الخطاب العمومي ، بما في ذلك الاستشارات الطبيّة التي اتخذها فيركلاف مثالا للمقارنة مع الخطاب الإعلامي .

يعتبر فيركلاف هذا التطور جزءا من تغيّرات عامّة في العلاقات الاجتماعيّة والقيم الثقافيّة التي دُرست باعتبار الفردانيّة و«محاربة التقليد» و«محاربة الطابع الرسمي» ، ومسّت علاقات السلطة ، والعلاقات بين المجالين العام والخاص للحياة الاجتماعيّة ، وإنشاء الهويّة الذاتيّة . ويصوغ المجتمع خطاب وسائل الإعلام ، وتلعب هذه دورا حيويّا في نشر مثل هذه التغيّرات الاجتماعيّة والثقافيّة .

يساعد خطاب وسائل الإعلام على نشر ثقافة الترويج المعاصرة وكذلك ثقافة الاستهلاك ، وتعكس التغيّرات الحاصلة في هذا الخطاب ما يحصل من تغيرات في الحياة الاجتماعية والحياة الثقافية وكذلك ما يسود من تغيرات في الحياة الاقتصاديّة وفي الطريقة التي انتشرت بها نماذج الترويج (ترويج السلع والمؤسّسات والأحزاب والشخصيّات . . .) سواء في مجال الاستهلاك الاقتصادي أو في مجال الخدمات العموميّة والفنون ووسائل الإعلام وكذلك في كيفيّة إنشاء الجمهور على نحو متزايد كمستهلكين بدل مواطنين .

على نحو مماثل يلاحظ فيركلاف الشيء نفسه في الكتيبات التي تصدرها الحكومات (ما يسمّى الكتاب الأبيض) والتي غايتها سبر آراء عامّة الناس والتعامل مع قضايا مثل حق الاستفادة من الرفاه ؛ فإن تأثير أنواع الإشهار والترويج جليٌّ أكثر فأكثر في إنشاء الجمهور مرّة أخرى مستهلكين بدل مواطنين ، حتى ولو كانت حقوقهم المدنيّة هي الموضوع .

تمثّل خطابات وسائل الإعلام أداةَ استشعار حسّاسة للتغيّر الاجتماعي/الثقافي ، وينبغي أن تُدرك مادّة مفيدة في البحث في التغيّر . وتعبّر التغيّرات التي تمسّ المجتمع والثقافة عن نفسها في طبيعتها التجريبيّة والناقصة والمتناقضة وفي ممارسات وسائل الإعلام الخطابيّة المتغيّرة وغير المتجانسة .

خلاصات

درس فيركلاف التواصل في خطاب وسائل الإعلام وبيّن خصائصه التي أصبحت تميل إلى الفردانية والتمثيل الشخصي للأحداث والناس ، كما بيَّن مدى مساهمة الجانب الاقتصادي والجانب السياسي في تغيير طريقة إنتاج خطاب وسائل الإعلام واستهلاكه ، إلى جانب دور السياق الاجتماعي الثقافي في إنشاء وتقبّل هذا الخطاب .

نستخلص من دراسة فيركلاف ما يلي :

- حاولت وسائل الإعلام بناء جسر يقرّب الهوّة بين الشروط العامّة لما تنتجه والشروط الخاصّة للاستهلاك عن طريق تطوير «صورة تواصليّة وأسلوب تواصلي» ، ووقع تحويل وجهتها نحو أولويّات الحياة الخاصّة وقيمها وممارساتها . ويتضمّن هذا بروز لغة يوميّة عامّة للاستعمال في وسائل الإعلام وقعت نمذجتها لمختلف الدرجات والمستويات وبطرق مختلفة بناء على ممارسات الكلام العادي اليومي المحادثي .
- عرفت وسائل الإعلام تطورا مهمّا في سياستها وفي توجهها نحو بناء جسر تواصل بينها وبين الجمهور على أساس افتراضات لكيفية تقبل الجمهور للخبر . وهكذا يتأثر الإعلام ويؤثر في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية .
- يتّصف إنتاج خطاب وسائل الإعلام واستهلاكه بممارساته وروتينه الخاص . وفي غالب الأحيان تُستهلك نصوص وسائل الإعلام في سياقات المجال الخاص وفي حياة الأسرة . وقد بيّنت الأبحاث حول تلقّي وسائل الإعلام الطّرقَ المتعدّدة التي يتجذّر بها استهلاك نصّ وسائل الإعلام في الحياة الأسريّة .

خاتمة الباب

ما يمكن أن نستخلصه من هذا الباب بعد دراستنا للتحليل النقدي للخطاب وما جاوره من مفاهيم توضّحه وتسلّط الضوء على جوانب عديدة منه ، هو أن مجال التحليل النقدي للخطاب مجال جديد نسبيا رغم تجذر منطلقاته في الفكر الفلسفي الماركسي وفي فكر عدد من الباحثين الذين تبنّوا هذا الفكر وطوّروه وطوّعوه لدراسة الخطاب .

أفاد التحليل النقدي للخطاب من عدة مقاربات منها تحليل الخطاب وخاصة موضوع استراتيجيات الخطاب التي اعتمد عليها التحليل النقدي للخطاب ووظّفها في دراسة إنشاء الخطاب وتأويله ، باعتبارها شرطا من شروط إنتاج الخطاب ، تلازم إنتاج الخطاب لأنها تمثّل مجموعة الاختيارات الممكنة التي في متناول المتكلم حين يستعمل اللغة . كما استغل هذا الحقل الجديد ما توصلت إليه العلوم النفسية والاجتماعية والعرفانية واللسانيات .

اعتبر الباحثون في التحليل النقدي للخطاب أن هذا المجال يعطي إمكانيات كبيرة لدارسي الخطاب لتوسيع أفق دراسات الإنتاج والتأويل ، ذلك أن هذه المقاربة تفيد من علوم عديدة ومتنوعة وتنفتح على مناهج متنوّعة بتنوّع وتعدّد النظرة إلى الخطاب .

اهتم التحليل النقدي للخطاب بالقضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، والدفاع عن الفئات الضعيفة ومحاربة الطبقية والبحث عن بدائل للمجتمعات التي تعاني الظلم والاستبداد . فناضل الباحثون ضدّ الميز العنصري ، ودافعوا عن الأقلّيات ، وتناولنا منهم بالدراسة روث ووداك ونورمان فيركلاف وفان دايك ، ولئن اختلفت منطلقات هؤلاء الباحثين فإن الهدف كان واحدا .

حظي الخطاب الإعلامي باهتمام خاص من منظور التحليل النقدي للخطاب

ومن طرف عديد الباحثين لأنه يعكس آراء كل فئات المجتمع وهو السبيل لفرض السلطة والهيمنة من القوي على الضعيف ، واختلفت هذه الدراسات باختلاف مناهج التحليل داخل إطار فلسفي واحد وخلفية نظرية مشتركة تحدد العلاقة بين المجتمع أو الفرد واللغة . وتتفق هذه الدراسات على أن الخطاب الإعلامي هو وليد العلاقات الاجتماعية ومولّد لها يتأثر بها ويؤثر فيها .

درست ووداك خطب زعماء سياسيين وبيّنت المسكوت عنه في هذه الخطب بالبحث في سياقاتها المباشرة والموسعة وبتوسل مقاربة متعددة الاختصاصات وانطلقت من مقاربة تجمع بين تحليل الخطاب والتداولية استفادت فيها من تداخل عدة اختصاصات لسانيّة واجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة ، غايتها إثبات أن التحليل النقدي للخطاب الإعلامي يجب أن يكون منفتحا على بقية العلوم ينهل من مناهجها وموضوعاتها ، وركّزت خاصّة على مجال التداوليّة ، لما يوفّره من إمكانات التأويل ولما يزخر به من اهتمام بالسياق الموسع والسياق المباشر للخطاب . وجعلت «روث ووداك» للسياق أربعة مستويات حاولت من خلالها ملامسة الجوانب المختلفة للخطاب الإعلامي ، فبحثت في السياق اللغوي (سياق في مستوى اللغة) والسياق الكلي الذي يصل الخطاب ببقية الخطابات التي تتداخل أو تتقاطع معه ، والسياق الاجتماعي السياسي ، والسياق المتعلق بدراسة الخطاب في إطاره التاريخي مقابل فترات تاريخية أخرى .

أما «فان ديك» فقد تناول الخطاب الإعلامي من منظور عرفاني . يرتكز هذا الاتجاه بالأساس على عمليّات العرفان الاجتماعي ، أي على كيفيّة صوغ «النماذج» و«الخطاطات» العرفانيّة لإنتاج الخطاب الإعلامي وفهمه . ويسعى إلى إبراز العلاقات بين النصوص وعمليّات الإنتاج وعمليّات الفهم والممارسات الاجتماعيّة الواسعة التي تندرج فيها ويلقي هذا التحليل الضوء على الأشكال التي يخزّن بها الخطاب الإعلامي في الذاكرة ، وكذلك على الآثار بعيدة الأمد التي قد تحدثها في الإدراك والعرفان والعمل .

اهتمّ «نورمان فيركلاف» بالخطاب الإعلامي ، وانطلق من رؤية تعطي الجانب الاجتماعي أهمّية كبرى . وهو يرى أن دراسة لغة وسائل الإعلام من شأنه أن يساهم في تسليط الضوء على البحوث الحديثة التي تعتني بدراسة التحوّلات الاجتماعيّة في حياة الشعوب . وهو يحاول الابتعاد عن التحليل اللغوي المحض الذي تبنته بعض

الدراسات ، فأضاف له الجانب الاجتماعي الثقافي الذي لا يمكن أن يخلو منه الخطاب الإعلامي بحسب رأيه .

أخذ فيركلاف بعين الاعتبار عمليّة التواصل في الخطاب الإعلامي ، وأشار إلى ما توفره وسائل التكنولوجيا الحديثة من تسهيل لانتشار الخطاب الإعلامي وبالتالي اتساع رقعة التواصل الاجتماعي . ويصرّح ريتشاردسون بأنه يتبنى رؤية فيركلاف ، وبالتالي يُعتبر إضاءة لنظرّية هذا الأخير ومواصلة لها مع التركيز على البعد الثقافي في التحليل النقدي للخطاب الإعلامي دون إهمال الجانب الاجتماعي الذي بسطه فيركلاف .

نلاحظ أن انفتاح التحليل النقدي للخطاب الإعلامي على مجالات علميّة مختلفة جعل مقاربات تحليل الخطاب الإعلامي تتنوّع وتختلف وذلك بحسب زاوية النظر التي ينطلق منها كلّ باحث يلج هذا الميدان .

الباب الثاني:

تطبيقات على خطاب الثورة في تونس

١ التحليل المعجمي

٢ التسمية والإحالة

٣ الحمليّة والضمائر

٤ بنية الجملة في خطاب الثورة

٥ الحجاج في الخطاب الإعلامي المواكب للثورة

مقدمة الباب

سنتناول في هذا الباب دراسة الخطاب الذي واكب الثورة التونسيّة من يوم السابع عشر ديسمبر ٢٠١٠ إلى موفّى شهر جانفي ٢٠١١ وهذا التحديد منهجيّ بالأساس ، أمّا النصوص المختارة فهي نصوص من وسائل إعلام متنوّعة تونسيّة وأجنبيّة ، باللغة العربيّة واللغة الفرنسيّة (جريدة الصباح ، جريدة الشروق ، جريدة La presse ، جريدة القدس ، صحيفة الشرق الأوسط) ، وسنهتمّ كذلك بالشعارات التي رفعها المتظاهرون في تلك الفترة . وسيكون التركيز على الخطاب المكتوب ، أمّا الخطاب متعدد الوسائط فسنكتفي منه بخطب زين العابدين بن علي الثلاث التي ألقاها قبل خروجه من تونس ، والتي حوّلناها بدورها إلى نصوص مكتوبة وأثبتناها في الملاحق .

في الفصل الأول سنحاول تحليل خطاب الثورة تحليلا معجميا مهتدين بما توصل إليه «نورمان فيركلوف» بهذا الصدد ، وهذا يعني التركيز على الجانب التداولي الاجتماعي في دراسة للمعجم . وفي الفصل الثاني سنحاول مقاربة تحليل المتن باعتبار ما يحويه الخطاب من تسميات وإحالات تبيّن موقف المتكلم (السلطة أو الشعب أو الصحافة المواكبة) من الآخر ، ومن القضايا المطروحة خلال الفترة المحدّدة للدراسة ، باعتبار أن التسمية والإحالة تساهمان في تفسير نوع العلاقات بين هذه الأطراف الثلاثة .

وسنقدم في الفصل الثالث خطاب الثورة من خلال دراسة ظاهرتي الحمليّة والضمائر محاولين تفسير اشتغال الاستراتيجيات الحمليّة في خطاب الأطراف الثلاث المذكورة أعلاه وسنعتمد في هذا الصدد على أعمال «جون ريتشاردسون» و«آلان بيل» . وما دعانا إلى الاعتناء بهاتين الظاهرتين في الخطاب هو ما لاحظناه من قدرة الاستراتيجيات الحمليّة واستعمال الضمائر في الخطاب على تفسير القيم المرجعيّة للمتكلم وبيان أهدافه ، لأن اختيار الكلمات المستعملة في خطاب الشعب

أو الخطاب السياسي أو في خطاب الصحافة هدفه تمثيل القيم والمميّزات التي تسم الفاعلين والأحداث .

في الفصل الرابع سنهتمّ ببنية الجملة في الخطاب الإعلامي (في المتن المذكور سالفا) من خلال دراسة مفهومي التعدية واللزوم والموجهيّة . يتعلق مبحث التعدية واللزوم بمسألة محورها الفعل وتعلّقه بعدد من العناصر داخل تركيب الجملة ، وبالتالي فإنها ظاهرة نحويّة إعرابية ، أما الموجهيّة فهي مسألة تظهر في تركيب الجملة ولكنها تحدّد المعنى من خلال بيان موقف المتكلم مما يقول . وسنستغل هاتين الظاهرتين لفهم الخطاب الإعلامي وتأويله لما تحملانه من دلالات ولما تتضمّنانه من إيحاءات يمكن أن تنير درب التأويل .

يتعلق الفصل الخامس من هذا الباب بمسألة الحجاج في الخطاب الإعلامي المواكب للثورة . درس كثير من الباحثين الحجاج في الخطاب الإعلامي وذلك في رأينا لما له من أهميّة في توجيه الرأي العام وفي صنع الحدث . وسننطلق أساسا مما توصل إليه «فيليب بروتون» بخصوص الحجاج والتواصل . يوظّف الخطاب الإعلامي وسائل الحجاج المختلفة للتأثير في المتلقي واستمالته قصد إقناعه بإنجاز فعل ما أو أخذ قرار معين تماشيا مع إرادة منتج الخطاب أو الجهة التي ينتمي إليها .

الفصل الأول:
التحليل المعجمي

تمهيد

سنحاول تطبيق رؤية نورمان فيركلاف لتحليل خرْج وسائل الإعلام وبالتالي سيكون المنهج المقترح أقرب إلى ملتقى مناهج متعدّدة وأبعد ما يمكن عن التحليل الشكلي الجاف الذي ينبذه فيركلاف ، فدرس الخطاب الإعلامي من زاويتين ، الأولى زاوية لسانيّة والثانية زاوية خطابيّة وهو كما تقدّم يعني بالخطاب استعمال اللغة منظورا إليها بطريقة مخصوصة أي شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعيّة (أي التركيز على العناصر التداوليّة) .

هذا يعني أننا سنركّز على الجانب الاجتماعي الثقافي دون إهمال بقيّة الجوانب السياسيّة والاقتصاديّة وغيرها ، فتحليل لغة الإعلام يُعتبر عنصرا مهمّا في تحليل التغيّرات في صلب المجتمع . وللغة الإعلام تأثير كبير في تغيّر القيم الثقافيّة في المجتمع (وتأثُّر بها) وتأسيس هويّات جديدة للشعوب مثل التحرّر من الظلم والاستبداد السياسيين ، والتحرّر من التقاليد والعادات وتبنّي عادات جديدة تصبح ضمن مكوّنات الثقافة الجماعيّة لمجتمع ما ، كما أن اللغة الإعلاميّة لها دور كبير في تغيير موازين القوى والتأثير في علاقات السلطة[١] .

نروم من وراء تحليل الخطاب الإعلامي المتعلّق بالثورة في تونس ، في المدّة التي حدّدناها سابقا ، بيان الطبيعة اللغويّة والخطابيّة لسلطة وسائل الإعلام والتركيز على ما يمكن أن يسمّى إعلام الشؤون العامّة ، لاسيما الأخبار والتعليقات والبرامج التي تُعنى بالسياسة والشؤون الاجتماعيّة في تلك الفترة إلى جانب الشعارات التي رُفعت في المظاهرات وهتف بها الشعب وردّدها الإعلام .

---

(١) انظر الفصل الأوّل من هذا البحث .

١-١ التحليل المعجمي لخطاب السلطة

سنتولى دراسة خطاب السلطة من خلال تحليل الخطب الثلاث التي ألقاها زين العابدين بن على والتي بثّتها القناتان التلفزيتان «القناة٧» و«القناة ٢١» . وقد قمنا بتحويل هذه الخطب إلى نصوص للتمكّن من تحليلها باعتبارها نصوصا مكتوبة ، لذلك رأينا من الضروري إثباتها في هذا البحث .

نلاحظ ، من خلال الخطب الثلاث ، أن الكلمات المستعملة تنقل بصمة المجتمع والأحكام القيميّة على وجه الخصوص . إنّها تنقل المعاني الإيحائيّة والصريحة التي تكون عادة مُضمّنة في الأسماء والأفعال والصفات ، ومثاله أن زين العابدين بن علي استعمل في خطاباته الثلاث معجما متنوّعا ؛ وقد جعلها هذا التنوّع تمسّ اهتمامات كلّ المواطنين بجميع شرائحهم (معجم أخلاقي ، معجم اجتماعي ، معجم نفسي ، معجم اقتصادي ، معجم قانوني ، معجم سياسي . . .) وقد اخترق هذا التنوع المعجمي خطبه الثلاث ، ولكنه مختلف من حيث الحدّة والتركيز .

فإذا أخذنا مثلا المعجم الاقتصادي فسنرى أنه وقع التركيز عليه في الخطاب الثاني خاصة ، ويصدق الشيء نفسه على المعجم السياسي :

	الخطاب الأوّل	الخطاب الثاني	الخطاب الثالث
المعجم الاقتصادي	تنمية توزيع عادل شغل تلبية طلبات بلدان نامية سياسة تنمويّة استثمار	تنمية – إنماء– تقدم تنمية متكافئة موارد رزق طاقة تشغيل دعم أسعار قطاع بنكي اتحاد الصناعة والتجارة تعاون دولي	تخفيض الأسعار ميزانيّة تعويض

المعجم السياسي	الدولة السلط الجهـويّة والمحليّة سياستنا	عمل إرهابي تطرّف فوضى هيئات دوليّة أمميّة	تغيير عميق تغـيـير شـامل- تهدئة مسؤوليّة دعم ديموقراطي تفعيل التعدّدية صون الدستور حريّة كاملة وزير داخليّة

نلاحظ أن المعجم الاقتصادي وقع التركيز عليه في الخطاب الثاني بكلمات تمسّ الحياة اليوميّة للفرد مباشرة (مثل القدرة الشرائيّة ، ودعم الأسعار ، والتخفيض) إلى جانب عبارات تدلّ على الاهتمام بهذا الميدان (ميدان الاقتصاد) اهتماما جذريّا وعميقا مثل «موارد رزق ، تشغيل ، قطاع بنكي . . .» ، بينما نجد في الخطاب الثالث تركيزا واهتماما متزايدا بالمشاغل اليوميّة للمواطن وأقرب شيء له هو الاهتمام بقُوته ؛ ولذلك وقع اختزال المعجم الاقتصادي في كلمتين أساسيّتين هما «التخفيض ، والتعويض» ، وهما تؤدّيان إلى حقيقة واحدة هي مساعدة المواطن على مجابهة غلاء المعيشة الذي يُفترض أن يكون التفكير فيه في الخطاب الأول (الذي كان الاهتمام فيه بالمعجم الاقتصادي اهتماما عاما يدخل في السياسة العامّة التي تتبعها الحكومة) .

يتغيّر كذلك المعجم السياسي تغيّرا جذريّا من الخطاب الأوّل إلى الخطاب الثالث ، إذ لم يكن زين العابدين بن علي محتاجا لتجنيد هذا المعجم في خطابه الأوّل ، لأن اعتباره لما وقع حادثة فرديّة لا تستحق التعميم جعله يتحدّث فقط عن مزيد اهتمام «الدولة» برعاياها والإحاطة بالحالات الفرديّة من خلال «السلط الجهويّة والمحليّة» .

أما في الخطاب الثاني فقد احتاج المتكلّم إلى تسمية الأشياء بمسمّيات يرى أنه لا بد من ذكرها لتعميمها وإيهام المستمع بصحّتها وهي «إرهاب ، تطرّف ، فوضى» . وفي الخطاب الثالث بدا واضحا أن الرئيس في ذلك الوقت مجبر على تغيير موقفه فتزعزع إيمانه بأن ما يحدث نتيجةُ إرهاب وتطرّف ، والدليل أنّه استعمل للمرّة الأولى «تغيير شامل» و«تغيير عميق» متحدّثا عن الحقل السياسي وبالتدقيق عن سياسته في إدارة البلاد .

لجأ كذلك إلى عبارات سياسيّة أخرى للدعوة إلى المهادنة «التهدئة ، التظاهر السلمي ، التظاهر الحضاري» ، ثم تحدّث عن المسؤوليّة ؛ وهذا يعني أنه يخلي نفسه من هذه المسؤوليّة ويقلّدها للسلط الجهويّة ولوزير الداخليّة في هرم أعلى من السلطة .

أمّا الكلمات التي نرى أنها استعملت ضمن المعجم الأخلاقي فإنّها تكرّرت تقريبا بالطريقة نفسها في الخطب الثلاث وكانت عبارة عن وصف لما حدث (ومن خلاله وصف لمن قاموا بالأحداث ، ووصف أخلاقهم) في الأيّام المذكورة سابقا ؛ وهذا التكرار تأكيد لرؤية قائله للأحداث وعدم تغيّر هذه الرؤية خلال تلك الفترة كلها ، رغم تصاعد الأحداث وتأكّد رفض الشعب للحكومة القائمة وللرئيس بن علي أساسا .

يصف المتكلّم الأحداث بـ «الشغب ، والعنف» ويصف الصحافة بـ «الأكاذيب ، والمغالطات ، والتهويل ، والتحريض ، والتجنّي» ، هذا في الخطاب الأوّل . وفي الخطاب الثاني يتواصل الأسلوب نفسه وهو الالتجاء لعبارات مماثلة «تشويش ، عنف ، فوضى» الألفاظ نفسها لوصف الصحافة « كاذبة ، زائفة» ولكن تقابلها «نزاهة» المتكلّم باعتباره مصدر المعلومة الصحيحة (وهذا ما يحاول أن يقنع به الشعب) .

ويتواصل الخطاب الثالث على المنوال ذاته وبالمعجم ذاته مع إغناء الألفاظ التي تصف الشق المصلح من الشعب وهي «متسامح ، نزاهة ، متحضّر ، مصداقيّة» . ويمكن أن نلخّص ذلك في الجدول التالي :

معجم لوصف الأحداث ومن خلاله وصف «الفاعلين»	الصحافة الأكاذيب ، كاذبة	المتكلّم ومن يواليه نزاهة * ٢
الشغب	زائفة * ٢	متسامح
العنف * ٣	المغالطات	متحضّر
تشويش * ٢	التهويل	إصلاح
فوضى	التحريض	مصداقيّة
إجرام	التجنّي	
إفساد	افتعال	
عيب		
تخريب		

يمكن الملاحظة أن الكلمات والألفاظ في الجدول السابق أغلبها بدائل استعملت للإحالة على معنى واحد تقريبا ؛ ولا نعني بذلك المعنى المعجمي الصرف (شغب ، تشويش ، فوضى) أو (كذب ، مغالطة ، افتعال) ، ولكن استعمالها على هذا الوجه يبيّن حاجة المتكلّم للإشارة إلى الظاهرة نفسها من زوايا متعدّدة وبألفاظ متنوّعة ليبيّن موقفه أوّلا وليضمن فهم المتلقّي ثانيا .

وهذا الشكل من الاستعمال المعجمي نجده كثيرا في الخطب السياسيّة التي يُقصد من ورائها التعبئة والتأثير في الجمهور وتجييش المشاعر وبالتالي التأثير في سلوك المتلقّي وردّ فعله تجاه الحدث ، كما يمكن أن نجدها في كلام المدرّس وهو يشرح الدرس فيستعمل عدّة بدائل للإشارة إلى المفهوم نفسه قصد تقريبه أكثر من ذهن الطالب وترسيخه .

يمكننا الحديث في هذا المجال أيضا (التحليل المعجمي) عن «معجم عام» و«معجم خاص» ، فقد دأب زين العابدين بن علي على افتتاح كلّ خطبه (ما تعلّق منها بالمناسبات الوطنيّة أو المناسبات الدينيّة) بعبارة «أيها المواطنون ، أيتها المواطنات» ويجد لها بديلا في سياق خطابه الأول «أيها الشعب» ، وفي خطابه الأخير «الشعب التونسي» وهي بدائل تنتمي ، مع العبارة الأولى بحسب اعتقادنا ، إلى ما استعرنا له اسم «المعجم العام» لأنها عبارات عامّة وبدائل تُقال عادة في الخطب السياسيّة الموجّهة لعامة الناس دون استثناء .

أما في الخطاب الثاني ، وقد بدأ المتكلّم يفهم سيرورة الأحداث وخاصّة هويّة «الفاعلين» فيها (دون أن يصرّح بذلك) ، فقد التجأ إلى «معجم خاصّ» أو أكثر خصوصيّة من المعجم الأول حين استعمل «أبناءنا ، بناتنا ، أبناءنا وبناتنا» ، وهو يعتقد بذلك أنّه حقّق مزيدا من القرب والحميميّة مع الشعب ، ولن يكون كلام الوالد لأبنائه سوى كلام الناصح المرشد الذي يخاف على مصلحة فلذات أكباده ويضحّي بنفسه من أجلهم .

لا ننسى ما يسم علاقة الأبوّة في الثقافة العربيّة إلى جانب العطف والرعاية من سلطة لا حدود لها ، تعطي الأب الحقّ في التحكم بمصير الأبناء بما يراه صالحا لهم بغض النظر عما يريدونه ، وتعطيه الحقّ في توجيه حياتهم الوجهة التي يريدها ، بما أنها تجعل إرضاء الله مرتبطاً بإرضاء الوالدين .

المتكلم يستغل هذا العامل المشترك بينه وبين المتلقي ليمرّر أوامره الصارمة في

شكل نصائح وإرشاد ، منتحلا صفة الأب الراعي الساهر على المصالح ، معتبرا الشعب بمثابة أسرته المقربة ، فينسج بينه وبينهم أواصر قرابة (الأبوة) تكاد تكون مقدّسة في الثقافة العربية ، وذلك ليضمن الإقناع والتأثير في المتلقي ، وليجد الخضوع والتسليم لإرادته دون قيد أو شرط .

ويبرز عدل المتكلم من خلال اختياره الواعي للفظين مترابطين من المعجم الأسري الحميم ؛ «أبناءنا وبناتنا» ، فهو الأب الذي يعامل أفراد أسرته من بنين وبنات على قدم المساواة ، وهذا إيحاء بأنه (زين العابدين بن علي) يمثل الرئيس المشجع على حقوق المرأة والساعي إلى تحقيق مساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات .

١-٢ التحليل المعجمي لخطاب الشعب

تمثّل الشعارات مكوّنا أساسيّا من مكوّنات المسيرات والمظاهرات في جميع أنحاء العالم ، وهي وسيلة ناجعة لإبلاغ الجهات المعنيّة سبب القيام بمثل هذه التحرّكات . والشعار هو في الغالب ذلك الشكل – مهما كان نوعه – الذي يقدم تحديدًا وتعريفًا لفكرة معينة أو لجهة معينة سواء كانت هذه الجهة شخصًا أو مجموعة .

يتّسم الشعار بالاختصار والاختزال ويقدّم رسالة بصريّة للمتلقي تلخّص له ما ينبغي عليه إدراكه بشأن ذلك الرأي أو تلك الجهة . ويمكن أن نذكر بعض الخصائص التي يتميّز بها الشعار دون الدخول في التفاصيل ، وهي بالخصوص أن ينجز وظيفته ويقدم رسالته البصرية بأفضل شكل ممكن ، وأن يكون واضحًا في جميع الأحجام الصغيرة منها والكبيرة ، وأن يكون متوازنا لديه أبعاد تريح عين الناظر إلى شكله ، كما يمكن إضافة خاصيّة أخرى نرى أنها ضرورية للشعار وهي أن يكون فريدا من نوعه ومناسبا لسياقه الزماني والمكاني .

سنتولّى تحليل بعض الشعارات التي ردّدها المتظاهرون ورُفعت أثناء الفترة التي حدّدناها للدراسة وذلك في المظاهرات والمسيرات التي قامت في جميع أنحاء البلاد التونسيّة وكذلك بعض ما كُتب على الجدران[1] . وفيما يلي المتن الذي سنحلّله في

---

(١) ينظر ملحق البحث .

– اعتمدنا في مدونة الشعارات على كتاب «ديقاج» المذكور في قائمة المصادر والمراجع ، وكذلك على ما جمعناه من شعارات بمجهود فوتوغرافي شخصي .

كـامل مـراحل تحليلنا لخطاب الشـعـب ، وهو عـبـارة عن شـعـارات مكتـوبة رفـعـهـا المتظاهرون وهتفوا بها خلال المظاهرات وكتبوا بعضها على الجدران :

٢٧ ديسمبر ٢٠١٠
«– حرّيات ، حرّيات ، لا رئاسة مدى الحياة»
«– شغل ، حريّة ، كرامة وطنيّة»
«– يسقط جلاّد الشعب ، يسقط حزب التجمّع»

٢٨ ديسمبر ٢٠١٠
«– أوفياء ، أوفياء لدماء الشهداء»
«– وزارة الداخليّة إدارة إرهابيّة» (تونس العاصمة)
«– يا مزّوني يا ضحيّة ، حسْ ، حس بالقضيّة»
«– يا طرابلسي يا حقير خلّي خبزة للفقير»
«– يا مواطن إيجا معانا ضد القمع والإهانة» (تونس العاصمة)

٢٩ ديسمبر ٢٠١٠
«– تونس شعب لا حكومة»
«– لا تمديد لا توريث ، أحنا معاك يا بوزيد»
«– يا قضاء فيق ، فيق ، والحجّامة تحكم فيك»

٠٣ جانفي ٢٠١١
«– المحامي والبطال صف واحد في النضال»

٠٥ جانفي ٢٠١١
يا مواطن يا بطال ، شارك ، شارك في النضال»
«– خبز وماء وبن علي لا»
«– خبز وماء وليلى لا»
«– سنُبكي من أبكاك يا محمد لن ننساك»

١٤ جانفي ٢٠١١

«- بن علي ديقاج»

«- السلطة للشعب»

«- تونس حرّة والتجمّع على برّه»

«- ولا بدّ للقيد أن ينكسر»

«- الشعب يريد إسقاط الحكومة»

«menteur vous n avez pas cessé le feu»-

١٥ جانفي ٢٠١١

- «قداش كرهك الشعب يا عصابة السرقة والنهب»
- «انتبه شعب سريع الالتهاب»
- «ما ضاع حقّ وراءه طالب . . .مناضل»
- «علي بابا في السعودية والأربعون غنوشي في الحكومة» (شعار رُفع بمدينة باجة)

- "je Reste, tu Dégages, il Dégage, nous Restons, vous Dégagez, ils Dégagent".[١]

نلاحظ في هذه المجموعة من الشعارات اعتماد معجم يركّز على الأسماء خاصّة ، وهذه الأسماء تنقل معاني صريحة لا لبس فيها ، وبعضها (الشعارات) يتكوّن من معجم اسميّ فقط ، يرد أحيانا في شكل جمل اسميّة مثال : «وزارة الداخليّة إدارة إرهابيّة» أو «السلطة للشعب» أو «تونس شعب لا حكومة» أو «المحامي والبطال صف واحد في النضال» وأحيانا أخرى يرد الشعار مجموعة من الأسماء ، ويكون أحيانا مركبا إضافيا مثال : « شغل ، حريّة ، كرامة وطنيّة» ، أو «حرّيات ، حرّيات ، لا رئاسة مدى الحياة» .

يمكن تقسيم المعجم المستعمل في هذه الشعارات إلى ما هو مطلوب وما هو مرفوض كما نرى في الجدول التالي :

---

(١) أثبتنا الحروف الأولى من الأفعال كما وردت على اللافتة بحروف التاج .

المطلوب	المرفوض
حرّيّات	جلاّد الشعب
شغل	حزب التجمع
كرامة	وزارة الداخليّة
	الطرابلسي
	القمع والإهانة
	التمديد
	التوريث
	الحجّامة – ليلى
	بن علي

نلاحظ أن المطالب انحصرت في ثلاثة أشياء أساسيّة تكرّر ترديدها في جميع المظاهرات والمسيرات التي تمّت في البلاد وهي : شغل وحريّة وكرامة ، ويمكن أن نعتبر هذا الثالوث بمثابة تلك الأثافي التي حملت قِدر الثورة بما كان يغلي فيه من غضب ورفض للأوضاع السائدة .

أمّا ما هو مرفوض من قبل المتظاهرين فيمكن تلخيصه في ما يلي بحسب ما ورد في الشعارات : رئيس الدولة وتوابعه (جلاّد الشعب ، بن علي ، الطرابلسي ، الحجّامة ، ليلى) ، ومؤسسات الدولة المنحرفة (وزارة الداخليّة ، حزب التجمع) ، وسياسة القمع التي تنهجها الحكومة (القمع ، الإهانة ، التمديد ، التوريث) ، وبذلك يحدّد المعجم المستعمل ما يريده الشعب الثائر من تغيير في الأوضاع التي يعيشها ، وقد عبّر عن رفضه لها من خلال ألفاظ واضحة ومحدّدة .

بذلك يحمل معجم الخطاب المستعمل رؤية صاحبه لنفسه ولغيره ؛ وتمتلئ الألفاظ بشحنة إيديولوجيّة وسياسيّة وبأفكار يقتنع بها المتكلّم ويحاول أن يُقنع بها السامع وربّما الطرف المقابل كذلك .

١-٣ التحليل المعجمي لخطاب الصحافة

صدر أوّل مقال في صحيفة «الصباح» يوم ٢٠١٠/١٢/١٩ تحدّث عن إقدام الشاب محمد البوعزيزي على حرق نفسه . ورد المقال في سياق إثبات أنّ المسألة لا

تخرج عن حادث فردي يمكن أن يقع في أي وقت لشاب يائس يعاني الفقر والبطالة .
عنوان المقال :

«مصدر رسمي : حادثة شخصيّة في سيدي بوزيد استُغلّت لأغراض سياسيّة غير شريفة» . وهذا نصّه :

«تونس(وات) ، أفاد مصدر رسميّ بخصوص التأويلات غير المبرّرة التي ذهب إليها بعض الأطراف بشأن حادثة حصلت في نهاية الأسبوع الماضي بمدينة سيدي بوزيد بالتوضيحات التالية :

'يتعلّق الأمر بقيام مصالح التراتيب البلديّة بسيدي بوزيد في نطاق عمليّات مراقبتها العاديّة بلفت انتباه بائع متجوّل إلى أنّه يمارس نشاطه التجاري في مكان غير مرخّص فيه ، وطلبت منه تحويل ذلك النشاط إلى مكان آخر ، لكنّ المعني بالأمر رفض الامتثال للتراتيب المشار إليها وأصرّ على البقاء بذلك المكان ، وعندما تمسّك الأعوان بتطبيق القانون امتنع وأقدم على محاولة الانتحار حرقا .'

وقد تمّ فورا تقديم الإسعافات الأوّليّة ثم نقله لتلقّي العلاج في مركز الإصابات والحروق البليغة ببن عروس' .

يضيف نفس المصدر قوله : 'إنّنا بقدر ما نأسف لهذه الحادثة المؤلمة ، نستغرب محاولات بعض الأطراف الانحراف بهذه الحادثة الشخصيّة المعزولة عن سياقها الحقيقي واستغلالها لأغراض سياسيّة غير شريفة وربطها بغرض التضليل والإثارة بحقوق الإنسان والحريّات والتشكيك في مقوّمات التنمية بالجهة ، التي عرفت كبقيّة جهات البلاد جهودا تنمويّة غطّت سائر القطاعات باستثمارات بلغت بولاية سيدي بوزيد منذ التحوّل ٢٣٥٠ مليون دينار وأسهمت في التخفيض من نسبة البطالة والتحكم فيها بما لا يتجاوز المعدّل الوطني بما في ذلك أصحاب الشهادات العليا' .

تابع المصدر 'أن هذا المجهود سيتواصل بما سيمكّن في السنوات القادمة من رفع نسق التنمية بالجهة لمزيد تطوير وتنويع قاعدتها الاقتصاديّة وذلك في نطاق تنفيذ البرنامج الانتخابي الرئاسي والمخطط الثاني عشر للتنمية' .»[(١)]

في البداية بدا الأمر وكأنه «حادثة شخصية معزولة « على حد تعبير هذا البيان الرسمي ، لكن سرعان ما تحول إلى حركة احتجاجيّة فاجأت السلطة والرأي العام

---

(١) جريدة الصباح ، ١٩ ديسمبر ٢٠١٠ .

والمراقبين بكبر حجمها ثم بانتشارها وارتداداتها . وهو ما جعل كل حديث عن تونس في ذلك الوقت يقترن آليا بما حدث ويحدث بولاية سيدي بوزيد . ولكن إصرار وسائل الإعلام التونسيّة أوّل الأمر على اعتبار ما حدث حدثاً شخصياً معزولاً جعلها تقف بعد ذلك موقف الحائر مما يقع ، ولأن وسائل الإعلام قناة أساسية من قنوات الاتصال في المجتمع فإن كل ما يكتب فيها من منبّهات تواصلية يكون له غرض تعديل سلوك الفرد والجماعات (المتقبل بصفة عامة) .

من بين أهداف نصوص وسائل الإعلام وخاصة هذا النص الذي نحن بصدد دراسته ، التوضيح وزيادة الفهم وتخفيف التوتر الذي يمكن أن يحدث نتيجة غموض في حادثة ما أو خبر ما ، وهو في حالتنا هذه نقل للمعلومات من «مصدر رسمي» – بكل ما تحمل هذه العبارة من مشروعية القول والقدرة على الإقناع ، وبذلك يكون تكذيب الخبر أمرا مستبعدا – إلى متقبّل يبحث عن الخبر اليقين ويجهل ملابسات هذا الحادث الأول من نوعه في البلاد ، وعبر الجريدة يتم التواصل بين طرفين لا يقوم على التقبل فقط وإنما يفترض حصول مشاركة في المعلومات المقدّمة وفي الصور الذهنية والآراء .

نلاحظ أن هذا المقال يضمّ محورين أساسيين . الأول : الحادثة وما يتعلّق بها ، والمحور الثاني : موقف السلطة من التنمية في سيدي بوزيد . وينقسم المعجم في المحور الأوّل إلى ثلاثة أقسام معجم خاص بوصف الجريدة للحادثة ، ومعجم خاص بوصف أطراف أخرى لهذه الحادثة ، ومعجم يبيّن موقف السلطة (وهنا السلطة هي المصدر الرسمي الذي أُخذ منه الخبر) . أما المحور الثاني فيضم المعجم الذي يوضح موقف السلطة من التنمية في سيدي بوزيد في ذلك الوقت وفي المستقبل .

إذا ما نظرنا إلى العنوان وجدنا أن كاتب المقال قد تبنّى رؤية المصدر الذي أخذ منه المعلومات ، العنوان : «حادثة شخصيّة في سيدي بوزيد استُغلّت لأغراض سياسيّة غير شريفة» وما ورد في كلام المصدر « . . . الحادثة الشخصيّة المعزولة عن سياقها الحقيقي» ، وهذا ما يؤكد أن كاتب المقال لم يكن ناقلا للخبر فقط وإنما هو مشارك فيه بإبداء الرأي وتبنّي موقف ما من شأنه أن يؤثّر في عمليّة التلقي ، وبالتالي يعمل على التقليل من عدم اليقين ويحدّ من تصوّر بدائل أخرى مختلفة ومحتملة في هذا السياق . وبذلك يحيد النص الإعلامي عن الموضوعيّة ويتلبّس الخرْج الإعلامي بالعاطفة والإقناع والتوجيه ، بل وفرض الرأي أحيانا ، عبر طرق بلاغية

وحجاجية معينة، وعبر معجم يقع اختياره ليفي بهذه الحاجيات. وبالنظر إلى الجدول التالي يمكن أن نتبيّن أهمية الاختيار المعجمي في تحديد الرأي وتوجيه المتلقي بخصوص الحدث:

رأي الصحيفة في الحدث	رأي المصدر الرسمي «السلطة» في الحدث	رأي المصدر الرسمي في موقف الإعلام «المعادي»
- حادثة شخصيّة في سيدي بوزيد -استغلت لأغراض سياسية غير شريفة	- حادثة شخصية حادثة حصلت بسيدي بوزيد. الأسف «نأسف»	-الاستغراب «نستغرب» -التأويلات -غير المبرّرة -الانحراف - استغلالها لأغراض سياسية غير شريفة. - التضليل والإثارة - التشكيك في مقوّمات التنمية بالجهة

إذا نظرنا في المعجم الذي وقع استعماله للتعاطي مع هذه الحادثة، نستخلص أن الصحيفة تبدي موقفا خاصا بها إلى جانب كونها تعمل على نقل الخبر ويظهر ذلك خاصة في صياغة العنوان. ويعتبر عنوان الخبر في الصحف البوّابة الرئيسيّة التي يلج منها القارئ إلى عالم الخبر، وأحيانا نرى كثيرا من القراء يكتفون بقراءة العناوين في الصحف لمعرفة آخر الأخبار. يعي الكاتب الصحافي ذلك؛ ولهذا يعطي أهمية خاصة للعنوان ويحمّله ما يريد هو إبلاغه للقارئ بصرف النظر أحيانا عن المحتوى الحقيقي للخبر.

يكفي أن يُسبق العنوان بعبارة «مصدر رسمي» حتى يكتسب شرعيّة أكثر ويأخذه المتقبل على أنه الحقيقة الوحيدة بخصوص هذا الحادث. ومن خلال العنوان «حادثة شخصيّة في سيدي بوزيد استُغلّت لأغراض سياسيّة غير شريفة» الذي صاغه كاتب المقال تبرز ملامح المعجم الذي سيستعمله في بقية المقال:

ما وقع ← حادثة شخصية

وقع استغلالها ← لأغراض سياسية

يشدّد العنوان على صفة هذه الأغراض السياسية وهي «غير شريفة» ، وبالتالي فالعنوان يلخّص أهم ما جاء في صلب المقال ، وبقية ما كتب ما هي إلا تفاصيل ثانوية حول الحادث . وأغلب العناوين في الصحافة المكتوبة تمرر من خلال المعجم المستعمل إيديولوجيةً معينة تحاول زرعها في وعي القارئ وفي لاوعيه . وينقل كاتب المقال رأي المصدر المسؤول عبر كلمات وقع إثبات أغلبها في العنوان الذي وضعه الكاتب :

الحدث : حادثة شخصية

المكان : سيدي بوزيد

الموقف : نأسف (الأسف)

أما موقف المصدر المسؤول (السلطة) من تعاطي الصحافة و(بعض الأطراف) مع هذا الحادث فيظهر في ألفاظ مثل «نستغرب» ، و«الانحراف» ، و«استغلالها» ، و«لأغراض سياسيّة» ، و«غير شريفة» ، و«التضليل» ، و«الإثارة» ، وكل هذه الألفاظ تعبّر عن رفض هذا المصدر المسؤول لما جاء على لسان «بعض الأطراف» (وهي خاصة وسائل إعلامية أجنبية) ترى السلطة أنها معادية لها وتسعى في هلاكها والإطاحة بنظامها .

يبدأ هذا المقال بدحض ما راج من أفكار يرى فيها كثيرا من المغالطات حول هذه الحادثة ، ثم يقدّم الرواية «الصحيحة» بحسب رأيه ، ثم يتبعها من جديد باستنكار رأي من يروّج لخلاف ذلك ومن يسعى إلى : «التأويلات» ، و«الانحراف» ، و«الاستغلال» ، و«التضليل» ، و«الإثارة» ، و«التشكيك» ، وكلها مداخل معجمية القصد منها كيْل التهم لهذا «الطرف الآخر» ، وتصف ما يقدّمه من معلومات بأنها مضلّلة للرأي العام ولا أساس لها من الصحة .

أمام من يحاول إخراج هذا الحدث من سياقه الاجتماعي العادي «محاولات بعض الأطراف الانحراف بهذه الحادثة الشخصيّة المعزولة عن سياقها الحقيقي واستغلالها لأغراض سياسيّة غير شريفة» ينقل الكاتب عن المصدر المسؤول «حقيقة» الوضع ، حيث تدور الأحداث بين طرفين هما «مصالح التراتيب البلدية» دون تحديد فعلي لهوية من يقومون بهذا العمل ، و«بائع متجوّل» لم يكلّف المصدر المسؤول نفسه

عناء تعريفه ، فتواطأ معه كاتب المقال ولم يذكر هو أيضا اسمه أثناء التقديم .

من خلال صياغة هذا الخبر يتدخّل الكاتب ليوجه المتلقي إلى الوجهة التي يريدها وهي إبراز الحدث في شكل اختلاف بين أعوان مصالح البلديّة وبائع متجول- ينتصب فوضويا ويسيء إلى المظهر العام للمدينة - حول مكان الانتصاب وهو مكان غير مرخّص فيه لممارسة النشاط التجاري ، واحتلّ هذا الموضوع حيزا كبيرا من البيان وتكرّر ذكر المكان مرّات ، بينما احتلّ فعل الانتحار حيزاً صغيرا « . . .امتنع وأقدم على محاولة الانتحار» ؛ ثم إن محاولة الانتحار كما يصوغها البيان كانت نتيجة تمسّك الأعوان بتطبيق القانون «وعندما تمسّك الأعوان بتطبيق القانون امتنع وأقدم على محاولة الانتحار» ، وبالتالي فإن هذا البيان صيغ بطريقة مقصودة تجعل من الاختلاف على مكان الانتصاب بؤرة الحدث وتهمل الحدث الرئيسي وهو فعل الانتحار .

وللتعرف على العلاقة بينهما يمكن أن نلاحظ معجم الأفعال المسندة لكل منهما حيث إن كل فعل ينسب إلى طرف يقابله فعل (رد فعل) من الطرف الآخر :

مصالح التراتيب البلدية	بائع متجوّل
لفت انتباه ←	رفض
طلب ←	أصرّ
تمسّك ←	امتنع

هذه المقابلة جعلتها الصحيفة مقابلة بين مطبّق القانون والخارج عن القانون ، وتدرّج الأفعال من اللّين إلى القوة ، ففي البداية كان «لفت انتباه» إلى التجاوز الحاصل من قبل البائع المتجوّل الذي قابل ذلك برفض وتجاهل هذه الملاحظة ، وانتقل أعوان التراتيب البلدية إلى طلب الكفّ عن تجاوز القانون ، فما كان من البائع إلا الإصرار على الرفض ، وهذه الخطوات تشرّع للموقف الموالي لمصالح التراتيب البلدية وهو التمسّك بتنفيذ القانون ، ولم يزد ذلك البائع إلا إصرارا وامتناعا . وبذلك يضع هذا المقال - من خلال هذا المعجم الفعلي - الطرف الأول (مصالح التراتيب البلدية) في حلّ من المسؤوليّة تجاه ما وقع ، ويضع كل المسؤوليّة على عاتق البائع من خلال إصراره على تجاوز القانون .

خلاصات

- من الواضح أن التحليل المعجمي لا يقدّم تصورا شاملا عن الخطابات التي وقع تحليلها ولكنه يضيء جانبا منها يرتكز أساسا على المفردات المستعملة في الخطاب باتصالها بنوع الخطاب في حدّ ذاته ، وبالجوانب الاجتماعية المختلفة . إن تناول المعجم من زاوية نظر فيركلاف (ربطه بالتغير الاجتماعي والثقافي) للمجتمعات يجعلنا نقارب الخطاب مقاربة متعدّدة الأبعاد بتعدّد أبعاد المجتمع ، ويعطي للدارس فرصة ربط المعجم بالجوانب التداولية في الخطاب .
- ما تحوُّل زين العابدين بن علي عن اللغة العربية الفصحى إلى اللهجة الدارجة في خطابه الثالث إلا محاولة منه لتجذير خطابه في صلب المجتمع التونسي ومس كل شرائحه المثقف منها وغير المثقف ، وهذا ما ذهب إليه فيركلاف عندما اعتبر أن الخطاب هو استعمال اللغة منظورا إليها بطريقة مخصوصة أي شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعيّة واعتبر اللغة «جزءاً من الحياة الاجتماعيّة لا يمكن اختزاله ، بينها وبين عناصر الحياة الاجتماعيّة الأخرى علاقة منطقيّة جدليّة تجعل من الضروري أن يأخذ البحث والتحليل الاجتماعي اللغة بعين الاعتبار[1]» .
- يبقى التحليل المعجمي في حاجة إلى أنواع أخرى من التحليل حتى تنكشف دلالات الخطاب ويقترب المتلقي من دوافع وأهداف المتكلم واضع الخطاب ، وهو ما سنتعرض له في بقية الفصول من هذا الباب .

---

(١) نورمان فيركلاف ، تحليل الخطاب ، التحليل النصّي في البحث الاجتماعي ، ترجمة طلال وهبة ، المنظمة العربيّة للترجمة ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

الفصل الثاني:
التسميــة والإحالة

تمهيد

يمكن أن يكون للطريقة التي يُسمّى بها النّاس، في خطاب ما، بالغ الأثر في طريقة الفهم والتأويل وفي الطريقة التي يُنظر بها إليهم[١]، فالجميع يملك مجموعة من السمات والهويّات والأدوار المتزامنة التي يمكن أن تستعمل لوصفهم بدقّة ولكن ليس بالمعنى نفسه في كل مرّة. إنّ الطريقة التي يسمّى بها الفاعلون الاجتماعيّون، أو الأفراد والمجموعات، لا تعرّفهم وتدلّ عليهم فحسب وإنما يمكن أيضا أن تعبّر عن نوع العلاقة بين المتكلّم/ الكاتب والمسمّى.

يشرح «بلومارت (Blommaert) ذلك بقوله: «بغضّ النظر عن المعنى الإحالي تُنتج عباراتُ التواصل معنى ملحقا، معنى اجتماعيا وموجّهات تأويليّة بين ما يُقال والظرف الاجتماعي الذي قيل فيه. وهكذا فإن كلمة «Sir» لا تحيل فحسب على فرد ذكر وإنّما تُلحِق به منزلة اجتماعيّة خاصّة وكذلك دورَ علاقات الاحترام والتقدير المُتضمَّنَة في هذه المنزلة»[٢]. والقارئ أو المستمع يمكن أن يكون مثلا في وقت واحد ذكرا وطالبا ومناضلا سياسيا وسائق تاكسي ليلي ومسلما وشاعرا... ولكن على مخاطبه أو المتحدّث عنه أن يختار بحسب ما يريد إبلاغه وبحسب ما تقتضيه الوضعيّة أو الحادثة التي هو بصدد الكلام عنها والتي تشمل المخاطب، فالتسمية تتضمن دائما اختيارا.

(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P46, Palgrave Macmillan, 2007.

(2) Jan Blommaert, Discourse, P11, Cambridge University Press, 2005.

٢-١ التسمية والإحالة في خطاب السلطة

يختار الصحافيون ، في أغلب المقالات الصحفيّة ، تصنيفا اجتماعيّا – من بين تصنيفات كثيرة متاحة– للحديث عن الناس ، واختيارهم لبديل دون غيره يجعلهم يُدرجون الناس في تصنيف ويقصونهم من تصنيفات أخرى مغايرة . وقد سمّى «رايسيغل وووداك» (Reisigl and Wodak) إمكانات التسمية هذه ، «الاستراتيجيّات الإحاليّة للنص» ، وهذا الاختيار «يمكن أن يخدم أغراضا أو عددا من الأغراض المختلفة منها النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة[. . .] تتّصل بالمتكلّمين أو الكتّاب»[١] .

يعطي جون ريتشاردسون مثالا عن أهميّة التسمية في التحليل النقدي للخطاب الإعلامي بذكره لمقتطف من مقال عن محاولة الحزب العمّالي الجديد إدراج قرار غير نهائي يصدر عن غرفة اللوردات : (Independent, 8 March, 2005)

وهذا مقتطف من تساؤل المحافظ «Earl» من «أنسلو» :

«لماذا لا نعتبر كون وزير الداخليّة يعتقد أن محمد آل سميث يريد فعل شيء ويخطّط لفعل شيء ويخاطب غيره حول فعل شيء مقرف ، مؤامرةً ؟»[٢] . يرى جون ريتشاردسون أن مناقشة السيد «إيرل» لقانون الإرهاب في هذا التساؤل ليس هو المهم بقدر أهميّة اسم «محمد آل سميث» ، أي أن هذا الرجل الذي يحمل هذا الاسم تتحقّق فيه مجموعة من الصفات (من خلال الاسم) تجعله في عين القانون رجلا إرهابيّا ، فقد وقع هنا توليف «سميث» وهو الاسم العائلي المعروف في بريطانيا مع «محمد» وهو اسم مرتبط بالإسلام . ومن خلال استعمال اللورد المحافظ لـ«محمد» اسما شخصيّا يكون قد أضمر وجود الإرهاب دون الحاجة إلى التصريح بذلك .

في هذا الإطار درس «كلارك» (Clark)[٣] الطريقة التي تغطّي بها جريدة الفضائح «ذي صان» (The Sun) أحداث العنف الجنسي وخاصّة الاغتصاب ، ذاهبا

---

(1) Martin Reisigl and Ruth Wodak, Discourse and Discrimination, Rhetorics of Racism and Antisemitism, Routledge, P47, London and New York, 2001.

(2) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P50, Palgrave Macmillan, 2007.

(3) Herbert. H. Clark, Arenas of Language use, Chicago, University Press, 1992.

إلى أنّ المقال الإخباري حين يغطّي جرما من هذا النوع ينتقي أوّلا أحد المشاركين باعتباره شخصا ينبغي أن تُوجّه إليه أصابع الاتهام وينبغي أن يُوبّخ على ما اقترف ثمّ يحال عليه (إن كان الذكر هو المُدان) بعبارات مثل «مجنون ، وحش ، مدمن ، بهيمة» ، . . .) وغيرها من الألفاظ التي تخرجه عن نموذج الإنسان السوي وتحطّ من إنسانيّته .

أمّا إذا قرّرت الجريدة إدانة المرأة والكلام عنها بوصفها هي التي أغرت الرجل أو حرّضته على النيل منها وتسبّبت في الحادثة فإنها تحيل على المرأة بـ («لوليتّا ، أم عزباء ، مطلّقة . . .) وتستعمل نعوتا تثير الانتباه إلى مظهرها وإلى مفاتن جسدها («ناهد ، متناسقة القدّ ، شقراء . . .) .

يلاحظ كلارك أن صحيفة «ذي صان» تعتبر مثلا أن الذين يهاجمون المطلّقات الناهدات أشخاص لا يستحقّون العقاب ، وتصفهم بالاسم أو باستعمال ألفاظ محترمة مثل «ربّ أسرة» أو ألفاظ عاديّة مثل «الزوج» . وحين يكون الرجل سكّيرا تكون النساء الضحايا مُحالا عليهنّ بطرق توحي بالبراءة أو توحي بأنهنّ محصنات :»عروس ، تلميذة ، أم لثلاث بنات ، . . .» ، ويلخّص «كلارك» ذلك في علاقة رباعيّة كالتالي :

رجال أشرار [عطشى الجنس] – يهاجمون – نساء بريئات [أم ، بنت]
نساء شرّيرات [ناهدات مطلّقات] – يُثِرن – رجالا أبرياء [الأزواج]

وهو ما يسميه فان دايك «المربع الإيديولوجي» كما سنبيّنه في العنصر اللاحق «التسمية والإحالة في خطاب الشعب» .

في خطب زين العابدين بن علي التي نحن بصدد دراستها تتكرّر عبارات بعينها وهي بالخصوص النداء الذي يفتتح به خطبه «أيها المواطنون ، أيتها المواطنات» والذي يحمل في طيّاته إلى جانب معاني النداء المعروفة شحنة سياسيّة خفيّة يريد من خلالها المتكلّم أن يعبّر عن مساواة الجميع أمام السلطة ؛ فكلّ المواطنين يتعادلون في الحقوق والواجبات ، ولا فرق في المواطنة بين شخص وآخر مهما كانت الطبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها ، ولا مجال بعد ذلك للحديث عن محاباة أو ظلم .

يمكن أن تُقرأ التسمية على هذا النحو من زاوية اجتماعيّة إيديولوجية ؛ فنحن أمام متكلّم في أعلى هرم للسلطة يساوي في خطابه بين المرأة والرجل ويبرز هذا

التساوي بذكره الجنسين عمدا (التأنيث والتذكير) ، كما يمكن أن يكون للترتيب دلالة خاصّة مقصودة أو غير مقصودة . وهو يجد بديلا لعبارة «المواطنين والمواطنات» في مكان آخر صلب خطابه الأول «أيها الشعب» وهو بديل ينتمي مع العبارة الأولى ، كما أسلفنا ، إلى ما استعرنا له اسم «المعجم العام» .

رغم أنها تظهر كبدائل لهدف خطابيّ واحد إلاّ أنها تحتوي على سمات مختلفة ومعقّدة في نفس الوقت ، فالمتكلّم حين انتقل إلى نداء المستمعين من موقعه كرئيس من «أيها المواطنون ، أيتها المواطنات» إلى «أيها الشعب» حقّق نوعا من القرب من مستمعيه ، يضاف إليه وضع الأمور في إطارها ؛ فهو الرئيس والحاكم والمتكلّم باسم القانون والدولة وهم (المستمعون) «الشعب» الذي عليه الانصياع لأوامر ورغبات الحاكم العارف بمصلحة محكوميه أكثر منهم .

المتكلّم في حالة عاديّة/ . المتكلم في حالة صعبة/ . المتكلّم في حالة الشعور بالخطر .

المتكلّم في حالة عاديّة	المتكلم في حالة صعبة	المتكلّم في حالة الشعور بالخطر
⇓	⇓	⇓
أيها المواطنون أيتها المواطنات	أيها الشعب	بناتي أبنائي

يرى المتكلّم أن هذه البدائل فرضها الموقف الذي هو فيه ، وهو لأوّل مرّة يلتجئ في خطبه إلى بديل من نوع «بناتي ، أبنائي» ، وهذا البديل كما أسلفنا له دلالاته النفسيّة والإيديولوجية .

وفي خطابه الثاني (١٠ جانفي ٢٠١١) يقدّم زين العابدين بن علي المتظاهرين في صورة «عصابات ملثمة» يقول : « . . . أحداث عنيفة دامية أحيانا أدت إلى وفاة مدنيين وإصابة عدد من رجال الأمن قامت بها عصابات ملثمة أقدمت على الاعتداء ليلا على مؤسسات عمومية وحتى على مواطنين في منازلهم في عمل إرهابي لا يمكن السكوت عنه» .

هذا التقديم له غايات واضحة جلية وأخرى مضمرة في العبارة ، فالمتظاهرون في رأي السلطة خارجون على القانون ومجرمون يخرّبون البلاد ومصالح الناس . ووصل الأمر بهؤلاء المجرمين حدّ قتل المواطنين الأبرياء «وفاة مدنيين» ، إلى جانب الاعتداء على رجال الأمن وهم رمز سيادة الدولة وتخريب مؤسسات عمومية وهي ملك للشعب .

هؤلاء المجرمون في رأي المتكلم هم عصابات وإجرام العصابات هو أخطر أنواع الإجرام ، والدليل على ذلك أنهم لا يقومون بهذه الأعمال إلا ليلا تحت ستر الظلام ولا يكتفون بذلك بل يضعون لثاما حتى لا يتمكن أحد من التعرّف عليهم ، وهذا ما يُسوّغ دعوة المتكلم إلى عدم السكوت عن مثل هذه الأعمال الإرهابية .

يدعو المتكلم ، بدعوته إلى عدم السكوت عن هذا العمل الإرهابي ، إلى مقاومة هذه العصابات وعدم الاقتداء بها ، وبما أنه أعلى هرم في السلطة ويتحدّث في إطار القانون ، فإن ذلك يعني الإمساك بهؤلاء وتقديمهم إلى العدالة كي يأخذ القانون مجراه .

لكن المضمر في هذه التسمية هو التشريع لاستعمال الرصاص الحي واتباع منطق «العين بالعين والسن بالسن» ، هم تسبّبوا في مقتل مدنيين ولذا وجب قتلهم بالرصاص ، والأحداث أثبتت استعمال الرصاص «الكرتوش الحي» في مقاومة المتظاهرين .

٢-٢ التسمية والإحالة في خطاب الشعب

يحيل جون ريتشاردسون في هذا الصدد على فان دايك ؛ ففي عدد من دراساته طوّر هذا الأخير أداة مفهوميّة سمّاها «المربّع الايديولوجي» (the ideological square) الذي يحدّد الاختيارات من بين الاستراتيجيّات الإحاليّة ، ويرى فان دايك أنّ المربع الإيديولوجي يتّسم بتمثيل إيجابي للذات وبموازاته تمثيل سلبي للغير ، إنها طريقة لإدراك العالم وتمثيله وعلى وجه الخصوص «أفعالنا» و«أفعالهم» ، و«موقعنا» و«موقعهم» ، و«دورنا» و«دورهم» في العالم .

يبيّن المربع الايديولوجي أن الغرباء (كل ما يوجد خارج دائرة الذاتيّة ، ويمكن أن نستعمل لفظة «برّاني» لذلك ، لأنها بحسب اعتقادنا تؤدّي المعنى المقصود) يُمثَّلون بطريقة سلبيّة . والأقربون (الألاّف) يُمثَّلون بطريقة إيجابيّة . يحدث هذا بالتركيز على صفات الغير «الغرباء» السلبيّة ، وأنشطتهم الاجتماعيّة السلبيّة وعدم التركيز على صفاتهم الإيجابيّة ، والعكس صحيح بالنسبة إلى الألاّف . هذا المربّع الايديولوجي نلاحظه من خلال جميع الأبعاد اللسانيّة في النص وسنعود إليه عند دراستنا للضمائر في تحليل خطاب زين العابدين بن علي .

ويسوق ريتشاردسون مثالا على ذلك من جريدة «ذي صان» (the Sun, 2 March,2005) وهو عنوان بهذه الجريدة :

«المهاجر غير الشرعي ، السائق المخمور ، قتل ولدا بدراجة غير مؤمّنة ، فصدر عليه حكم بثمانية أسابيع سجنا» . نلاحظ أن المحرّر في جريدة «ذي صان[1]» رأى أن عبارة السائق المخمور لم تكن كافية لإيصال ملامح شخصيّة المعني وتبيان مدى ضعفه بل كان يجب إضافة (بحسب رأي المحرّر) عبارة أخرى تزيد من ضعف موقف هذا الشخص وتزيد إدانته فاختار «مهاجر غير شرعيّ» ، فهو إلى جانب كونه مهاجرا وليس من أبناء البلد ؛ فوجوده مع المجموعة التي هو فيها وجود غير شرعيّ ، واختيار هذا البديل له دلالته في تحديد نظرة كاتب العنوان للمتكلّم عنه (نبذ الدخيل) .

يمكننا أن نتناول الإحالة والتسمية المستعملتين في الشعارات التي أثبتناها سابقا والتي رُفعت خلال المظاهرات والمسيرات التي انطلقت من سيدي بوزيد وتجاوبت ارتداداتها في كل أنحاء البلاد ، من حيث هي بدائل يعبّر جلّها عن جهتين لا غير هما «نحن» و«هم» إلى جانب «ما يجب أن يُسوّى بين نحن وهم» ، أو بعبارة أخرى ما يفرّق بيننا ويجعلنا في صدام وكذلك القضايا العالقة التي خلقت التوتّر بين الجهتين . ويُوضّح الجدول التالي هذه البدائل :

نحن	هم	ما يجب أن يُسوّى بيننا
أحنا	جلّاد	القضيّة
ضحيّة	إرهابيّون	دماء الشهداء
فقير	حقير	شغل
بطّال	طرابلسي	حريّة
مواطن	حكومة	
أوفياء	تجمّع	كرامة
شعب	الخبزة	
بوزيد		
النضال		
محمد		
المحامي		

(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discours Anallysis, P51-52, Palgrave Macmillan, 2007.

نلاحظ أن كل بديل من هذه البدائل يعبّر عن رأي المتظاهرين ويحمل نظرتهم إلى الآخر (الإرهابي ، الحقير ، الجلاّد . . .) ونظرتهم إلى أنفسهم (الضحايا ، الفقراء . . .) ، ومن خلال هذه الإحالات تتحدّد العلاقة بين الطرفين بوضوح ، فالجلاّد يقابله الضحيّة ، والفقير يقابله الطرابلسي (ومن معاني الطرابلسي هنا الغنى الفاحش) ، وبالتالي تُوضّح هذه الثنائيّات علاقة التأزّم بين الطرفين .

يمكن أن نقارن ذلك بما ورد في بدائل خطاب السلطة حيث اعتبر المتكلّم (بن علي) نفسه رمز العدالة وتطبيق القانون والساهر على مصلحة الشعب (متسامح ، متحضّر ، له مصداقيّة . . .) ، مقابل اعتباره المتظاهرين قلّة من المنحرفين والخارجين عن القانون الذين تجب معاقبتهم لأنهم يمثّلون من منظوره (الشغب ، والعنف ، والتشويش ، والإفساد . . .) .

لمزيد التوضيح تطرح الشعارات مواطن الاختلاف وتحدّد ما يجب أن يُسوّى بين الطرفين المتقابلين ، إذ لا صلح إلاّ بحصول الضحيّة على الإنصاف من جلاّده ، ولا رجوع عن الشارع إلا بتحقّق مطالب الحريّة والكرامة والشغل ، وهو الثالوث الذي يمثّل صلب القضيّة المطروحة .

يمكن أن نعتبر أنّ هذه الاستراتيجيّات الإحاليّة كما سمّاها «ريسيغل و«ووداك» (٢٠٠١) تبلغ ذروتها حين يرى المتظاهرون أنّ الحاكم في حدّ ذاته هو الجلاّد «جلاّد الشعب» ، وحين يصير الرئيس جلاّدا فإنّه يفقد شرعيّة وجوده رئيساً للشعب ، ولذا سُبقت هذه الاستراتيجيّات الإحاليّة بفعل هو نتيجة لاستعمالها وهو فعل «يسقط» . فلو لم يكن جلاّدا لما نادى المتظاهرون بسقوطه .

إنّ كل الاستراتيجيات والإحالات التي اعتمدها المتظاهرون لوصف الحاكم وما يتصل به استراتيجياتٌ سلبيّة تعبّر عن رفضهم له ولحزبه (التجمّع) ولكلّ المؤسسات التابعة له ؛ ويعتبرونها مؤسسات إرهابيّة ليس لها دور في المجتمع غير «القمع والإهانة» والتجويع وتكريس «البطالة والفقر» .

تبيّن الاستراتيجية الإحاليّة في الشعار «تونس شعب لا حكومة» بوضوح موقفِ المتظاهرين من الحكومة ، وتلخّص نظرتهم إلى الوضع في ذلك الوقت وفي كلِّ وقت ؛ فالحكومات في نظرهم زائلة تتداول على السلطة ولا يمكن أن تستمرّ إلا لوقت محدّد بينما الشعب هو الأصل الثابت الذي لا يمكن أن يزول أو يستبدل لمجرّد عدم رضى الحكومة عنه .

إنّ عدم قبول الشعب بأي حكومة يعني قدرته على تغييرها ووضع من هي أقدر منها على إدارة شؤونه ، والعكس غير صحيح ، إذ لا يمكن أن تستبدل الحكومة شعبا لا ترضى عنه بشعب آخر يناسبها .

نلاحظ الإحالة على وزارة الداخلية في الشعار التالي « وزارة الداخليّة إدارة إرهابيّة» بأنها مجرّد إدارة إرهابيّة ، فهي حين تواجه كل احتجاج بالرصاص والموت ، وكل معارضة بالتعذيب والقهر ، فلن تكون سوى إدارة تزرع الإرهاب في المجتمع . والدليل على ذلك أن كثيرا من المعارضين كانوا في سجون وزارة الداخلية في ذلك الوقت .

هذه التسمية لوزارة الداخلية تنفي عنها كل ما يجب أن تكون عليه هذه المؤسسة ، من المفروض أن تكون راعية للشؤون الداخليّة ساهرة على أمن المواطن وكرامته ، ضامنة لحريّة التعبير ، متابعة لكل التحركات السلمية ومؤطرة لها . ولكن حين تصبح إدارة إرهاب فكيف لها أن تكافح ما تسمّيه إرهابا وهي تعني به في ذلك الوقت الاحتجاجات التي يقوم بها المواطنون في سيدي بوزيد وفي بقيّة الولايات الأخرى ضدّ الإرهاب الحقيقي .

يُحيل كل طرف على الطرف الآخر بعبارة «الإرهاب» وهي عبارة تسوّغ لكل طرف التمادي في المقاومة ضدّ الآخر بشتى أنواع الطرق . وقوة هذه التسميات تكمن في تعبئة المستمعين بعد إقناعهم بصدق القضية المطروحة ، تعبئة الشعب ليقف مع الطرف الأقرب إلى مصالحه .

تظهر النظرة السلبيّة للطرف الآخر في خطاب الشعب من خلال الإحالة على أفعاله إحالة خاصة ، من شأنها أن تحثّ المستمع على مواجهته والتصدي لحكمه .» يا مواطن إيجا معانا ضد القمع والإهانة» ، الحاكم أصبح رديف القمع والإهانة وهي مفاهيم لا يقبلها أي شعب حرّ ينشد الديموقراطية والمساواة ، بل لا يقبل أي إنسان أن يعيش في ظلها لأنها تجرّده من إنسانيّته وتجعل منه حيوانا يطيع سيده تحت ضرب السوط دون أن يكون له الحق في التذمر والشكوى أو الاعتراض .

القمع والإهانة صفات سلبية يطلقها المتظاهرون على الحزب الحاكم ومسانديه وهم قلّة بالمقارنة مع شعب كامل يعارض هذا الحكم ، ولذا فكل مواطن (حتى وإن كان يساند الحزب الحاكم) عليه أن يتفطّن إلى حقيقة هذا الأخير وينضمّ إلى المتظاهرين الذين يبرزهم الشعار أصحاب حقّ في الدفاع عن كرامتهم أمام القمع

والإهانة أي أمام الحزب الحاكم .

تحيل التسمية على عدم ضمان الحزب الحاكم حريّةَ التعبير للشعب ومصادرة كل قلم وكل لسان يريد أن يكشف الحقائق ويتحدّث عن الوقائع والجرائم المرتكبة في حق كل من تسوّل له نفسه نقد أعمال هذا الحزب ، إن القمع يساوي التحكم في إرادة الشعوب وإخضاعها إلى شكل من أشكال الديكتاتوريّة التي تغلّب مصالح فئة قليلة على مصالح الأمة بأكملها .

في هذه التسمية كذلك دعوة صريحة إلى رفض الإهانة لأن الحرّ لا يعيش تحت سقف الإهانة ولو كلّفه ذلك حياته ، وهذا فعلا ما وقع حيث استجاب الشبان إلى هذا النداء ونزلوا إلى الشوارع ، وعرّضوا صدورهم إلى الرصاص ومات منهم الكثير في سبيل التخلص من عيش يظلّله القمع وتخيّم عليه الإهانة .

يحيل المتظاهرون على ظلم السلطة الحاكمة وعدوانها من خلال الشعار «يسقط جلاّد الشعب ، يسقط حزب التجمّع» . إن تسمية الرئيس «جلاد الشعب» هو قمّة ظلم هذا الأخير في رأي المتظاهرين وقمّة الرفض له وللعيش تحت حكمه . فكيف يطيع الأعزل جلاده ولا يثور عليه في عصر أصبحت الديموقراطيّة فيه عملة معمولاً بها في كل أصقاع العالم . وما تحمله تسمية «الجلاد» من عدم الرحمة وقسوة القلب لا تحيل فقط على التعذيب الجسدي للمعارضين الذين يدخلون زنزانات الجلاد وأقبية وزارة الداخلية كما يتصوّرها المواطن المتظاهر ، وإنما تحيل على الظلم بجميع أنواعه الذي يتعرّض له الشعب في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية .

تظهر الإحالة السلبيّة على الآخر من خلال الشعار التالي «يا طرابلسي يا حقير خلّي خبزة للفقير» ، ففي هذا الشعار وقعت الإحالة على الآخر بالـ«حقير» ، فلا يكفي ما تحمله لفظة طرابلسي من صفات سيئة بالنسبة للشعب التونسي فهو ناهب ثروات البلاد وظالم ويحلّ الدمار بأي مكان يحلّ به (افتكاك شركات ومؤسسات من أصحابها) والغنى الفاحش على حساب المواطنين (امتلاك رؤوس أموال هائلة في تونس وخارج تونس) ، فهو «حقير» في رأي المتظاهر بكل ما تحمل هذه التسمية من صفات سلبية ، وبكل ما تحيل عليه من تجرّد من الإنسانيّة والتوغل في البهيميّة . وبذلك فالظلم لا يُستغرب منه ، ولا يستغرب منه كذلك كل ما يفعله بالشعب التونسي .

ترتبط لفظة «حقير» في هذا الشعار بالحالة الاقتصادية المزرية التي يعاني منها

الشعب التونسي وخاصة الطبقة الفقيرة التي زادها تجبّر رأس المال لدى «الطرابلسي» فقرا وحاجة ، هذا الرأسمال تضخّم بفعل السطو والتحيّل وخرق القانون .

تقف تسمية «طرابلسي حقير» أمام التسمية المقابلة لها في الجزء الأخير من الشعار وهي «الفقير» ، وبينهما «خبزة» هي من البديهيّات بالنسبة للطرف الأول ومن الأشياء الثمينة التي يتمناها الطرف الثاني ويسعى إلى تحقيقها حتى أن الخبز أصبح من أولويات مطالبه بعد أن كان من الضرورات التي يتمتع بها كل فرد من أفراد الشعب .

تزيد عبارة «حجّامة» التي كثيرا ما يسمي بها الشعب التونسي زوجة الرئيس والحاكمة الفعلية للبلاد في الشعار « يا قضاء فيق ، فيق ، والحجّامة تحكم فيك» تعميقا لاحتقار الطرف الآخر الذي ليس من حقه حكم البلاد وهو يظهر بهذه الصفات . وما يعمّق هذه المقابلة ويبرز غرابتها هو جعل حكم «الحجّامة» أقوى من حكم القضاء ، بل هي التي تتحكم في القضاء ، وما يوحي به هذا من الظلم ومن تجاوز للأعراف المعمول بها .

من المفروض أن القضاء سلطة مستقلّة عن كل التجاذبات السياسية وكل التوجهات الحزبية ، فما بالك بالمصالح الشخصيّة لعائلة لا هدف لها إلا الاستغناء وتكديس الأموال في الداخل والخارج بطرق غير شرعية وبإخضاع القضاء لنزواتها . وتكتسب هذه التسمية «حجّامة» كل سلبيّاتها بوجودها في موقف تحكم في القضاء وهو ما لا يرضاه العاقل ، وما يدعو المتظاهرون إلى رفضه ومقاومته . وبذلك يضمن المتظاهرون الذين يرفعون الشعار تعاطف السامع معهم ورفضه لهذا الواقع المفروض عليهم فرضا ، ونصرته لقضيتهم التي هي قضيته .

التسميات في خطاب الشعب تهدف إلى كشف الطبقة الحاكمة وبيان حقيقتها التي أصبحت لا تخفى على أحد ، وإقناع من يتبع هذه الطبقة ويقدّم لها التسهيلات بالعدول عن ذلك لأن الحقير حسب رأي المتظاهرين لا يستحقّ السير معه في الركب نفسه .

٢-٣ التسمية والإحالة في خطاب الصحافة

تؤدّي الاستراتيجيّة الإحاليّة المختارة وظيفة داخل النص ، فهي لا تُسقط المعنى والقيم الاجتماعيّة على المُحال عليه فحسب ، وإنّما تؤسّس علاقات انسجام مع

الطريقة التي يُمثَّل بها الفاعلون الاجتماعيون الآخرون ويُحال عليهم . ويمكن أن نلاحظ في مقال ورد بجريدة الصباح ليوم ٢٥ ديسمبر ٢٠١٠ كيف قدّم صاحب المقال الشاب الذي أقدم على حرق نفسه ، والطريقة التي مثّله بها .

«الآراء حول ماذا حدث ولماذا؟ اختلفت رغم أنها اجتمعت على أن الوضع الاجتماعي يشكو بطالة ومحدوديّة التنمية ووسائل الترفيه وانعدام الآفاق وهو ما أكّده السيد ش ف (أستاذ تعليم ثانوي) الذي أكّد أنّ الوضع عاد إلى الهدوء بعد حادثة بدأت صغيرة لتكبر تدريجيّا . . شاب مجاز ، عاطل عن العمل ، اختار كسب قوته بعرق جبينه عوض اللجوء إلى أشياء أخرى . . لكن تمّ منعه واستفزازه بل وحتى الاعتداء عليه من قبل عون تراتيب فاختار الحلّ الذي خطر بباله وقتها وحرق نفسه أمام الولاية ليس نتيجة ما جدّ مع عون التراتيب بل نتيجة تصرّفات المسؤولين في الجهة الذين منعوه من التعبير . إن حال ذلك الشاب هو حال العديد من شباب الجهة .»

أحال صاحب المقال على المتحدّث عنه بـ«شاب مجاز ، عاطل عن العمل اختار كسب قوته بعرق جبينه عوض اللجوء إلى أشياء أخرى» . هذه الإحالة تحمل في طياتها تعاطفا مع هذا الشاب وتصوّره ضحيّة للنظام السياسي الذي جعل المجازين يعانون البطالة والفقر ولم يضمن لهم العيش الكريم بتوفير الشغل .

وقع الاختيار هنا على استراتيجية إحالية ثلاثية (شاب ، مجاز ، عاطل) فالتسمية تتضمن دائماً اختيارا . ولذلك نجد الصحافيين يختارون تصنيفا اجتماعيّا دون آخر للحديث عن الناس ، واختيارهم لبديل دون غيره يجعلهم يُدرجون الناس في تصنيف ويقصونهم من تصنيفات أخرى مغايرة(١) .

تترابط الإحالات الثلاثة لتقدّم لنا نموذجا من المجتمع في وضعية غير عادية إذ هو شخص حُرم من حقّه في الشغل وفي العيش الكريم ؛ والإحالة الثانية «مُجاز» تعمّق الإحساس بالإحالة الأخيرة «عاطل» ، فربما لو اعتمد كاتب المقال على «شاب ، عاطل» لكان وقعها «أخف» على المتلقي ، إذ إنّ العاطلين من فئة الشباب كثيرون ، ولكن هذا شاب «مُجاز» ومع ذلك فهو عاطل ، وللقارئ أن يتصوّر ما عانى هذا الشاب وأسرته في سبيل حصوله على الإجازة ، خاصّة إذا كان أصيل المناطق البعيدة عن

(1) op.cit, P46.

المؤسّسات الجامعيّة وهو مجبَر على التنقل والكراء وما إلى ذلك من المصاريف التي تثقل كاهل الأسر الفقيرة في تلك الجهات . وكل أمل هذه العائلات هو ضمان شغل قار لأبنائهم يقيهم ما عاشوه هم من خصاصة . إنّ كاتب المقال يعي جيدا أنه سيحرّك في نفس المتلقي هذه الأشياء وما شابهها ، فهو يرمي إلى إثارة الجانب النفسي لدى القارئ .

هذا خلافا لما جاء في المقال الذي ورد في نفس الصحيفة يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ ، حيث أحالت الصحيفة على المُتحدّث عنه وهو نفس الشخص بـ«بائع متجوّل» : «يتعلّق الأمر بقيام مصالح التراتيب البلديّة بسيدي بوزيد في نطاق عمليّات مراقبتها العاديّة بلفت انتباه بائع متجوّل إلى أنّه يمارس نشاطه التجاري في مكان غير مرخّص فيه» .

هنا تظهر أهمية التسمية والإحالة في تقديم الشخص وفي توجيه الرأي العام وجهة معينة بالنسبة إليه ، وبالتالي تغيير الموقف من كل الحدث المتعلق به ، فبالنسبة «للبائع المتجول» (وهو الشخص نفسه الذي أحالت عليه الصحيفة يوم ٢٥ ديسمبر بـــ«شاب مجاز ، عاطل عن العمل») نلاحظ أن الصحيفة (١٧ديسمبر٢٠١٠) قدّمته على أساس أنه مخالف للقانون ، وسيتكوّن للقارئ موقف معيّن فيه بعض التعاطف مع الحدث في حدّ ذاته (حرق النفس) كأي حادث نقرأ عنه يوميا في صفحات الجرائد المخصّصة للأحداث .

هذه الإحالة «بائع متجوّل» تضع الحدث في سياق يخدم مصلحة المتكلّم وهو «المصدر المسؤول» (أي السلطة) لأنها تبرّئها مما قد يتبادر إلى الذهن من أي مسؤوليّة في هذا الحادث ، فالمسؤوليّة تعود للبائع وحده الذي يصرّ على مخالفة التراتيب البلدية ، ولمّا يجد أمامه أعوانا ملتزمين بتطبيق هذه التراتيب يحمله «تهوّره» إلى حرق نفسه في لحظة غضب وتمرّد .

تحيل هذه التسمية كذلك على المكانة الاجتماعيّة والثقافيّة للشاب فهو بائع متجوّل يعيش على مردود سلع بسيطة تحويها عربته المجرورة ، وهو من هؤلاء الشباب الذين يعيشون على هامش المجتمع . ومن خلال تبنّي رأي السلطة تسعى الصحيفة إلى ترسيخ هذا الرأي لدى القرّاء ، ومحاولة إبعادهم عن كل تأويل من التأويلات التي وردت عن «بعض الأطراف» التي تسعى لاستغلال حادثة عادية ، يقع مثلها كل يوم ، «لأغراض سياسية غير شريفة» .

أما الحادثة في حدّ ذاتها فقد وقعت الإحالة عليها في نفس الصحيفة (الصباح) من منظارين مختلفين وذلك بحسب تطور الأحداث . نجد في الأعداد التي صدرت من يوم ١٧ ديسمبر إلى يوم ٢٦ ديسمبر حديثا عن حادثة شخصية ، وحادثة معزولة ، وحادثة سيدي بوزيد . أما بداية من يوم ٢٧ ديسمبر ٢٠١٠ فالإحالة بدأت تختلف وأصبحت الصحيفة تتحدث عن «أزمة» (الصباح ٢٧ /١٢/٢٠١٠) .

انطلق المنظار الأول في صياغته للاستراتيجيّة الإحاليّة من موالاة لموقف السلطة الذي جاء على لسان «مصدر رسمي» لم تحدّد الصحيفة هويّته ، بل اكتفت بصفته الرسميّة التي تسدّ الأفق أمام المتلقي ليتساءل عن هويّة هذا المصدر ، وتشبع صفة «رسمي» تعطش القارئ لمعرفة الحقيقة ، ويطمئن حين يعلم أنها «حادثة شخصيّة» يمكن تصنيفها ضمن الصفحات الاجتماعيّة ونسيانها مباشرة بعد قراءتها لأن مثلها يتكرّر كثيرا .

الحوادث الشخصية لا تهمّ غير أصحابها أو المقرّبين منهم ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الإحالة «حادثة معزولة» ، أي أن هذه الحادثة لا علاقة لها بما تروّجه بعض وسائل الإعلام من أنها نتيجة سياسة قمعية ظالمة للسلطة الحاكمة ، وبالتالي نفي كل ما جاء على لسان هذه «الأطراف» التي تحاول استغلال هذه الحادثة المعزولة «لأغراض سياسية غير شريفة» .

تتطور الإحالة مع تطور الأحداث فتصبح «حادثة سيدي بوزيد» وتتساءل نفس الصحيفة (يوم ٢٥ ديسمبر ٢٠١٠) «سيدي بوزيد ، ماذا حدث؟ كيف حدث؟ ولماذا حدث؟» ، وتمكّن هذه الاستراتيجيّة الإحالية من إعطاء بعد جديد لما وقع ، إنه بعد جهوي ، يتعلّق بمدينة سيدي بوزيد ، حتى وإن تعلّق بالسلطة فهو لن يتجاوز السلط المحليّة في المدينة ، وذلك بالربط بين الحادثة وسيدي بوزيد فهي «حادثة سيدي بوزيد» لا تتجاوز هذه المنطقة ؛ وما توحي به هذه الإحالة هو أن الأمر سيعالج في نطاق جهوي لا يتعدّاه إلى غيره في سلّم السلطة .

أما الاستراتيجيّة الثانية فقد أحالت على الحادثة بكونها «أزمة» : وأصبحت الصحيفة تتحدث عن «أزمة» وذلك في مقال بعنوان :

«ممثّلو المجتمع المدني والأحزاب يحلّلون «الأزمة» « (الصباح ٢٧ /١٢/٢٠١٠) .

وُضع لفظ الأزمة بين ظفرين ، وهذه الإحالة تحمل تردّدا في تسمية ما وقع ، فهل هو أزمة حقيقيّة ، أم أزمة مفتعلة؟ فإلى ذلك الوقت ما زالت السلطة لم تتفطن إلى

خطورة الوضع في كامل البلاد ، وأكثر ما يمكن أن تراه هو أزمة جهويّة سببها البطالة المتفشية في مدينة سيدي بوزيد ، ولذلك أتبع كاتب المقال العنوان الرئيسي بعنوان فرعي :

«قبول ١٣٠٠ مطلب شغل لحاملي الشهادات العليا في المعتمديات» .

وهو ما اعتبرته الجريدة (متبنّية رأي السلطة) حلاً لما سمّته «أزمة» بين ظفرين ، لأنها ربّما لم تكن تعي أن ذلك قد يصل إلى أزمة حقيقيّة ، ويكفي توفير بعض مواطن الشغل لحاملي الشهادات العليا حتى تعود الأمور إلى سالف عهدها .

هذا ما ذهب إليه المصدر المسؤول في المقال الذي ذكرناه سابقا حين نقل كاتب المقال عن هذا المصدر المسؤول ما يلي «ويضيف نفس المصدر قوله : 'إنّنا بقدر ما نأسف لهذه الحادثة المؤلمة ، نستغرب (. . .) التشكيك في مقوّمات التنمية بالجهة ، التي عرفت كبقيّة جهات البلاد جهودا تنمويّة غطّت سائر القطاعات باستثمارات بلغت بولاية سيدي بوزيد منذ التحوّل٢٣٥٠ مليون دينار وأسهمت في التخفيض من نسبة البطالة والتحكم فيها بما لا يتجاوز المعدّل الوطني بما في ذلك أصحاب الشهادات العليا' .»

هذا يفسّر وعي السلطة بأصل المشكل ولكنها تتمادى في مزاعمها بأنها لم تهمل هذه الجهة وأنها اهتمّت بالتنمية فيها مثلما تهتم بذلك في الجهات ، وهذا الالتجاء إلى عرض المقادير الماليّة التي خصّصتها السلطة لسيدي بوزيد والتشديد عليه في الصحيفة المذكورة اعترافٌ ضمني من السلطة بسلوكها نهج التفاوت بين الجهات وحرمان الجهات الداخليّة من حقّها في التنمية ، والتأكيد يؤدي في بعض الأحيان إلى فهم العكس منه ، فلماذا ربط المصدر المسؤول بين ما وقع وبين اهتمام السلطة بسيدي بوزيد لولا الإحساس بأن هذه الجهات تفتقر إلى كل موارد التنمية ويعاني متساكنوها الفقر والبطالة .

ورد في جريدة «القدس العربي» عدد ٦٧٢١ والصادرة بتاريخ ٢١ جانفي ٢٠١١ ، مقال في الصفحة الأولى ، تفاصيله في الصفحتين ٦ و٧ ، بعنوان «استمرار الغضب الشعبي . .وحداد وطني ثلاثة أيام على ضحايا الثورة» .

هذا العنوان الذي اعتمد استراتيجيّة إحاليّة مغايرة تماما لأغلب ما وقع اعتماده قبل رحيل بن علي لوصف أعمال المتظاهرين ، وصفت في عدة وسائل إعلام وطنية بأعمال شغب وتخريب هدفها النيل من السلطة ومن استقرار وأمن البلاد ، وبعد

رحيل بن علي (بداية من يوم ١٤ جانفي ٢٠١١) أصبحت التسميات مختلفة ، فهي مظاهرات شعبية واحتجاجات على الظلم وها هي في صحيفة القدس العربي «غضب شعبي» .

لا يمكن أن يأتي الغضب الشعبي دون سبب ، ولذلك تحيل هذه التسمية على سبب هذا الغضب وعلى معاناة الشعب التونسي في ظل نظام زين العابدين بن علي وأصهاره ، وما قاساه الشعب التونسي من قمع وقهر وبطالة . هذا الغضب الشعبي الذي أدى إلى فقدان شهداء ضحوا بأرواحهم في سبيل قول «لا» للسلطة الحاكمة وفي سبيل الصدع بكلمة «ديقاج» لأكبر قوة في البلاد أمسكت السلطة بيد من حديد طيلة ثلاثة وعشرين سنة .

هذا العنوان اعتراف من الصحيفة بمشروعية ما بدأه المتظاهرون في سيدي بوزيد وانتشر كرقعة زيت في كل جهات البلاد للمناداة بالحق في «الكرامة الوطنية» والحق في «الخبز» .

يبدأ الصحفي نفس المقال بما يلي «أُعلن في تونس أمس الخميس أن الدولة ستستعيد 'الممتلكات المنقولة وغير المنقولة للتجمع الديموقراطي' حزب الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي» . نلاحظ أن استعمال التسمية «المخلوع» بعد «الرئيس» لها دلالة عميقة في الإحالة على واقع الحال ، حيث تبيّن كيفية خروج بن علي من الحكم ، فهو لم يترك الحكم طوعا وإنما وقع خلعه بما تحمله هذه الكلمة من إحالة على معجم القضاء الأسري حيث يسمى طلاق المرأة للرجل دون موافقته خلعا . كما أن هذه الكلمة تعود إلى تصرف يُتخذ ضدّ كل من يسيء استخدام سلطاته ويستغل نفوذه لتحقيق مآربه الشخصية . تؤكد هذه الاستراتيجية الإحاليّة قوّة إرادة الشعب وتمكّنه من التغلب على أقوى ديكتاتورية حكمت تونس .

ورد بنفس الجريدة في العدد٦٧١٧ بتاريخ ١٧ جانفي ٢٠١١ عمود بعنوان «لا أصدقاء للرئيس المخلوع» ، وأصبحت هذه التسمية لا تكاد تفارق الحديث عن زين العابدين بن علي بل إن أكثر الناس يقولون «المخلوع» فقط للإحالة عليه . ونجد كذلك في جريدة «الشرق الأوسط» الصادرة يوم ٢٢ جانفي ٢٠١١ إحالة على بن علي بنفس الطريقة تقريبا «الرئيس المخلوع المطاح به» .

تحيل جريدة «القدس العربي» في عددها ٦٧١٨ الصادر يوم ١٨ جانفي ٢٠١١ على ليلى بن علي (في سياق الحديث عن «تهريب ليلى بن علي ١,٥ طن من

الذهب») بعبارات مثل «عائلة بن علي» و«ليلى زوجة الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي» و«ليلى بن علي» وقـرينة بن علي» و«ليلى الطرابلسي بن علي» . وهذه الإحالات تهدف أحيانا إلى التذكير بانتماء هذه الأخيرة إلى الديكتاتور وحكمه الظالم وأحيانا أخرى إلى عائلة نهبت الثروات الاقتصادية للبلاد وكنوزها التاريخية .

أما في ختام المقال فقد وردت جملة ينسبها صاحب المقال إلى مصدر رسمي في البنك المركزي وهي عبارة عن نفي هذا الأخير الخبر برمّته «وقال مصدر رسمي في البنك 'إن احتياطي الذهب لدى البنك المركزي التونسي لم يلمس في الأيام الأخيرة' وأضاف . . .وبلادنا لديها قواعد صارمة في هذا المجال ، مؤكدا أن حاكم البنك المركزي لم يستقبل في الأيام الأخيرة لا ليلى (الطرابلسي) ولا بن علي» ، وكأن ليلى الطرابلسي ليست هي ليلى بن علي لفرط ما يبدر منها من أعمال كحاكمة للبلاد مع زوجها بن علي وكناهبة لاقتصاد البلاد كواحدة من أسرة الطرابلسي .

تحيل جريدة «لابراس» الصادرة يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ على من شملتهم الإعانات التي منحها رئيس الجمهورية إثر موجة البرد التي اجتاحت شمال البلاد التونسية وخاصة الشمال الغربي (تالة والكاف وطبرقة وعين دراهم) باستعمال عبارة «عائلات معوزة متضررة من موجة البرد» .

هذه الاستراتيجية الإحالية التي تتمثل في اختيار مفردات بعينها لتسمية المتضررين من موجة البرد تهدف إلى بيان عناية الرئيس زين العابدين بن علي بالأسرة التونسية في كل أنحاء البلاد ، وخاصّة في موسم البرد وهي عائلات تحتاج منه هذا العون لأنها عائلات معوزة ولا تقدر على مجابهة البرد وهي لا تملك أغطية وأدوات تدفئة لازمة لمثل هذه الظروف .

كان يمكن فقط الحديث عن الإعانات التي قدّمتها السلط أثناء موجة البرد إلى «المواطنين» أو «المتضررين» ولكن الإصرار على أن من شملتهم الإعانات هم «عائلات معوزة متضررة» له دلالات خاصة ويدخل في باب الإشهار السياسي للحزب الحاكم

لا يخفى تزامُن هذا المقال في جريدة «لابراس» مع تململ الشعب التونسي من الوضع الاقتصادي والاجتماعي السائد كان مقصودا محاولة من السلطة امتصاص الغضب وبيان عنايتها بكل فئات الشعب . لأن حرق البوعزيزي نفسه في هذا اليوم

بالذات لم يأت من فراغ وإنما هو الشرارة التي أضرمت النار في كوم تبن كان يكبر شيئا فشيئا بتفشي الظلم والاستبداد في البلاد .

نقرأ في جريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ **٢٢** جانفي **٢٠١١** إحالة أولى على المنتمين إلى نظام بن علي (بعد سقوطه) وقد وردت على لسان الناطق الرسمي باسم حركة النهضة والذي لم يتولّ بعد رئاسة الحكومة كالتالي : «أما حمادي الجبالي الناطق الرسمي باسم حركة النهضة فاعتبر أن العفو التشريعي العام سيشمل كل سجناء الرأي من دون استثناء وحذّر مما سماه **'**ألاعيب فلول النظام السابق**'**» .

هذه الإحالة تتمثل في وصفهم بـ «فلول النظام السابق» وعبارة فلول وقع انتقاؤها عمدا من المعجم العسكري ، وتُطلق عادة على ما يتبقى من الجيش بعد الهزيمة ويكون شتاتا متفرقا ، لا لواء ينضوي تحت لواءٍ يقوده ويوجهه . وهذه التسمية لها دلالات احتقار وحطّ من قيمة التابعين لنظام بن علي ولكن ما سيأتي بعدها ينبّه إلى الخطر الذي يمكن أن يحصل والذي تمثله هذه الفلول ، ولأنها لن تقدر على المواجهة فستبحث عن طرق أخرى إلى الرجوع إلى الحكم أو حتى لإيذاء أعدائها وهو ما وصفه المتكلم بـ «ألاعيب»

وردت في جريدة الشرق الأوسط **٢٥** جانفي **٢٠١١** إحالة على بعض قيادات نظام زين العابدين بن علي كالتالي : «تواصلت حركة الاحتجاج التي لم تشهد انحسارا بل تعزّزت في نهاية الأسبوع بتعبئة مختلف فئات الشعب التونسي من يسار ونقابيّين وإسلاميّين ومواطنين عاديّين ضدّ رموز من نظام الرئيس المخلوع في الحكومة» نلاحظ أنهم قُدّموا على أساس أنهم «رموز» أي أنهم يختزلون كل صفات النظام الذي يمثّلونه (وهي أساسا صفات سلبيّة) ، وحضورهم يعني حضور نظام بن علي بكل جوانبه ووجوهه ولذا تمّت مقاومتهم ورفضهم من «مختلف فئات الشعب التونسي» وهذا دليل على الاتفاق على نبذ هؤلاء «الرموز» .

خلاصات

- تؤدّي الاستراتيجيّة الإحاليّة المختارة وظيفة داخل النص ، فهي لا تُسقط المعنى والقيم الاجتماعيّة فحسب على المحال عليه ، وإنّما تؤسّس علاقات انسجام مع الطريقة التي يُمثَّل بها الفاعلون الاجتماعيون ويُحال على الآخرين .
- إن الاستراتيجيّة الإحاليّة المستعملة في هذه النصوص التي اخترناها (خطاب السلطة وخطاب الشعب وخطاب الصحافة الموازي لهذين الخطابين) مرآة لآراء من يستعملها .
- تعكس الاستراتيجيّة الإحاليّة تقييم واضع الخطاب للأحداث وفهمه لها ، وتبيّن موقفه مما يقع وتحمل بعدا إيديولوجيّا معينا ، أكثر منها مجرد إحالات على أحداث أو أشخاص بعينهم .

الفصل الثالث:
الحمليّة(١) والضمائر

تمهيد

تحتفظ الاستراتيجيّات المرجعيّة ببصمة أحكام القيمة ، واختيارُ الكلمات المستعملة في الخطاب السياسي أو في خطاب الصحافة هدفه تمثيل القيم والمميّزات التي تسم الفاعلين ، ويسمّي «رايسغل» و«وداك» هذه الأوصاف «الاستراتيجيّات الحمليّة للنصوص» ، والتمشّي المتبع في ذلك «النتيجة الأساسيّة لإسناد الصفات لسانيّا (لغويّا) للأشخاص والحيوانات والأشياء والأحداث والأعمال والظواهر الاجتماعيّة (٢)» .

يضيف راسيغل وَوُوداك مفسريْن ذلك بقولهما : «يخصَّص الأشخاص ويميَّزون بحسب الكمّ والجودة والفضاء والزمان ، وقس على هذا (. . .) . وتتحقّق الاستراتيجيّات الحمليّة أساسا – من بين أمور أخرى– بواسطة أشكال مخصّصة من الإحالة (قائمة على الإشارة الواضحة وكذلك على الإيحاء الضمني بهذا القدر أو ذاك) وبواسطة الصفات في شكل نعوت وبدائل [جمع بدل] ، وأشباه جمل ، وجمل الصلات ، وبواسطة المحمولات أو الأسماء الحمليّة ، والصفات ، والضمائر الحمليّة ، وبواسطة المتلازمات ، أو المقارنات ، والتشبيهات ، والاستعارات الصريحة ، وأساليب بلاغيّة أخرى (. . .) ، وبواسطة التوريات والتداعيّات الضمنيّة ، والاقتضاءات والاستلزامات .(٣) »

---

(١) الحمل في المنطق هو ما يكافئ الإسناد في النحو ، وبمقتضى ذلك يناظر المسندُ إليه الموضوعَ ويناظر المسندُ المحمولَ . والحملية هي ترجمة للعبارة الفرنسية prédication .

(2) Martin Reisigl and Ruth Wodak, Discourse and Discrimination, Rhetorics of Racism and Antisemitism, Routledge, P54, London and New York, 2001.

(3) Op cit.

وسنحاول دراسة الاستراتيجيّات الحمليّة في خطاب السلطة وفي خطاب الشعب وفي خطاب الصحافة الموازي للخطابين الأوّلين ، لتبيّن دور هذه الاستراتيجيّات الحمليّة في توجيه تأويل الخطاب وفهمه من قِبل المتلقي .

٣-١ الحمليّة والضمائر في خطاب السلطة

سنرتكز على أعمال جون ريتشاردسون وآلان بيل وبالتحديد على أمثلة بيّنا فيها كيفية اشتغال هذه الاستراتيجيات من أجل تفسير اشتغال الاستراتيجيات الحملية في الخطاب ، وبعد ذلك نطبّق على خطاب السلطة .

يسوق جون ريتشاردسون مثالا على الاستراتيجيات الحملية من جريدة «ذي صان» ليوم ٢٥ فيفري ٢٠٠٥ وهو عبارة عن مقال يرى أنه جدّي رغم أنّه هامشي في الجريدة وهو يتحدّث عن الممثّلة المشهورة «ناتالي بورتمان» التي انتُقدت من قبل اليهود بسبب تصويرها مشهداً يتضمن قُبْلة بقرب الجدار الغربي في القدس (حائط المبكى) : توصف «ناتالي « بطريقتين متكاملتين كالتالي :

«ذات الجلد النّاعم»

«الممثلة في حرب النجوم ، إسرائيليّة المولد»

نلاحظ أن الوصف الأوّل حمْلٌ جسديّ نمطيّ في الطريقة التي تصف بها الصحف الشعبيّة النساء ، أمّا الوصف الثاني فأهم من الأوّل ، وفيه تعني الجريدة ضمنيّا أنّ ناتالي يهوديّة ، ومن ثمّة فهي واعية بالحساسيّات الدينيّة لليهود .

و تُقوّض هذه الاستراتيجيّة الإحاليّة الضمنيّة الموقف البلاغي لمن يذمّون الممثّلة أو تضعفه . وتُستخدم الحمليّة لانتقاد فاعلين اجتماعيين معنيين وإضعافهم وذمّهم ، و تكون لهذه الحمليّة نتائج وخيمة أحيانا ، وذلك مثلما حصل عندما تحدثت الجرائد عن «ماكسين كار» (Maxine Car) ، وهي امرأة أُدينت بتضليل العدالة ؛ فقد قدّمت لفائدة العدالة بيّنة كاذبة حول عشيقها (عشيقها «يان هونتلي» Yan Huntley)

وُصفت «ماكسين كار» كما يلي (كل الأمثلة تعود ليوم ٢٥ فيفري ٢٠٠٥) :

- «ماكسين كار» كذابة بلدة «سوهان» .
- «ماكسين كار» الخطيبة السابقة لقاتل الأطفال «إيان هنتلي» .
- الخليلة السابقة لقاتل «سوهان» .
- الخليلة السابقة لــ«إيان هنتلي» قتّال بلدة «سوهان» .

الأمر الأوّل اللافت للنظر في هذه الاستراتيجيّات الحمليّة أنها تتشابه وتركّز جميعها على صفة «الخليلة السابقة» ، وهذه الصفة هي التي تُسوّغ للصحافة وصف شهادتها بشهادة الزور ، ووصفها بـ«كذّابة بلدة سوهان» . كما أن هذه الاستراتيجيات الحمليّة تفتقر إلى التعريف «Soham liar» بدل «the Soham liar» وهذا ما يطلق عليه آلان بيل (Bell)[1] «حـذف المحـدّد» ، وهذا أسلوب تركـيـبي نموذجي في الجـرائد الشعبيّة البريطانيّة التي تتميّز بالإثارة .

كما يرى آلان بيل أنّ إسقاط «الـ« الدالة على التعريف على هذا النحو «يمنح المركّب الاسمي الواصف شيئا لم يكن يتوفّر عليه سابقا وهو العنْونة ، وبهذا ينتقل من صنف الأسماء العاديّة المعدودة ليتّخذ وضعا قريبا من العناوين مثلا 'الرئيس بوش' أو 'اللورد لوكان' « . ما يميّز المثال السابق هو أن جميع العناوين عناوينُ سلبيّة .

الأمر الثاني الذي يمكن أن توحي به عبارة «الخليلة السابقة» في الأمثلة الثلاثة الأخيرة هو أن «ماكسين كار» لم توصف بما يخصّها بل قُدّمت للقارئ كمفعول لبنية تملكيّة ، باعتبارها عشيقة سابقة للفاعل . بالنسبة إلى صحيفة «الدايلي مايل» اكتفت بوصف القاتل بأنه «قاتل بلدة سوهام» بينما رأت جريدة «ذي صان» أن من الضروري إضافة الاسم الشخصي «إيان هنتلي» .

وبذلك وُظِّفت هذه الاستراتيجية الحمليّة السلبية لخدمة الموقف بأكمله أو الخط التحريري لهذه الجرائد وتبيان موقفها من « ماكسين كار» ، فهي لا تستحقّ أن يُذكر اسمها ولا تستحقّ الحماية القانونيّة .

وتظهر الاستراتيجية الحمليّة في خطب زين العابدين بن علي الممثّل لأعلى هرم في السلطة جليّة من خلال عديد الأمثلة ، فهو يسم الفاعلين في الأحداث التي وقعت في الفترة التي حدّدناها للدراسة بعبارات حمليّة ضمّنها موقفه من هؤلاء الأشخاص ، ويمكن أن نأخذ أمثلة على ذلك :

وُصف الفاعلون في الخطاب الأوّل بـ :

- «بعض الأطراف الذين لا يريدون الخير لبلادهم» .
- «أقليّة من المتطرّفين والمحرّضين والمأجورين» .

---

(1) Bell Roger ; Translation and translating, Theory and Practice, P196, General Editor, C.N Candlin , 1991.

ووُصفوا في الخطاب الثاني بـ :

- «عصابات ملثّمة» .
- «أياد لم تتورّع عن توريط أبنائنا» .
- «قلّة من المناوئين» .
- «مناوئون مأجورون» .
- «أطراف لا تكنّ الخير لتونس» .
- «الأطراف الحاقدة» .
- «المشاغبون المفسدون» .

أما في الخطاب الثالث فيصفهم المتكلّم بـ :

- «مجموعات سطو ونهب» .
- «هذه العصابات» .
- «هذه المجموعات من المنحرفين» .

إن الاستراتيجيّات الحمليّة في هذه الأوصاف تكرّس نظرة سلبيّة من قبل السلطة للفاعلين وتنقل إلى المتقبّلين انطباعا سيئا عنهم فهم «مشاغبون ، مفسدون ، مأجورون ، عصابات ، منحرفون» ، حتى لكأنّ المتكلّم يستنفد كل الاستراتيجيّات الحمليّة التي يرى أنها يمكن أن تبلّغ أكثر عن مدى سوء هؤلاء ، وهم بذلك يستحقّون الرفض من المجتمع ويجب مقاومتهم من قبل كلّ الأطراف الاجتماعيّة والأطياف السياسيّة .

كل وصف حمليّ مدعاة لكره من اتصف به والعمل على تقديمه للعقاب ، أو حتى مساعدة الدولة على الإمساك به ومحاكمته . ومن خلالها (الاستراتيجيّات الحمليّة) يتّضح مدى إدراك المتكلّم لما يجري من وقائع ، فهو يعتقد أن ما يقع ما هو إلا نتيجة لأعمال عنف تقوم بها عصابات إجراميّة هدفها السرقة والسلب وليس لها أي هدف سياسي أو اجتماعي .

من خلال ذلك يريد أن يؤكّد للسامع أن حكومته مازالت تحظى بالقبول والحب من الشعب ولا يمكن لأي كان أن يرفض سياسته ؛ إلا أنه في الخطاب الثاني - بعد تطوّر الأحداث ومنحى التصعيد الذي بدأ يتّضح يشير إلى أنهم «أطراف لا تُكنّ الخير لتونس» وبالتالي فهم من خارج الوطن أو بإيعاز من أطراف من خارج الوطن .

يُوظف المتكلّم عنصرا هامّا في وصفه وهو استراتيجيّة حمليّة يستعملها في كلّ خطاب ليسم بها الفاعلين في الأحداث ، وهي معبّرة عن الاحتقار وفقدان الأهميّة

«بعض ، أقليّة ، قلّة ، أطراف ، مجموعات» وهذا للتقليل من شأنهم ولطمأنة الشعب وإبلاغه أنّ ما يحدث ما هو إلاّ فعل أقليّة نَكِرة لا أهميّة لها وبالتالي فستتمكّن الدولة من السيطرة عليها دون عناء يُذكر وستعود الأمور إلى طبيعتها .

ويمكن أن تكون هذه قناعته فعلا لأنه طيلة ثلاثة وعشرين عاما لم يثر ضدّه الشعب ولم يرفض سياسته يوما إلا بعض المعارضين السياسيّين الذين تفنّن في تعذيبهم والتنكيل بهم فاستتبّ له الأمن وظنّ أن لا أحد يقدر على قول «لا» في وجه سلطته وبأسه .

كما يمكن تأويل التقليل من شأن الفاعلين ، وبالتالي من شأن الأحداث نفسها ، استراتيجيّة حملية سياسيّة لمخاطبة الشعب وتهدئته رغم إدراك المتكلّم خطورةَ الوضع .

يسِم زين العابدين بن علي في خطابه الثاني الشعارات المرفوعة من قبل المتظاهرين بأنها «شعارات اليأس الكاذبة» . تضمّ هذه الاستراتيجيّة الحملية مستويين لوصف الشعارات فهي في مستوى أول تتطلّب مضافا إليه «اليأس» ، حيث تتصل هذه الشعارات اتصال إضافة باليأس ، فاليأس منها وهي منه بما يكون للمضاف على المضاف إليه من اتصال وترابط .

أما المستوى الثاني فيتمثّل في النعت المخصّص لهذه الشعارات فهي شعارات اليأس «الكاذبة» ، أي أنّ المتكلم لم يكتف بمستوى الإضافة في استراتيجيّته الحمليّة بل تعدّاه إلى مستوى ثان هو مستوى النعت وذلك لزيادة توضيح رأيه في هذه الشعارات التي – بحسب رأيه– لا تتوفر فيها شروط الصحّة ومن ثمّ فكذب محتواها يستدعي تكذيبها وعدم الثقة في قائلها .

من خلال الاستراتيجيّة الحمليّة التالية «شعب متعلم يثابر من أجل الرقي ومزيد التقدم» التي وردت في الخطاب الأول ، يصف زين العابدين بن علي الشعب بأوصاف إيجابيّة ويسبغ عليه قيماً محبذة وهي مدعاة إلى احترام هذا الشعب الذي يحاول أن يجد طريقه في العالم بين الدول السائرة في طريق النمو ، وبالتالي عدم الإنصات لمن يريد تشويه سمعته ودفع كيد الكائدين الحاقدين على النجاحات التي حقّقها هذا الشعب بفضل سعيه للعلم وتشبّثه بسبل الرقي وذلك في رأي المتكلم الساعي لإقناع المستمع بالاستسلام لهذا الواقع الذي يراه مزهرا ويطلب من المستمع أن يراه على النحو نفسه .

إن وسم زين العابدين بن علي للشعب التونسي بالمتحضّر والمتسامح من خلال استراتيجية حملية تعود على الفرد التونسي وذلك بقوله في الخطاب الذي ألقاه يوم ١٣ جانفي ٢٠١١ (آخر خطاب قبل مغادرته البلاد) «التونسي المتحضّر، التونسي المتسامح»، هذه الاستراتيجيّة الحمليّة المتمثّلة في نعتين «المتحضر والمتسامح» هي اختيار واع من المتكلم يهدف إلى تحريك النخوة في الفرد وبالتالي في المجموعة.

تقود هذه الاستراتيجية المتلقي إلى السعي إلى عدم تخييب ظنّ المتكلم فيه، وهذا يضمن حرصه على التحلّي بصفات الإنسان المتحضر فلا يثور ولا يحتجّ في الشارع ولا يرفع الشعارات المناهضة للسلطة، ويفرض عليه كونُه متسامحاً أن يعطي فرصة لهذه السلطة كي تصلح ما أفسدته طيلة عقود دون أن يكون الرئيس على علم بذلك لأنهم «غلطوه» فهو بالتالي مثله مثل الشعب كانا معاً ضحية «التغليط».

٣-٢ الحمليّة والضمائر في خطاب الشعب

تتنوّع الأساليب البلاغية التي تهدف إلى تحقيق استراتيجيات حملية في خطاب الشعب وتحديدا في الشعارات المرفوعة التي نجدها أحيانا باللغة العربية الفصحى وأحيانا أخرى بالعاميّة التونسية أو بلغات أجنبية (فرنسية وانقليزية). وتشمل هذه الاستراتيجيات وصف حالة الشعب ووصف السلطة والتعبير عن المطالب بصفة عامّة.

في الشعار « تونس حرّة، والتجمّع على برّه» -الذي وقع رفعه يوم ١٤ جانفي- الجزء الأول من هذا الشعار جملة اسمية خبرها ينعت المبتدأ ويصفه، فتونس بلاد حرّة ولها ما لكلّ بلاد حرّة من حقوق العيش الكريم لشعبها وتمتّعه بكل حقوقه الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة؛ وأوّل هذه الحقوق الحقّ في الشغل والتنمية العادلة. هذه الحريّة تنسحب على كل المجالات الحياتية ومنها حريّة التعبير التي ظلّت مقموعة طيلة ثلاثة وعشرين سنة وهي مدة حكم الرئيس زين العابدين بن علي.

أما الحزب الحاكم وهو«التجمع الدستوري الديموقراطي» فهو مدعو إلى أن يكون «على برّة» وهي عبارة من الدارجة التونسيّة تعني الرفض وطلب الرحيل لمن هو غير مرغوب فيه، وخاصّة إذا كان الرفض من شعب لحاكمه الذي فقد شرعيّة حكمه بمجرّد رفض شعبه له، فإما الرحيل وإما تحمّل المسؤوليّة أمام من كان «جلاّدهم» وقد

استفاقوا واسترجعوا حريّتهم المفقودة .

يقدّم المتظاهرون أنفسهم على طرف نقيض من تقديمهم للسلطة ، وذلك من خلال الشعار «أوفياء ، أوفياء لدماء الشهداء» . وقع حذف الضمير في هذا الشعار «نحن» والذي يمثل المبتدأ في الجملتين اللتين تكوّنان جزأيه «نحن أوفياء ، نحن أوفياء لدماء الشهداء» ، لأن المهم في الجملتين هو سمة الوفاء التي يتحلّى بها المتكلّم الذي يرفع الشعار والذي يردّده (تردّد هذا الشعار في أغلب مناطق الجمهوريّة التونسيّة بعد سقوط شهداء أثناء المظاهرات) .

هذا يستلزم من المتلقي أن يفهم أن المتظاهرين لن يستسلموا لتهديداته بـ«عدم السكوت» وبأن «القانون سيأخذ مجراه» ، وذلك وفاء منهم لمن سقط ضحيّة استبداد السلطة واستعمالها للرصاص لمواجهة الشباب الأعزل ، إذا قدّم بعض المواطنين حياتهم فداء للكرامة فإن من بقي لا يسعه إلا أن يصرّ على الوفاء لدماء هؤلاء ، ويواصل الاحتجاج على الظلم .

يقدم المتظاهرون أنفسهم في صورة «أوفياء» وهي صورة إيجابيّة وقيمة محبّذة ومرغوبة ، يُحترم من يتحلى بها ، ويقدّمون الآخر «كاذب» في الشعار التالي «كاذب لم توقف الرصاص» - رُفع هذا الشعار باللغة الفرنسية :

(menteur vous n'avez pas cessé le feu)

إن هذه الاستراتيجية الحمليّة السلبيّة استعملت لخدمة موقف الشعب من الرئيس في ذلك الوقت وجاءت ردّا على ما قاله في خطابه الأخير «واليوم نؤكّد يزّي من اللجوء للكرتوش الحي ، الكرتوش الحي موش مقبول ، ما عندوش مبرّر» وهو ما يعني أن زين العابدبن دعا رجال الأمن إلى الكف عن إطلاق الرصاص على المتظاهرين لأنه تفطّن إلى أن ذلك ليس له مبرّر وغير مقبول .

أمام هذا الأمر الصريح الذي سمعه الشعب عبر وسائل الإعلام الرسميّة ، كان من المفروض أن يتوقّف إطلاق الرصاص على المتظاهرين ، ولكن ذلك لم يقع وتواصل سقوط الشهداء متأثرين بإصابتهم بالرصاص من قبل أعوان الأمن ، وهذا ما دعا الشباب إلى رفع الشعار السابق ووصف المتكلم بـ«كاذب» .

وقع حذف الضمير بالطريقة نفسها التي تمّ بها ذلك في الشعار الذي ذكرناه قبله «أوفياء ، أوفياء لدماء الشهداء» ، إن هذا الحذف من شأنه أن يُبرز الصفة السلبية «الكذب» كما أبرز في الشعار الأول الصفة الإيجابية «الوفاء» ، ويضع كل منهما

موضع الصّدارة لأهمية القيمة المتحدّث عنها في الشعار ، بل يمكن أن نعتبر أن هذه القيمة هي التي رُفع من أجلها الشعار ، وبقيّة أجزاء الشعار في خدمتها جاءت لتأطيرها وإبرازها .

يمكن كذلك أن نلاحظ استراتيجيّة حمليّة سلبيّة استعملها المتظاهرون لوسم السلطة وبالتحديد العائلة الحاكمة في الشعار الذي رُفع يوم ١٥ جانفي ٢٠١١ بتونس العاصمة : «قداش كَرهك الشعب يا عصابة السرقة والنهب» («قداش» في اللهجة العاميّة التونسيّة تعني «كم») ، يحمل هذا الشعار مستويين من مستويات الاستراتيجيّات الحمليّة السلبيّة وهما :

- المستوى الأوّل ، ويتمثّل في تقديم العائلة الحاكمة على أساس أنّها مكروهة من الشعب كرها كبيرا وعبارة «قداش» تبيّن أن هذا الكره لا حدود له .
- المستوى الثاني يتمثل في إضفاء سمة العصابة على هذه العائلة الحاكمة وتخصيص عمل هذه العصابة «السرقة والنهب» . وهذا ما يبرّر كره الشعب لها .

التعبير عن كره هؤلاء الناس المتحكّمين في البلاد ليس بهدف التعبير في حد ذاته فقط وإنّما يهدف إلى إيصال معلومة للآخر مفادها أن لا مكان له في هذه البلاد ، وأن الشعب لم يعد قادرا على السكوت عن نهبه للثروات الوطنية واستغلال نفوذه لتحقيق الغنى الفاحش . كل الشعب يتّفق على كره العائلة الحاكمة فما عليها إلا الرحيل شأنها شأن كل مكروه منبوذ .

يقدّم لنا الشعار «انتبه ، شعب سريع الالتهاب» استراتيجيّة حمليّة فيها صورة كاريكاتوريّة ولكنها سوداء تدعو إلى التفكير وإعمال الرأي أكثر من دعوتها إلى الضحك ، رغم ما تحمله من سمات مضحكة . وللسامع أن يتصور هذا الشعار في شكل رسم كاريكاتوري فيه شعب مصنوع من مادة سريعة الالتهاب وأمامه حاكم لا يحمل بيده سوى أسلحة النار والرصاص .

هذا الشعار يتكون من جزأين كأغلب الشعارات المرفوعة خلال المظاهرات ، مع غياب المعادلة الكميّة في الألفاظ بين الجزأين وغياب الحرص على إيجاد نوع من الوزن يتحكم في جزأي الشعار والتي نجدها في بقية الشعارات (مثلا : عدالة حريّة ، كرامة وطنيّة . أو «يا قضاء فيق ، فيق ، والحجّامة تحكم فيك» . . .) يمكن تأويل عدم التوازن صلب بنية الشعار بعدم توازن القوى المتصارعة .

إن ما يجعل هذا الشعار يختلف عن أغلب الشعارات هو أنه يقوم على التنبيه والتحذير ، ورد الجزء الأول في شكل فعل أمر «انتبه» وهذا الفعل هو كاف لتحذير المستمع وجلب انتباهه وجعله ينتبه إلى الخطر المحدق به ، وهو يستعمل في أحيان كثيرة وحده للتحذير من كل أنواع الأخطار باعتبار أن وضعيّة السامع أو الموجَّهَ إليه الخطاب هي التي دعت المتكلم إلى تنبيهه من خطر داهم .

لكن الجزء الثاني من الشعار يأتي لإبعاد أي سوءِ فهم يمكن أن يحصل للسامع من وراء هذا التنبيه ، ويخصّص الخطر ويسمّيه ، إنه ًقابلية هذا الشعب للالتهاب السريع بمجرد اقترابه من مصدر نار . وهو تحذير من مغبّة مواصلة السلطة إطلاق النار على المتظاهرين ، ويمكن أن يعمّم على عدم قدرة الشعب على تحمل الظلم ، فقد تشبّع ببنزين الاستبداد وأصبح أي تصرف من هذا السجل يجعله يثور ويرفض ، وبالتالي يشتعل احتجاجات ومظاهرات .

يحمل الشعار»علي بابا في السعودية والأربعون غنوشي في الحكومة» (شعار رُفع بمدينة باجة) – وقع رفعه بعد رحيل بن علي وتولي محمد الغنوشي رئاسة الحكومة وكان فؤاد المبزع رئيسا للجمهورية بحسب ما يقتضيه الدستور التونسي– طابعا ثقافيا مشتركا بين السامعين في تونس وفي أغلب بلدان العالم حتى أننا يمكن أن نجازف ونقول : من لا يعرف حكاية علي بابا والأربعين لصّا التي وردت ضمن حكايات ألف ليلة وليلة والتي تُرجمت إلى لغات عديدة وتعرّفت على محتوياتها شعوب مختلفة؟

هذه الاستراتيجيّة الحمليّة تتّخذ من الموروث الثقافي حكاية وجدت أنها تعبّر عن الواقع بعد رحيل زين العابدين بن علي الذي كان على رأس السلطة وقائد «عصابة السراق» .

لاحظ رافعو الشعار أن رحيل بن علي لم يحلّ المشكلة لأن كلّ مجموعته التي كانت تخطّط له وتنفّذ أوامره مازالت في السلطة «الأربعون غنوشي» والغنوشي هو المثال الطراز لأفراد هذه المجموعة التي تنتمي إلى حزب التجمع الدستوري الديموقراطي الذي فقد رئيسه ولكن أعضاءه الفاعلين مازالوا في الحكم .

نلاحظ الاستراتيجيّة الحمليّة نفسها تقريبا في الشعار «ما ضاع حقّ وراءه طالب . . .مناضل» ، حيث لجأ أصحاب الشعار إلى استلهام التراث الفكري العربي وبالتحديد استنطاق مثل من الأمثال الموروثة ، يستعمل عادة للإشارة إلى أن الإنسان مادام ساعيا وراء حقه مجتهدا في الحصول عليه فإنه سيحقق رغبته ويحصل على

مراده فـ«ما ضاع حقّ وراءه طالب» مثل يرتكز على التجربة الإنسانية .

وظّف المتظاهرون هذا المثل كـامـلا دون تحـوير مع زيادة لفظ واحـد يصف طالب الحق ، الغاية منه التخصيص والتدقيق ، طالب الحق الساعي إلى استرجاع حقّه «مناضلٌ» وهذه الصفة من شأنها أن تكثّف معنى المثل وتزيده قوة إحاليّة في عدم التفريط في الحق ، لأنّ طالب الحق عادة لا يفرّط في طلبه فما بالك إذا كان مناضلا خبر الصعاب وتعوّد الصبر على الشدائد حتى تتحقّق المطالب .

لا تتوقف مخيّلة الإنسان عن استنباط شعارات تخدم ما يريد إبلاغه للمتلقي ؛ والشعار التالي الذي رُفع في الاحتجاجات على السلطة الحاكمة خير دليل على ذلك ، وسنذكره أولا كما ورد بلغته الأصلية لأن الترجمة ربما تدخل عليه بعض التغيير في المعنى وذلك لما تحمله عبارة «ديقاج» من معنى خاص بها ، الشعار هو :

“je Reste, tu Dégages, il Dégage, nous Restons, vous Dégagez, ils Dégagent”.

يمكن محاولة ترجمته إلى ما يلي «أنا أبقى ، أنت ترحل ، هو يرحل ، نحن نبقى ، أنتم ترحلون ، هم يرحلون» .

خرجت الاستراتيجيّة الحمليّة في هذا الشعار عن الأساليب البلاغيّة المتعارف عليها ، واعتمدت أسلوبا نراه جديدا في الشعارات وهو أسلوب تصريفي يتمثّل في تصريف الفعل «ديقاج» مع ضمائر اللغة الفرنسيّة ، وهذا لا يدعو إلى كثير من التفكير أو الذكاء للقيام به ، ولكن أن يتحول الفعل «dégager» إلى فعل آخر (rester) مع ضمائر بعينها هو ما يعطي التفرّد لهذا الشعار الذي تلعب فيه الضمائر دورا كبيرا في تحديد دلالاته .

تجتمع ضمائر الغيبة وضمائر المخاطب على قبول تصريف فعل «ديقاج» بل هو يُضاف إليها مصرّفا عن وعي وتدبير من المتكلم (واضع الشعار) فنتحصّل على :

“tu Dégages, il Dégage, vous Dégagez, ils Dégagent”.

تقدّم هذه الاستراتيجية الحملية تصوّرا سلبيا للآخر المتمثل في ضمائر المخاطب وضمائر الغيبة وهي : أنت ، هو ، أنتم ، هم . هذه الضمائر يسند إليها واضع الشعار فعل «dégage» رغبة منه في رحيلها وتعبيرا عن رفضه لها ولوجودها ، وهي تحيل على فئة معينة من الغائبين والمخاطبين إذ لا يقصد المتكلّم كل المتلقّين لهذا الخطاب أو كل المُتحدّث عنهم ، وإنما يقصد فئة معيّنة ، لأن شعار «ديقاج» وقع رفعه في وجه الرئيس

زين العابدين بن علي وعائلته وحزبه الحاكم ، وهم المعنيون به .

أمـا ضـمـيـرا المتكلّم «أنا ونحن» فـلا يمكن إسناد الرحـيل لهـا بل انقلب فـعل الرحيل تصريفيًا إلى فعل ثان معها يعكس المعنى الأوّل ويقوم ضدّه وهو فعل «بقي» (rester) «أنا أبقى» و«نحن نبقى» (je reste, nous restons) ، ويحيل الضميران على المتكلم واضع الشعار أو الذين يساندونه ويخرجون معه للتظاهر ضد السلطة الحاكمة .

«أنا ونحن» لهما استراتيجيّة حمليّة إيجابيّة ، بينما «أنت وهو وأنتم وهم» لها استراتيجية حمليّة سلبيّة . وهذا يعكس تصوّر المتكلّم لنفسه (هو على حق ، الوطن من حقه . . .) وللآخر(الظالم والمخطئ في حق الشعب والوطن . . .) . إن الاتصال بين الفـعلين في عـمليّـة تصـريف واحـدة رغم تقـابل المعنى واختـلافـه يجـعل من هذه الاستراتيجية الحملية ، استراتيجية فريدة في تبليغ الرأي والتعبير عن موقف واضع الشعار من نفسه ومؤيديه من جهة ، ومن الآخر وهو السلطة الحاكمة من جهة ثانية ، إلى جانب استغلال الضمائر بطريقة يوصل من خلالها واضع الشعار رأيه .

٣-٣ الحملية والضمائر في خطاب الصحافة

يَعتبر الكثير من النقاد الخطاب الإعلامي ناقلا بامتياز للمنظومات الثقافيّة ومساهما فعّالا في نشر القيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة ويرى البعض أن «العلاقة بين المنظومة الإعلامية ومنظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية علاقة متداخلة على اعتبار أن وسائل الإعلام ناقلة لأنماط التفكير والمعرفة والقيم والإفهام»[١] . هذه الأهمية خولّت لخطاب الصحافة سلطة حقيقيّة في الحياة الاجتماعية وجعلته يتوسّل طرقا واستراتيجيات تضمن له الإقناع والتأثير .

تُستعمل الاستراتيجيّة الحملية في خطاب الصحافة كما تستعمل في كل أنواع الخطابات الأخـرى لتـسم الفـاعلين والأحـداث وتبـيّن رأي الكـاتب الصـحـفي في الشخصيّات والمؤسّسات وموقفه من الأحداث . ويستغّل الصحافيّون الصفات والنعوت وأنواع الجمل التي تفي بهذا الغرض ، مصرّحين تارة ومضمرين تارة أخرى .

ورد في جريدة «الشرق الأوسط» الصادرة بتاريخ ٢٥ جانفي ٢٠١١ مقال بعنوان

(١) فاضل محمد البدراني ، الإعلام وصناعة العقول ، ص١٧٦ ، منتدى المعارف ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠١١ .

«قائد الجيش التونسي يحذّر المتظاهرين من الفراغ ويعتبر قوّاته حامية العباد والبلاد» ، فيه ما يلي : « . . . ودعا المتظاهرين إلى إخلاء ساحة الحكومة حتى تتمكن»هذه الحكومة أو حكومة أخرى من العمل» . وأوْضح «ساحة الحكومة هذه نريدها فارغة» ، سواء كانت في قصر الحكومة بالقصبة «هذه الحكومة أو حكومة أخرى» ، مشيرا إلى أن مقرّ الحكومة فيه «موظفون ساهرون على مصالح العباد ، ومكاسب البلاد التي تعبت من أجل إنجازها أجيال وراء أجيال»» .

هذا المقطع من المقال يسترعي الانتباه بما يحمله من ظواهر لغوية وخطابية ، ويمكن أن نبدأ البحث فيها من علاقة العنوان بما ورد في الخبر . يحتوي العنوان على تحذير المتظاهرين من «الفراغ» ، بينما يأتي محتوى المتن طالبا ملحا لهذا «الفراغ» ، بل يمكن أن يُفهم ذلك على أنه أمر بإحداث الفراغ «نريدها فارغة» لأن الخطاب يصدر عن قائد الجيش والسلطة الأمنية العليا في البلاد .

لا يمكن أن يكون هذا التقابل بين العنوان والخبر مصادفة أو مجرد عدم انتباه من الصحفي الكاتب خاصة إذا عرفنا هويته[١] . يعكس هذا التقابل الاختلاف السائد بين الفئات السياسية واختلاف الأهداف بعد رحيل بن علي وبروز مطالب مختلفة ومتناقضة باختلاف وتناقض الفئات السياسية التي ظهرت على ساحة الأحداث .

أما إذا عرفنا موضوع التحذير من «الفراغ» الذي يتعلق بالفراغ السياسي بحسب ما يمكن فهمه من الخطاب ، وموضوع الأمر بـ«الفراغ» الذي يتعلق بساحة القصبة وطلب إخلائها من المعتصمين ، فإن ذلك لا يمنع من تصوّر التضارب في المواقف لأن الواقع يفرض ذلك الفهم وذلك التأويل لهذه المواضيع المبطنة دلالات ضمنيّة .

يحاول هذا النص الصحفي إيصال خطاب السلطة للمتلقي (خطاب قائد الجيش التونسي) وذلك بتضمين بعض مقتطفات من هذا الخطاب حيث عمد الكاتب إلى وضعها بين ظفرين (وقد أثبتنا ذلك) ، ولكن حضور الذات المنتجة للنص لا يمكن أن يقع تلخيصه في النقل فقط ، وإنما يظهر رأي الكاتب من خلال مستويين في رأينا : المستوى الأول على نطاق الشكل والمستوى الثاني على نطاق المضمون .

على مستوى الشكل يتصرف الكاتب في وضع الألفاظ مواضع يختارها عن وعي منه فنجده مثلا يكرّر لفظ «الحكومة» ثماني مرات مقترنة بألفاظ مختلفة أغلبها

(١) مراسل جريدة الشرق الأوسط بتونس وهو تونسي يعايش الوقائع التي تدور في البلاد ويتفاعل معها .

يكوّن معها مركبا إضافيّا ، وورد في حالتين متشابهتين مركبا نعتيّا (مقرّ الحكومة ، هذه الحكومة ، حكومة أخرى ، ساحة الحكومة ، قصر الحكومة ، هذه الحكومة ، حكومة أخرى ، ساحة الحكومة) .

هذا التكرار المقصود لا يمكن أن يخلو من دلالات وإحالات على الواقع الراهن للبلاد التونسية ، وهو يعكس كذلك رأي كاتبه في هذا الواقع ، فالحكومة هي الشغل الشاغل لكل أفراد الشعب ومكوّناته السياسيّة والحزبيّة والمجتمع المدني والجمعيّات الحقوقيّة .

من ضمن الأسئلة المطروحة آنذاك «أية حكومة نريد؟ ما هو المطلوب من هذه الحكومة؟ ما هي الأطراف التي يمكن أن تمثّل الشعب في هذه الحكومة؟ . . .» . هذه الأسئلة يمكن أن نحسّ بوجودها وقلقها داخل تكرار لفظ «الحكومة» هذا التكرار المفرط وغير العادي (في الخطاب المباشر والخطاب المنقول) في ثلاثة أسطر فقط .

أما على مستوى المضمون فيمكن ملاحظة التضاد بين ما يحويه العنوان من ألفاظ تدلّ على التحذير من «الفراغ» كما سبق وقلنا وألفاظ أخرى يحويها متن النص تدعو إلى «الفراغ» . الفراغ يصبح مشكلا من أكبر المشاكل في ذلك الوقت وقد وقع طرحه في المنابر المتلفزة وفي المسيرات وخاصّة في اعتصام ساحة الحكومة بالقصبة .

قصر الحكومة ومقرّ الحكومة وساحة الحكومة كلها مركبات تحيل على إسناد أشياء للحكومة على وجه التملك ، لكن يحيل كل منها على نوع معيّن من العلاقات مع الشعب المتظاهر . ساحة الحكومة هي فضاء يضمّ المتظاهرين المطالبين بـ«فراغ» قصر الحكومة» من أعضاء الحكومة في ذلك الوقت أي رحيل الحكومة وتنصيب حكومة جديدة .

ويقابل ذلك مقرّ الحكومة الذي يضم أعضاء الحكومة وهم في تجاذب مع من تضمّهم ساحة الحكومة بل ويطالبون هم كذلك برحيل المتظاهرين ليتمكّنوا من أداء الوظائف المناطة بعهدتهم . كل طرف يطالب برحيل الطرف الثاني وإخلاء المكان الذي يوجد فيه وبالتالي مصلحته في «فراغ» ذلك المكان منه .

في خطاب قائد الجيش «مقرّ الحكومة» لا يمكن أن يقع فيه فراغ لأن من فيه هم «موظفون ساهرون على مصالح العباد ، ومكاسب البلاد التي تعبت من أجل إنجازها أجيال وراء أجيال» . وهو خطاب يغلّب طرفا على طرف ، ويعطي أحقيّة الوجود لطرف على حساب الطرف الآخر ، وهذا من سمات خطاب السلطة ، ونجد فوكو «يربط

تحليلاته للسلطة ربطا مباشرا بالصراعات العدائية للحركات الاجتماعية قائلا ، إن إحدى أهم نواحي هذه الصراعات في المجتمع المعاصر تمثّل في طريقة تحدّيها للإخضاع»[1] .

يحاول خطاب السلطة أن يُخضع المتظاهرين المعتصمين بساحة القصبة (ساحة الحكومة) ومن ورائهم إخضاع الشعب إلى إرادة السلطة ، وتتحدى إرادة الشعب ذلك من خلال تشبث المتظاهرين بالاعتصام وبمطالبهم المتمثلة في رحيل الحكومة خاصة .

هذا المقتطف من المقال الصادر في صحيفة «الشرق الأوسط» يحمل استراتيجيّات حمليّة متنوّعة تخدم في ظاهرها خطاب السلطة ومصالحها ، وتتواطأ في ما تبطنه مع خطاب الشعب وما يريد تحقيقه من خلال اعتصامه في ساحة الحكومة .

هناك مقال آخر في صحيفة «الشروق» التونسية الصادرة بتاريخ ٢١ جانفي ٢٠١١ ، تنقل فيه الصحيفة رأي سفير الولايات المتحدة «غوردون غراي» في الثورة التونسية ، عنْونته الصحيفة كالتالي : «وقال الشعب التونسي كلمته» . نقتطف من المقال ما يلي :

«نيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية ، أتقدّم لكم يا شعب تونس بخالص التهنئة على شجاعتكم وتصميمكم في قيادة ثورة الياسمين ، لقد مثّلت مطالبكم لحقوق الإنسان الأساسيّة وممارستكم لحرية التعبير وحرية التجمّع مصدر إلهام ، إنّ الولايات المتّحدة تقف بجانبكم بينما تحقّقون التحوّل إلى ديموقراطيّة سلميّة ومستقرّة . نحن ندرك أن هذه التحولات الأخيرة كانت مبهجة ومنهكة في الآن نفسه للشعب التونسي ، ولئن شهدنا التضحيات التي قمتم بها والصعوبات التي تجشّمتموها فإننا نحثّكم قبل كل شيء على ممارسة حرياتكم التي وُلدت حديثا سلميّا وبشكل مسؤول ديدنكم في ذلك إرساء قدوة للناس في كلّ مكان حتى يستمدّوا الأمل من تجربتكم . كما قال الرئيس أوباما «تضخّ كل دولة دماء الحياة في شرايين الديموقراطيّة بطريقتها الخاصّة ، ديموقراطيّة تقوم على أساس تقاليد شعبها . . .»» .

يمكن دراسة الاستراتيجيّات الحمليّة في هذا المقتطف من كلام السفير الأمريكي

---

(١) كيت ناش ، السوسيولوجيا السياسية المعاصرة ، العولمة والسياسة والسلطة ، ص ٩٧ ، ترجمة حيدر حاج إسماعيل ، المنظمة العربية للترجمة ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠١٣ .

من خلال مستويات كلاسيكيّة ثلاث : المتحدّث والموضوع والمتلقي ، بالإضافة إلى ناقل الخبر الذي لم يتدخّل إلا في صياغة العنوان .

المتحدّث يمثّل أقوى سلطة في العالم ، وتخوّل له هذه السلطة استعمال الاستراتيجيّات الحمليّة التي يراها مناسبة لتعيين الأشياء والأشخاص والأحداث . وعادة ما يملك المتحدّث باسم السلطة مهارات خطابية ومنها : إتقان الأساليب اللغوية ، القدرة على تبديل الكلمات ، التحكّم في ضبط الاستراتيجيّات الحمليّة ، القدرة على الانتقال من فكرة إلى أخرى بسلاسة ،ويمكن تلخيص كل ذلك في القدرة على الإقناع بموضوع الخطاب ، وهي القدرة التي ظلّت هاجس دارسي الخطاب منذ أرسطو إلى يومنا هذا .

يضع المتحدّث إطارا لنفسه يتكلّم من خلاله ، وهذا ما يمنح خطابه مزيدا من القوّة ومزيدا من السلطة ؛ إنه يتحدث نيابة عن دولة بأسرها «نيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية» وكلامه يأخذ قوّته من قوّة هذه الدولة وموقعها في العالم ، ولذلك على المتلقّي مراعاة هذا الإطار في تأويله للخطاب .

لا يكتفي المتكلّم بإسناد محتوى كلامه إلى بلده الولايات المتحدة الأمريكية وما يحمله هذا الاسم من سلطة سياسيّة واقتصاديّة على دول العالم ، بل يلتجئ إلى الاستشهاد بقولة للرئيس الأمريكي «أوباما» يختارها لخدمة الموضوع الذي يطرحه وذلك في إطار حديثه عن الديموقراطيّة ، ينقل عن أوباما ما يلي : «تضخّ كل دولة دماء الحياة في شرايين الديموقراطية بطريقتها الخاصّة ، ديموقراطيّة تقوم على أساس تقاليد شعبها» .

المتكلم في هذا المقتطف ثلاثةٌ يُنسب لهم محتوى الخطاب :الولايات المتحدة الأمريكيّة والرئيس أوباما ثمّ السفير ، أما واقع الخطاب فيعكس الترتيب لأن السفير هو الناطق الفعلي بالخطاب نيابة عن الولايات المتحدة الأمريكية ثم هو حامل لخطاب أوباما في ثنايا خطابه .

يستعمل المتكلّم تصريحيّا ضميريْ المتكلّم («أنا» متمثلة في همزة المتكلم في الفعل «أتقدّم» ، و«نحن») ، وضمنيا الضمير «هو» عندما يسند الكلام إلى الرئيس الأمريكي أوباما الذي يتحوّل أثناء الكلام إلى الضمير «أنا» ، الأنا الأولى مجرّد قناة يمرّ منها رأي «نحن» ورأي الـ«أنا» الثانية .

المتلقّي هو الشعب التونسي الذي يتوجّه إليه المتكلم مباشرة « أتقدّم لكم يا

شعب تونس» ، أما المتلقي الضمني فهو العالم بأسره الذي ينتظر بفارغ الصبر موقف الولايات المتّحدة من الأحداث التي وقعت في تونس وغيّرت نظام الحكم .

اختار المتكلم استراتيجيّة حمليّة لوسم المتلقي من شأنها أن تجعل خطابه أقرب إلى هذا المتلقّي وهي اختيار التوجّه المباشر نحو الشعب الذي خرج في المظاهرات وطالب برحيل الرئيس زين العابدين بن علي . هذا التوجّه المباشر يضمن كذلك إقبال المتلقّي على الخطاب واعتباره خاصا به (القوة العظمى في العالم تخصّ شعب تونس بخطاب) دون غيره ، هذا يعتبر خارجا عن المألوف إذ أن الدول عادة ما تتوجّه بالخطاب إلى حكومات الدول الأخرى .

ويوّفر نظام التواصل الجديد المبني على العولمة فرصة لتدخّل الدول القويّة في شؤون الدول الأضعف منها وذلك بالتشجيع والمنح أو بالمنع والعقاب . وترى «كيت ناش» أن «العولمة توفّر ، وبصورة واضحة ، فرصا لإعادة النظر في المسائل الأساسية للسلطة وللسياسة»[١] وذلك عبر تحكّم القوّي في الضعيف . وهي ترى أن العولمة تمثّل الترابط العالمي المتزايد وخصوصا البيئة السياسيّة إلى جانب كل ما هو اجتماعي واقتصادي وثقافي .

نعود إلى الاستراتيجيّات الحمليّة المستعملة في موضوع الخطاب الذي يمكن تقسيمه إلى تحيّة ووصف عام للحدث ثم إبراز موقف الولايات المتّحدة منه ، وأخيرا استشهاد بقولة للرئيس الأمريكي «أوباما» لدعم الموقف المطروح .

يقدّم المتكلم التحيّة للشعب التونسي لأنه في رأيه يحمل سمات من شأنها أن تجعل الولايات المتّحدة الأمريكيّة تنحني لتحيّته وهي بحسب المتكلم الشجاعة والتصميم «شجاعتكم وتصميمكم» على تحقيق المراد وهو هنا قيادة الشعب للثورة وذلك في إشارة إلى غياب طرف سياسي محرّك لهذه الثورة وقائد مسيّر ومنظّم لها (وهي الحالة العاديّة للثورة) .

يَسِم المتكلّم الشعب التونسي بسمات القيادة والشجاعة والتصميم ، ثمّ يقدّمه على أنّه شعب يعترف بحقوق الإنسان ويمارسها ، كما يمارس حريّة التعبير وحرية التجمّع وذلك من خلال ما قام به خلال الإطاحة بالنظام الديكتاتوري الذي كان سائدا . يشدّد المتكلّم على الحريّة بتكرارها لأنّها بالنسبة إليه قيمة أساسيّة لضمان

(١) المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .

العيش الكريم . ويسبغ على الشعب التونسي استراتيجيّة حملية تحمل قيمة محبّذة ترفعه إلى المثال الذي يُحتذى به فهو «مصدر إلهام» و«قدوة» لبقيّة الشعوب المظلومة التي تعيش تحت سياط القهر والظلم ، لأنه استطاع أن يحقّق «التحوّل» من الديكتاتوريّة إلى «ديموقراطيّة سلميّة ومستقرّة» .

هذه الديموقراطيّة السلميّة والمستقرّة هي الاستراتيجيّة الحمليّة الواسمة لما حدث في تونس من تغيّرات بعد ١٤ جانفي ٢٠١١ والتي استعملتها الولايات المتحدة الأمريكيّة لتبيّن موقفها الرسمي من تغيّر الحكم في تونس ، وهو رأي تنتظره كل شعوب العالم لمعرفة موقف أمريكا من تغيّر أنظمة الحكم في البلدان التي كانت تُعتبر حليفتها .

تتجاوز الاستراتيجيّة الحمليّة الوصف العام للحدث إلى وصفه داخليّا فيعتبر المتكلم أن هذه التحوّلات التي طرأت على المجتمع التونسي «مبهجة ومنهكة في الآن نفسه للشعب التونسي» ، وبذلك فهو يريد أن يقول أنّ موقف بلاده نابع من فهم لما حدث من داخل الحدث وقريبا من الفاعلين فيه .

هو يفهم فرحة الشعب التونسي ويفهم كذلك ما عاناه خلال محاولة التغيير (سقوط شهداء ، تأزم الوضع الأمني والاقتصادي والاجتماعي . . .) . وهذه الاستراتيجيّات الحمليّة تجعل المتلقّي يقتنع برأي المتكلّم العارف بالوضع المواكب له عن كثب .

تبنّى المتكلم كذلك استراتيجية حمليّة وُلدت مع اندلاع الثورة في تونس وهي «ثورة الياسمين» أطلقتها الصحافة لتسمية ما حدث في تونس ، وهذا التبنّي يعكس وجهة نظر الولايات المتّحدة الأمريكيّة للأحداث ، لأنّ من بين التأويلات التي تفسّر إطلاق عبارة «ثورة الياسمين» هي الطريقة السلسة والسريعة التي تمت بها الثورة ، ورغم سقوط ضحايا إلا أن المدة الزمنية التي تمّت فيها الإطاحة بالحكم كانت قياسية مقارنة مع ما يحدث في دول أخرى .

يفسّر البعض الآخر هذه الاستراتيجيّة الحمليّة بوجود زهر الياسمين في تونس بكثرة ، ولكننا نذهب إلى التأليف بين التأويلين ، رغم أن المتكلم (السفير الأمريكي) يقصد في رأينا التأويل الأوّل لأنه يركّز على طريقة حدوث الثورة .

يبيّن المتكلم (الذي ينوب عن متكلمين) كيف تجسّم الموقف العملي للولايات المتّحدة الأمريكيّة مما حدث في تونس من خلال قوله « الولايات المتّحدة تقف إلى جانبكم» وقوله كذلك «نحثّكم على ممارسة حرّياتكم التي ولدت حديثا ، سلميّا وبشكل

مسؤول» . هذا القول لا يمكن أن يصدر إلاّ ممن يعتبر نفسه وصيّا على الشعب التونسي ويعطي لنفسه الحقّ في التدخّل في الشؤون الداخليّة للبلاد ، إذ كان يمكن أن ترفض الولايات المتحدة ما وقع وتطلب الإقلاع عنه لو كان ذلك مضرّا بمصالحها في المنطقة .

يستشهد المتكلّم بقولة للرئيس الأمريكي «أوباما» تؤكّد الرأي الذي طرحه وتُعتبر حجّة على ما قاله فهو ناطق باسم دولته وباسم رئيس دولته ولا يخرج عن الإطار المرسوم للسياسة الخارجيّة لهذه الدولة ، خاصّة إذا عرفنا أن الولايات المتّحدة الأمريكيّة لم تبيّن موقفها إلا بعد مدّة من اندلاع الثورة ورحيل بن علي ، تمكنت خلالها من دراسة الوضع في تونس .

خلاصات

- يحمل الخطاب رؤية واضعه ومواقفه مما يدور حوله من قضايا مستعملا (واضع الخطاب) في ذلك استراتيجيّات حمليّة متنوعة يوظّف فيها معارفه ومكتسباته الثقافيّة والاجتماعيّة ، وهذا ما نلاحظه في الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي والشعارات التي صاحبت الثورة التونسيّة .
- تستعمل الاستراتيجيّات الحمليّة المظاهر البلاغيّة المتنوّعة والظواهر النحويّة والصرفيّة والشكليّة لخدمة الغرض المنشود منها . كما أن استعمال الضمائر استعمالا مخصوصا من شأنه أن يؤدّي دورا كبيرا في الإحالة الدلاليّة المقصودة من الخطاب .
- تكرّس الاستراتيجيّات الحمليّة المستعملة في خطاب السلطة نظرة سلبيّة إلى الفاعلين في المظاهرات وتعطي للمتقبّلين انطباعا سيئا عنهم ، بينما تقدم السلطة على أنها المخلّص الوحيد للبلاد والعباد من خطر «المنحرفين والمجرمين» .
- يقدّم خطاب الشعب كذلك استراتيجيّة حمليّة سلبيّة لوصف السلطة ، وكل وصف حمليّ في الشعارات مدعاة لكره من اتصف به والعمل على رحيله . بينما يعطي صورة إيجابيّة للمتظاهرين الرافضين للظلم «الأوفياء لدماء الشهداء» الساعين إلى التغيير نحو الأفضل .
- أما خطاب الإعلام فهو خطاب ناقل للخطابيْن الأوّل والثاني نقلا فيه كثير من العمل على تغليب طرف على آخر ، تغليب تتحكّم فيه المصالح الذاتية والمؤسساتيّة في ذلك الوقت .

الفصل الرابع:
بناء الجملة في خطاب الثورة

تمهيد

سنتناول بنية الجملة في الخطاب الإعلامي (خطاب السلطة، وخطاب الشعب، وخطاب الإعلام (الموازي للخطابين الأول والثاني)) من خلال دراسة مفهومين أساسيين في بنية الجملة وهما مفهوم التعدية واللزوم ومفهوم الموجهيّة الذي يعتبره جون ريتشاردسون متمّما للمفهوم الأول.

رغم أنّ التعدية واللزوم مبحث نحوي لا تكاد تخلو منه نظريّة نحويّة، إلاّ أنّ تطبيقه في دراسة الخطاب وخاصّة دراسة التحليل النقدي للخطاب انتشر مع عدد كبير من الباحثين كما سنرى لاحقا. اهتمّ بهذا المبحث النحاة القدامى في النحو العربي واليوناني واللاتيني ومختلف الأنحاء الغربية الحديثة (النحو الفرنسي والنحو الأنقليزي والنحو الألماني...) كما اهتمّت به أغلب النظريات اللسانيّة الحديثة بدرجات متفاوتة، بحسب قرب هذا المبحث من مجال بحثها.

يتعلق مبحث التعدية واللزوم بمسألة محورها الفعل وتعلّقه بعدد من العناصر داخل تركيب الجملة، وبالتالي فإنها ظاهرة نحويّة إعرابية. ويتعلق مبحث الموجهيّة بظاهرة تركيبيّة تدخل على الجملة فتغيّر معنى إنتاج الخطاب وتأويله. سنستغلّ هاتين الظاهرتين لفهم الخطاب الإعلامي وتأويله لما تحملانه من دلالات ولما تتضمّنانه من إيحاءات يمكن أن تنير درب التأويل.

٤-١ التعدية واللزوم

٤-١-١ تحديد المفهوم

سنبدأ من موسوعة «آشار وسيمبسون» (Asher and Simpson)[1] للحديث عن

(1) Asher Simpson: the encyclopedia of language and linguistics, P4671-7671, 1994.

التعدية واللزوم باعتبارها موسوعة تضمّ مقالات لأشهر الباحثين في ميدان اللسانيّات . ونجد في هذه الموسوعة مقالا عن التعدية واللزوم في المنوال النحوي القديم وفي اللسانيّات الحديثة .

يذكر صاحب المقال أن «التعدية» transitivity مصطلح أخذ من اللغة اللاتينيّة يتكوّن من trans ويعني «العبور» وire ويعني «ذهب وانتقل»[1] ، وهو يستعمل في كتب النحو واللسانيّات . ويتعلّق بانتقال العمل من الفاعل إلى المفعول كما تدل على ذلك الأمثلة التالية :

- بروتوس قتل سيزار
- أنا أكرهه
- كل إنسان يحب الجعة
- يملك بيل كتبا

واللزوم intransivity ظاهرة تتعلق بعدم انتقال العمل من الفاعل إلى المفعول ، مثل :

- جلس
- مات كيم أمس

ويذكر صاحب المقال أن الدراسات القديمة لم تكن تميّز بين المظهر الدلالي والمظهر الصرفي والتركيبي في التعدية واللزوم وتقوم على اعتبار الفاعل والمفعول به فقط لدراسة هذه الظاهرة[2] .

وقدّم صاحب المقال تصوّرا آخر للتعدية واللزوم واعتبره منوالا منقّحا modified يقوم على أمرين :

- التمييز بين المظهر الدلالي والمظهر الصرفي التركيبي في التعدية واللزوم .
- القول بوجود درجات متفاوتة في التعدية واللزوم

ونجد في المستوى الدلالي العناصر التالية :

* المشاركون (participants) ويكونون اثنين أو أكثر ويمكن أن يكون الفاعل (agent) أوالمفعول (patient)

---

(1) Op.cit., p 4670.

(2) Op.cit.p 4671.

* الفاعل (agent) وهو الذي ينجز العمل بإرادته
* العمل (activity) .
* المفعول (patient) وهو الذي يصيبه العمل .

ويعطي مجموعة من الأفعال المتعدية في الأنقليزيّة ويسمّيها الأفعال المتعدّية الطرازية prototypical transitive verbs مـــثل : ,kill, break, hurt, make, create improve, clean, كما يقدّم مجموعة أخرى من الأفعال لا يعتبرها مثل الأولى ويسمّيها الأفعال المتعدية غير الطرازية prototypical transitive verbs مثل : ,hit . kick, shoot

المفيد في هذا المقال هو الحديث عن أطوار مبحث التعدية واللزوم . فقد شهد هذا المبحث تغييرا تمثّل في الانتقال من الاقتصار على المظهر الصرفي والتركيبي وإهمال المظهر الدلالي في النحو التقليدي إلى العناية به في بعض المناويل الحديثة و تقديمه على المظهر الإعرابي واعتبار التعدية واللزوم قائمين على الخصائص الدلاليّة للفعل . كما أن المقال يشير إلى إقامة تصنيف الأفعال من حيث التعدية واللزوم تصنيفا طرازيّا prototypiqueيقوم على القول بوجود درجات متفاوتة من التعدية .

أمّا في الدراسات الحديثة وخاصّة البحوث التي تهتمّ بالتحليل النقدي للخطاب فتصف «ميلز» (Mills)[1] التعدية باعتبار العلاقات بين المشاركين والأدوار التي يؤدّونها في العمليّات الموصوفة في الخطاب الإعلامي . وتذهب إلى أنّ «دراسة التعدية تُعنى بـ : كيف تُقدَّم الأفعال وتُمثَّل؟ وما نوع الأفعال التي تظهر في نصّ ما؟ ومن الفاعل؟ ومن الذي وقع عليه الفعل؟[2]» . ويمكن تلخيص ذلك في الأسئلة التالية : من فعل؟ ماذا فعل؟ لمن فعل؟

على هذا النحو تعتبر التعدية في قلب تمثيل ووصف العلاقة بين المشاركين والأدوار التي يؤدّونها في العمليّات الموصوفة في التغطية الإعلاميّة خاصة . وترى «ميلز» أن ما يُعتبر مركزيّا في دراسة التعدية في هذا المستوى هو الانتباه «إلى أن هناك عددا من الاختيارات التي ينبغي القيام بها في أثناء إنتاج النصوص ، وكلّ

---

(1) Sara Mills, Feminist Stylistics, P143, Routledge, Chapman and Hall, Incorporated, 1995

(2) op.cit, P143.

نصّ منتَج أو تمّ إنتاجه قابل لأن يُنتج بطريقة مغايرة [١]» .

تعني الاختيارات ؛ طريقة تقديم المشاركين في حدث ما (الاستراتيجيّات الإحاليّة والحمليّة) ، وكذلك الاختيارات في الطريقة التي يُقدّم بها الحدث نفسه كما يعكسه الفعل المحوريّ في الجملة . وقد برهن «سيمبسون» [٢] (Simpson) على أن هناك ثلاثة مكوّنات يمكن أن تُغَيّر أثناء عمليّة التمشي :

- أوّلا ، المشاركون المعنيون في التمشّي ، وأدوارهم تتحقّق على نحو نمطي وبواسطة المركبّات الاسميّة .
- ثانيا ، التمشّي نفسه ويُعبّر عنه بواسطة المركّب الفعلي في الجملة .
- ثالثا ، الظروف المرتبطة بالتمشّي ويُعبّر عنها عادة بالجمل الظرفيّة ومركّبات الجر .

سبق أن بيّنا أعلاه[٣] ، بخصوص المكوّن الأوّل «المشاركون» ، بعض الطرق التي يُعبَّر بها عن المعنى المصرّح به أو المضمّن في الجمل أو في النصوص في شموليّتها ، وذلك عن طريق استخدام مختلف الاستراتيجيات الإحاليّة والحمليّة من أجل الإحالة على الأشخاص ، وبحسب اصطلاح «سيمبسون» يُعتبر ذلك تغيرات في الطريقة التي يُسمّى بها المشاركون المعنيون ويوصفون في تمشّ ما .

أمّا بالنسبة إلى المكوّن الثاني وهو «التمشّي نفسه» فيلاحظ «سيمبسون» وجود أربعة أنواع رئيسيّة من الأفعال في اللغة الانقليزيّة ، وهذا يقودنا إلى أربعة أنواع مختلفة من التمشيّات يمكن استعمالها في الجمل وفي النصوص وهي كالتالي :

أ- تمشّيات الأفعال أو الأعمال (verbal processes) من قبيل : ضرب ، أكل ، تكلّم . . .

ب- التمشّيات المتعلّقة بالأفعال الذهنيّة (verb can be mental processes) مثل : فكّر ، قرّر ، حلم . . .

ج- تمشّيات علائقيّة (relational processes) متصلة بالكينونة مثل : have, seem ، be في جمل مثل you are . أو I have . .

---

(1) op.cit, P-144.

(2) Paul Simpson, Language, Idiology and Point of View, P88 , Routledge, 1993.

(٣) ينظر الفصل الثالث من الباب الثاني .

د- التمشّيات الأداتيّة أو الماديّة (material processes) التي يمكن أن تُقسّم إلى عمل أو فعل متعدّ يشمل مشاركيْن أو أكثر ، الفاعل والمفعول به ، مثال : «ضرب أحمد الكرة» ، أو «دفعتُك» ، وكذلك فعل لازم بمشارك واحد مثال «هي تجري» ، «طار الفرخ» . ويرى جون ريتشاردسون(1) أنه إلى جانب ذلك يحتاج الأمر إلى أن نأخذ بعين الاعتبار بنية التمشّي ، ويُفسّر ذلك بضرب مثال عن التعدية يستعمله دائما :

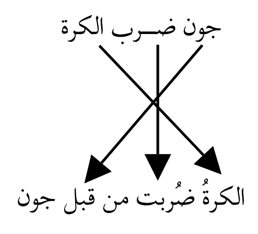
«ضرب جون الكرة» .

يمكن الحديث في هذا المثال عن البناء للمعلوم ؛ فالفعل «ضرب» مستخدم في صيغة المعلوم بما أن الفاعل «جون» يسبق المفعول ، ويمكن أن يُحوّل هذا التمشّي نفسه إلى بناء للمجهول : «ضُربت الكرةُ من قبل جون» ، لكن ما زلنا هنا أمام بنية تحتوي على تعدية غير أن الفعل بُنيَ للمجهول ويسبق المفعول الفاعل ، مع ذكر الفاعل في آخر الجملة . في هذا التحويل الأخير يمكن أن يُحذف الفاعل ويغدو الفعل المبني للمجهول دون فاعل : «ضُربت الكرةُ» وعلى هذا النحو لا نعلم من الذي ضرب الكرة .

في المثال السابق قد لا تكون المعلومة (الفاعل) ذات أهميّة كبيرة ، فالخبر هو أنّ الكرة قد ضُربت ، ولكن في جمل أو نصوص أخرى وفي مقامات معيّنة يُصبح لحذف الفاعل أهميّة قصوى . ويمثّل جون ريتشاردسون ما سبق كالتالي(2) (الرسم١) :

التحويل التركيبي

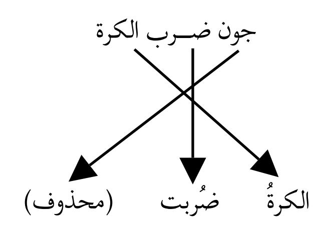
- التحويل من المبني للفاعل إلى المبني للمجهول



(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P55, Palgrave Macmillan, 2007.

(2) op.cit, P55.

- التحويل من المبني للفاعل إلى المبني للمجهول (حذف الفاعل)



هذا التحويل حيث غُيّرت التعدية إلى بنية فاعلُها محذوف نجده كثيرا في الخطاب الإعلامي وفي خُطب السياسيين ، ويمكن أن لا يظهر حذف الفاعل مع تمشّيّات التعدية فحسب بل يمكن أن يظهر كذلك في كل الجمل التي تمثّل تمشّيا فعليّا «ضرب الكرة» تصبح « «وقع الضربُ أو الضربُ فُعِل» ، أو تمشّيا ذهنيّا «تأمّل فلان الأمر» تصبح «الأمرُ تُؤمّل» . كلّ تحويل من هذا النوع ينزع من الجملة معنى التخصيص والدقّة وينحو إلى التعميم .

٤-١-٢ التعدية واللزوم في خطاب السلطة

ألقى «زين العابدين بن علي» ثلاث خطب منذ اندلاع أولّ شرارة للأحداث يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ إلى حين رحيله إلى المملكة العربية السعودية ، تكلم في خطابيه الأولين باللغة العربية الفصحى بينما جاء خطابه الأخير باللهجة العاميّة التونسية . وتسود الجمل الاسميّة كل خطاباته تقريبا ، إلا أنه يلتجئ إلى الجمل الفعلية متى أراد أن يعبّر عمّا ينوي فعله أو تغييره إزاء ما وقع من أحداث .

احتوت أغلب الجمل الفعليّة على تمشّ مبني للمعلوم ظهرت فيه أطراف الفعل واضحة (الفاعل في الأفعال اللازمة ، والفاعل والمفاعيل مع الأفعال المتعدية) ، وذلك لأنه يركّز على نسبة الأفعال لأصحابها وتوضيح موقف كل طرف مما يقع في البلاد وبيان دوره في الأحداث . فإما يكونون من جهة السلطة وبالتالي فهم حريصون على سلامة البلاد والعباد وإما يكونون من جهة المتظاهرين وبالتالي فهم «لا يريدون الخير لبلادهم» و«يلجؤون إلى بعض التلفزات الأجنبيّة التي تبث الأكاذيب والمغالطات دون تحرّ بل باعتماد التهويل والتحريض والتجني الإعلامي العدائي لتونس» .

هذا التمشّي الذي اعتمده المتكلم في الجملتين المسطّرتين حُذف فيه الفاعل لأنه سبق ذكره وهو «بعض الأطراف» ، ولم يحذف للبناء للمجهول ، فالفاعل معروف

في نظر المتكلم ويعتقد أنه كذلك معروف لدى المتلقي ، ورغم ذلك يلفّ هذا الفاعل نوع من الغموض الذي يظهر في استعمال إحالة عامّة «بعض الأطراف» ، وهذه الإحالة تقبل التأويل ، وتثير التساؤل : من هم هؤلاء الأطراف؟ لماذا لا يريدون الخير للبلاد؟ من يحرّكهم؟ ماذا يريدون؟

تصبح الجملة الأولى دون حذف الفاعل : «لا يريد بعض الأطراف الخير لبلادهم» ، ورد الفعل «أراد» منفيا لأن مفعوله يتّسم بسمة إيجابية لا يمكن أن يتحلى بها الآخر في نظر السلطة «الخير» . ولو اختار المتكلم مفعولا يعبّر عن السلبية مثل «الشر» لما أمكنه نفي الفعل «أراد» ، ونتحصّل آنذاك على الجملة مثبتة كالتالي : «أراد بعض الأطراف الشر لبلادهم» .

للرأس الفعلي دور في تحديد مكونات الجملة من خلال ما يقتضيه من متعلقات ، ولهذه المتعلقات دور كبير في تحقيق معنى الجملة . والتعدية واللزوم ظاهرة تقوم على الفعل الذي يمثل رأس تركيب الجملة . ويدرس علم الإعراب العلاقات التي تربط المكوّنات برأس التركيب لأنّ الرأس هو الذي يتحكّم في البنية ويوزّع الأدوار على مختلف المكوّنات وينتقي السمات المناسبة له في متعلقاته بحسب قيود الانتقاء contraintes de sélection . وقيود الانتقاء أو «السمات الانتقائية» هي سمات يطلبها العنصر في متمّماته ، مثلا الفعل «شرب» الذي يطلب أن يكون المشروب سائلا ، والفعل «طلب» يتطلب مفعولا يتمثل في شيء ما يقع طلبه ، ويمكن أن يكون ماديا أو معنويا .

الجملة «يلجأ بعض الأطراف إلى بعض التلفزات الأجنبية» ، استعمل فيها المتكلم تمشّيا مبنيا للمعلوم مع فعل متعدّ يتطلب متمّماً ليكتمل المعنى وهو ما يسميه «شومسكي» «الإلحاق» ، وهذا الإلحاق عملية تتجاوز الأساس المعجمي وهو أن تلحق بالبنية ما لم يأت به نظام المعجم . أي أننا نجد أنفسنا أمام أدوار نحتاج إليها ولا يمدّنا بها المعجم ، كالأجليّة والسببيّة والآلة والزمان والمكان . لذلك نلاحظ أن الفعل اللازم يختار الفاعلَ ، والفعلُ المتعدي يختار دور الفاعل والمفعول أو المفاعيل من خلال نظام المعجم . أما المتمّمات فيتمّ اختيارها بعملية الإلحاق ، وهي تلحق بالأفعال المتعديّة والأفعال اللازمة على حد السواء[١] .

---

(١) لمزيد التفصيل يمكن الاطلاع على :

Noam chomsky, The Minimalist Program, Cambridge, MA,The MIT Press.1987.

يظهر ذلك في الجملة السابقة من خلال اتصال الفعل المتعدي «لجأ» بمفعول ضروري ليكتمل معناه، وهو بحسب نظريّة البرنامج الأدنوي دور متصل بالفعل يبيّن «المكان» المادي أو «المكان المعنوي»، وهو في هذه الحالة «بعض التلفزات الأجنبية» وما تبثّه من أخبار يرى المتكلم أنها تغالط الرأي العام وتحرّض على النيل من سيادة تونس.

يعتمد المتكلم تمشيّا مبنيّا للمعلوم في الجملة «أطلب من اللجنة المستقلّة التي ستحقّق في الأحداث والتجاوزات والوفيات المأسوف عليها تحديد مسؤوليات كل الأطراف، كل الأطراف بدون استثناء، بكل إنصاف ونزاهة وموضوعية»[١]. ويتعلّق الفعل بموضوعين هما الفاعل وهو الضمير «أنا» والمفعول وهو «تحديد المسؤوليات».

المعجم يعيّن لفعل «طلب» موضوعين أو حدّين (deux arguments)، فاعل ومفعول. ويحدّد المعجم الموضوع الأول (الفاعل) والموضوع الثاني (المفعول) ويقف المعجم هنا ولا يضيف شيئا آخر، أي ليس من الضروري مثلا ذكر كيفيّة الطلب أو زمانه أو مكانه أو سببه . . . ولكن المتكلم يرى ضرورة في بيان هذه المتمّمات حتى لا يترك فرصة للمتلقّي لتأويل الغموض أو لطرح أسئلة يمكن أن تكون الإجابة عليها من قِبل أطراف تستغلّ عدم الوضوح لتقديم أجوبة تخدم مصلحتها.

يمكن أن نفصّل هذه الأدوار التي صاحبت الفعل لتبيّنه وتوضّحه (إلى جانب الفاعل والمفعول) كالتالي:

الفعل/الطلب	الفاعل/ الطالب	المفعول/ المطلوب	صفة المطلوب	هدف الطلب/ ممّن؟	صفة الهدف
طلَب	المتكلم/أنا	تحديد المسؤوليات	بكل إنصاف ونزاهة وموضوعية	اللجنة المستقلّة	سيحقّق في الأحداث والتجاوزات والوفيات

(١) الخطاب الثالث لزين العابدين بن علي، بتاريخ ١٣-٠١-٢٠١١.

يختم المتكلم نفس الخطاب بثلاث جمل متتالية تشترك في الفعل اللازم نفسه وهي :

- «عاشت تونس . عاش شعبها . عاشت الجمهورية .»

يعيّن المعجم للفعل «عاش» حدّا أو موضوعا واحدا (un seul argument) ويعطيه دور المنفذ ، وإذا أردنا تحديد زمان العيش أو مكانه فإن ذلك يتم بعملية إلحاق أدوار جديدة . ولكن المتكلم يكتفي بالدور الضروري للفعل وهو القائم به (في الجملة الأولى : تونس ، وفي الجملة الثانية : الشعب ، وفي الجملة الثالثة : الجمهورية) .

اختار المتكلم فعلا واحدا مع فواعل مختلفة وأسند لها فعل «العيش» ، على شكل دعاء يبيّن مدى حبّه لتونس ولشعبها ، وتكرار نفس الفعل يؤدي إلى تأكيده وإبرازه في خطاب المتكلّم ، وذلك مقابل الآخر الذي يريد إلحاق الضرر بتونس وبشعبها .»

نتبين مما تقدّم أن الفعل يمثّل عنصرا من العناصر المعجميّة الرئيسيّة ، له وظيفة الرأس في الجملة ، وهو بحكم هذه الوظيفة يقتضي أطرافا معيّنة تتعلق به ، وتقوم بوظائف أو أدوار دلالية معينة . فإذا تطلب الفعل موضوعات لها دور المفعول وافق الفعل المتعدّي ، وإذا لم يتطلّبها اعتبر لازما . أما المتمّمات فهي ليست تابعة للبنية المحوريّة للفعل ، لذلك فإنها تلحق جميع الأفعال اللازم منها والمتعدي .

٤-١-٣ التعدية واللزوم في خطاب الشعب

سنعتمد في تحليلنا على ما توصل إليه «فيركلاف» وجون ريتشاردسون و«سيمبسون» بهذا الخصوص من خلال تقديم نماذج من تحليلهما للخطاب يعتمد على دراسة التعدية واللزوم ، نستأنس بها أثناء تحليلنا لخطاب الشعب .

يسوق جون ريتشاردسون مثالا يفسّر فيه دراسة ظاهرة التعدية واللزوم وهو مقتطف من جريدة «الغارديان» لـ ١٩ جويلية ٢٠٠٣ ، يقول الصحافي :

«هذا الأسبوع الحكومة وجدت نفسها تُواجه اتهامات بالتلاعب تهمّ إصدار بعض إحصائيّات ملتبسة [تتعلق بمعدل] الجريمة»(١)

(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P56, Palgrave Macmillan, 2007.

نلاحظ أن الصحافي حذف المتّهِمين (الذين يتهمون الحكومة بالتلاعب) ، لأن الصحافي يرى أنّ اتهام الحكومة بالتلاعب هو أهمّ عنصر في القصّة ، ولذلك وجب إبرازه ولو كان على حساب الفاعلين الذين يمكن أن يتعرّفهم القارئ حين يتابع قراءة المقال .

ويشير جون ريتشاردسون إلى أنّ اللغة الانقليزيّة (وفي رأينا عدد من اللغات الأخرى أيضا) تسمح بوصف الحدث نفسه بطرق عديدة ومختلفة ، وبذلك يمكننا أن نختار :

تمثيل حدث كتمشّ متعدّ ، مثال :

«صندوق النقد الدولي يغيّر النظام الاقتصادي العالمي»

أو كتمشّ علائقي :

«النظام الاقتصادي العالمي في حالة تغيّر» .

يحمل كل من هذين الاختيارين معان مرموزة (connoted) ودالّة ، وقد بيّنت بعض دراسات الخطاب الإعلامي أن ثمّة في الغالب دلالة اجتماعيّة أو ايديولوجيّة تصاحب هذه الاختيارات[١]

وقد بيّن «فيركلاف»[٢] أنّ تحويل تمشّ مبني للمعلوم إلى «علاقة» أو «حالة» يمكن أن يكشف استلزامات سياسيّة مهمّة وفي أغلب الأحيان تكون غير صريحة ، مستشهدا بمقتطف من الكتاب الأبيض للحزب العمّالي الجديد (١٩٩٨) «بناء اقتصاد المعرفة» (ويقصد بذلك الاقتصاد المعتمد على المعرفة) :

«في اقتصاد اليوم السائر سيراً حثيثاً نحو العولمة ، لن نتمكّن من التنافس بالطرق القديمة . رأس المال متحرّك ، والتكنولوجيا يمكن أن تهاجر بسرعة ، والسلع يمكن أن تصنع في بلدان منخفضة التكلفة ثمّ تُشحن إلى أسواق البلدان المتقدّمة» .

يرى جون ريتشاردسون في هذا المثال ثلاث تمشّيات ؛ فالجملة «رأس المال متحرّك» تتضمّن تمشّيا يُحوّل تمشّيا مبنيا للمعلوم «تحرّك الشركاتُ رأسَ المال حول العالم» إلى «حالة» أو «وضع» وبالتالي تفتقر معه إلى الفاعليّة . ويُرجِّع هذا التحويل

---

(١) لمزيد من التفصيل ينظر : Fowler 1991, Richardson 2004, Trew 1979 a et b.

(1) Fairclough Norman, Discourse, Social Theory and Social Research: The Discourse of Welfare Reform. Journal of Sociolinguistics. 4(2): 163-195.

صدى فكرة أدلى بها ماركس سنة ١٨٤٨ مفادها أنّه «في المجتمع الرأسمالي رأس المال هو المستقل والمُشخصن، بينما الفرد الحيّ تابع ومنزوع الشخصنة[(1)]». إنّ تحوّل رأس المال باعتباره علاقة ليس له وجود مستقل عن الإنسان، وهي حقيقة ينكرها ضمنيّا تمشّي «رأس المال المتحرّك».

في التمشّي «التكنولوجيا يمكن أن تهاجر بسرعة» تنسب الفاعليّة للتكنولوجيا ذاتها بدل كونها شيئا تفعله الشركات المتعدّدة الجنسيّات، هذا إلى جانب أنّ حركة التكنولوجيا مُثّلت استعاريّا كهجرة. ثم إنّ «السلع يمكن أن تُصنع في بلدان منخفضة التكلفة» و«السلع يمكن أن تشحن إلى أسواق البلدان المتقدّمة»، هما تمشّيان متعدّيان بدون فاعل، ولنا أن نتساءل من هو فاعل الصنع؟ من هو فاعل الشحن؟

كما في المثال السابق المأخوذ من صحيفة «الغارديان» بُني الفعل في هاتين الجملتين لغير المعلوم. ويذهب فيركلاف إلى أن حزب العمّال الجديد كان بإمكانه أن يعترف بالدور الفعّال والنشيط للشركات متعدّدة الجنسيات في السيطرة على الاقتصاد العالمي ولكنه يموّه ذلك ويتغافل عنه قصدا لأنه لا يخدم أغراضه.

من خلال تحويل التمشّيات المعنية يقع إخفاء الأدوار النشيطة التي تؤدّيها الشركات متعددة الجنسيّات في الحفاظ على التفاوتات في الاقتصاد المُعَوْلم، وتحذف أو تُحوّل الأدوار إلى علاقة مفرغة من طابعها السياسي أو متبنيّة لطابع سياسي آخر يخدم مصلحة المتكلّم.

بعبارة «سيمبسون» يمكننا تغيير الظروف المرتبطة بالتمشّي إمّا بتسييق إضافي في صورة جمل ظرفيّة (في صورة مركبات ظرفيّة أو مركبات بالجر)[(2)] أو من خلال بنْينته أو تأطير معنى تمشّ علائقي. وقد بيّن «مونتغومري»[(3)] أنه طوال إضراب عمّال المناجم سنة ١٩٨٣ وصفت «الدايلي مايل» (التي ساندت على العموم موقف الحكومة المحافظة) أحداث الاعتصام مستعملة جملا وعبارات من قبيل ما يلي:

---

(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P56.

(2) Paul Simpson, Language, Ideology and Point of View, P88 , Routledge, 1993.

(3) Scott L. Montgomrey, Science in Translation, Movements of Knowledge through Cultures and Times,P92, Chicago and London, The University of Chicago Press, 2000.

- عُولج ٤١ شرطيّا في المستشفى .
- رُجمت أحصنة الشرطة وفرسانها [راكبوها] .
- [. . .] رمى المعتصمون رجال الشرطة بالقنابل .

باعتبار التعدية مُثّل رجال الشرطة هنا مفعولين لعمل تعدية عنيف ، بينما يبدو المعتصمون فاعلين للعنف ، وعلى عكس ذلك مثّلت الجريدة اليساريّة «ذي مورنينغ ستار» (the Morning Star) أحداث الاعتصام على النحو التالي :

- هاجمت الشرطة مجموعة من عمّال المناجم العزّل .
- عدد من عمال المناجم ضُربوا بالهراوات .
- [. . .] ٣٠٠٠ معتصم تجمّعوا أمس خارج «كورتنوود كولييري» .

في هذه الأمثلة أصبح عمّال المناجم مفعولا لأفعال تعدية عنيفة قامت بها الشرطة ، وحين يقع تمثيل عمال المناجم فاعلين فإنّ ذلك «يتضمّن عادة تمشّيات حركة غير عنيفة[1]» .

في الشعارات التي نحن بصدد دراستها لا يمكن أن نقف على أمثلة كثيرة تبيّن هذه الظاهرة (التعدية واللزوم) وتكشف تمشياتها ، ذلك أن جلّ الشعارات تقوم على الجمل الاسميّة أو المركبات الاسمية التي يكون الفعل فيها مقدّرا أحيانا ، مثال : «حرّيات حرّيات ، لا رئاسة مدى الحياة» حيث وقع حذف الفعل الذي يسبق «حرّيات» والذي يعبّر عن المطلبيّة ويمكن أن يكون «نطالب» أو «نريد» أو «نرغب» . بينما يسبق الجزء الثاني فعل يدلّ على الرفض والاستبعاد ويمكن أن يكون «نرفض» أو أحد الأفعال السابقة منفيا «لا نريد» ، «لا نرغب» . ونحصل على :

«نريد حريّات ، نريد حريّات ، نرفض الرئاسة مدى الحياة»

ويمكّننا هذا التحويل من دراسة التعدية واللزوم . وتظهر التعدية في إطار تمشّ متواز بين الجزأين اللذين يكوّنان الشعار ، ويضمنان له إيقاعه الداخلي الخاص ، فنجد «نريد حريات ، نريد حريات» يقابلها الجزء الثاني «نرفض الرئاسة مدى الحياة» ، وبذلك تكون البنية كالتالي : فعل + فاعل + مفعول/ فعل + فاعل + مفعول .

لكن في الشعار الأصلي يسقط الفاعل (المُطالِب) ويسقط الفعل (فعل الطلب)

(1) op.cit,,P92.

ليبقى المفعول (المطلوب) وهو بؤرة الشعار وأساس هذا التمشّي القائم على الحذف ، فتصبح البنية في الجزء الأول :

فعل فاعل مفعول

Ø Ø حرّيّات . (تتكرّر هذه البنية مرّتين)

وفي الجزء الثاني :

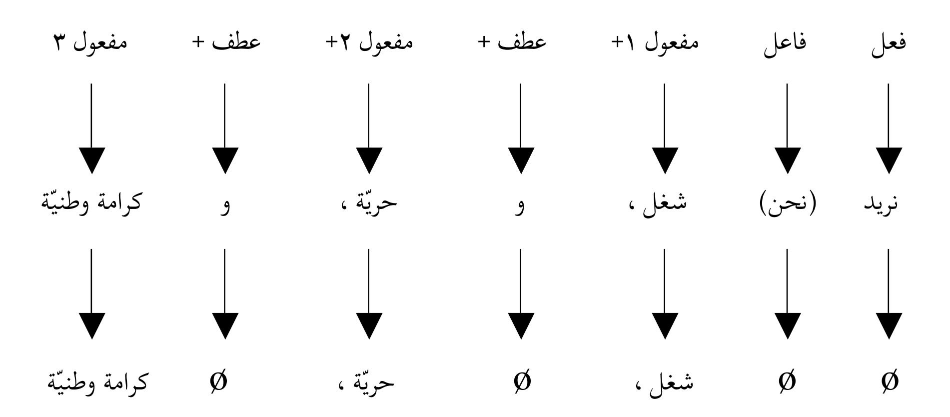
نفي فعل فاعل مفعول

لا Ø Ø رئاسة مدى الحياة .

يمكن تطبيق هذا التمشّي على بقيّة الشعارات التي تتكوّن من مركّبات اسميّة متتالية مثل «شغل ، حريّة ، كرامة وطنيّة» ، وذلك أنّ أغلب الشعارات من هذا النوع تضع المطالب موضعا بارزا وتجعلها في الصدارة لأهميّتها ، فهي تكوّن محور المظاهرة أو المسيرة وموضوعهما ، والسبب الرئيسي الذي خرج من أجله المتظاهرون .

ولذلك لا يقع الاهتمام كثيرا بالبنية التي يجب أن تكون عليها الجملة ، والتي يمكن أن تشتّت الانتباه وتحوّله عن الهدف الأساسي ، ولذلك يكتفي المتظاهرون بذكر المطلوب ويلحّون عليه بتكراره في أسلوب متناغم صانعين بذلك إيقاعا خاصّا يساهم في ترسيخ الكلمات في الأذهان دون جهد كبير .

في أحيان كثيرة يقع الاستغناء حتى عن الربط بين الكلمات (العطف مثلا) فنتحصّل على بنية ظاهرة للشعار تصل إلى المتلقّي وهي نتيجة بنية أولى وقع إسقاط أغلب مكوّناتها . ويمكن ملاحظة ذلك في المثال السابق «شغل ، حريّة ، كرامة وطنيّة» كالتالي :



بذلك يكتسب الشعار بنية خاصّة يصبح للمفعول النحوي فيها وضعيّة الصدارة ، ويصبح دلاليّا محور الشعار وأساسه وأهم عنصر فيه ، لذلك يقع الاكتفاء به وتسقط العناصر الأخرى المكوّنة للجملة المفترضة التي تكوّن الشعار .

إلى جانب الشعارات التي تكُون جملا اسميّة وتتكوّن من مبتدأ وخبر كل منهما مركّب اسميٌ فإنّنا نجد شعارات في شكل جمل اسميّة يكون فيها الخبر مركّبا فعليّا ، وهذا التمشّي تمّ بتقديم الفاعل على الفعل عن قصد وإدراك لما لذلك من تأثير في السامع في تقييمه لمدلول الشعار ، وذلك مع المحافظة على البنية الأساسيّة للتعدية في الجملة ومثال ذلك :

«الشعب يريد إسقاط النظام»

هنا أراد المتظاهرون إبراز قوّة الشعب في الفعل المزمع إنجازه (إسقاط النظام) فجاء «الشعب» الفاعل (الفاعل الدلالي : المُنفذ l'agent وهو الموضوع القائم بالعمل[1]) القادر على إنجاز الفعل في أوّل الجملة ، وقد صاحب هذا الشعار شعارٌ آخر يعضده ويُقنع بقوّة الفاعل (الشعب) أمام كل الصعوبات والقيود . وهذا الشعار هو «ولا بدّ للقيد أن ينكسر» ، وهو عجُز البيت الشعري المشهور الذي قاله الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي أيام الاستعمار واضعا ثقته في قوّة إرادة الشعب في تغيير مصيره وإسقاط الاستعمار ، وكامل البيت هو «ولا بد لليل أن ينجلي / ولا بد للقيد أن ينكسر» .

المتظاهرون يريدون أن يبرزوا أنّ التاريخ أثبت دوما أنّ إرادة الشعب تنتصر مهما كانت قوّة الحاكم الظالم ومهما عظُم جبروته . وإحياء هذا البيت وإعادة تسييقه (وضعه في سياق جديد) جاء دعما للشعار الأوّل «الشعب يريد إسقاط النظام» .

للمتلقّي أن يتقبّل الرسالة الكامنة بين الشعارين ويستخلص العبرة ويتعرّف على النتيجة المحتومة لإرادة الشعب وهي الانتصار . وإذا كانت إرادة الشعب زمن الاستعمار هي الحريّة من خلال طرد الاستعمار فإنّ إرادته الآن هي إسقاط النظام القائم ، وهذا النظام يشترك مع الاستعمار في تكبيل الحريّة وسرقة الحياة الكريمة من الشعب .

أصبحت عبارة «الشعب يريد» أيقونة تستعملها وسائل الإعلام في برامجها وفي

---

(1)Fillmore Charles, The Case of Case, 1968, revue languages n 38, juin 1975.

صفحاتها حتى إن قناة «الجزيرة» بثّت برنامجا سمّته «الشعب يريد» واستدعت فيه عدداً من الشخصيّات السياسيّة المعروفة ، وكذا فعلت بعض القنوات الأخرى مثل قناة «القاهرة والناس» ، كما أنّنا نجد في موسوعة ويكيبيديا مدخلا للحديث عن هذا الشعار[١] ، كما فُتحت عدة مواقع على «فايسبوك» بنفس التسمية ، وظهرت جريدة إلكترونيّة كذلك باسم «الشعب يريد[٢]» . ولا يكاد يخلو مؤلَّف حول الثورة التونسيّة أو الثورات العربيّة الأخرى من ذكر هذا الشعار الذي أصبح وعاء تصب فيه الشعوب العربية الثائرة رغباتها في تغيير وضعها نحو الأفضل .

يرد الخبر في هذه الجملة الاسمية «الشعب يريد إسقاط النظام» عبارة عن مركب فعلي يشمل تمشيا مبنيا للمعلوم (المبتدأ) وذلك من جهة حمله لمعنى الإخبار عن مبتدإ سبق الحديث عنه وأصبح في الخبر عبارة عن فاعل مستتر نحويا ولكنه معلوم دلاليّا ، أما مفعول الفعل أراد (إسقاط النظام) فهو النقطة الجوهرية في هذا الشعار ، وظهور الفاعل الدلالي أو ما يسميه قروبر وبعده جاكندوف[٣] بـ«المحور» سواء في كامل الجملة الاسمية التي تكوّن الشعار أو في المركب الفعلي الذي يكوّن الخبر

(١) جاء في الموسوعة الحرّة ويكيبيديا «**الشعب يريد إسقاط النظام**» شعار رفعه المتظاهرون العرب في الثورات التي انطلقت ضد أنظمة الحكم القمعية في الوطن العربي ، وأصبحَ الشعار الرئيسي المرفوع في معظم الثورات والاحتجاجات العربية . ظهر الشعار أوّل ما ظهر في تونس مع اشتداد الثورة ضدّ نظام زين العابدين بن على ، حيث ردّده المتظاهرون لأسابيع في شارع الحبيب بورقيبة في العاصمة التونسيّة . استخدم ثانية في الثورة المصريّة التي أطاحت بحكم حسني مبارك ، وأصبح أيقونة ملازمة للاحتجاجات العربيّة ، وصار يعبّر عن وحدة الهمّ والمشاعر في الوطن العربي . كما استخدم هذا الشعار لأول مرّة في ليبيا بمدينة البيضاء التي كان لها دور كبير في بداية الثورة الليبيّة . كان أكبر أثر لهذا الشعار في سوريا حيث قامت مجموعة من الفتية برشّ الشعار على الجدران في مدينة درعا في آذار **٢٠١١** مما أدّى إلى اعتقالهم ، وأشعلت هذه الحادثة موجة احتجاجات في سوريا . وفي الأنظمة الملكيّة تمّ تغيير الشعار إلى الشعب يريد إسقاط رموز الفساد أو الشعب يريد إسقاط الاستبداد ، تفاديا للإشارة إلى شخص الملك لتجنب الوقوع في مشاكل قانونيّة» .

(2) https://www.facebook.com/sha3b.wants.

(3) Ray Jackendoff, Semantics and Cognition, the MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, 1983.

هو ظهور مقصود لبيان استفاقة الشعب وقدرته على صياغة وعيه الجمعي في مطلب أساسي اجتمعت عليه كل شرائح المجتمع ألا وهو «إسقاط النظام» .

تعتبر أعمال قروبر في مجال التحليل الدلالي للجملة ذات أهمية تاريخيّة متميّزة وخاصة تلك التي اهتم فيها بدراسة الأدوار الدلاليّة محاولا إيجاد العلاقة بين الدلالة والتركيب ، وقد اعتمد قروبر على مفهومي الحركة والحلول . وصنّف من خلالها المحمولات لذلك نجده يصنّف الأفعال إلى نوعين أساسيّين : أفعال الحركة وأفعال الحلول . أما موضوع الحركة والحلول فيتمثل في المنبع (source) والمحل (locative) والهدف (goal) .

وقد أكد «قروبر» أن التّحليل الدّلالي للحركة والمحلّ يمكن أن يعمّم على حقول أخرى مجرّدة . وفيما يلي الأدوار الأساسية في نسق قروبر[1] :

المحور (thème)

المحلّ (location)

المنبع (source)

الهدف (goal)

المنفّذ (agent)

الآلة (instrument)

اعتمادا على ما ذهب إليه كل من قروبر وجاكندوف بخصوص البنية الدلاليّة للجملة يمكن أن نمثّل الشعار السابق على هذا النحو :

حدث	منبع (المحور)	هدف
يريد	الشعب	إسقاط النظام

هذا الثالوث (حدث ، منبع أو محور ، وهدف) هو الذي يمثل البنية الدلاليّة للشعار والتي تحوي بحدّ ذاتها التمشي الذي وقع تبنّيه من قبل واضع (أو واضعي)

(١) عبد القادر الفاسي الفهري : المعجم العربي نماذج تحليلية جديدة ، ص٣٥ وكذلك كتاب قروبر :

- Gruber Jeffrey S.(1962). Studies in lexical relations, S.B, Massachusetts Institute of Technology.

الشعار . وهي تعبّر بطريقة أخرى عن التعدية التي تُوصل الحدث من محوره إلى هدفه ، بحسب التمثيل النحوي التالي :

فعل	فاعل	م . به
يريد	الشعب	إسقاط النظام

ونلاحظ أنه سواء اعتمدنا التحليل النحوي الصرف أو التحليل الدلالي فإن كلتا البنيتين تبيّنان أنّ التمشي هو تمشي تعدية إلى المفعول في البنية النحويّة وإلى الهدف في البنية الدلاليّة وهو «إسقاط النظام» .

كما أن مفهوم الجَعْليّة يحقق تمشيا مخصوصا من تمشيات التعدية . وتتحقق الجعليّة من خلال أفعال نفهم منها أن «س» جعل «ص» يفعل كذا ، والجَعْليّة هي مصدر صناعي من فعل جعل(١) . و«جعله يجعله جعلا : صنعه ، وجعله صيّره [. . .] وجعل الطين خزفا والقبيح حسنا : صيّره إيّاه (٢)» . ويفسّر الأستاذ محمد صلاح الدين الشريف(٣) هذه الظاهرة بمقارنة بسيطة بين الجملتين :

- أخرج زيد عمرا
- ضرب زيد عمرا

يرى صلاح الدين الشريف أن الجملتين تُقدَّمان في نفس الشكل النحوي (فعل وفاعل ومفعول به) ، في حين أن التركيبين لا يُؤديان إلى نفس الصورة المنطقيّة إذ لا يمكن تأويلهما دلاليا على نفس الشاكلة . فالمفعول به في جملة «ضرب زيد عمرا» متقبل ، بينما نجده في الجملة الثانية «أخرج زيد عمرا» قائما بالحدث أي وقع إسناد الحدث إليه . وهذا ما يجعلنا نبحث عن شيء يفسّر ذلك .

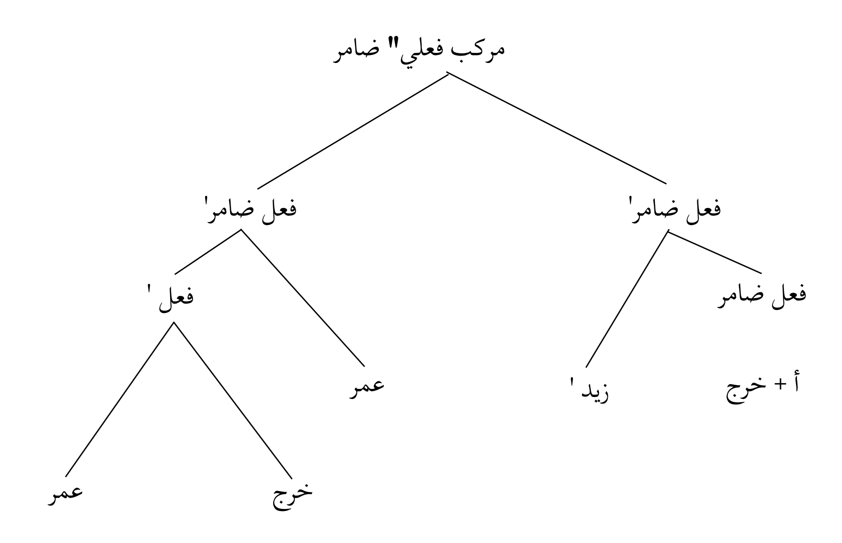
---

(١) المصادر والأسماء المشتقة من فعل جعل والتي يذكرها ابن منظور في لسان العرب هي «جَعْلا ، ومجعلا ، والجُعْل ، والجِعال ، والجعيلة والجُعالة ، والجِعالة ، والجَعالة ، والجعْلة ، والجَعلة ، والجِعْلان ، لسان العرب ج ٣-٤ ، ص ١٥٨-١٥٩-١٦٠ .

(٢) انظر لسان العرب ج ٣-٤ ، ص ١٥٩ .

(٣) درس بعنوان «النظرية التوليدية» قدمه محمد صلاح الدين الشريف لطلبة الماجستير بكلية منوبة للسنة الدراسية ٢٠٠٨-٢٠٠٩ .

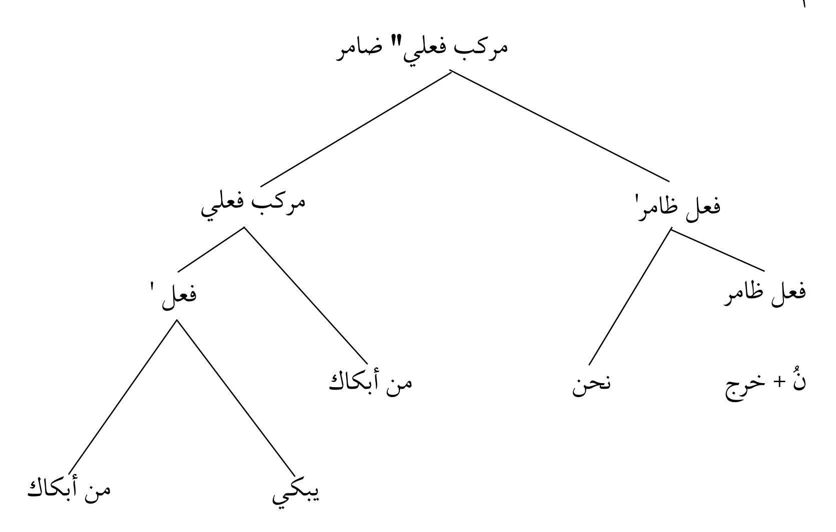
فأخرج زيد عمرا تعطينا دلاليا ← جعل زيدٌ عمرا يخرج . ويرى صلاح الدين الشريف أن الفعل جعل فعلٌ «ضامر» بينما يسميه الباحثون المغاربة فعلا خفيفا ، وكلاهما ترجمة للعبارة الانقليزية التي استعملها شومسكي لدراسة هذه الظاهرة في كتابه «البرنامج الأدنوي» وهي light verb . ويرمز شومسكي للفعل العادي بـV وللفعل الضامر بـ v ، ويمثل صلاح الدين الشريف الجملة أخرج زيد عمرا كالتالي (الرسم ٢) :



إن هذا التحليل النحوي للجملة التي تحتوي على فعل ضامر يفيد الجعليّة يجعلنا ننظر إلى بعض الجمل التي تكوّن الشعارات من زاوية جديدة وهي مفهوم الجعليّة الذي يتحقق بالهمزة في أول الفعل كما يتحقق دلاليا ببعض الأفعال المتعدية إلى مفعولين مثل «وَهَبَ» ، وذلك بالرجوع إلى البنية العميقة . وهكذا فالشعار «سنُبكي من أبكاك يا محمد لن ننساك[١]» مبني على فعل ضامر «جعل» أي «سنجعل من أبكاك يبكي» ، وهو عبارة عن «أبكى الشعب الشخص الحاكم» ، والجعلية هنا ظهرت في شكل إضافة الألف المهموزة إلى الفعل بكى ، مع وعد بالقيام بالفعل في

(١) المقصود هو محمد البوعزيزي الذي أضرم النار في نفسه يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ احتجاجا على منعه من مزاولة عمله كبائع متجول .

المستقبل جاء في شكل تحذير للحاكم ويمكن تحليل الجزء الأول من الشعار كالتالي (الرسم٣) :



إن فعل القيام بالبكاء لا يسند إلى الفاعل النحوي وإنما إلى المفعول النحوي وهو «من أبكاك» ؛ فالحاكم هو الذي سيَبكي ، ومن سيجعله يَبكي هو الشعب . وقد نفّذ الشعب وعده وجعل الحاكم يغادر البلاد ويتخلى عن كرسي الرئاسة مكرها . أما الجزء الثاني من الشعار «يا محمد لن ننساك» فهو أيضا وعد بعدم نسيان أوَّلِ من جعل نفسه شرارة لانتفاضة شعبية تردد صداها في كامل أرجاء البلاد التونسية ووصل إلى دول عربية أخرى تبنت أغلب الشعارات التي رفعها الشعب التونسي .

ورد تمشي التعدية منفيا «لن ننسى (نحن) محمدا» ، فالوعد في كامل الشعار ، في الحقيقة ، وعدان : وعد بجعل الجاني يبكي ، ووعد بعدم نسيان محمد (والمقصود هنا محمد البوعزيزي) .

نرجع بذلك إلى الحركة الدائرية التي يكوّنها الشعار الأساس في رأينا وهو «إذا الشعب يوما أراد الحياة / فلا بد أن يستجيب القدر» ووتدها الذي تقوم عليه وهو «الشعب يريد» لنصل إلى أن هذين الوعدين حقيقةٌ مستقبليّة (في ذلك الوقت) لا مفرّ منها ؛ وهذا ما أكدته الأحداث التي صارت بعد ذلك (هروب الرئيس ومواصلة الاحتجاجات) .

٤-١-٤ التعدية واللزوم في خطاب الصحافة

إذا اعتبرنا أشكال التعدية القاعدةَ الأساسيّة للتمثيل ، فإنّ اختيار التعدية لا يمكن أن يتجاهله أي تحليل لسانيّ للصحافة ، على أنه من المهم أن لا يبالغ التحليل في أثر نظام التعدية في معنى النص ، وخاصّة أن لا نتشبّث ببناء واحد للمجهول مع المعنى الذي يحقّقه . والمثال الذي كيّف فيه هنري ويدوسن (Widdowson)[1] عنوان صحيفة طالما وقع الاستشهاد به :

«أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين في سالسبوري اليوم في تجمّع تزعّمه قادة الـ ANP ، وأصيب أحد عشر إفريقيّا (بطلق ناري)» .

هنا ، في الجملة الثانية أُلغيت فاعليّة الشرطة عن طريق استخدام جملة فعليّة مبنية للمجهول «أُصيبوا بطلق ناري» . ينكشف غياب الفاعليّة في الجملة الثانية بطرح السؤال : أُصيبوا من قبل من؟ ومع ذلك -كما ذهب هنري ويدوسن- «من المؤكّد أنّ الأمر سيكون شاذاً لو فُسّر البناء للمجهول فكريّا باعتباره ممثّلا للحدث بدون فاعل ، مادام الفاعل موصوفا بوضوح في الجملة السابقة[2]» .

يرى هنري ويدوسن في المرجع نفسه أنّ هذه الجملة في سياق الجمل المحيطة بها «ليست مثالا عن التهرّب من الإحالة وإنّما هو تجنّب للإحالة (. . .) ؛ لقد حُذف الفاعل بسبب تكراره « . أي أن الفاعليّة مذكورة في الجملة الأولى ، فلم يكن الأمر في حاجة إلى أن يُعاد ذكرها في الثانية .

جاء في صحيفة «الشروق» التونسية الصادرة بتاريخ ٢٤ جانفي ٢٠١١ مقال منقول عن صحيفة «الاتحاد» الإماراتيّة بعنوان ««ثورة» . . . تونس» ، ورد فيه ما يلي « . . . هبّ الشعب التونسي ، وأصرّ على التغيير ، فهرب بن علي ، وانفتحت الأبواب على مصراعيها قِبل تَتبُّع الأخبارِ التي تترى من هناك بلا هوادة . ومن بين العرب يتفرّس المصريون في «تجربَة» تونس أكثر من الجميع ، ربما لأنهم الذين بدؤوا المناداة بتغيير أنظمة الحكم الحالية توالدت بعدها حركات اجتماعية صغيرة جميعها تروم

---

(1) Henry Widdowson, Text, Context, Pretext, Critical Isssues in Discourse Analysis,P31, published by Blackwell, 2004.

(2) Op cit.

الإصلاح السياسي الجذري ، وربّما لأنهم يشعرون بأن ظروف بلادهم تشبه في جوانب عديدة ظروف تونس» .

تحتوي هذه الفقرة على عدد من الجمل التي سنتناولها بالدراسة والتي تبرز فيها ظاهرة التعدية واللزوم استراتيجية من بين استراتيجيات أخرى ،اختارها الكاتب لإيصال رأيه للمتلقي . توالي الجمل الفعلية القصيرة في بداية المقتطف يشعرنا بسرعة الأحداث وتتاليها في مدة زمنية قصيرة .

الفعل في الجملة الأولى والجملة الثالثة ورد لازما «هبّ»و «هرب» ، وكأن الأول مولّد للثاني ، والفعل «هبّ» يدلّ على القوّة وسرعة الانتشار فاختاره الكاتب من بين عدة أفعال كان يمكن أن يعبّر بها عماّ وقع (تظاهر ، ثار . . .) ، ولكن هذا الاختيار يحمل تمشيا مقصودا يعبّر عن رؤية صاحبه للوقائع ويعكس إحساسه بها .

يحيلنا هذا على بعض الاستعمالات الأخرى للفعل «هبّ» الذي يطلب فاعلا فقط فهو على حدّ تعبير «لوسيان تينيار[1]» (Lucien Tesnière) له تعلقّ واحد أو أحاديّ التعلق (verbe monovalent)[2] ، يمكن أن نذكر من بين تلك الاستعمالات «هبّت الريح» و«هبّت العاصفة» و«هبّ النائم» . . . وهي غالبا ما تحيل على الحركة بعد السكون ، إذ أن فعل «هبّ» بالرجوع إلى التصنيف العام الذي وضعه «لوسيان تينيار» في كتابه (واشتغل عليه بعض الباحثين منهم «جيفري كروبر ١٩٦٢» و«راي جاكندوف ١٩٨٣» وغيرهما) هو من الأفعال التي تعبر عن «حدث» (مقابل أفعال تعبّر عن «حالة») .

هو حدث سريع وقصير وله تأثير على الفاعل «الشعب» المفرد لغويا ، والجمع دلاليا ، لأنه ينقله من السكون إلى الحركة ، «هبّ الشعب التونسي» من رقاده وخرج عن صمته بطريقة فجائية لم تترك الفرصة لمن هبّ ضده لينظم أوراقه من جديد ويغيّر استراتيجيته في الحكم رغم أنه اعترف أنه أخطأ في حقّ هذا الشعب ولم

---

(1) Lucien Tesnière, Eléments de syntaxe Structurales, Paris, Editions Klincksiek, 1976.

(٢) يقسّم لوسيان تينيار الأفعال إلى أربعة أقسام : أفعال منعدمة التعلق (verbes = verbes avalents impersonnels) وأفعال أحادية التعلق (verbes monovalents= verbes intransitifs) ، وأفعال ثنائية التعلق (verbes divalents=verbes transitifs) ، وأفعال ثلاثية التعلق (=verbes trivalents verbes transitifs doubles) .

يفهمه جيدا ، ولكن حركة الحدث (الهبوب) التي انطلقت يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ لا يمكن أن تتراجع وتستقر إلا بعد اكتمال الحدث وتحقيق الغاية منه .

تأتي الجملة الثانية لتعضد الأولى وتبيّن مدى الاستغراق في الحدث «أصرّ على التغيير» ، إنها العاصفة التي تصرّ على اقتلاع الجذور غير المرغوب فيها فلا تتوقف إلا وقد غيّرت تربة الحكم من حكم مدى الحياة (انقضى منه ٢٣ سنة) إلى حكم يقول فيه الشعب كلمته . يحمل الفعل «أصرّ» صفة التعدية إلى مفعول واحد وبذلك فهو فعل متعدّ ثنائي التعلّق ، يتعلّق بفاعل وقع ذكره سابقا فسقط ذكره في هذه الجملة اجتنابا للتكرار ، ومفعول لهذا الفعل وهو «على التغيير» تعدّى إليه الفعل بحرف جر ، واكتفى الفعل بمفعول واحد يبيّن دلالته ويوضحها ، كان يمكن أن يكتفيَ الكاتب بالجملة الأولى ليمرّ إلى وصف النتيجة ، ولكنه وجد في دعمها بالجملة الثانية استكمالا لوصف الأحداث التي وقعت في ذلك الوقت في تونس ، لأن التغيير تمّ حين «أصرّ» الشعب على المطالبة بما يريد ولم يرضخ لتهديد السلطة .

تأتي نتيجة هذين الفعلين «هبّ وأصرّ» متمثلة في فعلي الجملة الثالثة والجملة الرابعة «هرب» و«انفتحت» («هرب بن علي» و«انفتحت الأبواب . . .») . الإصرار على الحدث الأول أدى إلى النتيجة الأساسية وهي هروب بن علي ، لزوم الفعل «هرب» وتعلقه بعنصر واحد هو الفاعل ، له دلالته في الزمان والمكان ، ارتبط حدث الهروب زمنيا بفعلين قبله ومكانيا بمكان هبوب الشعب .

أمّا الجملة الثالثة فإن الفعل اللاّزم فيها «انفتح» (انفتحت الأبواب على مصراعيها) ، له وضع خاص إذا رجعنا إلى «حالات» شارل فيلمور[1] (Charles Fillmore) ، والجملة بحسب نحو الحالات تتكوّن من فعل يرتبط بحالة أو عدّة حالات سمّيت بعد ذلك أدواراً دلالية . ويعتبر شارل فيلمور هذه الحالات ظاهرة كلية كونية تتوفر في جميع اللغات ، وكلّ لغة تحقّقها بطريقتها الخاصة وهي بمثابة الأوائل الدلالية وذات طبيعة تصوّرية . والفعل بحسب هذه النظرية يتطلب مجموعة من الحالات تكوّن إطاره الحالاتي (son cadre casuel) . ودرس فيلمور الفعل «فتح» وبيّن أنه من الأفعال التي تنتمي إلى «حالة» «المفعول» (objectif) ، (لمزيد من التفصيل

(1) Charles Fillmore, The Case of Case, (1968), revue languages n 38, juin 1975.

يُنظر جدول الحالات عند فيلمور ١٩٧١[1]) .

يعتبر فيلمور «الباب» في الجملة «انفتح الباب» مفعولاً ، ويعبّر عن هذه «الحالة» بالكتابة التالية :

انفتح الباب ← [. . . مفعول]

بينما يرى أن :

فتح زيد الباب ← [. . . مفعول + منفّذ]

فتح زيد الباب بالمفتاح ← [. . . مفعول +منفّذ + آلة]

على هذا الأساس يصبح الفاعل النحوي «الأبواب» للفعل اللازم «انفتح» مفعولا من منظور نحو الحالات أو الأدوار الدلالية كما أصبحت تسمّى الآن ، لأن الأبواب لم تقم بفتح نفسها وإنما لا بدّ لذلك من فاعل «حقيقي» وهو في هذا الإطار الشعب التونسي الذي «هبّ» للتغيير ، و«أصرّ» على فتح الأبواب المغلقة .

ونقتطف من بقيّة المقال الجمل التالية :

«١ – أُلحِقت أحزاب المعارضة بالسلطة .

٢ – هبطَت وظيفتها من طرح البديل إلى مجرّد ديكور للتعدّديّة الشكليّة

٣ – ماتت السياسة في الشارع والجامعات والمؤسّسات .

٤ – عادت البلاد بمقتضى نتائج الانتخابات الأخيرة إلى نظام الحزب الواحد» .

الجملة الأولى وقع فيها تبنّي تمشّ مبني للمجهول من خلال بناء الفعل «ألحق» للمجهول ، وأصبح المفعول النحوي نائب فاعل مرفوع . وهذا يذكّرنا بالمثل الذي قدّمه جون ريتشاردسون وهو عبارة عن تقرير وكالة صحفيّة منشورٍ في القسم الرئيسي من صحيفة the Sundy Telegram

«اشتباكات في جنين

جُرح خمسة جنود إسرائليين وفلسطينيّ واحد إثر دخول قوات إسرائيليّة مدينة جنين في الضفّة الغربيّة . (٥ جانفي ٢٠٠٣)»

هذا المقتطف أعلاه يمثّل التقرير الكامل لهذا الحدث ويضمّ تمشّيَين دالّين فعلُهما متعدّ . الجملة الأولى تقول «جُرح خمسة جنود إسرائليين وفلسطينيّ واحد» ، هنا وقع

(1) voir : Cook, Guy, Discourse. Language Teaching: A Scheme for Teacher Education.P39, Oxford: Oxford University Press, 1989.

التعبير عن تمشّ فعله متعدّ -جَرَحَ- في شكل بناء للمجهول بدون فاعل . وينطوي مثل هذا الاختيار للتعدية على درجة من الالتباس ، غير أنّ هذا الالتباس ناتج في هذا المثال عن درجة كبيرة من عدم الدقّة حتى إن الجملة غير مفيدة تقريبا .

يرى جون ريتشاردسون أنّ هذه الجملة فاشلة إذا نُظر إليها من زاوية الكفاءة الصحفيّة ، لأن نصف التمشّي المتعدّي (وهو ينطوي دائما على طرفين على الأقل) فقط هو القابل للاستعادة من النص (أي التذكّر والاسترجاع) ، لم يقع الإخبار إلاّ بالمصابين دون الفاعل الحقيقي للحدث الذي وقعت تغطيته ، ولسنا متأكّدين أيضا ممّا إذا كان الجنود الإسرائيليّون الخمسة والفلسطينيّ قد جُرحوا نتيجة عمليّة واحدة أم نتيجة عدّة عمليّات .

وإذا رجعنا إلى الجملة الأولى التي اقتطفناها من جريدة الشرق الأوسط « أُلحقت أحزاب المعارضة بالسلطة » ، وجدنا أن التمشي الذي اختاره الكاتب يحتوي كذلك على جانب كبير من الغموض . فَقَد الفعل المتعدي أحد متعلّقاته وانتقل من فعل ثنائي التعلق إلى فعل أحاديّ التعلق ، وهذا ما سبّب بعض الغموض في الدلالة .

إن سقوط الفاعل الحقيقي في الجملة اختيارٌ واع من الكاتب ، ربّما يعود لقلة المعلومات التي يملكها عن الموضوع ، ولكن في هذه الحالة يمكن أن نتحدّث عن نوع من الاتفاق الضمني بين الكاتب والمتلقي يجعل الجملة تخرج عن الغموض لتدخل منطقة المعلوم المشترك بين الباثّ والمتلقي ، وكأن الكاتب لا يرى ضرورة لذكر من تولّى إلحاق الأحزاب بالسلطة وهذا تأويل من بين تأويلات عديدة يحملنا إليها البناء للمجهول .

يمكن أن تكون السلطة نفسها هي التي ألحقت الأحزاب بها لتضمن وجود معارضة شكلية تتحكم فيها على هواها ، كما يمكن أن تكون الأحزاب هي التي اختارت أن تلتحق بالسلطة طمعا في المال والنفوذ أو اتقاء شر السلطة .

يترك التمشّي الذي وقع اختياره لهذا الفعل المتعدي نوعا من الضبابيّة وعدم الوضوح مهما عوّل الكاتب على المعارف المشتركة بينه وبين المتلقي ، وبذلك يترك هامشا من الحرية للكاتب يجعله يتنصّل من المسؤولية متى وقع تأويل القول في غير صالحه .

يرى جون ريتشاردسون أنّ هذا الاختيار ضيّق الحيز ، وبعبارة أخرى أُلحقت

الأحزاب بالسلطة من قبل أناس، من هم؟ ولتوفير تفاصيل أخرى حول من يكون الفاعلون في كلّ حالة سيتطلّب الأمر حيّزا أوسع؛ وقد رأى الكاتب أنّ هذا الحدث لا يستحقّ ذلك.

لو وقع التعبير عن التمشّي ببناء للمعلوم مثل «ألحق س الأحزاب بالسلطة» لوفّر لنا النص تقريرا مفسّرا عن العمليّة المغطّاة.

الجملة الفعليّة الثانية، «هبطت وظيفتها [الأحزاب] من طرح البديل إلى مجرّد ديكور للتعدّدية الشكلية»، تحمل فعلا لازما «هبط» ولكن الكاتب يصرّ على التفسير وذلك بإلحاقه بتمّمات تبيّن وتفسّر هذا الفعل، حركة الهبوط نقلت وظيفة الأحزاب نوعيا، كانت الوظيفة «طرح البديل» فأصبحت الوظيفة «ديكورا للتعدّدية».

باعتماد نظرية الحقول الفضائية لـ «جاكندوف»[1] يمكن أن نعتبر أن الفعل «هبط» يختزل مصدرا ومسارا وهدفا في الوقت نفسه، ويمكن تمثيله كالتالي:

حدث ذهب تعيين ([شيء متحدث عنه الوظيفة]، [مسار من تعيين [(طرح البديل) [إلى تعيين ([ديكور للتعددية الشكلية]))].

حركة الذهاب هنا هي الهبوط وهي حركة عمودية من فوق إلى أسفل وبالرجوع إلى الدلالات الثقافية لهذه الحركة، نجد أنها تعبّر في كثير من الأحيان عن الانتقال من الحسن إلى السيئ، نقول «هبط مستواه» و«أخلاقه هابطة» إلى غير ذلك من التعابير التي تحمل شحنة سلبيّة في تصوّر الانتقال من الأعلى إلى الأسفل.

استعمل الكاتب كذلك تمشّيا مبنيا للمعلوم في الجملة الثالثة مع فعل لازم «مات»، « ماتت السياسة في الشارع والجامعات والمؤسسات»، ولكن هذا البناء للمعلوم الظاهر نحويّا يحمل في طياته بناء للمجهول دلاليا، وذلك بالرجوع إلى خصائص الفعل «مات»، فهو فعل يعبّر عن حدث غير إرادي لمن يقوم به (في الحالات العادية). ويصبح الفاعل النحويّ مفعولا دلاليا يتلقى فعل الموت من قوّة أخرى خارجة عن نطاقه.

يتساوى الفعل «مات» مع الأفعال التي تعبّر عن الجعليّة مثل «أمات» و«أخرج» و«أزاح» وغيرها من الأفعال الضامرة (أو الخفيفة) التي تبدأ عادة بالهمزة وقد تناولنا

(1) Ray Jackendoff, semantics and cognition, p190-p196, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England.

الفعل «أبكى» بالتحليل في هذا الفصل أثناء تحليل خطاب الشعب .

ماتت السياسة ، ولنا أن نسأل من أمات السياسة؟ كيف أماتها؟ لماذا أماتها؟ ولا نجد أجوبة عن هذه الأسئلة في هذا التمشي الذي اختاره الكاتب ليعبّر عن وضع السياسة في تونس زمن حكم زين العابدين بن علي . اختار تمشيا ينحو إلى التعميم وعدم الدقة في وصف الأحداث ، وقد جاء هذا الوصف في إطار مقارنة بين وضع السياسة في تونس ووضعها في مصر أثناء حكم «حسني مبارك» .

يحمل الفعل «مات» حدثا مأساويا دراميا أراد الكاتب أن يمرّر من خلاله انطباعا سلبيا عن الواقع السياسي في تونس ومصر ، وكان يمكن أن يختار ما هو ألطف منه مثل «ضعف» أو قلّ» ، ولكن اختياره جاء ليعبّر عن رأي يريد أن يقنع به المتلقي فانتقى الفعل الذي رآه مناسبا لذلك .

٤- ٢ الموجهيّة[١] في خطاب «الثورة»

٤-٢-١ تحديد المفهوم

درس عدد من الباحثين الموجهيّة باعتبارها تركيبا مخصوصا يبيّن موقف المتكلم مما يقول . وهي تحيل على الأحكام والتعليق والموقف في النص أو الكلام ، وعلى وجه الخصوص درجة التزام المتكلّم أو الكاتب بما يزعمه . ولنعالج مسألة الموجهية اخترنا أن ننطلق أساسا مما توصّل إليه كل من جون ريتشاردسون[٢] و«سيمبسون»[٣] بهذا الخصوص وذلك لاتصال أعمالهما بمجال التحليل النقدي للخطاب ، وأن نطعّم بحثنا بما ورد في آثار بعض الباحثين الآخرين الذين اهتموا بهذا الموضوع . ثم نطبّق ذلك على أمثلة من خطاب «الثورة» .

يرى «سيمبسون» أن الموجّهيّة «تحيل بصورة عامّة على موقف المتكلّم أو الكاتب إزاء صحّة (صدق) قضيّة وقع التعبير عنها في الجملة ، وتمتدّ أيضا إلى موقفهما من

---

(١) «modality» ، الترجمة للفاسي الفهري ، معجم المصطلحات اللسانية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ٢٠٠٩ .

(2) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, Palgrave Macmillan, 2007.

(3) Paul Simpson, Language, Ideology and Point of View, Routledge, 1993.

وضعيّة أو حدث تصفه جملة ما»[1] . وتوفّر الموجّهيّة لتحليلنا خطوة إضافيّة ، وتبرز أنّ الصلات ليست كائنة بين الشكل والمحتوى فحسب وإنما هي موجودة أيضا بين المحتوى والوظيفة . ويقع التعبير عن الموجهيّة عادة باستعمال أفعال موجهيّة مثلما نجد في الانقليزيّة must, will, should, could, may أو نفيها will not, shouldn't, couldn't, must not, أو من خلال عبارات مثل certainly وغيرها .

لتحديد الموجّهيّة في اللغة العربيّة نجد عبارات وظروفاً وأفعالاً مثل : يجب ، يمكن ، بالتأكيد ، حتما ، لعلّ ، أظنّ ، أقدّر[٢] . . . وغيرها من العبارات الدالة على الموجّهيّة . وتعتبر هذه العبارات مطّردة خاصّة في أنواع الكتابات الصحفيّة التي تميل أكثر إلى التعبير عن الرأي مثل الافتتاحية والأعمدة الثابتة ، وهي أنواع كتابات لا تكتفي بتغطية الحدث أو نقله وإنّما تعبّر عن حكم على حدث (تعليق ، تقييم) ؛ وهكذا يمكن أن نجد أحدهم يكتب ما يلي «كان يمكنه أن يكون أقوى» أو «كان ينبغي أن يكون أقوى» ، وهما طريقتان مختلفتان ليس فقط لوصف الحدث وإنما أيضا لبيان رأي الكاتب فيه .

٤-٢-٢ الذاتية في الموجهية

تمثّل الموجهية وجهة نظر منشئ الخطاب حول القضية التي يطرحها والتي يريد أن يبلّغها للمتلقي ، ولذلك فهي تساعد في تحليل الخطاب وتأويله . ويرى بعض الباحثين أن في كل خطاب موجهيةً وإن لم تذكر بصريح اللفظ ، فهم يعتبرون أن النبرة في الخطاب الشفوي والحركة الجسدية والانفعال بصورة عامة من الموجهات . وهذا ما ذهب إليه روبار فيون بقوله «يبدو المتكلم -في ملفوظ ما- وكأنه يقدّم خبرا خاليا من الانفعال ، إلا أن ما يرافق نشأة الخطاب من سياق مقالي ومقامي للملفوظ ومؤشرات انفعالية كالنبر والإيماء ، كل ذلك يحدث ردّ فعل في المتلقي ، ويكوّن موجهيّة الملفوظ[٣]» . ولكننا سنكتفي بالبحث في الموجهيّة اللفظية لأن الأمثلة التي سنحلّلها أمثلة مكتوبة .

---

(1) op.cit, P47.

(٢) لمزيد الاطلاع انظر أحمد المتوكل ، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي ، الرباط ، ١٩٩٣ .

(3) Robert Vion, Langages, revue n 156, Modalités, modalisations et discours représentés (pages 96 à 110), P100-101, 2004.

تساهم الموجهيّة في تحقيق الذاتية (subjectivité) في الخطاب، وهي كما يقول ديكرو: «وحدها الذاتية في الخطاب تمكّننا من التفريق بين الملفوظ «أنا أعِدُ» و فعل «الوعد»[1]. هذه الذاتية الملازمة لكل ملفوظ تتجلى بمجرّد إنشاء الخطابَ من قبل متكلم لا يمكن أن يكون خارج دائرة ذاته. وكما تساهم الموجهية في إبراز الذاتية في الخطاب فهي تساهم كذلك، بدرجة عالية، في تحقيق دلالة هذا الخطاب وإضاءة عمليّة تأويله.

نلاحظ من خلال السياق المقامي للملفوظ التالي[2]، «إننا نقول لكل من يعمد إلى النيل من مصالح البلاد أو يغرر بشبابنا وبأبنائنا وبناتنا في المدارس والمعاهد ويدفع بهم إلى الشغب والفوضى نقول بكل وضوح أن القانون سيكون هو الفيصل»، أن دلالته لا يمكن أن تقف عند الإخبار «بأن القانون سيكون هو الفيصل» بل يمكن أن نستشف من خلاله صيغة تهديد؛ فزين العابدين بن علي من موقعه كرئيس لتونس وفي سياق ما يعتبره هو «نيلا من مصالح البلاد» لا يمكن أن يخبر مجرّد الإخبار «أن القانون سيكون هو الفيصل»، بل إن خطابه يحمل الكثير من التهديد والوعيد للمتظاهرين. وتتحقق الموجهيّة إلى جانب سياق الملفوظ بالعبارة «نقول بكل وضوح» وهي في الحقيقة تحمل معنى ضمنيا أكثر مما تصّرح به، وهو معنى الوعد بالعقاب الشديد. وذلك لأن دلالة الموجهية لا تظهر دائما في الإحالة المباشرة للعبارات وإنما تتطلب البحث في المعنى الخفيّ المصاحب للخطاب.

٤-٢-٣ موجهية الوجوب

يرى جون ريتشاردسون[3] أنّنا يمكن أن نعبّر تخصيصا عن الموجّهيّة بشكلين رئيسيين: موجّهيّة الاحتراز وموجّهيّة الوجوب. وتبدو التعابير الدالة على موجّهيّة الحقيقة الحاسمة (الوجوب) (يجب، بالتأكيد...) أكثر سلطويّة وأشدّ قوّة من

---

(1) Oswald Ducrot, Dire et ne pas dire, P71, Hermann, Editeurs des Sciences & des Arts, 1980.

(٢) مقتطف من خطاب زين العابدين بن علي يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠١٠ (الخطاب الأول قبل الرحيل).

(3) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P60, Palgrave Macmillan, 2007.

التعابير الدالة على موجّهيّة الاحتراز . وتحيل موجهيّة الوجوب على أحداث مستقبليّة وخاصّة على درجة إيمان المتكلّم/الكاتب بأنّ عملا ما أو قرارات ما يجب أو ينبغي أن تُتّخذ . وسنبيّن ذلك انطلاقا مما سنحلله من أمثلة .

نجد في جريدة «الصباح» التونسية الصادرة بتاريخ ١٤ جانفي٢٠١١ العنوان التالي «لتهدئة الخواطر . .لا بدّ من خطاب سياسي مليء بالصدق والأمانة والحب» ؛ وينسب صاحب المقال ذلك إلى أستاذ في علم النفس الاجتماعي ليعطي شرعية ومصداقية أكبر لمحتوى ما يكتبه . يبدأ الصحفي المقال كالتالي : « . . .في ظل هذه الأزمة لا يجب البتّة التعرض إلى هذا الموضوع فالشارع التونسي لا يرغب ولم يعد في حاجة إلى التوجيه النفسي والاجتماعي ولا يمكن أن نتناول الآن هذا العنف على أنه عنف مرضي فالجميع يعلم أنه تحوّل إلى عنف سياسي وأزمة اجتماعية [. . .] فالتونسي يعيش أزمة ثقة بينه وبين السياسيين ، والخطاب الوحيد الذي سيكون علاجا لنفسيّته وتهدئة لحالة الغضب لديه يجب أن يكون نابعا من السياسيين أنفسهم ، ويكون خطابا مليئا بالصدق» .

في هذا الخطاب الإعلامي وقع التعبير عن الموجّهيّة بألفاظ قاطعة وحاسمة ، مثال : «لا بدّ ، لا يجب ، يجب» ، هذا النوع من الألفاظ الدالة على الوجوب ، وهي كما يسميها «ريتشاردسون» موجّهيّة الوجوب التي تتصف بكونها أكثر سلطة وأشدّ قوّة من التعابير الدالة على موجّهيّة الحقيقة التي تقع بين موجهية الوجوب وموجهية الاحتراز التي يترك فيها المتكلم مجالا للشك في الأمر أو الاختيار بين ما هو معروض وغيره .

إن ما يخوّل للمتكلم استعمال هذا النوع من الموجهية يعود إلى سبب موضوعي وهو صفة المتكلم العالم بالموضوع ومكانته العلمية (أستاذ في علم النفس الاجتماعي) من جهة ، ومن جهة أخرى طبيعة الموضوع المطروق (موضوع من صلب اختصاصه) ويتمثل في دراسة رد فعل الجمهور على الأحداث التي وقعت وبالخصوص على خطاب السياسيين في ذلك الوقت .

كُتب هذا المقال بعد الخطب الثلاث التي ألقاها زين العابدين بن علي ولم تجد الصدى المطلوب من قبل الجمهور ، بل كانت بحسب رأي البعض دافعا نحو مزيد اشتعال فتيل الاحتجاجات ، والمتكلم يريد أن يبيّن ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الشعب والسلطة من خلال صياغة خطاب يتّصف بالصدق والحب وينقل الوقائع والأحداث بأمانة .

وهو يشير ضمنيا إلى ما وصف به زين العابدين بن علي الأحداث «إن هذه الأحداث أعمال قلة من المناوئين . . . مناوئون مأجورون ضمائرهم على كف أطراف التطرف والإرهاب التي تسيرها من الخارج أطراف لا تكن الخير لبلد حريص على العمل والمثابرة»[1] . يرى المتكلم أن السلطة أخطأت التقدير ولم تبيّن «حقيقة» ما وقع (انفجار الشعب بعد سنين من القمع) ، لذلك استعمل المتكلم عبارات دالة على الموجّهية لا تحمل احترازات (مثل : يجب) ليبيّن أن على الخطاب السياسي أن يكون صادقا في وصف الأحداث لكسب ثقة الشعب .

يدعو المتكلم – بما لا يترك مجالا للشك– السياسيين إلى عدم تناول ما وقع على أساس أنه ظاهرة نفسية اجتماعية تخضع لقواعد الدراسة النفسية الاجتماعية المتعارف عليها (لا يجب البتة التعرض إلى هذا الموضوع . . .) ، وذلك لأنه متأكد من صحة وجهة نظره وهو أستاذ علم النفس الاجتماعي . وهي إشارة إلى ما قاله زين العابدين بن علي رادّا دافع ما فعله الشاب الذي أقدم على حرق نفسه إلى الحالة الاجتماعية النفسية لهذا الشاب « . . .كان منطلق هذه الأحداث حالة اجتماعيّة نتفهّم ظروفها وعواملها النفسيّة» .

يدعو المتكلم أيضاً إلى عدم اعتبارها حالة مرضية لفرد يمكن أن تقع لمن يكون في ظروفه ، «ولا يمكن أن نتناول الآن هذا العنف على أنه عنف مرضي» . ويحاول المتكلم من خلال خطابه إعطاء وصفة للسياسيين لمعالجة الوضع ، مع التوصية بوجوب تطبيق ما يجب والابتعاد عما لا يجب .

نجد موجهية الوجوب عادة في خطاب من له سلطة أدبية أو علمية على غيره ، وكذلك في خطاب أصحاب القرار أو خطاب الدول القوية الموجه إلى الدول الضعيفة .

ورد في جريدة القدس العربي الصادرة يوم ٢٦ جانفي ٢٠١١ ، ص ٧ مقال نسب فيه الكلام إلى شخصيات عديدة نقتطف منه مايلي :

جاء على لسان «جيفري فيلتمان» مساعد وزير الخارجية الأمريكي :»وحدها الانتخابات يمكن أن تحدّد إن كانت الحكومة ديموقراطية» .

---

(١) خطاب زين العابدين بن علي يوم ١٠ جانفي ٢٠١١ (الخطاب الثاني منذ اندلاع شرارة الأحداث بسيدي بوزيد) .

صدرت الموجّهية في هذا الخطاب من شخص يمثّل الولايات المتحدة الأمريكية أقوى دولة في العالم وهو يخاطب الحكومة التونسية التي يُفترض أنها خاضعة لها عاملة بأوامرها منتهية عن نواهيها ، ورغم أن الموجهية في هذا الخطاب تبدو موجهية احتراز من خلال قوله «يمكن أن» إلا أنها في الواقع في أعلى سلم الاحتراز أي أنها «حقيقة حاسمة» أقرب ما تكون إلى الوجوب ، وهي تعكس نظرة الغربي إلى الديموقراطية وكيفية تحققها في المجتمعات من خلال ربطها بالانتخابات ، لا ديموقراطية بدون انتخابات .

تتحقق الموجهية في اللغة الفرنسية بعدة عبارات مثل il faut, il doit, il est préférable, il est nécessaire ، وفي المقتطف التالي من جريدة la Presse الصادرة يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ نقرأ :

«أشارت رئيسة الاتحاد النسائي التونسي إلى أنه يجب على المرأة ، في هذا السياق ، أن تكون في مستوى التحولات الوطنية والدولية لكي تستطيع أن تؤدي دورها كاملاً صلب العائلة وبالتحديد فيما يخص تربية الأطفال» .

استعملت رئيسة الاتحاد النسائي عبارة «doit» ، «يجب» لتبيّن موقفها إزاء ما ستقوله ، فهو بالنسبة إليها واجب ، وعلى كل امرأة تونسية أن تعمل على أن تكون عموما في مستوى الأحداث والتغيرات التي أصابت المجتمع ، وتبرّر المتكلمة استعمالها هذا الوجوبَ بسبب وجيه في نظرها وفي نظر المرأة التونسية وهو القدرة على تحمل المسؤولية صلب العائلة ، وتخصّص المتحدثة هذا الواجب وتحدده في تربية الأبناء .

تعبّر «doit» في اللغة الفرنسية عن موجهية وجوبية خول الوضع الاجتماعي للمتكلمة استعمالها ، بما أنها رئيسة الاتحاد النسائي والناطقة باسم هذه المنظمة التي تدعي أنها تمثّل كل شرائح النساء في تونس . واستعملت المتكلمة سلما تفصيليّا لما تأمر به المرأة ؛ ينطلق من أن تكون في المستوى مرورا بتحمل المسؤولية وصولا إلى تربية الأبناء ، وهي بذلك تكرّس نظرة معينة للمرأة تجعل أهم ما تقوم به في حياتها هو تربية الأبناء ، فإن نجحت المرأة في ذلك فقد أثبتت أنها تحملت مسؤوليتها وكانت في مستوى التغيرات الوطنية والعالمية .

٤-٢-٤ موجهية الاحتراز

تتنوّع موجهيّة الاحتراز على سلّم من الخيارات يحوي درجات مختلفة من التردّد (نعني بالتردد هنا الاحتراز) ، مثال للتردد : «يمكن أن تتوقّف الحرب لو تدخّل الناس في التمشّي السياسي» ، ويقين محدود مثال : «هذه الحرب يمكن أن تتوقّف فقط إذا تدخّل الناس في التمشّي السياسي» .

ونلاحظ أن موجهية الاحتراز تستعمل أكثر في نصوص لها صلة بمشاعر الإنسان ، ومع ذلك فإن استعماله يكون ذا تأثير مهمّ في صياغة فهمنا لحدث أو لحدث ممكن الوقوع ، ومثال ذلك عنوان خبر أوردته صحيفة «الدايلي مايل»(١)

«يمكن أن تكون بريطانيا عرضة لهجوم إرهابيّ على طريقة ما وقع في مدريد في أثناء الاستعدادات الجارية للزفاف الملكي والانتخابات العامّة ، بذلك حذّر كبير ضباط الداخليّة أمس»

(الدايلي مايل ، ٢٥ فيفري٢٠٠٥ ؛ والتشديد من عندنا) .

إنّ التباس مثل هذا الزعم الموجّهي مضافا إليه الفعل «حذّر» يقوّي ، على نحو متزايد ، معنى الفزع والتهديد ، وحين نجد مثل هذه التمشّيات والاستراتيجيات الإحاليّة «يمكن أن تكون بريطانيا عرضة لهجوم إرهابيّ على طريقة ما وقع في مدريد» يجب أن نتساءل ما احتمالات حدوث هذا مستقبلا؟ واضح أنّ عددا كبيرا من الأشياء يمكن أن تحدث ، ولكن لا ينبغي للصحافي أن يتجاوز الأساليب الاحتياليّة للمنطق الأمني دونما انتقاد ، أي يجب على الصحافي أن ينتقد رأي ضابط الأمن في هذا الأسلوب الدعائي الذي ليس بجديد على المؤسسة الأمنيّة .

وهذا ما نجده في عنوان في صحيفة independant (19 november 1997) يصف صدّام حسين أثناء العمليّة التي تسمى بـ«ثعلب الصحراء» :

«بريطانيا تحذّر من قنبلة صدّام الموقوتة»

وقعت صياغة هذه المزاعم التي تدّعي أنّ صدام حسين يمثل خطرا باستعمال فعل «تحذّر» الذي يبيّن نوعا من التخفيف رغم وجود عبارة «قنبلة موقوتة» فالفعل يكاد يجعل الجملة فارغة من محتواها الواقعي .

(1) John. E. Richardson, Analysing Newspapers, An Approach from Critical Discourse Analysis, P60, Palgrave Macmillan, 2007.

جاء في خطاب منظمة العفو الدولية «أمنستي» (في نفس المقال) وهي تدعو إلى إصلاح جهاز الأمن والقضاء في تونس : «يتعيّن عليها كخطوة أولى أن تبادر فورا إلى ضبط قوات الأمن التي طالما قامت بمضايقة المواطنين التونسيين العاديين وقمعهم ، وإخضاعها للمساءلة بموجب القانون» ، نجد تقريبا عكس ما لاحظناه في خطاب نائب وزير الخارجية الأمريكية ، حيث تستعمل المنظمة موجهيّة وجوبيّة «يتعيّن» ولكنها بالرجوع إلى مقام المتكلم بالنسبة للمخاطب نلاحظ أن هذا الوجوب اللفظي يحتوي على احتراز يفرضه المقام فتدخل الموجهية بذلك في خانة موجهية الاحتراز ، لأن منظمة العفو الدولية لا يمكن أن تلزم الحكومة التونسية بشيء بل يمكنها أن تطلب منها ، ويمكن لهذه الأخيرة أن تستجيب أو لا تستجيب .

اخترنا من جريدة الشروق التونسية الصادرة بتاريخ ٢٤ جانفي ٢٠١١ ما يلي : «غليان حزبي يتسابق على حصد ثمار الثورة الشعبية : من المرشّح أن يتضاعف عدد الأحزاب خلال الفترة القليلة القادمة ، ورجّحت مصادر على اطلاع بواقع الحياة السياسية في تونس أن يفوق عدد الأحزاب القانونية قريبا عشرين حزبا» .

ينطلق الكاتب من واقع وصفه في العنوان ، وهو عبارة عن قناعة يبني عليها رأيه الوارد بعد ذلك ؛ «غليان حزبي يتسابق على حصد ثمار الثورة الشعبية» ليحدّد الأداة التي تعبّر عن الموجهيّة في ما سيأتي من خطابه ، لأن ما سيقوله عبارةٌ عن استنتاج من مجريات الأحداث على أرضية الواقع في تونس .

لم يكتف الكاتب بوصف الحدث ونقله وإنما عبّر عن رأيه الشخصي مستشرفاً المستقبل من خلاله ، بناء على ما يشاهده في الواقع . ولا يمكن له من موقعه كصحفي أن يستعمل موجهية وجوبية يستشرف بها المستقبل ، فابتعد عن عبارات مثل «يجب ، بالتأكيد ، ينبغي . . .» واستعمل موجهية تسبغ على خطابه درجة من الاحتراز وذلك باختياره عبارة «من المرشح» ، هذه العبارة التي تقترب من الحقيقة بقدر ابتعادها عن الشك وذلك لدرجة إيمان الكاتب بحدوث ما يتصوره مستقبلا ؛ ورغم هذا الإيمان يترك الكاتب هامشا من الشك يفرضه ربما عدم اختصاصه في الشؤون السياسية وجدّة الموضوع في تونس (تعدّد الأحزاب المعترف بها) وسرعة تقلب الأحوال في تلك الفترة مما يجعل تصور المستقبل أمرا صعبا .

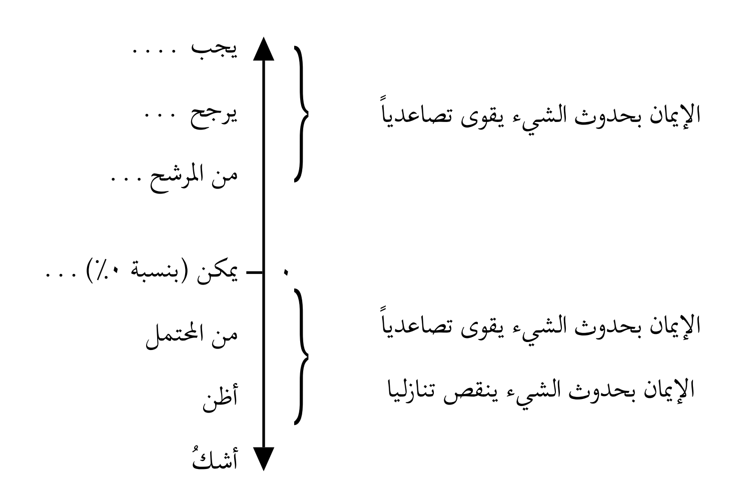
في الجزء الثاني «ورجّحت مصادر على اطلاع بواقع الحياة السياسية في تونس أن يفوق عدد الأحزاب القانونية قريبا عشرين حزبا» . يختار الكاتب عبارة «رجّحت»

حين ينسب الرأي الوارد بعدها لجهة أخرى (مصادر على اطلاع . . .) وهي بحسب رأيه أكثر مصداقية في استشرافها للمستقبل انطلاقا من موقعها الذي يخوّل لها أن تكون مطلعة عن كثب على مجريات الأمور السياسية والتغيرات الحاصلة في البلاد في ذلك الوقت .

تفيد الموجهيةُ المستعملة الترجيحَ ، وهي درجة أعلى باتجاه الحقيقة الحاسمة من الترشيح الذي اختاره ليعبر عن رأيه الخاص .

٤-٢-٥ استنتاج

يمكن لنا أن نتصوّر انطلاقا من أعمال «ريتشاردسون» حول الموجهية سلّما يقرّب هذا المفهوم من الذهن وهو سلّم تمثيلي فقط ، أردنا من خلاله توضيح اختيار عبارة تدل على موجهية دون أخرى ، وهو كالتالي (الرسم٤) :



لا يمكن أن يخلو استعمال الموجهية من طابع إيديولوجي يخدم مصالح المتكلم أو الجهة التي يعمل لصالحها ، فهي طريقة مخصوصة في الخطاب يفهم منها المتلقي موقف المتكلم مما يقوله وتقديره لقيمته من خلال إظهار رأيه فيه وفي كيفية استجابة المتلقي له عن اختيار نوعٍ من الموجهية من بين أنواع أخرى .

خلاصات

- تعكس بنية الجملة نظرة كاتبها للأحداث والوقائع وتصوّر رأيه وموقفه من هذه الأحداث ، فيختار تارة البناء للمعلوم مع أفعال متعدية لإبراز طرف من الأطراف الفاعلة المؤثرة في الحدث ، وتارة أخرى يختار بناء للمجهول يجعله يتحرّك بحريّة في تصوير الحدث وإبراز رأيه فيه دون تحمّل مسؤولية نسبه لجهة من الجهات ، ولكن ذلك يجعل المتلقي يحسّ بنوع من التضييق في الخبر وعدم الدقة في نقل الوقائع .
- تحمل الموجهية التي يختارها الكاتب رؤيته للأحداث ومواقفه منها وتحمل كذلك شحنة إقناع للمتلقي تختلف باختلاف توفق الكاتب في الاختيار الملائم لنوع الموجهية الذي يحمّله ما يريد قوله . وكثيرا ما تكون هذه الاختيارات محملة بنظرة إيديولوجية ظاهرة في الموجهية أو مضمنة فيها تضمينا .
- يفيد التحليل النقدي للخطاب من كل الاختصاصات المتاخمة له والتي تناولت الخطاب بالتحليل في إطار نصوص أو جمل ، لذلك أفدنا من التناول المتعدّد والمختلف في أحيان كثيرة لدراسة ظاهرتي التعدية واللزوم والموجهيّة في الخطاب .

الفصل الخامس:
الحجاج في الخطاب الإعلامي المواكب للثورة

تمهيد

يعد مبحث الحجاج من المباحث التي لقيت اهتماما كبيرا من الدارسين في العالم الغربي ؛ ولم يبدأ الاهتمام به –من المنظور اللساني التداولي– في العالم العربي إلا في العقود الأخيرة . ويمثل الحجاج في الخطاب الإعلامي بؤرة هذا الاهتمام وذلك لما لهذا الخطاب من أهمية في توجيه الرأي العام وفي صنع الحدث .

لن نتعرض لمفهوم الحجاج لغة واصطلاحا فالمعاجم بمختلف أنواعها تزخر بهذه التعريفات ؛ أما ما يهمّنا من الحجاج في بحثنا هذا فهو المفهوم التداولي البلاغي الذي وسم دراسات الخطاب والذي ضمّ بحسب بعض الباحثين ثلاث وجهات نظر مختلفة سعت لدراسة الحجاج في الخطاب لتفكيك بنيته وبيان مساراته وجميع هذه النظريات لها خلفية لسانية أو تداولية معيّنة .

يتوسل الخطاب الإعلامي وسائل الحجاج المختلفة للتأثير في المتلقي واستمالته قصد إقناعه بإنجاز فعل ما أو أخذ قرار معين تماشيا مع إرادة منتج الخطاب أو الجهة التي ينتمي إليها ، ولذلك يتسم الخطاب الإعلامي بقوة خطابية كبيرة يمكن أن تتلاعب بالعقول من أجل كسب رهانات سياسية أو ثقافية معينة . ويمثل الحجاج أحد الأركان الأساسية في هذا الخطاب بوصفه وسيلة لغوية ومسارا عقليا يمكّن من تغيير مواقف مجموعة بشرية في وقت معين ، ولكن نتائج هذا التأثير تمتد في الزمن ويمكن أن تغير مسار تاريخ شعوب بأكملها .

سنحاول تقصي مظاهر الحجاج ووظائفه التأثيرية في خطاب الإعلام . وسنعتمد بدرجة أولى المنهج اللساني التداولي في تتبع القواعد الداخلية التي جعلت هذا الخطاب خطابا حجاجيا بامتياز ، غايتنا من ذلك إبراز كيفية توجيه اللغة في الخطاب الإعلامي توجيها يجعلها لا يمكن أن تخرج عن الدائرة الحجاجية ، وبيان الخصائص الفنية التي تساهم في تشكل الحجاج في خطاب الإعلام .

١-٥ مفهوم الحجاج وتطوّره عبر التاريخ

غالبا ما تخضع محاولة بلورة نظرية للحجاج إلى عدة مجالات علمية فهي ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الفلسفة والبلاغة والخطابة ، ويُرجع الباحثون جذور الحجاج إلى السفسطائيين الذين بذلوا جهودا في تعليم الحجاج حتى يتمكن المتكلم من جلب انتباه السامعين من كل الأصناف الاجتماعية والمستويات الثقافية . وتعتبر محاورات أفلاطون من أغنى وأقدم أصناف التفكير المنطقي الطبيعي في تاريخ الأدبيات الفلسفية ، ولذلك يقول كثير من الباحثين بوجود «تاريخ للحجاج» ومن بينهم باتريك شارودو ، وذلك أن اليونانيين جعلوا من الحجاج موضوعا مهما في حياتهم الاجتماعية والسياسية والقضائية .[١]

في مزاوجة بين الفلسفة والبلاغة ظل الحجاج مرتبطا ارتباطا وثيقا بالخطابة والجدل ، وقد أثر ما توصل إليه أرسطو بهذا الشأن في الحضارات التي تلته ، واعتبر «سيسرون» Cicéron في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أن الحجاج طريقةٌ عقلية تمكننا من الاعتقاد في شيء مشكوك فيه ، وإقناع المستمع بطريقة منطقية بسلامة فعل فردي أو جماعي ، وبالتالي اتباعه ، أو عدم سلامته وبالتالي التخلي عنه . وهو ما كان أرسطو يسميه الحجاج العلمي والذي يعتبره جوهر الخطاب القانوني[٢] .

نظر «سيسرون» إلى الحجج باعتبار مدى الحاجة إليها في الخطاب ، ومدى ارتكازها على القيم الأخلاقية والتواصلية . وارتكز عمل «سيسرون» على الخطاب الشّفاهي . أما في العصور الوسطى فقد كان الحجاج يتأرجح بين تأثير أرسطو العقلي ، وتأثير الإنجيل الديني الاعتقادي الذي يمثله «سان أوقيستان» Saint Augustin .

في القرون الوسطى تنامى الاهتمام بالمنطق مما ساعد على بداية بلورة نظريات تهتم بالمعنى ، وكان بيار أآلان أ . بيلار Pierre ABILARD[٣] رائدا في ذلك ، وأصبحت دراسة طبيعة اللغة ترتكز على ثلاثة أبعاد هي : النحو والبلاغة والمنطق .

---

(1) Mariana Tutescu, L'argumentation, Introduction à l'étude du discours, Universitalea din Bucuresti, 1996.

(2) op.cit.

(٣) نذكر من مؤلفاته concile de Sens, 1140.

وكان إبداء الرأي في مسألة لغوية ما لا يكفي وإنما يجب أن يتبع ذلك إيجاد حجج تبرهن على صحة الرأي أو خطئه .

وفي النصف الأخير من القرن السابع عشر اعتَبر الإنقليزي «جون لوك» John LOCKE – في كتابه الفلسفي An Essay Concerning Human Understanding (1690) – أن معرفة الإنسان للأشياء وتصنيفه لها لا يخضع لماهية هذه الأشياء بقدر ما يخضع لما يحمله الإنسان من تصور حولها .

لكنه اعتبر أن الحدس هو أهم وسيلة للتعرف لأن تصوراتنا ليست بالضرورة هي التصورات الصحيحة التي يمكن أن تعكس حقيقة الموجودات فعلا ، لذلك لجأ هذا الباحث إلى ما يحمله الحجاج من مسارات عقلية يمكن أن تقرب تصورنا من الحقيقة(١) .

وأثّر تطور الفلسفة في تطور الحجاج وخاصة حين وقع تجاوز الفلسفة المدرسية(٢) والفلسفة الرومنطيقية إلى الفلسفة التاريخية التي ازدهرت في القرن الثامن عشر وذلك بتطور العلوم الطبيعية ، ومع أننا تجاوزنا عديد المراحل التي مرت بها الفلسفة (لأن طبيعة هذا البحث لا تسمح بالتفصيل في ذلك) فإننا يمكن أن نلاحظ التغيير الكبير في نظرية الحجاج بداية ظهور الاتجاه الفلسفي التاريخي ، الذي حاول إيجاد تفسير مشترك يمكن أن تخضع له مسارات الثقافات والحضارات الإنسانية المختلفة ، حتى أن جيونباتيستا فيكو (Giambattista VICO) حاول في ذلك الوقت تصور لغة مشتركة بين جميع البشر "une langue mentale commune à toutes les

---

(1) Mariana Tutescu, L'argumentation, Introduction à l'étude du discours, Universitalea din Bucuresti,1996.

(٢) الفلسفة المدرسية la philosophie scolastique : « هي التعليم المدرسي الذي نشأ ونما في المدارس الكنسية والجامعات الأوروبية بين القرن التاسع والقرن السابع عشر . وأهم ما يمتاز به هذا التعليم ارتباطه بعلم اللاهوت ورفضه التشكيك في العقيدة الدينية ، وتوفيقه بين الوعي والعقل ، واعتماده في البحث طرق القياس البرهاني وتفسير النصوص القديمة ولا سيما نصوص أرسطو . أما المحور الأساسي الذي كانت تدور حوله المجادلات المدرسية فيتعلق بقضية «الكليات» أي بقضية واقعية أو لا واقعية الأفكار العامة والكلية» . معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ، جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ٢٠٠٧ .

nations»[١] . وقد اعتمد على تقسيم التاريخ إلى ثلاث عصور كبرى : عصر الآلهة وعصر الأبطال وعصر الإنسان وهو يعتبر أن هذه العصور تختزل كل التطور الذي مرت به البشرية . وفي الجزأين الثاني والثالث من مؤلفه «العلوم الجديدة» (يحتوي هذا المؤلف على خمسة أجزاء) يعتمد فيكو على الحجج التي يوفرها تاريخ الإنسان ليبرز أن الإنسان لا يصنع العالم وإنما يصنع التاريخ .

مكّن هذا الإرث الفلسفي من النظر من جديد في اللغة في القرن العشرين والاهتمام بالحجاج في إطار لساني تداولي ، وتناول الدارسون البلاغة بروح جديدة تتصل بخطابات الإشهار والسياسة والمغالطة ، ويخضع الحجاج في هذه الخطابات إلى قصد واضعها منها .

يتحدث «كريستيان بلانتان»[٢] عن التحول الذي طرأ على دراسات الحجاج ويحدد ذلك بداية من الحرب العالمية الثانية ويرى أن «أزمة الخطاب السياسي مع ظهور الأنظمة الكليّانية (الكونية) والأشكال الحديثة للدعاية ساهمت مساهمة كبيرة في تجديد هذه الدراسات»[٣] . ومهّد كتاب «كورتيس» (E.R.Curtuis) «الأدب الأروبي في العصر الوسيط اللاتيني ١٩٤٨» لظهور أول مصنف في الحجاج وهو «مصنف في الحجاج ، البلاغة الجديدة» للباحثين «ك .بيرلمان ول .أولبراخت تيتيكا» (C.Perelman, L.Olbrecht-Tyteca) ، ثم «استعمالات الحجاج» لـ س . أ . تولمين (S.E.Toulmin) . ويرى كريستيان بلانتان أن فترة الستينات والسبعينات في فرنسا لم تكن ملائمة لدراسة الحجاج بحجة وجود الذات غير الواعية في الخطاب وبذلك ترفض قصدية المؤلف .

تتالت بعد ذلك الدراسات في مجال الحجاج مثل بحوث «وودس» (J.Woods) و«ولتون» (D.Walton) و«بلير» (J.A.Blair) وغيرهم ، و«تمثل هذه السنوات منعرجا

---

(1) Giambattista VICO, Principes d'une science nouvelle relative à la nature commune des nations: Traduction intégrale d'après l'édition de 1744, par Ariel Doubine. Présentation par Benedetto Croce. Introd., notes et index par Fausto Nicolini , Editions Nagel, 1953.

(٢) كريستيان بلانتان ، الحجاج ، ترجمة عبد القادر المهيري ، مراجعة عبد الله صولة ، ص ٢٠ ، المركز الوطني للترجمة ، دار سيناترا تونس ، ٢٠٠٨ .

(٣) المرجع نفسه ص٢١ .

حجاجيا في أقسام علوم الخطاب وبعض أقسام الفلسفة حيث يكمّل التفكير النقدي حول الحجاجات في اللغات الطبيعية تعليما مهتما أساسا إلى ذلك الحين بالمنطق الرياضي البدائي»(١) . وتعددت المقاربات التي اهتمت بالحجاج ويمكن إرجاعها أساسا إلى فرعين كبيرين هما تحليل المحادثة والمقاربات التداولية والتداولية اللسانية .

أما الحجاج في التفكير العربي القديم فإننا نجده يرتبط ارتباطا وثيقا بالبلاغة وبالتالي بفن الشعر وفن الخطابة وذلك من جهة التخييل أو من جهة الإقناع ، يقول حازم القرطاجني «لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة ، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع . . . وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده . . . وكانت عُلقة جل أغراض الناس وآرائهم بالأشياء التي اشترك الخاصة والجمهور في اعتقادهم أنها خير أو شر . . . وجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت علقته بأغراض الإنسان . . . وكانت نفوس الخاصة والعامة قد اشتركت في الفطرة على الميل إليها أو النفور عنها»(٢) . ويعتبر حازم القرطاجني القولَ المقنع أساسَ الخطابة وعمدتها وتأتي المخيلة لتعاضد معاني الخطبة . بينما يكون العكس في الشعر ، فالمخيلة هي العمدة وتأتي الأقوال المقنعة لتعاضدها وتساندها .

لا يخفى حازم القرطاجني وغيره ممن اهتموا بالبلاغة في التفكير العربي تأثرهم بأفكار أرسطو وهم يستشهدون به في أحيان كثيرة أو يستلهمون ما توصل إليه في دراسته للخطابة أو للجدل أو للشعر ، ويرون أن الإقناع والتأثير هدفان رئيسان من أهداف البلاغة ، أما الحجاج فهو لا يعدو أن يكون أسلوبا من الأساليب المستعملة للإقناع واستمالة المتلقي .

لا يمكن أن ننسى ما للنص القرآني قديما وحديثا من فضل في تطور الدرس البلاغي العربي ، حيث وقع الاهتمام به لغة وإعجازا وتركيبا ومعنى . كما أن محاولة تقعيد اللغة العربية طورت هذا الدرس وأصبحت للبلاغة فروع منفصلة ، رغم تداخلها ، وذلك لتسهيل البحث في القضايا البلاغية من وجهة نظر بدا فيها التفكير المنطقي يحتل حيزا كبيرا في الدراسات اللغوية ، وبدأ الترويج لمفاهيم تدل على

---

(١) المرجع نفسه ، ص٢٤ .

(٢) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص١٩-٢٠ .

استعمال العقل في الدرس اللغوي البلاغي مثل «الموازنة» و«العامل» و«التحليل» والاستنباط» وغيرها من المفاهيم التي تلوّنت بألوان الحضارات المختلفة كالفارسية والهندية واليونانية .

أما حديثاً فقد بدأ إحياء الدرس البلاغي بما في ذلك الحجاج في النصف الأول من القرن العشرين في إطار محاولة إعادة قراءة التراث في ضوء المقولات النقدية المعاصرة ، ومن أهم الأعمال الرائدة في هذا المجال نذكر كتاب أحمد الشايب «الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية» الصادر سنة **١٩٣٩** عن مكتبة النهضة ، مصر . وبعد ذلك توالت الدراسات في هذا المجال[١] ، وكانت تتجاذبها مختلف الاهتمامات اللسانية والبلاغية وما توصلت إليه اللسانيات الغربية ، وتمكن الباحثون المغاربة من التقدم بالدرس البلاغي حتى أن البعض يتحدث عن المدرسة المغاربية[٢] ومن بين الباحثين في مجال الحجاج في هذه المدرسة ، حمادي صمود وعبد الله صولة وشكري المبخوت ومحمد العمري ومحمد مفتاح وغيرهم كثيرون ممن استندوا إلى ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة خاصة في مجال التداولية وتحليل المحادثة .

يمكن أن نستنتج أن النظر إلى الحجاج تمّ من زاويتين مختلفتين زاوية لا تخرج عن حدود المنطق وتتمثل في دراسة مسارات الاستدلال والبرهنة ، وزاوية أوسع وتقوم على دراسة جميع الأوجه البلاغية للاستدلال أثناء المحاجة[٣] . ولا نروم من خلال هذه النبذة التاريخية الإلمام بكل مراحل تطور الحجاج بل إننا لا نستطيع ذلك في هذا الحيز الضيق ولكن أردنا فقط أن نقدم فكرة ولو مبسطة عن أهم المنعرجات التاريخية لتطور هذا المفهوم في التفكير الغربي وفي التفكير العربي .

---

(١) يمكن أن نذكر على سبيل المثال : صلاح فضل وجابر عصفور وأحمد مطلوب ومصطفى ناصف .

(٢) محمد سالم محمد الأمين الطلبة ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، ص٢٤٣ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٨ .

(٣) عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، نشر مشترك بين كلية الآداب بمنوبة للنشر ودار المعرفة للنشر ، ودارالفارابي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧ .

٥-٢ الحجاج والمفاهيم القريبة منه

بتقدم الفكر الإنساني بدأ الحجاج يتضح مبحثا قائما بذاته ضمن الفلسفة أو المباحث اللغوية على اختلاف مناهجها . ومع ذلك فإن الإحاطة بهذا المفهوم تبدو صعبة نظرا لتداخله مع مفاهيم أخرى . وسنحاول تتبع هذا المفهوم عند بعض الباحثين مثل أوسكمبر وديكرو[١] وميشال ماير في كتابه المنطق واللغة والحجاج[٢] ، ومع أعمال هؤلاء الباحثين وغيرهم مثل برلمان وتيتيكا تحرر الحجاج من ارتباطه بالخطابة وبالجدل . وسنحاول تتبع مفهوم الحجاج من خلال مقارنته بمفاهيم أخرى قريبة منه وهي أحيانا تختلط به وتتماهى معه وكثيرا ما يرد الحديث عن الحجاج باستعمال أحدها ، ومنها «الاستدلال» و«البرهنة» والإقناع» و«التبرير» و«الدحض» . . . و«سوق الحجاج» كما يقول شارودو غنية جدا بهذه المصطلحات .

يقترح ديكرو «التمييز من ناحية بين دراسة البرهنة اللسانية -والتي يجب أن تقارن باللغات الشكلية وذلك لرصد المختلف والمؤتلف فيها- ومن ناحية أخرى 'دراسة الحجاج' الذي تتمثل وظيفته في 'توجيه' باقي الخطاب»[٣] ، وبهذا المعنى تختلف البرهنة عن الحجاج في الطريقة والهدف . ويرى «قرايز» (J.B.Grize) أن الاستدلال يختلف عن الحجاج في كونه لا يعترف بالمقام فهو عمل داخل اللغة يأخذ منها قوته وشرعيته ، بخلاف الحجاج الذي يضع في اعتباره السياق وأطراف التواصل . ويدعو «بيرلمان» للانخراط في «بلاغته الجديدة» (وهو يقصد الحجاج) إلى معرفة «التقنيات القولية التي تمكّن من إثارة أو تنمية انخراط العقول في الأطروحات التي تقَدّم إليها لتنال رضاها»[٤] ، وما دعا إليه بيرلمان هو حجاج لغوي أقرب ما يكون إلى البرهنة منه إلى الحجاج الذي يراعي مظاهر التواصل المختلفة التي تتدخل في مسار الحجاج ،

---

(1) J.C.Anscombre et O.Ducrot, L’argumentation dans la langue, Edition Mardaga Liège-Bruxelles, 1988.

(2) Michel Meyer, Logique, Langage et Argumentation, Editions Hachette, 1982.

(٣) باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب ، عن كتاب نحو المعنى والمبنى ، ص٨ ، ترجمة أحمد الودرني .

(4) Perelman Chaïm et Tyteca Lucie-Olbrechts, Traité de l argumentation, la nouvelle rhétorique, Editions de l’université de Bruxelles, 5ème édition,1992.

ويرى بيرلمان أن الحجاج بديل عن العنف لأننا نُقنع الآخر إما بالقوة أو بالحجاج فنحن نحقق نفس النتيجة باستعمال أحدهما .

يتعارض رأي باتريك شارودو مع رأي بيرلمان بخصوص الحجاج ذلك أن باتريك شارودو يرى أن المظهر الحجاجي للخطاب كثيرا ما يكون مضمرا فيه ، ولكي يكون هناك حجاج لا بد من توفر عناصر رئيسية تمكننا من عدم خلط هذا المفهوم مع المفاهيم القريبة منه ، وهذه العناصر الرئيسية هي بحسب شارودو :

«- خبر عن العالم يجب أن يمثل إشكالا بالنسبة لشخص ما من حيث مشروعيته

- فاعل يلتزم بهذه الإشكالية (قناعة) وينشئ برهنة لمحاولة تأسيس حقيقة لهذا الخبر

- فاعل آخر مهتم بالخبر نفسه إشكالية وحقيقة هو الذي يشكّل هدف الحجاج»[(١)]

وبذلك يقوم الحجاج على علاقة بين ثلاثة أطراف هي المُحاجج والهدف والخبر .

وحاول ماير أن يضع الحجاج في إطار نظرية أوسع هي نظرية المساءلة . وهو يرى أن الحجاج يؤسس علاقة بين ظاهر الكلام وما يتضمنه أي بين الصريح منه والضمني ، وبذلك يكون الحجاج نصفه عند المتكلم وما يضمن خطابه من إشارات لغوية حجاجية ، ونصفه عند المتلقي الذي يعمل على فهم الضمني في ضوء ما يمليه السياق . ويلخص عبد الله صولة مفهوم الحجاج عند ماير بقوله «وفي كلمة واحدة نقول الحجاج عند ماير هو إثارة الأسئلة وإثارة الأسئلة هي عنده الأساس الذي ينبني عليه الخطاب»[(٢)] .

٥-٣ أساليب الحجاج

نقصد بأساليب الحجاج الأوجه البلاغية والظواهر الأسلوبية التي يتحقق بها

---

(١) باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب ، عن كتاب نحو المعنى والمبنى ، ص٨ ، ترجمة أحمد الودرني ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩ .

(٢) عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص٣٩ ، نشر مشترك بين كلية الآداب بمنوبة ودارالفارابي للنشر ودار المعرفة للنشر ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧ .

الحجاج . ويتحدث شارودو عن أساليب قولية وأساليب دلالية ، تخدم هدف التواصل ورهان الإقناع .

وتتمثل الأساليب الدلالية في قيمة الحجة التي يعتمدها المتكلم ، وتكتسب قيمتها خاصة من المواضعات الاجتماعية ، فيقع الحكم على الحجة بمقاييس جمالية (جميل /قبيح)أو أخلاقية (خير /شر)أو ذرائعية (نافع/غير نافع) . أما الأساليب القولية فتتمثل في استعمال ضروب من القول تهدف إلى إحداث التأثيرات المرجوة من الخطاب . ويذكر شارودو ستة أنواع من هذه الأساليب[١] وهي :

- المفهوم : ويعني السمات الدلالية التي تميز الكلمات المستعملة وهي سمات متواضع عليها لا يمكن أن تكون محل شك ، وهذا يذكرنا بالعلاقات الجدولية في دراسة «فردينان دو سوسير» للغة وذلك أن اختيار كلمة معينة من الجدول يعني اختيار مجموعة من السمات تصاحب هذه الكلمة دون غيرها . وفي الحجاج يستعمل «المفهوم» (الكلمة المختارة مع مجموعة سماتها) لضمان إقناع المتلقي والتأثير فيه .
- المقارنة : تتحقّق في الخطاب بوحدات نحوية (مثل ، مثلما ، ك ، كما ، أكثر ، أقل . . .) ووحدات معجمية (يشترك في ، يقارب ، يختلف في ، يتوافق . . .) . وبذلك يمكن تمييز المختلف والمؤتلف من الخصائص والصفات ، وتكون في الحجاج لدعم رأي معين ، أو لدحض رأي آخر ، ويمكن أن تساعد كذلك على تبسيط الفكرة وتقريبها من المتلقي ، ويمكن أن تكون موضوعية أو تضليلية .
- الوصف القصصي :هو أوسع من المقارنة لأنه مسار كامل يُراد به إنشاء إقناع بواسطة الحكايات المثلية أو النوادر أو الرموز المحركة لدعم دليل معين أثناء المحاجة .
- الاستشهاد : وهو إتباع الخبر بقول لشخص آخر ينم عن تجربة ومعرفة بأكبر قدر من الأمانة ، وذلك لإضفاء مزيد من الشرعية على أقوال المتكلم ، لأن الحجاج يهدف إلى جعل المتلقي يأخذ الخبر مأخذ الحقيقة التي لا بديل عنها .
- التراكم : وهو استعمال أكثر من حجة لإضفاء مزيد من المصداقية على الخبر . ومع أن تعدد الحجج وتنوعها هو بمثابة صك للإقناع ، إلا أن ورود ذلك في خبر واحد

(١) باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب ، عن كتاب نحو المعنى والمبنى ، ص ، ص٨٦-٩٩ ، ترجمة أحمد الودرني ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩ .

يمكن أن يؤدي عكس النتيجة المرجوة منه ، وذلك أن الإصرار على الإقناع يمكن أن يولد الشك لدى المتلقي ؛ وهذا ما لم يتفطن إليه باتريك شارودو أثناء تعداد هذه الأساليب الخاصة بالحجاج .

- الإشكالية : يقدم المتكلم الخبر في شكل إشكالية ذات طابع حجاجي يوجه من خلالها إجابة المتلقي الوجهة التي يريدها ، إذ أن حقيقة الخبر تكمن في إجابة المتلقي نفسه ، ومن خلال طريقة طرح الإشكالية يضمن المتكلم السيطرة على المتلقي وتوجيهه إلى اختيار بعينه أو حثه على فعل معين .

الأساليب سالفة الذكر يمكن تلخيصها في ثلاثة مستويات وهي مستوى المعجم ومستوى التركيب ومستوى الصورة في علاقتها (المستويات الثلاث) بالتأثير في المتلقي وهو ما يسميه شارل بالي «الحساسية» ، فهو يشير إلى هذه المستويات بالجانب اللغوي ، ويربطها بمدى تأثيرها في الحساسية (التأثير النفسي)[1] . ويمثل أسلوب الحجاج السمة المميزة له فهو من جهة لساني لأن اللغة أداته البيانية ، ومن جهة ثانية هو نفسي لأن غايته إحداث الأثر في الآخر ، ويمكن أن نضيف أنه اجتماعي كذلك لّما كان حضور الآخر ضروريا لقيام الحجاج .

عموما تندرج الأساليب المستعملة في الحجاج في مجال الأسلوبية وهو مجال بحث بدأت معالمه تتضح منذ بدايات القرن العشرين ، وتساءل بعض الباحثين حديثا عن الأسلوب سؤالا مضاعفا «هل الأسلوب سمة من سمات الشخصية الفردية؟ أم إنه اجتماعي ينعكس فيه المجتمع ونظامه؟[2]» ، وفي كلتا الحالتين فإننا سنتحدث عن «أساليب» مختلفة باختلاف الهدف منها ، مثلا : أسلوب سياسي ، أسلوب روائي ، أسلوب شعري ، أسلوب حجاجي ، ويأخذ الخطاب سمة أسلوبه من الاستخدام اللغوي المهيمن عليه وبعبارة عبد الله صوله هو «التفرد والتميز والخصوصية[3]» .

(1) Charle Bally, Traité de stylistique française, P136, seconde édition, Librairie C.klincksieck, Paris.

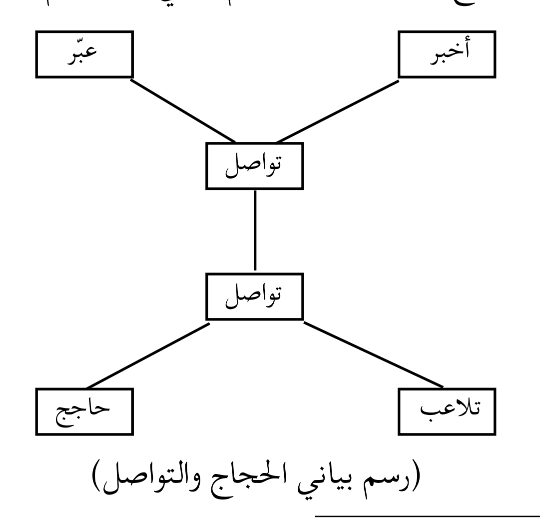
(٢) منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ص٤٨ ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، سوريا ، ٢٠٠٢ .

(٣) عبد الله صولة ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، ص٥٣ .

٤-٥ الحجاج والتواصل

الحجاج فعل إنساني يهدف أساسا إلى الإقناع ، وفي وضعيات التواصل التي ترمي إلى جعل شخص أو مجموعة من الأشخاص تتبنّى وجهة نظر معينة أو تقوم بسلوك معين ، يكون الإقناع أهم وجه من وجوه التواصل فيها ، وهذه الوضعيات كثيرا ما تعترضنا في حياتنا اليومية . . وتختلف أساليب الإقناع وتتنوع بحسب تنوع التجربة الإنسانية التي تضفي على العملية التواصلية بعدا حجاجيا يعتمد استعمال العقل .

يرى فيليب بروتون أن الإقناع في وضعيات التواصل يصل أحيانا إلى ما يمكن تسميته «اغتصاب المجموعات» (viol de foules)[١] ، وهو تعبير مجازي عن القوة التي يملكها الإقناع والتي يرى بعض الباحثين أنها تعوّض العنف الذي يمكّن من الحصول على ما نريد ، ولا يخلو الإقناع من عنف وخاصة في مجال الإشهار الذي يرتكز أساسا على التلاعب بنفسية المتلقي دون أن يتفطن هذا الأخير إلى أنه ضحية عنف وتلاعب . ويرى فيليب بروتون أن فعل التواصل يضمّ مجموعة من الأفعال الأخرى التي تندرج ضمنه ومن بينها الحجاج ، ذلك بحسب الرسم التالي[٢] (الرسم ١) :



(رسم بياني الحجاج والتواصل)

---

(1) Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P4, 3ème édition, Pans, La découverte, 2003. "...ces méthodes exercent une violence mentale indéniable au point que l'on a parfois utilisé à ce sujet la métaphore qui les assimile à"un viol des foules"."

(365) op.cit, P4.

يضيف بروتون عنصر «الإغراء» (la séduction) وهو موجه إلى العاطفة أكثر منه إلى العقل، وكثيرا ما يلجأ إليه المتكلم لتحقيق الإقناع، ويستعمله أهل السياسة كثيرا إلى جانب الوصلات الإشهارية التي لا تخفي التوظيف الجنسي لإحداث الأثر في المتلقي. ونجد في خطاب زين العابدين بن علي بعد يوم ١٠ جانفي ٢٠١١ (الخطاب الثاني قبل رحيله) أسلوب الإغراء ويتمثل في وعد الشباب العاطل عن العمل بـ٣٠٠ ألف موطن شغل وهو رقم يجعل الدولة تُقدم على مضاعفة طاقة التشغيل يقول: « . . . أولا، مضاعفة طاقة التشغيل وإحداث موارد الرزق وتنويع ميادينها ودعمها في كل الاختصاصات خلال سنتي ٢٠١١ و٢٠١٢ بمجهود إضافي هام من قبل الدولة والقطاع العمومي وبتضافر جهود القطاع الخاص والقطاع البنكي والتعاون الدولي وسائر الأطراف المعنية. وذلك قصد تشغيل أكبر عدد من العاطلين عن العمل من غير حاملي الشهادات العليا وكذلك من بين فاقدي الشغل من كل الفئات والجهات، وسيستوعب هذا المجهود أيضا كل حاملي الشهادات العليا الذين تجاوزت مدة بطالتهم عامين قبل موفى سنة ٢٠١٢ /نعم قبل موفى ٢٠١٢ وأتعهد بذلك/ وبذلك ترتفع طاقة التشغيل الجملية خلال هذه الفترة إلى ثلاث مائة ألف (٣٠٠ ألف) موطن شغل جديد».

هذا الإغراء الذي يقدمه زين العابدبن بن علي–لما تأكد من خطورة الوضع– الهدف منه امتصاص غضب الجماهير وترويضها وهو لا يعتبر حجاجا بمفهوم بروتون للحجاج، وقد أملاه ما يعرفه المتكلم من حاجة المتلقي للشغل.

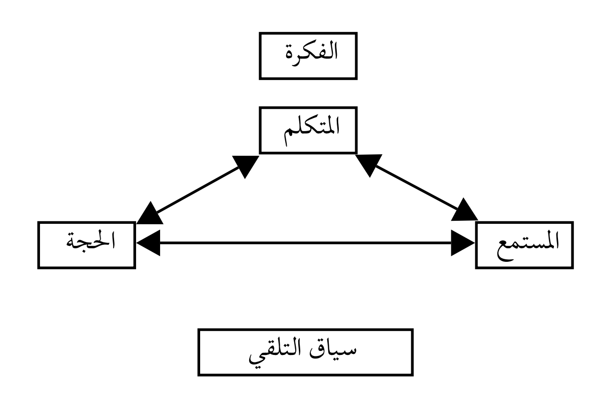
يطوع فيليب بروتون مثلث التواصل (الباث والرسالة والمتقبل) المعروف في كل دراسات التواصل تقريبا والذي يتصف بالعمومية في كل مجالات التواصل– ليصبح مثلثا خاصا بالتواصل في مجال الحجاج (فاعل واضع للحجاج)، ورسالة (أو خبر) موضوع الإقناع، ومتلقي (شخص أو مجموعة أشخاص)، المعروف في كل دراسات التواصل تقريبا وتصبح الأقطاب الثلاثة كالتالي:

- المتكلم (l’orateur): وهو الذي يحاجج لنفسه أو لغيره (المحامي مثلا يحاجج لفائدة موكله)، ويسعى المتكلم لإيصال فكرة إلى مستمع ويجعله يتقاسمها معه ويؤمن بها وبالتالي يتبناها.
- الحجة التي يدافع عنها المتكلم (l’argument défendu par l’orateur): وهي الفكرة التي وضعها المتكلم في نسق حجاجي ليقنع بها المستمع ويمكن أن تُعرض

الفكرة شفويا (مشافهة مباشرة ، عبر الهاتف ، عبر أمواج الأثير . . .) أو كتابيا (رسالة ، نص ، كتاب ، معلقة إشهارية . . .) .

- المستمعون (l'auditoire) : مجموعة من الناس (أو فرد) يسعى المتكلم إلى إقناعهم بالفكرة التي يحملها ويدافع عنها ، ويضيف بروتون أن المتكلم يمكن أن يسعى في بعض الأحيان إلى أن يُقنع نفسه بفكرة معينة فيعرض على نفسه مجموعة من الحجج التي تجعله يؤمن بهذه الفكرة . في هذه الحالة يكون المتكلم هو المستمع وهو يسعى لإقناع نفسه (s'autoconvaincre) .

يضيف بروتون إلى هذا المثلث (المتكلم والحجة/الفكرة والمستمع) سياق التلقي (le context de réception) ، وهي مجموعة الأفكار والقيم المشتركة بين المتكلم والسامع تؤثّر تأثيرا كبيرا في مدى قابلية المستمع للاقتناع بالفكرة المضمنة في حجاج المخاطب أو رفضها . ويمكن تلخيص ذلك في الرسم التالي[١] (الرسم ٢) :



في هذا التمثيل يعطي فيليب بروتون أهمية كبيرة إلى كيفية تماشي الفكرة مع سياق التلقي ليحصل الإقناع ، ويرى أن الحجاج هو تواصل فكرة بفكرة أكثر منه تواصل شخص بشخص أو بمجموعة أشخاص وتقاسم الفكرة هو الهدف الأساس من التواصل الحجاجي ، ويسمح بروتون لنفسه بالقول إن أفكار المشارك واضع الخطاب تتقاسمها أفكار المشارك متلقي الخطاب ، وما يمنعه من إثبات ذلك وتبنيه هو خوفه من تداعيات هذه الفكرة باعتبارها فكرة يمكن أن تنتمي إلى تفكير ما بعد الحداثة .

نستنتج من ذلك أن بروتون يلح على أهمية تقاسم الأفكار بين المشاركين ، دون

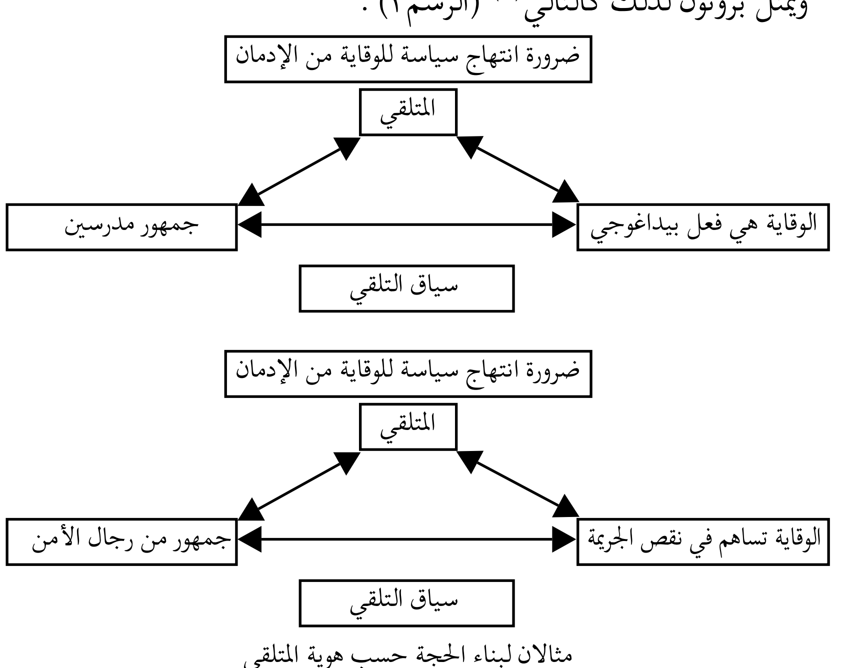
(1) op.cit, P10.

أن ينفي وجود فارق بين الفكرة ووضعها في شكل لغوي في الحجاج ، ولكنه لا يعتبر ذلك إشكالا في دراسة الحجاج لأن الشكل اللغوي لا يمكن أن يناقض الفكرة ، بل هو في خدمتها قدر الإمكان خاصة أثناء الحاجة .

يعطي فليب بروتون مثالا على أن الشكل اللغوي وإن تغير فإنه لن يتعارض مع الفكرة ، ويتمثل هذا المثال[١] في محاولة متكلم إقناع المتلقين بالوقاية من الإدمان (الإدمان على المخدرات) ، ويفترض أمام المتكلم في مرحلة أولى جمهورا من المدرسين وفي مرحلة ثانية جمهورا من رجال الأمن ، حتما سيحمل المتكلم نفس الفكرة (الإقناع بالوقاية من الإدمان) ولكن وجوده أمام مجموعتين مختلفتين من المتلقين تجعله (المتكلم) يستخدم شكلين لغويين لإيصال هذه الفكرة للمتلقين وذلك مراعاة لاهتمامات كل جمهور :

عندما يتوجه المتكلم إلى جمهور المدرسين سيتوخى التركيز على البعد البيداغوجي (ضرورة انتهاج سياسة للوقاية من الإدمان) ، وسيركز بالنسبة لرجال الأمن على البعد الاجتماعي وهو التراجع المنتظر للجريمة .

ويمثل بروتون لذلك كالتالي[٢] (الرسم٣) :



مثالان لبناء الحجة حسب هوية المتلقي

(1) op.cit, P20.

(2) op.cit, P21.

يظهر جليا أن سعي المتكلم إلى جعل المتلقي يشاركه فكرته يدفعه إلى البحث عن الشكل المناسب الذي يضمّنه حجته وذلك تماشيا مع اهتمام المتلقي ومستواه الذهني والثقافي والاجتماعي ، ولذلك يلجأ المتكلم إلى إعادة تشكيل فكرته كلما تغير الجمهور المتلقي .

لا يمكن الكلام عن الحجاج في التواصل بصفة عامة أو في وسائل الإعلام بصفة خاصة دون أخذ كيفية تلقي الحجة بعين الاعتبار لأن لكل متلق أرضيةً فكرية معينة تستقبل الحجة وتتفاعل معها بكيفية خاصة لأنها (الحجة) ستتعامل مع مجموعة من التمثيلات والقيم والمعتقدات الشخصية والفردية للمتلقي ، وعلى هذا الأساس يرى فيليب بروتون إمكان تعريف الحجاج بأنه فعل يهدف إلى تحوير سياق التلقي وبصيغة أخرى أفكار المتلقي» .[1] وهذا يلتقي جزئيا مع نظرية فان دايك حول السياق إذ إنه يعتبره مسارا فكريا وتمثيلات ذهنية أكثر منه واقعا موضوعيا .

بالرجوع إلى مثال المدرسين ورجال الأمن يمكن أن نقول إن رأي المدرسين بخصوص البيداغوجيا قد تحوّر وبذلك تحورت آراؤهم الخاصة بكيفية الوقاية من الإدمان وذلك لن يكون بمعزل عما كان لديهم من معلومات مكتسبة حول عديد المجالات المتصلة بمسألة المخدّرات ، وقد وقع إحياؤها بإلقاء الحجج على المتلقي . ومن هذا المنظور فإن الحجاج يكون في صلب عمليّة التواصل لأنه يأخذ بعين الاعتبار فردانية الآخر ، فتصبح عملية الحجاج تقاطعا بين عوالم ذهنيّة للأشخاص المشاركين .

كل فعل تواصل يستدعي أخلاقيات معينة تحكم هذا الفعل وتصنع له حدودا وإطارا عاما ، هذا ما يسوّغ الحديث عن أخلاقيات الحجاج بما هو فعل تواصل . وفي غياب هذه الأخلاقيات يصبح الوصول إلى إقناع الآخر -مهما كانت الوسيلة - هو المتحكم في سيرورة الحجاج .

على هذا الأساس يبحث بروتون في أخلاقيات الحجاج صلب عملية التواصل لكي يُبعد الحجاج قدر الإمكان عن اتهامات كثيرة ظلت لصيقة به ، ومنها أنه يعتمد المغالطات ولا يقف عند حدود أخلاقية بل إنه يشرّع لنفسه كل السبل في سبيل

---

(1) op.cit, P22.

الإقناع والتمكّن من تحوير آراء المتلقي[١] .

على الحجج أمام هذه الاتهامات أن تُثبت -إلى جانب قوتها في الإقناع- أنها بعيدة عن المغالطة وأن ما تقدمه يخلو من كل ما من شأنه أن يخلّ بالأخلاق . وهذا ما يستدعي وجود حدود للحجة يلخّصها بروتون في ثلاثة أسئلة :

- هل كل شيء قابل لأن يُحاجج؟
- هل تصلح كل الحجج لتدافع عن رأي معين؟
- هل هناك حدود للفعل (فعل الحجاج) الذي نسلطه على المتلقي؟

تحدد هذه الأسئلة عملية الحجاج ، بل وتحدد موقع المتكلم في الحجاج (داخل الحجاج أم خارجه) . وتدعو إلى التفكير في ماهية «الرأي» الذي يعتبره بروتون «مجموعة المعتقدات والقيم وتمثيلات العالم والثقة في الآخر ، التي يكوّنها الفرد ليكُون نفسه[٢]» .

لكن لا يجب إغفال أن «الرأي» ليس جامداً ، هو دائم التغيّر يخضع للآخرين في نطاق تفاعل متواصل ، وبذلك فهو يختلف عن المعتقد وعن اليقين ، ولذا يرى بروتون أنه لا يمكن أن تخضع العلوم الصحيحة أو الديانات أو الأحاسيس لمجال «الرأي» كما يُفهم في الحجاج ، رغم أننا يمكن أن نعارضه بخصوص الأحاسيس لأنها في رأينا يمكن أن تكون وليدة «رأي» معين في الآخر ، ولكن بروتون يقصد بالمشاعر الأحاسيس تجاه الجمال أو القبح قبل أن تصبح في شكل تعابير قابلة للدخول في إطار الحجاج لإقناع الغير بها .

لا تعتبر النتائج ، بالنسبة للعلوم الصحيحة ، آراء لأنها ببساطة تفرض نفسها كقانون عالمي خارج دائرة النقاش ، وهذا لا يعني أن العلوم جامدة لا تتحرك وإنما حراكها ونقاشها يكون داخل دائرة ضيقة هي دائرة العلماء المختصين في كل مجال من مجالات هذه العلوم . على أن «الرأي» لا يمكن أن يخلو من توجه علمي يدعمه بل يبحث له (الرأي) دائما عن سند في العلوم يجعله أقرب إلى الإقناع والتأثير .

---

(1) Voir Philippe Breton. La parole manipulée. Paris, La Découverte, édition de poche, La Découverte/Poches, Paris, 1999.

(2) Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P24, 3eme édition, Paris, La découverte, 2003.

لذلك فإن الحدود تصبح بهذا المعنى ضبابية بين الرأي والعلوم وما يمكننا الخروج به من هذه المعادلة الصعبة هو وجود الرأي والعلم على سلّم واحد ، طرفاه الذاتية والموضوعية ، ونحن بإزاء «الرأي» كلما اقتربنا من الذاتية وبإزاء العلم كلما اقتربنا من الموضوعية ، أي أن «الرأي» يحمل قليلا من العلوم ، ولو كان «الرأي» خالياً من الشك لما كنا بحاجة إلى الحجاج عند عرضه على المتلقي وكما يقول بروتون سيكون الحجاج عند ذلك «مولودا ميتا[1]» .

أما فيما يخص الاعتقاد وخروجه من دائرة الحجاج فإن بروتون يقصد الإيمان الذي عبر عنه الغزالي بعبارته المشهورة «نور قذفه الله في صدري» ولا يمكن القول إن التفسير مثلا أو علوم الفقه بصفة عامة غير خاضعة للحجاج ذلك أن الفقه استفاد من الحجاج والبلاغة بصفة عامة في التفكير العربي الإسلامي بل ووجدت تيارات دينية ارتكزت على استعمال العقل مثل المعتزلة وغيرها ، وهذا يصدق كذلك على المسيحية ، لأن الدين لا يمكن أن يكون إيمانا قلبيا خالصا لا يخالطه استعمال العقل .

يشير بروتون كذلك إلى وجوب الانتباه إلى الفرق بين «الرأي» والخبر الذي يندرج كل منهما في عملية التواصل . الخبر يلقيه المتكلم إلى المتلقي ليعلمه فقط بشيء معين وهذا يختلف عن هدف الحجاج الذي هو الإقناع بالشيء . عندما يقول المتكلم «إنها تُمطر» فهو يقصد نقل خبر للمتلقي ، ولكن هذا الخبر في وضعية الحجاج يمكن أن يتحول إلى جزء من عملية الحجاج فيقول المتكلم «إنها تمطر لذلك خذ مظلتك» ، فإما أن يقتنع المتلقي بأخذ المظلة بسبب وجود المطر وإما أن يكون له رأي مخالف فيقول «لا بأس من التعرض للمطر في هذا الفصل من السنة» ، وبالتالي يقابل كل رأي رأي آخر يخالفه وهذا ما يجعله يختلف عن الخبر .

إذا سلّمنا بأن كل شيء لا يمكن أن يقبل الحجاج ، وأن «الرأي» وحده هو القابل لذلك وجب علينا البحث في ملاءمة الحجة للرأيّ ، أي أن الرأي لا يمكن أن نستعمل له أيّ حجة كما اتفق ، وإنما لكل رأي حجج تناسبه وتلائمه وتخدم غرض الإقناع فيه . حين نستعمل حجة بعيدة عن الرأي فإن ذلك سيبعدنا عن تحقيق الهدف من إيراد هذه الحجة .

يذكر بروتون مثال الزوجة التي تريد إقناع زوجها الاشتراكي بمقاسمتها شغل

---

(1) Op.cit, P26.

البيت فإنها تلجأ إلى حجة المساواة ومنها المساواة بين المرأة والرجل في الأعمال المنزلية . وذلك لأن المساواة هي قيمة من قيم الاشتراكية . ويمكن أن تكون هذه المرأة غير مؤمنة بهذه القيمة ولكنها استعملتها فقط لتجعل زوجها يساعدها لأنها تعرف مدى حساسيته تجاه مثل هذه المواضيع ، وهنا يمكن لنا أن نتحدث عن المغالطات في الحجاج أو التلاعب بالحجج وذلك فقط حين يتمكن الزوج من فهم موقف زوجته (عدم الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة ومع ذلك استعماله كحجة لإقناعه بمشاركتها العمل المنزلي) . وينطبق ذلك على ما صرّح به زين العابدبن بن علي في خطابه الأول الذي ألقاه يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠١٠ بعد الأحداث التي وقعت في سيدي بوزيد ، يقول « لقد دأبنا منذ التغيير على تكريس الحوار مبدءا وأسلوبا للتعامل بين سائر الأطراف الوطنيّة والاجتماعيّة حول القضايا والمستجدّات التي تطرح أمامنا» وذلك لإقناع المتلقي ببراءته من كل ديكتاتورية اتُّهم بها ، وذلك بهدف محاولة ثني الشباب عن الخروج في المظاهرات ، ولكن اقتناع المتظاهرين بأن هذا المتكلم لا يؤمن بهذا الرأي فضلا عن العمل به يجعل هذا الحجاج يدخل في باب المغالطات .

٥-٥ أصناف الحجج

٥-٥-١ مفهوم الحجة

يعيب بروتون على سابقيه من دارسي الحجاج عدم التفريق في تعريف الحجة بين مستويين يرى ضرورةً الفصل بينهما وهما :

- محتوى الحجة ، أي الفكرة في حد ذاتها .
- القالب (le moule argumentatif)[1] الذي توضع فيه والذي يعطيها شكلها .

وهو يرى أن أدبيات الحجاج لم تعتن إلا بالمستوى الثاني (القالب الذي يوضع فيه الرأي) ، ولذلك نجد تعريفات للحجة مثل : «الحجة المنطقية الصرفة» (l'argument quasi logique) و«الحجة الإنسانية» (l'argument ad hominem) و»الحجة بإعطاء المثال» (l'argument par exemple) ، وتحيل هذه الأصناف على أشكال يوضع فيها الرأي ليصل المتكلم إلى الإقناع .

يمكن التمثيل لما سبق بموضوع تحرير استهلاك القنّب ولكي نقنع المستمع نرتكز

---

(1) op.cit, P40.

على ذكر مثال ناجح في هذا الأمر وهو بلد اتبع تحرير استهلاك القنب وتحصل على نتائج جيدة وهو هولاندا (الحجة بإعطاء المثال) . ويمكن كذلك أن نحاجج بطريقة أخرى ومثالها ذكر رأي عالم متضلع في علوم الطب أبدى موافقته على هذا الموضوع ودافع عنه (حجة السلطة) . في الحالتين الرأي واحد (تحرير استهلاك القنب) ولكن اختلف الشكل الذي وقع اختياره لدعوة المتلقي لمشاركة المتكلم الرأي .

أما استعمال الحجة للدلالة على المحتوى والشكل في الوقت نفسه فإنه يظهر مثلا في اعتبار كلام رجل سياسة أمام خصمه حجة ناجحة وذلك بالنظر إلى الرأي والشكل في الآن نفسه .

يحدّد بروتون استعماله للفظ «حجة» في تعيين الشكل فقط وذلك ليتمكن من دراسة مستوى من مستويات الحجة منعزلا عن المستوى الآخر ، وهذه الحاجة إلى الاختيار دعتها صفة التعقيد التي يحملها الكلام عندما يكون موجها إلى الإقناع ، مع الإشارة إلى صعوبة هذا التوجه في الدراسة وذلك لأن التصنيف في مجال العلوم الإنسانية يبقى فضفاضا وهلاميّ الحدود وذلك عكس العلوم الصحيحة .

من الصعب إيجاد حجة «خالصة» لا يخالطها شيء من المقارنة أو من السلطة أو من المجاز ، أو غيرها من التقنيات التي تختلط بالحجة ويصعب الفصل بينها وبين الحجة «الخالصة» ، وهذا يقودنا إلى نقاش لا نهاية له ونحن ندرس حجة ما في نص معين . على أن هذا الإشكال لا يمنع من دراسة نوع الحجة لأن المنهج يفرض علينا التفكير فيما هو غالب على الحجة ويمكن من وضعها في تصنيف دون آخر .

لم تحل صعوبة تصنيف الحجج التي تحمل كثيرا من أوجه الشبه دون بروتون وتحديد أربعة أصناف كبرى للحجج تنضوي تحتها التصنيفات المتقاربة والمتشابهة وهو عمل منهجي يمكّن من دراسة أصناف الحجج دون الوقوع في الخلط بينها . ونلاحظ أن بروتون استفاد كثيرا من التقسيمات التي سبقه إليها دارسو الحجاج والتي تأسست خاصة على أعمال «جون لوك» (١٦٩٠) ، فقد توصل هذا الأخير إلى أربعة أنواع من الحجاج وهي كالتالي[1] :

(1) Mariana Tutescu, L'argumentation, Introduction à l'étude du discours, Universitalea din Bucuresti,1996.

١-حجاج السلطة ، Argumentum ad verecundiam : وفيه يقع اعتبار آراء من لهم السلطة الوظيفية أو العلمية أو أي نوع آخر من أنواع السلطة .

٢-حجاج الجهل ، Argumentum ad ignorantiam : وفيه يقتنع السامع بأن ما يقوله المتكلم هو في حد ذاته برهان لا يمكن مناقشته ، وإلا فهو مجبر على إتيان ما هو أحسن منه .

٣- حجاج الشخص ، Argumentum ad hominem : هذا النوع من الحجج يُستعمل للتحقق من أن المتكلم متناسق التفكير وهو طريقة لدحض الرأي دون الاعتماد على المقول وإنما على التشكيك في سلوك القائل . وتعتبر هذه الحجة غير مؤهلة للبت في نتيجة محاورة لأن صاحبها يعمد إلى الهجوم على الخصم فقط لأنه يخالفه الرأي (بيان قلة معرفته أو تعداد عيوبه) .

٤- حجاج القانون ، Argumentum ad juridicium : ويعتبره جون لوك أفضل نوع من أنواع الحجاج المذكورة ، لأنه يرتكز على الحجج النابعة من استعمال العقل ، أو تقصي الاحتمالات الممكنة ، وهو الوحيد الذي يمكن أن ينتج معرفة حقيقية وهو يقابل الأنواع السابقة من الحجاج التي يعتبرها جون لوك غير مفيدة بل هي في أغلب الأحيان مضللة .

إلى جانب اعتماد بروتون على شكل الحجة في تصنيفه وهو الجانب الذي يتميّز به عمن سبقه من دارسي الحجاج ، فإنه لا يهمل مرتكزات الحجج ، هذه المرتكزات هي التي خولت له هذا التقسيم الرباعي ، حيث يعتمد الصنف الأول على السلطة (تفعيل سلطة معينة) ، ويستدعي الصنف الثاني الأفكار الجماعية المسبقة (مجموعة المعتقدات والقيم التي تتقاسمها المجموعة) ، ويقوم الصنف الثالث على تأطير الواقع وتقديمه (تقديم الواقع من وجهة نظر معينة مع تضخيم بعض الأوجه وتصغير أوجه أخرى) ، أما الصنف الرابع فهو يستدعي التشابه (الأوجه البلاغية المعروفة :مثل المجاز ، والتشبيه التام والتمثيل . . .) وسنسعى إلى ذكر مثال نمهد به لكل نوع من أنواع هذه المجموعات الكبرى يليه التحليل والتطبيق على أمثلة من الخطاب الإعلامي الذي وقع تحديده في المتن المدروس :

٥-٥-٢- حجج السلطة les arguments d autorité:

المثال[١] :يسعى محامي الحق المدني لإقناع المتهمين الماثلين أمامه –أثناء محاكمتهم بالقتل في قضية المسؤول «إيرنياك» (Claude Érignac)[٢] –بالاعتراف بوقائع الجريمة فيقول : «هنا وقعت محاكمة مجاهدين من جبهة التحرير القومية «Front de libération nationale» (FLN) ودافعت عنهم ، وحوكم جنود من «منظمة الجيش السرّي» (OAS): Organisation de l'armée secrète)[٣] هؤلاء الجنود لم ينكروا مسؤوليتهم أمام القضاء (لوفيقارو «le Figaro» ٥ و٦ جويلية ٢٠٠٣) .

يرى بروتون أن الحجج التي استعملها المحامي هي حجج سلطة ، والسلطة التي التجأ إليها هي سلطة بعض المناضلين الذين اقترفوا أفعالا خطرة ولكنهم تحملوا مسؤوليتهم في ذلك أمام القضاء ، ولذلك على الماثلين أمام هيئة المحكمة أن يفعلوا مثلهم ويمتثلوا لهذه السلطة التي فرضت نفسها من خلال تكرر مثل هذه المواقف التي تدعو إلى التصرف وفق سلطة المتعارف عليه في قيم المناضلين . . .نقاش الرأي . . . . . .

يرتكز الرأي في حجة السلطة على سلطة معترف بها من قبل المتلقي ، ويلتجئ المتكلم إلى سلطة خارجية معروفة أو كذلك إلى سلطته هو ، ويمكن أيضا أن يستغلّ المتكلم مناطق سلطة خفية لدى المتلقي ليحثه على الاقتناع برأي معين . يمكن أن نشير إلى سلطة وسائل الإعلام التي تكتسبها من وجودها في المجتمع كمؤسسة أو قطب مهمته جمع الأخبار ونشرها ، ولكن تبقى وسائل الإعلام في حاجة لثقة المتلقي لأنها متى ما فقدت هذه الثقة فقدت سلطتها معها .

يمكن أن ترتكز السلطة في حجة السلطة على القدرة المعرفية العلمية ، ومثال ذلك : لا يمكن رفض رأي أستاذ أدب في رواية معينة ، أو رأي مختص في الطب في

---

(1) Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, P43.

(٢) تم اغتيال حاكم مقاطعة الكورس Le préfet de Corse «كلود إيرنياك» يوم ٦ فيفري ١٩٩٨ بـ«أجاكسيو» – فرنسا .

(3) L'Organisation armée secrète (OAS) était une organisation française politico-militaire clandestine partisane avec comme mode d'action le terrorisme à grande échelle, créée le 11 février 1961 après une rencontre à Madrid Jean-Jacques Susini et Pierre Lagaillade.

انتشار مرض ما ولكن لو أعطى الطبيب رأيه في الرواية وأعطى أستاذ الأدب رأيه في المرض لأمكن عدم الاقتناع ، سلطة الحجة في هذه الحالة سلطة معرفية ، ونجاعتها في الإقناع تأخذ مشروعيتها من هذه المعرفة . وهذا ينطبق على الأشخاص وعلى المؤسسات على حد السواء .

تعتبر القوانين والمراجع القضائية والتشريعية حججا ذات سلطة مقنعة فاللجوء إليها أثناء المحاجة لا يدع مجالا لرفض الرأي المقدم ، ومثال ذلك ما جاء في جريدة الشروق التونسية الصادرة بتاريخ ١٦ جانفي ٢٠١١ حول شغور منصب رئيس الجمهورية بعنوان :»قرار بالإعلان عن شغور منصب رئيس الجمهورية بصفة نهائية» ، هذا الإعلان الذي ورد في العنوان يحمل الكثير من الخطورة والأهمية ولذلك وجب على الجهة التي أصدرته (المجلس الدستوري في حالتنا هذه) أن تستند إلى حجة مقنعة لتضمن سهولة تقبله من المتلقي .

تتمثل هذه الحجة في ذكر السبب وراء هذا الإعلان وهو رسالة الوزير الأول وثبوت مغادرة الرئيس السابق دون تفويض سلطاته إلى الوزير الأول وحالة الطوارئ بالبلاد «إن المجلس الدستوري ، بعد اطلاعه على الرسالة الموجهة إليه من قبل الوزير الأول بتاريخ ١٥ جانفي ٢٠١١ . . . وحيث اتضح خاصة من الرسالة المذكورة أن الرئيس زين العابدين بن علي غادر البلاد التونسية دون أن يفوّض سلطاته إلى الوزير الأول وفقا لأحكام الفصل ٥٦ من الدستور ، وحيث أنه لم يقدّم استقالته من مهامه على رأس الدولة ، وحيث أن المغادرة تمت في الظروف القائمة في البلاد وبعد الإعلان عن حالة الطوارئ ، وحيث أن غياب رئيس الجمهورية بهذه الصورة يحول دون القيام بما تقتضيه موجبات مهامه وهو ما يمثل حالة عجز تام عن ممارسة وظائفه» .

هذه الحجج الأولى تعتبر حجج وقائع «facts» لا شك فيها ويمكن اعتبارها حيثيات الرأي الذي سيعبر عنه المجلس الدستوري ، ولكنها غير كافية لتبرّر القرار الذي سيقدم على اتخاذه ، ولذلك تلتجئ هذه المؤسسة إلى حجج قانونية تضمنها الدستور التونسي وهو أعلى سلطة يمكن أن يقع الاحتكام إليها في مثل هذه الأمور .

لذلك يضع المجلس الدستوري كل ما سيقوم به في إطار الفصل ٥٧ من الدستور ثم يفصّل ذلك : «وبعد الاطلاع على الفصل ٥٧ من الدستور فيما يخص شغور منصب رئاسة الجمهورية» ، يعلن المجلس الدستوري عن :

«أولا ، الشغور النهائي في منصب رئيس الجمهورية

ثانيا ، إن الشروط الدستورية توفرت لتولي رئيس مجلس النواب فورا مهام رئيس الدولة بصفة مؤقتة» .

ولا يكتفي المجلس الدستوري بصفته المؤسساتية وإنما يضيف ذكر أسماء كل أعضائه (رئاسة :فتحي عبد الناظر ، وعضوية : السيدة فائزة الكافي والسادة غازي الجريبي والمنجي الاخضر ومحمد رضا بن حماد ومحمد كمال شرف الدين ، ونجيب بلعيد ، وابراهيم البرتاجي والسيدة حميدة العريف) لتكتمل سلطته (سلطة مؤسسة وسلطة فردية) في اتخاذ هذا القرار الذي يتلخص في تولي رئيس مجلس النواب رئاسة الدولة .

ويمكن أن تَتخذ حجة السلطة التجربة مصدر سلطة لها ، ويمكن أن تكون هذه التجربة شخصية (تهم المتكلم) أو فردية أو جماعية ، مثلا يتحدث مناضل شارك في معارك حربية عن الحرب فيقول «الحرب كما عشتها ليست لعبة» . وتختلف التجربة عن الشهادة (le témoignage) لأن الشاهد يستمد سلطة حججه من حضوره ومشاهدته الأحداث في فترة محدودة ، أما صاحب التجربة فهو الذي عاش التجربة بكل تفاصيلها وتكونت لديه فكرة دقيقة عن الموضوع ، ويشتركان في وصف وقائع كل من موقعه .

بالنسبة للحجة القائمة على الشهادة يمكن أن نذكر ما جاء في جريدة القدس العربي عدد ٦٦٩٨ السنة ٢٢ ص٧ ،(٢٢ ديسمبر ٢٠١٠) تحت عنوان «عودة الهدوء إلى سيدي بوزيد والحكومة تقلّل من شأن المواجهات» . كل الحجج المقدمة للإقناع بهذا الرأي تعتمد على الشهادة الحية ، ففي هذا المقال القصير نسبيا (يحتل مساحة صغيرة من الصفحة) يلجأ المتكلم (الكاتب) إلى ذكر ستّ شهادات يسند إليها كل الآراء المكتوبة «قال شاهد عيان . . .» ، «قال شهود . . .» ، «قال بعض السكان . . .» ، «أبلغ ساكن في سيدي بوزيد . . .» ، «قال شاهد محلي آخر . . .» وقال شاهد آخر . . .» . إلى جانب إسناد الخبر برمته إلى وكالة «تونس رويترز يوبي آي» .

نلاحظ أن كاتب المقال يستمد سلطة مصداقية ما يقوله من خلال نسبه الخبر لمصدر أول موثوق ومعترف به في عالم الصحافة وهو وكالة «تونس رويترز يوبي آي» ، ولا يكفيه ذلك بل ينسب كل جزء من هذا الخبر إلى شاهد يستمد من حضوره المادي في خضم الأحداث سلطة ومصداقية تجعل المتلقي يقتنع بالخبر دون شك .

لكننا نلاحظ أن هذه الشهادات منسوبة إلى مجهول ، ولم يذكر الخبر أي اسم

من أسماء هؤلاء الشهود ، لذلك نجده في الشاهد الرابع (أبلغ ساكن في سيدي بوزيد) يضيف شيئا آخر يقنع به المتلقي ويجعله يصدقه دون ذكر أسماء الشهود ، يضيف وسيلة الإبلاغ وطلب الشاهد عدم ذكر اسمه « أبلغ ساكن في سيدي بوزيد – شريطة عدم ذكر اسمه– بالهاتف . . .) ، وهذه الجملة الاعتراضية هي التي تخول للكاتب عدم ذكر أسماء الشهود وتضمن له اقتناع المتلقي بذلك . ونلاحظ هذا التمشي في صحيفة القدس طيلة تغطيتها لأحداث سيدي بوزيد إلى حدود ١٣ جانفي .

جاء في صحيفة «الشرق الأوسط» بتاريخ ١١ جانفي ٢٠١١ ، تحت عنوان «تونس : بن علي يلقي خطاب «العصا والجزرة» والحكومة تعترف بـــ«شرعية» الاحتجاجات وتشجب الإعلام الأجنبي» ، ثم جاء في التقديم ما يلي : «وعد الرئيس التونسي زين العابدين أمس الإثنين بتوفير ٣٠٠ ألف فرصة عمل جديدة قبل ٢٠١٢ في خطاب تلفزيوني بعد أحداث الشغب الدامية التي شهدتها البلاد مؤخرا احتجاجا على تفشي البطالة لكنه هاجم المحتجين وشدد على أن القانون «سيأخذ مجراه» ، يأتي هذا بينما تواصلت المظاهرات في عديد مناطق البلاد» .

نشير إلى أن المثل المعتمد في العنوان «العصا والجزرة» مثلٌ أوروبي ولكنه أصبح معروفا في كل أنحاء العالم ، وأساسه يرتكز على مبدأ الثواب والعقاب ويعود إلى ما كان يقع في أروبا عندما كان أهلها يروضون الحمير والبغال باستخدام العصا والجزرة بحيث يتم مسك الجزرة بيد ووضعها أمام الحمار والعصا بيد أخرى ، فيسير الحمار إن طاوع الجزرة وإن عصى فله العصا ، ويرجع البعض هذا المثل إلى أصل آخر ولكنه لا يختلف كثيرا عن الأول وهو أن الفلاح يربط الجزرة على عصا وترك هذه الجزرة تتدلى أمام الحمار ليستمر في السير ظاناً أنه سيصل إلى الجزرة .أما استعمال هذا المثل فهو استعمال سياسي بامتياز ؛ فكثيرا ما تستعمله الصحافة لوصف سياسة الدول الغربية مع دول العالم الثالث ومنها الدول العربية ؛ أمّا الدول الغربية فلا تستعمله لوصف العلاقات بينها لأنه يعتبر إساءة لمن يستعمل في حقه وذلك بالرجوع إلى أصل المثل .

استند الصحفي كاتب المقال إلى سلطة ترتكز على ما هو متعارف عليه (سلطة المثل) ليقنع المتلقي بأن الرئيس زين العابدين بن علي كان يستعمل سياسة الترهيب والترغيب ، فهو وإن وعد بتوفير ٣٠٠ ألف موطن شغل فإنه لن يسكت عمن كانوا

السبب في «أحداث الشغب» التي انتشرت في البلاد انطلاقا من سيدي بوزيد ، وأن «القانون سيأخذ مجراه» .

لكن النتيجة المرجوة من هذا الفعل لم تحصل «يأتي هذا بينما تواصلت المظاهرات في عديد مناطق البلاد» ، ويريد كاتب المقال أن يبين من ذلك أن مبدأ «العصا والجزرة» لم يعد صالحا في مثل هذا الوقت وفي مثل هذه الوضعيات التي يطالب فيها الشعب بأبسط حق من حقوقه وهو الحق في الشغل .

أما ما يبطنه استعمال هذا المثل فهو التحريض على مواصلة الثورة لأن الشعب الحر لا يجب أن يرضى بالدونية ولا يجب أن يرضخ لمن يراه «حيوانا» يسوسه بالعصا والجزرة .

٣-٥-٥ حجج المجموعة les arguments de communauté

المثال : عندما اضطرّت الحكومة الفرنسية في سبتمبر ٢٠٠٠ إلى اتخاذ إجراءات لا تتماشى مع التوجه العام لسياستها وذلك بشأن التحكم في مشكل الارتفاع المهول في أسعار النفط ، اقترحت «بياتريس قيراي» (Béatrice Gurrey) أن لا يُرى الأمر على أنه مخالفة للسياسة العامة للبلاد وذلك بقولها «هناك وقت لكل شيء ، وقت لحل المشكلات المستعجلة ، ووقت لاحترام ما هو مبرمج : وقت لإعداد مستحقات السياسة الداخلية ، ووقت آخر للتصرف وفق الإطار الضيق للتضامن الحكومي» (Le Monde, 9 sebtembre 2000) .

يرى بروتون أن الحجة هنا ترتكز على ما يمكن اعتباره قريبا من المثَل أو الحكمة وهو «لكل شيء وقت يناسبه» وهذا يخرج الفعل الذي ستقدم عليه الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت من التناقض . ويرد بروتون هذا التصرف إلى فرضية قديمة تستند إلى الكتاب المقدس وبالتحديد معتقدات كنيسية وهي أن كل شيء مبني على التسليم بمعادلة أن هناك وقتا للحياة ووقتا للموت . ترتكز حجة المجموعة على معارف مشتركة تختزنها الذاكرة الجمعية وتؤمن بها .

إنّ اللجوء لهذه الفرضيات المسبقة المتعارف عليها يحرّك «تأثير المجموعة» في المتلقي هذا التأثير الذي يتقاسمه مع المتكلم والذي يستمد مشروعيته من قبول المجموعة عدداً من القيم تحدد تصرفاتها ، والتجاء المتكلم لهذا النوع من الحجة يعني زيادة ترسيخ هذه القيم وإعطائها مشروعية جديدة للبقاء .

يقسّم بروتون هذه الفرضيات المسبقة إلى ثلاثة أقسام كبرى هي : الأفكار المتعارف عليها والقيم وما يسميه «الأماكن» ، وذلك رغم تداخل هذه الأقسام لأنه يصعب أحيانا تصنيف حجة في أحدها لأنها يمكن أن تمس أكثر من صنف «لأن عالم الأفكار والمعتقدات غالبا ما يستعصي على التصنيف الجاف[1]» . يحضر المثل كثيرا في هذه النوعية من الحجج ويكاد يسيطر عليها ونجد في الخطاب السياسي للباجي قائد السبسي في تونس بعد «الثورة» أحسن مثال على ذلك فهو يجذّر آراءه في القيم الأخلاقية والدينية المتعارف عليها في المجتمع التونسي .

في هذا الإطار صدر في صحيفة «لابراس» (La Presse) التونسية بتاريخ ٣٠ ديسمبر ٢٠١٠ مقال بعنوان[2] : «تلاعب بالوقائع وإخراجها عن طبيعتها وجعلها كارثية» جاء فيه : «أدان البرلمانيون الدستوريون الديموقراطيون الشباب التغطية الإعلامية التي قامت بها قناة «الجزيرة» إثر الأحداث الأخيرة التي وقعت في سيدي بوزيد ، والتجائها إلى التلاعب وإخراج الحقائق عن طبيعتها وكذلك تصوير هذه الأحداث في صورة كارثيّة بهدف زرع الفتنة والنيل من الصورة االمشرقة لتونس» .

نلاحظ أن الحجة المعتمدة للإقناع بهذا الرأي هي قيمة متعارف عليها في الوسط الإعلامي وفي المجتمع العالمي بصفة عامة وهي أن التلاعب في الإعلام أمر سيّئ يجب مقاطعته وكشف من يمارسه وذلك خدمة للإعلام وللمتلقي ، فالإعلام الحر النزيه لا يقوم على تزوير الحقائق والسعي إلى تشويه سمعة الأفراد فما بالك بالدول .

على أساس هذه القيمة التي تعترف بها كل المجتمعات وتؤمن بها تمّ تقديم قناة الجزيرة كوسيلة إعلام تتوخى التلاعب ، وبالتالي فالأخبار التي تذيعها لا بد من التشكيك فيها وعدم تصديقها لأنها تبغي من ورائها تحقيق أهداف سياسية قذرة ، وهي النيل من سيادة الجمهورية التونسية . وعلى هذا النحو يقع إقناع المتلقي بعدم تصديق ما تذيعه الجزيرة بغض النظر عن مدى صدقه أو كذبه في الواقع .

يرى « جون بول روسويبر» (Jean Paul Resweber 1992) أنّ القيمة «صورة محبذة» (figure du désirable) وأن التواصل لا يمكن أن يتم داخل مجموعة بشرية

---

(1) Philippe Breton, L argumentation dans la communication, P68.

(2) La Presse, 30décembre 2010, “Manipulation, dénaturation des faits et dramatisation des événements”.

إلا من خلال هذه القيم ، «بما أن الرابط الاجتماعي لا يوجد إلا بإعادة إحياء القيم الضمنية[1]» ، وهذا ما يعطي أهمية كبرى للحجة التي تقوم على أساس استغلال القيمة المشتركة بين مجموعة بشرية .

هذا إلى جانب وجود قيم مشتركة بين كل المجتمعات أو أغلبها ، وفي بعض الأحيان نجد أنفسنا أمام قيمة محبذة في مجتمع ما تصبح في مجتمع آخر غير ذات معنى أو لها المعنى العكسي تماما ، مثلا «الحياء» هو في المجتمعات الشرقية قيمة محبذة ولكنه في المجتمعات الغربية لا يؤدي نفس المعنى ، أن تسكت الفتاة المطلوبة للزواج عند سؤال والدها لها «هل تقبلين؟» ترسيخٌ لقيمة الحياء وتأويله القبول ، ولكن ذلك لا يؤدي إلى نفس النتيجة في الغرب فأن تسكت ربما يعدّ دليلا على حيرتها أو طلب مهلة للتفكير ويمكن أن يكون دليلا على الرفض وعدم الاهتمام بالموضوع من أساسه .

نلاحظ أن زين العابدين بن علي التجأ إلى تسخير قيم مهمة في حياة المجتمع التونسي وذلك لإقناع الشباب الثائر بالعدول عن الخروج في المظاهرات ، وذلك في خطابه الثاني قبل رحيله (الخطاب بتاريخ ١٠ جانفي ٢٠١١) . يقول : «لقد ركب هؤلاء المغالطون موضوع البطالة بتوظيف حالة يأس فردية مثلها يتكرر في جميع المجتمعات وفى عديد الأوضاع ، مناوئون مأجورون ضمائرهم على كف أطراف التطرف والإرهاب التي تسيرها من الخارج أطراف لا تكن الخير لبلد حريص على العمل والمثابرة بلد موارده ذكاء أبنائه وبناته الذين راهنا عليهم دوما ومازلنا لأننا نفضل مجابهة التحديات وصعابها بشعب مثقف على الأمان الوهمي بشعب جاهل» .

وظّف بن على حججا تتخذ القيم المحبذة في المجتمع أساسا لها ، مثل حجة نبذ التطرف والإرهاب وحجة عدم قبول التدخل في الشأن الوطني من قبل جهات أجنبية وذلك للحفاظ على استقلالية وسيادة تونس ، وهذا يعني الانتصار للسلم والأمان وللسيادة الوطنية . ومن جهة أخرى استعمل حجة ترتكز على قيمة متفق عليها وهي المراهنة على الثقافة ونشرها في المجتمع .

(1) Jean Paul Resweber, Les Pédagogies nouvelles, P35, 1992.

٤-٥-٥ حجج التأطير les arguments de cadrage:

يذكر بروتون كمثال ما كتبته «دنيا بوزار (Dounia Bouzar) في صحيفة «لوموند» بتاريخ ٢٦ أفريل ٢٠٠٣ بهدف ترسيخ العقيدة الإسلامية لدى شبان الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين ، وملخصه أن الإسلام هو الذي يمكن الشاب المسلم الذي ينشأ في بيئة فرنسية من الحفاظ على توازنه بين الأسرة والمحيط أما الانتماء العرقي فهو عاجز عن ذلك ، وهي تقدم بذلك تأطيرا حجاجيا يناسب ما تدعو إليه . تتمثل تقنية هذه الحجج في وصف يركز على تأطير جوانب معينة في الحدث أو المسألة وإبرازها وإهمال جوانب أخرى عمدا .

هذه الحجج تعتمد على الواقع كما يراه المتكلم وكما يريد أن يقدّمه للمتلقي ، يختار من الواقع مسائل ويختار من هذه المسائل جوانب بعينها تخدم رؤيته ، ويذكر بروتون مثال شاب وقع عقابه بتكليفه بدهن سور خشبي طويل ، ولما أحس بالإهانة أمام أصدقائه حاول أن يتبني استراتيجية يبيّن من خلالها متعة هذا العمل بل إنه اعتبره عملا له قيمة إلى جانب المتعة ذلك أنه لا تتوفر لنا فرصة دهن سور بكامله في كل وقت ، حتى أن أصدقاءه أصبحوا يلتمسون منه المشاركة في العمل للتمتع بهذا الإحساس ، وهذا التأطير لجانب من العمل وهو جانب المتعة اختيار صائب بما أنه حقق المرجو منه ، ولو اختار الشاب الحديث عن مزايا العمل اليدوي مثلا لما استجاب له أصدقاؤه بهذه الطريقة ولواصلوا الاستهزاء به وهو ينفّذ عقوبته .

وقدمت صحيفة القدس العربي تأثير ما وقع في تونس على العالم من خلال اختزاله في موقف أمريكا التي استدعت السفير التونسي وهي قلقة من تفاقم الوضع في تونس وذلك من خلال العنوان التالي الوارد في العدد ٦٧١٠ الصادر بتاريخ ٩/٨ جانفي ٢٠١١ في الصفحة الأولى «تونس تصاعد الاحتجاجات وواشنطن تستدعي السفير التونسي وتبدي قلقها حيال الاحتجاجات في بلاده» . هذا العنوان تأطير مقصود لما يرد في متن المقال ذلك أن تحرك الولايات المتحدة الأمريكية له معان عديدة في العالم بما هي الدولة القائدة لكل ما يجري في المنطقة العربية وفي كامل أنحاء العالم ، وإذا ما تحركت أمريكا فذلك يعني أن الوضع أصبح فعلا خطيرا ولم يعد مجرد أحداث شغب لمجموعة صغيرة من الشبان ولم يعد كذلك مجرد تهويل إعلامي فحسب .

هذا التأطير في العنوان يخفي حقيقة المقال الذي لا يمثل فيه الحديث عن موقف

الولايات المتحدة إلا خمس حجمه والبقية يبيّن فيها الصحفي موقف عدة أطراف أخرى منها منظمة «مراسلون بلا حدود» وصحيفة «لوموند» الفرنسية ، وجنيف وفرنسا .

تسعى حجج التأطير أيضاً إلى التأثير والإقناع من خلال طريقة «التعريف» (la définition) وتتمثل في اللجوء إلى ذكر تعريف شيء ما أو ظاهرة معينة من خلال طرح سؤال لا ينتظر من ورائه المتكلم إجابة من المتلقي وإنما ينتظر أن يجلب انتباهه إلى التعريف الذي سيقدمه وسيكون إجابة عن هذا السؤال ، مثلا يطرح محامي المدنيين الذين قُتلوا في حادثة انفجار قطار بقنبلة وضعها إرهابي ، السؤال التالي : ما معنى قتال؟ ويجيب «القتال يكون وجها لوجه وإن أمكن بأسلحة متكافئة ، لا يمكن أن يكون هناك قتال بين من يضع قنبلة على السكة الحديدية للقطار السريع (TGV) وبين من يمتطون هذا القطار .» (لوموند ١٧ نومفبر ٢٠٠٠) .

وبالطريقة نفسها يطرح «جوزي بوفي» [1] (José Bové) سؤالا عن الحمى القلاعية التي تصيب المواشي فيقول «ما هي الحمى القلاعية؟ إنها أزمة نظام إنتاج تتطلب من أوروبا تفكيرا عميقا بخصوص النظام الفلاحي الذي وضع في بريطانيا العظمى ولكن وقع تعميمه مع الأسف في كل أوروبا» (لوموند ٦ مارس ٢٠٠١) .

نجد في جريدة الصباح الصادرة يوم **٢٥** ديسمبر ٢٠١٠[٢] في الصفحة الأولى مقالا حول الأحداث التي وقعت في سيدي بوزيد خلال تلك الفترة بعنوان «ماذا حدث؟ كيف حدث؟ ولماذا حدث؟» ، فهل ينتظر واضع هذه الأسئلة جوابا من القارئ؟ قطعا لا ، لأن الإعلام يتولى تقديم الأحداث والوقائع للمتلقي عبر وسائله المتنوعة . وهكذا لا ينتظر المتكلم إجابة بل يريد جلب اهتمام المتلقي ليقوم بتقديم تعريف من وجهة نظره للأحداث التي وقعت في سيدي بوزيد والتي كان يحفها

---

(1) José Bové, né Joseph Bové le 11/6/1953 à Talence (Gironde), est l'une des figures du mouvement altermondialiste et homme politique. Syndicaliste agricole, il est connu pour ses prises de position contre les OGM et ses actions d'arrachage illégal de plantations OGM, qualifiées de désobéissance civile par ses défenseurs. (wikipédia le 10-12-2013).

(٢) هو اليوم الأول الذي تخصص فيه الصحيفة أحداث سيدي بوزيد بخانة في الصفحة الأولى تحت عنوان عام «الصباح في قلب سيدي بوزيد» وتوالت هذه الخانة طيلة أيام الأحداث .

الغموض والتساؤل ، لتعدد الروايات حولها .

السلطة تركز على أنها أحداث عابرة لا تستحق الاهتمام ، ووسائل الإعلام الأجنبية (خاصة الجزيرة) تقدمها على أنها انتفاضة شعبية كبيرة . ويواصل بعد طرح الأسئلة قائلا «سيدي بوزيد تلك المدينة الهادئة الرصينة اهتزت فجأة في أعقاب إقدام الشاب محمد بوعزيزي (٢٦ سنة) على حرق نفسه احتجاجا على منعه من ممارسة عمله كبائع متجول . فقد تحركت عناصر من الجهة في مواجهات مع قوات الأمن في الشوارع لتمتدّ هذه المواجهات وبشكل متقطع إلى مدن مجاورة كالمكناسي ومنزل بوزيان» . هذه الإجابة عن الأسئلة المطروحة في العنوان تبيّن اطلاع المتكلم على الوضع (وهو ما يريد إقناع المتلقي به) وبالتالي إطفاء عطش القارئ لمعرفة حقيقة ما يحدث في سيدي بوزيد . ولم يكتف المتكلم بتقديم المعلومات وإنما حاول أن يبدي رأيه فيها من خلال ذكر آراء مختلفة حول الوضع ولكنها تشترك في تحديد أسباب الأزمة « اختلفت الآراء حول ما يحدث . . .ولماذا في سيدي بوزيد رغم إجماعها على أن الوضع الاجتماعي يشكو بطالة ومحدودية التنمية ووسائل الترفيه وانعدام الآفاق» .

إن هذه المعلومات التي قدمها المتكلم على أساس أنها تعريف دقيق لما يقع تعتبَر وجهة نظر معينة إزاء ما يقع . يظهر في الأمثلة السابقة أن التعريف المقدّم لا يرتبط بالضرورة بحقيقة الأشياء ولا يمثل نظرة موضوعية للظواهر المقدمة ، وإنما هو تبنّي وجهة نظر معينة تخدم غرض الحجاج .

٥-٥-٥ حجج القياس les arguments d’analogie

المثال : يقول «أنطونيو دي بياترو» (Antonio Di Pietro) المدعي العام لمدينة ميلانو الإيطالية «في هذه المدينة صاحب السوابق لا يستطيع أن يشغل منصب رجل إطفاء ولكن لا شيء يمنعه من أن يكون برلمانيا» . يريد المدعي العام هنا أن يبيّن مدى سوء الحالة القضائية في مدينة ميلانو والتي تمكّن كثير من الإيطاليين من أن يكونوا ضمن أعضاء البرلمان رغم أن لهم مشاكل مع القضاء . حجة القياس هنا تتركز في المفارقة التي تتحكم في القضاء وهي عدم تمكين «المجرم» من العمل العادي مهما قلّ شأنه وغض الطرف عندما يكون عضوا بالبرلمان .

تتمثل حجج القياس أساسا في إنشاء علاقة بين مجالين من الواقع ليس بينهما

علاقة مباشرة وبالتالي نقل مميزات إحداهما إلى الأخرى عن طريق القياس ؛ والقياس ظاهرة بلاغية قديمة عُرفت على الأقل منذ أرسطو وله في ذلك قياس معروف في الكتاب الثاني (Livre II, 1393b) ويتمثل في نقده لمنظومة القضاء الإغريقي حيث يقع اختيار الأعضاء الذين سيتولون الفصل في القضايا عن طريق القرعة ، يقول «لا يجب أن يُعيّن القضاة للبت في قضية ما عن طريق القرعة ، إن ذلك يشبه اختيار الرياضيين عن طريق القرعة وليس عن طريق القدرات البدنية التي تؤهلهم للعدو ، أو اختيار البحار الذي سيتولى قيادة المركب عن طريق القرعة» .

هذه الحجج القياسية يدافع من خلالها أرسطو عن قضية يؤمن بها ويريد إقناع المتلقي بها وهي أن القضاة يجب أن يقع تعيينهم باعتبار ما لديهم من قدرات فكرية وعلمية تخوّل لهم حسن البت في القضايا المطروحة عليهم . أما بالنسبة للمثال الذي يُذكر للقياس فيجب أن يكون مقبولا من المتلقي بل يجب أن يكون مؤمنا به ، أما إذا كان القياس غير مقبول من المتلقي فإن الحجة ستكون واهية وغير مقنعة .

إن حجة القياس تتطلب موافقة المتلقي على القضية التي يقع عليها القياس (وهنا يمكن أن نتحدث عن معارف مشتركة بين المتكلم والمتلقي) وتتطلب كذلك موافقة ثانية من المتلقي وهي انخراطه في عملية القياس في حدّ ذاتها أي قبوله الربط بين شيء مشكوك فيه بالنسبة له بشيء معلوم .

بالرجوع إلى ما ورد في الخطاب الصحافي المتصل بالأحداث التي وقعت في تونس نجد في صحيفة «القدس العربي» العدد ٦٧١٦ للسنة ٢٢ في الصفحة الأولى وفي عمود من تحرير الصحفي «عبد الباري عطوان» ما يلي : «الرئيس التونسي اعترف ، تحت تأثير الغضبة الشعبية وليس تطوعا ، بأنه تعرض للتضليل من قبل بطانته ، التي حجبت عنه الحقائق ، وقمعت الشعب باسمه ، وصادرت حرياته وأبسط حقوقه .

لكنها صحوة متأخرة ثلاثة وعشرين عاما ، وهي بالمناسبة الفترة نفسها التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة على رأس الدولة الإسلامية (١٠ سنوات في مكة و ١٣ سنة في المدينة) ونحن هنا لا نقارن لا سمح الله ، وإنما لنذّكر بالعدالة وحجم الإنجاز رغم صعوبة الظروف وضخامة المؤامرات . ثلاثة وعشرون عاما من ديكتاتورية الحزب الواحد ، واحتكار السلطة من قبل مجموعة صغيرة ، سيطرت على القرار ، ونهبت ثروات البلاد ، وتغوّلت في الفساد ، وفوق كل هذا

وذاك ، مارست القمع الفكري والإعلامي ، لحجب الحقائق عن العالم الخارجي» .

إن حجة القياس في هذا المثل واضحة وينفي الكاتب توجهه للمقارنة وهذا ما يؤكد القياس الذي ذهبنا إليه رغم أن الصحفي يصرّح بأنه ذكر القياس للتذكير ، ولكنه يؤدي دور الحجة التي تسعى لإقناع المتلقي بالرأي الوارد والذي يتلخص في أهمية المدة الزمنية وما وقع فيها من أحداث غيّرت وجه البلاد وبصمتها ببصمة يصعب محوها وهذا هو الزمن الذي قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم لبناء الدولة الإسلامية وتقويض ما سبقها ، هذه الدولة التي امتدت أطرافها من الجزيرة العربية إلى أصقاع كثيرة من العالم . هذه الظروف الصعبة التي امتدت على ثلاث وعشرين سنة تحت حكم بن علي كان يصعب تغييرها ومع ذلك استطاعت إرادة الشباب أن تحقق العدالة وتنهي هذه الحقبة من الظلم والاستبداد .

في المقال نفسه نجد مثالا آخر عن حجة القياس ، يقول الصحفي : «أمريكا غيرت أنظمة معادية لها بالغزو والاحتلال ومقتل مئات الآلاف من الأبرياء مثلما حصل في العراق وأفغانستان ، وها هو الشعب التونسي يقلب المعادلة ، ويغيّر نظاما صديقا للولايات المتحدة بالاحتجاجات الحضارية المشروعة التي تكفلها كل القوانين والأعراف الإلهية والدولية والوضعية . وربما لهذا السبب جاء أول رد فعل أمريكي على انتفاضة تونس البيضاء بعد ثلاثة وعشرين يوما من انطلاقها» .

هذا المثال يبرز نوعا خاصا من حجج القياس لم يتعرض لها «فيليب بروتون» ، وهو ما رأينا أن نسميه حجة القياس بالنفي . فأمريكا دولة قوية ومسلحة ، والشعب التونسي ضعيف أعزل ولكن كليهما حقق النتيجة نفسها وهي تغيير المصير وإسقاط نظام متجذّر في الحكم لسنوات عديدة ;أمريكا استعملت القوة العسكرية والغزو والاحتلال وكل الطرق غير المشروعة التي ترتكز على منطق القوة والغلبة ، أما الشعب التونسي فإنه حقق نفس النتيجة وغيّر نظاما صديقا لأمريكا بوسائل حضارية مشروعة «تكفلها كل القوانين والأعراف الإلهية والدولية والوضعية» .

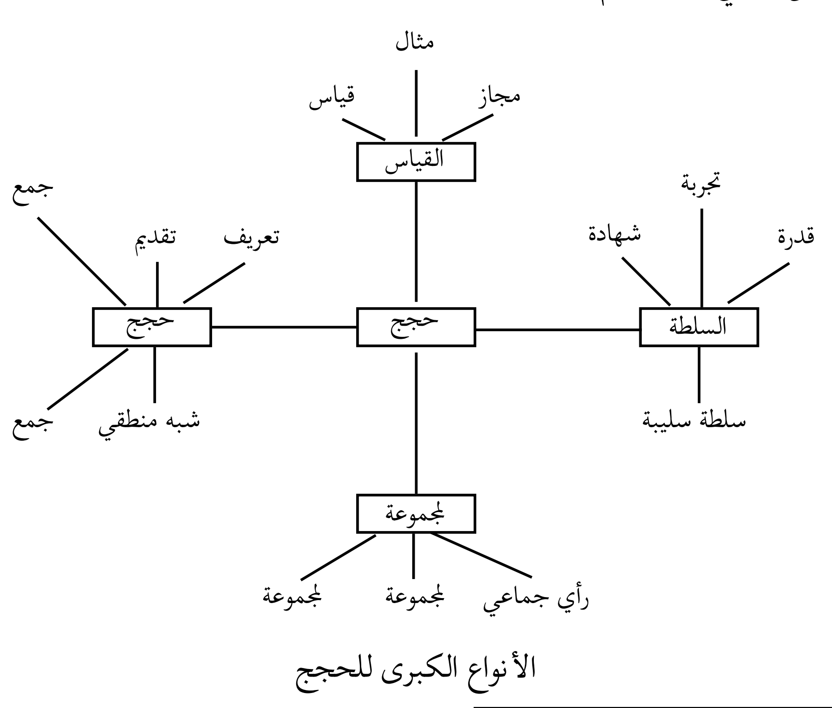
انقلبت المعادلة لتؤكد أن التغيير الذي قام به الشعب التونسي يعتبر تغييرا مهما وخطيرا في حياة هذا الشعب ولكنه تمّ بصفة سلمية جعلت أكبر الدول وأقواها اقتصاديا وعسكريا تنبهر بما وقع ولا تستطيع إبداء موقفها إلا بعد فهم حقيقة ما يحدث .

والجدير بالذكر أن القياس لا يمكن أن يكون دائما حجّة ولا يجب أن يستعمل

دائما في إطار الحجاج ، يمكن أن نجد القياس في سياقات أخرى مختلفة منها سياق التشبيه خاصة وذلك ما نجده في قصيدة محمود درويش «أجمل حب» وغناها مارسال خليفة «كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة ، وجدنا غريبين معا « فقياس غربة الحبيبين في المكان بالعشب على الصخر لا يلامس بعضه البعض إنما هو تشبيه لتقريب الصورة وليس حجاجا . والتشبيه مثله مثل القياس يأخذ قوته من جدّة الصورة وفرادة العلاقة بين مجالين من الواقع لم يقع التفطن لما بينهما من تقارب من قبل .

إن الفصل بين هذه الأنواع من الحجج يعتبر نوعا من التعسف لما تتميّز به من تقارب وتداخل يجعل الحدود بينها غير واضحة ، ولكن الصفات الغالبة هي التي تجعلنا نضع حجة في نوع دون آخر وهذا لا ينفي أن يرى البعض عكس ذلك .

يلخص بروتون هذه الأنواع الأربعة الكبرى من الحجج وبعض أمثلتها في التمثيل التالي[1] (الرسم٤) :



الأنواع الكبرى للحجج

(1) Philippe Breton, L’argumentation dans la communication, P45, 3ème édition, Pans, La découverte, 2003.

خلاصات

- لا يمكن أن تكون عملية حجاج دون وجود اتفاقات مسبقة بين المتكلم والمتلقي يبني على أساسها المتكلم مساره الحجاجي ويضع ضمن حدودها تقنياته الحجاجية ، إلى جانب موافقة المتلقي على خوض غمار المحاججة لأنه في بعض الأحيان يحمي المتلقي نفسه من عملية الحجاج ويغلق باب الانخراط فيه بوعي منه أو بدون وعي ومثل ذلك نذكر خاصة سياقات البيع والشراء والسياقات السياسية التي كثيرا ما يستعمل فيها حجاج التلاعب ، ففي سياق البيع والشراء يكون لدى الشاري فكرة معينة عن المنتوج أو عن عارضه ويرفض الاستماع لأي محاولة لتغييرها .
- لا يتمثل الاتفاق المسبق في شكل الحجة الذي يحمل الرأي فقط وإنما أساسا على عنصر مقبول من المتلقي ويكون مرتكزا للحجة ، وهذا يعني أن المتكلم لا بدّ أن يبحث عن نقطة ارتكاز (أو أكثر) يقبلها المتلقي وتكون ضمن معارف مشتركة ، وهذه المعارف المشتركة عادة ما تكون بين مجموعات صغيرة ولكن هذا لا يمنع من أن تكون في بعض الأحيان عالمية وهنا يمكن الحديث عن «المتلقي العالمي» .
- بالرجوع إلى مثال Béatrice Gurrey يتضح أن نقطة الارتكاز هي أن المتكلمة واعية بأن المتلقي يتقاسم معها اتفاقا مسبقا يتمثل في أن «لكل شيء وقتا» وهي واعية أيضا بأنها تتوجه لمتلق متأثر بما ورد في الكتاب المقدس وبما ورثه من أفكار كنسية (هذا لا يمنع من أن تكون هذه الفكرة منتشرة في ثقافات أخرى) . وفي مثال «دنيا بوزار» الذي استعملت فيه حجة تأطيرية فإن نقطة ارتكازها تتمثل في وصف موجه يختلف على الوصف العادي ومفاده أن الإسلام يمكن من الحفاظ على التوازن ويحفظ العلاقات الأسرية وسط بيئة غير مسلمة ، أي أن الإسلام دين «غير عرقي» .
- يختلف الحجاج عن الإغراء الموجه للعاطفة ويختلف كذلك عن التلاعب والإقناع الذي يعتمد على العنف ، دون أن تكون الحدود بينه وبينها واضحة وجلية لتداخل هذه المفاهيم في عديد وضعيات التواصل ، لأنه من الصعب أن نجد وضعية حجاج خالص أو تلاعب خالص أو إغراء خالص بهدف الإقناع (رغم إمكانية وجودها نظريا) .
- ما يجلب الاهتمام في نظرية فيليب بروتون هو تصنيفه الحجاج ضمن ما يسميه

«علوم التـواصل» (les sciences de communication) فـالحـجـاج مـسـألة تقع دراستها ضمن هذه العلوم لأنها فرع لها ، يهتم بإيصال الخبر مع السهر على تحقيق الإقناع بفعل أو رأي . وبذلك فالحجاج يتطلب بالضرورة متكلما (فاعلا واضعا للحجاج) ، ورسالة (أو خبرا) موضوع الإقناع ، ومتلقيا (شخصا أو مجموعة أشخاص) ، وخضوع الحجاج لهذا الثلاثي الذي تقوم عليه كل الدراسات في مجال التواصل هو الذي جعل منه فرعا من هذه العلوم بحسب رأي بروتون . وهذا الثلاثي هو : الباث والرسالة والمتقبل (émetteur, message, récepteur) . ولا يمكن أن تخلو دراسة من الدراسات التي تهتم بالتواصل من هذه العناصر مهما كانت المقاربة المعتمدة .

- إلى جانب ما سبق يعتبر فيليب بروتون الحجاج علما مازال يبحث له عن حدود وهوية لأنه لم يستقل عن البلاغة إلا حديثا ، وهو يعتقد بوجوب النظر إلى هذا المجال نظرة جديدة تحرره من رواسب الفكر القديم التي مازال يرزح تحت كاهلها رغم التقدم الحاصل في الدراسات التي تهتم به .

خاتمة الباب

حاولنا في هذا الباب تطبيق مقاربة التحليل النقدي للخطاب على الخطاب الإعلامي المواكب للثورة في تونس . وعالجنا ما اخترناه من مقتطفات من خطاب السلطة وخطاب الشعب وخطاب الصحافة ، معالجة اعتمدت على التحليل المعجمي وعلى ما توفره التسمية والإحالة والضمائر من إمكانات لتأويل وفهم هذا الخطاب ، ودرسنا بنية الجملة من خلال ظاهرة التعدية واللزوم .

وحاولنا الابتعاد عن التحليل الشكلي الجاف الذي يتجنبه الباحثون في التحليل النقدي للخطاب ، إذ كان مرجعنا الأساسي ما توصلت إليه مقاربات التحليل النقدي للخطاب في هذا المجال ، وخاصة نورمان فيركلاف الذي خصّ الجانب الاجتماعي الثقافي بأهمية كبيرة في تحليل الخطاب .

انعكس الجانب الاجتماعي الثقافي في الخطاب المواكب للثورة التونسية على الاختيار المعجمي لألفاظ هذا الخطاب ، وظهر جليا في التسميات والإحالات والضمائر التي يسم بها كل طرف نفسه والأطراف الأخرى المعارضة أو المساندة له ، كما حملت بنية الجملة دلالات ايديولوجية وثقافية مختلفة ، إلى جانب الأحكام القيميّة التي يحملها واضع الخطاب .

يمكّن التصرف في بنية الجملة واختيار تمش من بين تمشيات أخرى متاحة حرية تصوير الأحداث وتقديم الآراء بطرق ضمنية لا يتحمل واضع الخطاب فيها مسؤولية التأويل ، أو ظاهرة يبرز من خلالها رأيه بصراحة .

يمثل هذا الباب تطبيقا للتحليل النقدي للخطاب على الخطاب الإعلامي المواكب للثورة التي اندلعت شرارتها في تونس بداية من يوم ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ . وهو مساءلة لإمكانيات التحليل النقدي للخطاب في مدى إضاءة تحليل أمثلة من الخطاب المدروس ، وهو محاولة للإجابة عن تساؤلات تدور أغلبها على مدى ملاءمة الوسائل التي توخاها التحليل النقدي للخطاب للكشف عن جوانب مضمرة في الخطاب .

خاتمـــــــــة عامة

حاولنا في هذا البحث معالجة الخطاب الإعلامي من منظور التحليل النقدي للخطاب . وسعينا بداية إلى بيان مفاهيم ذات صلة بهذا البحث مثل مفهوم الخطاب وأنواعه ومدارس تحليل الخطاب . وهكذا تطرقنا في الباب الأول إلى استراتيجيات تحليل الخطاب والأساس الفلسفي للتحليل النقدي للخطاب ، وذكرنا أهم الأعمال في هذا المجال ، وبعض التوجهات التي تندرج ضمنه ، ثمّ سعينا إلى ربط خطاب وسائل الإعلام بالتواصل الجماهيري .

في الباب الثاني ركزنا عملنا على الجانب التطبيقي للتحليل النقدي للخطاب الإعلامي . وأخذنا خطاب «الثورة» التونسية متنا لهذا التطبيق . واخترنا مقاربة متعددة الاختصاصات ولكنها تعطي أهمية للجانب الاجتماعي الثقافي ، وذلك يعني أننا تبنينا وجهة نظر «روث ووداك» ونورمان فيركلاف .

توصلنا إلى عدد من النتائج نسوقها مركّزَة كالتالي :

- يحيل البحث في التحليل النقدي للخطاب على الفلاسفة الاجتماعيين الرواد وعلماء الاجتماع المعاصرين كأساس فلسفي ارتكز عليه الباحثون وخاصة مؤسسي مدرسة فرانكفورت . كما أن مصطلح «النظرية النقدية» لمدرسة فرانكفورت لا يمثل شكلا واحدا من الفكر وإنما مر بمراحل بدأت معالمها تتضح مع «هابرماس» . ويقر المنتمون إلى هذه المدرسة بانتمائهم المتفاوت ، من حيث الدرجة ، للمنهج الماركسي .
- تأثر التحليل النقدي للخطاب الإعلامي بتفكير الفرنسي «بورديو» وذلك من خلال دراساته حول اللغة والثقافة والمجتمع وما يسميه «فضاء الممكنات الثقافية» . وهو يرى أن أي فضاء اجتماعي فضاءُ تفاضلٍ في السيطرة والسلطة وفضاء مقاومات وصراعات وصراعات مضادة . وهو يلتقيٍ مع «فوكو» في اعتبار الإنسان ذاتاً اجتماعية تاريخية ثقافية فاعلة ؛ وهنا نلمس آثار التفكير الماركسي .

- استند عدد من الدراسات النقدية على أعمال فوكو حين تتعامل مع مفاهيم مثل «السلطة» و«الهيمنة» و«الانضباط». ويرى «فوكو» أن الحقيقة لا توجد خارج السلطة ولا تخلو من تأثير السلطة، أي من تأثير في المجتمع وفي العالم. ويبحث التحليل النقدي للخطاب في مفاهيم هي عبارة عن معجم نمطي من قبيل «السلطة»، «الهيمنة»، «السيطرة»، «الإيديولوجية»، المصالح»، «إعادة الإنتاج»، «المؤسسات»، «البنية الاجتماعية»، «النظام الاجتماعي»... وهذه المفاهيم لها صلة عميقة بالخطاب الإعلامي الذي يحاول التأثير في المتلقي باستعمال استراتيجيات خطابية متنوعة، وباللجوء إلى ضروب الحجج المختلفة.
- يمكننا أن نقول إن التحليل النقدي للخطاب قد قام على خلفية فلسفية تعود إلى مدرسة فرنكفورت في ألمانيا (الفلسفة النقدية)، كما تعود إلى التوجه الفرنسي مع ميشيل فوكو وبيار بورديو ولوي ألتوسار. ويتمثل القاسم المشترك بين هذه الدراسات في الاتكاء على أساس ماركسي بعد تعديله تعديلا يلائم نسق كل توجه.
- نلاحظ في مجال التحليل النقدي للخطاب الإعلامي مدى أهمية جهود عدد من الباحثين الذين يعملون في إطار متعدد الاختصاص، ومنهم «روث ووداك»، أو الذين يشتغلون ضمن توجه معين مثل «فان ديك» الذي اختار التوجه العرفاني وانصب عمله على إضاءة العلاقة بين البنيات الاجتماعية والبنيات الخطابية. وكانت أعمال هؤلاء مخصبة وأسهمت في إرساء أسس حقلِ دراسةِ خطابِ الإعلام دراسةً عميقة. ارتكزت أعمال نورمان فيركلاف على التوجه الاجتماعي الثقافي لاقتناعه بصلة إنتاج الخطاب الإعلامي وفهمه بالمجتمع.
- تبقى الوسائل التي اخترناها للتحليل (التحليل المعجمي، ودراسة التسمية والإحالة، والحملية والضمائر، وبنية الجملة، ودراسة الحجاج) طريقة من بين عدة طرق لتحليل الخطاب الإعلامي تحليلا نقديا، ونحن لا ندعي أنها تقدم تأويلا كافيا للخطابات التي وقع تحليلها ولكنه عمل يحاول إضاءة جوانب مسكوت عنها في هذا الخطاب.
- يرتكز التحليل المعجمي أساسا على المفردات المستعملة في الخطاب باتصالها بنوع الخطاب في حد ذاته، وبالجوانب الاجتماعية المختلفة. وحاولنا من خلال الاستفادة من مقاربة متعددة الأبعاد ترتكز على الجانب الاجتماعي ربط المعجم بالجوانب التداولية في الخطاب.

- استندنا على ما توصل إليه فيركلاف -عندما اعتبر أن الخطاب هو استعمال اللغة منظورا إليها بطريقة مخصوصة أي شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعيّة - لنبيّن مدى تجذر الخطاب الإعلامي في صلب المجتمع التونسي إبان «الثورة» .
- إلى جانب التحليل المعجمي ، تؤدّي الاستراتيجيّة الإحاليّة المختارة وظيفة داخل النص ، من خلال توظيف المظاهر البلاغية المتنوعة والظواهر النحوية والصرفية والشكلية واستعمال الضمائر استعمالا مخصوصا لخدمة الغرض المنشود ، فهي تؤسّس علاقات انسجام مع الطريقة التي يُمثَّل بها الفاعلون الاجتماعيون وتوضح كيفية الإحالة على الآخرين . وهي في المتن الذي اخترناه تعكس تقييم واضع الخطاب للأحداث وفهمه لها ، وتبيّن موقفه مما يقع وخلفيته الأيديولوجية التي ينطلق منها .

تستعمل السلطة استراتيجية حملية تحمل نظرة سلبية إلى الفاعلين في المظاهرات وتعطي للمتقبّلين انطباعا سيئا عنهم ، بينما تقدم نفسها على أنها المخلّص الوحيد للبلاد والعباد من خطر «المنحرفين والمجرمين» . ويكرّس خطاب الشعب بدوره استراتيجية حملية سلبية لوصف السلطة بينما يعطي صورة إيجابية للمتظاهرين الرافضين للظلم «الأوفياء لدماء الشهداء» الساعين للتغيير نحو الأفضل . وينقل خطاب الإعلام الموازي الخطابين الأول والثاني نقلا غير بريء ، فيه كثير من الانحياز لطرف على حساب طرف آخر ، انحياز تتحكم فيه المصالح في أغلب الأحيان .

يساعدنا اختيار المتكلم لبنية معينة للجملة - من بين بنيات أخرى متاحة- على التعرف على رأيه وموقفه من الأشخاص والأحداث ، فهو حين يريد إبراز طرف من الأطراف الفاعلة المؤثرة في الحدث ، يختار البناء للمعلوم مع أفعال متعدية ، وحين يريد أن يتمتع بحرية أكثر في تصوير الحدث يختار بناء للمجهول . كما أن الموجهية تساهم في بيان رؤية منشئ الخطاب للأحداث ، وهي تحمل شحنة إيديولوجية غالبا ما تكون مضمرة .

- تساهم دراسة الحجاج في الخطاب الإعلامي في إضاءة التحليل لأن هذا الخطاب شأنه شأن الأنواع الأخرى من الخطابات يقوم على وجود اتفاقات مسبقة بين المتكلم والمتلقي يبني على أساسها المتكلم مساره الحجاجي ويضع ضمن حدودها تقنياته الحجاجية ليضمن إقناع المتلقي ، ويدرس فيليب بروتون الحجاج ضمن ما يسميه «علوم التواصل» (les sciences de communication) لأن الحجاج بحسب

رأيه من فروع هذه العلوم ، يهتم بإيصال الخبر مع السهر على تحقيق الإقناع بفعل أو رأي لذلك وجب النظر إلى هذا المجال نظرة جديدة تجعله في قلب العملية التواصلية . وهذا ما دعانا إلى مقاربة الخطاب الإعلامي باستغلال ما توصل إليه فيليب بروتون بهذا الخصوص .

- ساهم الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي في المجتمع التونسي في إنتاج خطاب إعلامي مخصوص في فترة «الثورة» . ولقد سعينا إلى تحليل هذا الخطاب من أجل فضح مضمراته . انطلق بحثنا في هذا الخصوص مما قيل لتفكيك كيفية قوله وصولا إلى ما يخفيه ، وهو بالأساس خلاف ما يدعيه أو يعلنه .
- يكمن سبب انتعاش التحليل النقدي للخطاب الإعلامي في أن الظواهر الاجتماعية التي ترتبت عن اكتساح الليبرالية (وأنماط الحكم الديكتاتورية في عدد من بلدان العالم الثالث تحديداً) لأغلب بلدان العالم أنتجت مظاهر خلل كبرى نذكر منها خاصة وضعية المهاجرين والفئات المهمشة والفقر المدقع والبطالة في صفوف الشباب ، وبذلك ازدادت الفوارق اتساعا . واللافت للانتباه أن القناة المركزية التي وُظفت في تمرير هذه الخطابات الصريحة والضمنية هي وسائل الإعلام بمختلف أنواعها . ولئن كانت الدراسات المنجزَة تحت عنوان التحليل النقدي للخطاب الإعلامي قد عُنِيتْ بما هو صريح ، فإنها أولت عناية خاصة لما هو ضمني ، وهذا ما سعينا إلى تحقيقه في بحثنا هذا .
- لا يخلو مجتمع من صراع حول سياسة إنتاج الحقيقة ونشرها ، وتساهم في ذلك كل طبقات المجتمع ونظمه ومؤسساته دون استثناء وخاصة المؤسسات الإعلامية ، وذلك ما يتطلب تأسيس اقتصاد سياسي للحقيقة وللمعرفة ولأصناف الخطاب . ومن ثم لا يجوز حصر السلطة في سلطة الدولة وأجهزتها الإكراهية وإنما تتفاعل هذه السلطة السياسية مع السلطة الثقافية وهي سلطة الخطاب وسلطة المعرفة وسلطة الحقيقة .

ملاحق

ملحق عدد ١

١-١ نبـذة عن الأحـداث في تونس من ١٧ ديسـمبـر ٢٠١٠ إلى ١٥ جـانفي ٢٠١١

هذه نبذة عن الأحداث التي وقعت في تونس في الفترة المذكورة ونحن لا نروم التأريخ لهذه الفترة بقدر ما نريد أن نضع عملنا في إطاره التاريخي زمانيّا ومكانيّا ، ليسهل فهم تحليل الخطاب الإعلامي الذي صاحب هذه الأحداث[١] .

١٧ ديسمبر ٢٠١٠ : أضرم الشاب التونسي محمد البوعزيزي ، وهو من العاطلين عن العمل ، النار في نفسه احتجاجا على مصادرة السلطات البلدية في مدينة سيدي بوزيد لعربة يبيع عليها الفاكهة والخضار ، وتنديدا برفض سلطات الولاية قبول شكوى أراد البوعزيزي تقديمها في حق شرطية صفعته (وفي الواقعة الأخيرة خلاف بين من يؤكدها ومن ينفيها) .

٢٠/١٩/١٨ ديسمبر ٢٠١٠ : مواجهات بين مئات الشبان في منطقة سيدي بوزيد وقوات الأمن . المظاهرة كانت للتضامن مع محمد البوعزيزي والاحتجاج على ارتفاع نسب البطالة والتهميش والإقصاء في هذه الولاية الداخلية . وانتهت الاحتجاجات باعتقال عشرات الشبان وتحطيم بعض المنشآت العامة .

٢١ ديسمبر : توسع دائرة الاحتجاجات بولاية سيدي بوزيد لتنتقل من مركز الولاية إلى البلدات والمدن المجاورة كالمكناسي والرقاب وسيدي علي بن عون ومنزل بوزيان حيث خرج السكان في مسيرات حاشدة للمطالبة بالعمل وحقوق المواطنة والمساواة في الفرص والتنمية .

٢٣/٢٢ ديسمبر ٢٠١٠ : تضاعفت الاحتجاجات وانتقلت إلى الحوض المنجمي . خرج أهالي منزل بوزيّان للاحتجاج على غلاء المعيشة والمحاباة وعدم الاهتمام بالتنمية في المناطق الداخليّة مقابل اهتمام كبير بالمناطق الساحليّة . وقع حرق مقر المعتمديّة ومركز الشرطة ، وكان الشعار المرفوع «العمل حق يا عصابة السرّاق» ، واستعمل البوليس القنابل المسيلة للدموع والعصي لتفريق المتظاهرين . وفي

(1) DEGAGE, La révolution tunisienne, Livre témoignages, Edition du LAYEUR , ALIF

سيدي بوزيد انتحر شاب آخر يدعى حسان بن صالح بتسلّقه عمودا كهربائيا فيه ضغط عالي .

٢٤ ديسمبر ٢٠١٠ : تطور خطير للأحداث بولاية سيدي بوزيد حيث اتخذت الاحتجاجات شكل انتفاضة شعبية شملت جميع مدن المحافظة ، وقامت قوات الأمن بإطلاق الرصاص الحي على المسيرة السلمية في مدينة منزل بوزيان مما أسفر عن مقتل الشاب محمد العماري الذي يبلغ من العمر ١٨ سنة ، وهو أيضا من حاملي الشهادات العليا العاطلين عن العمل وجرح عدد آخر من المتظاهرين ، كما عمدت قوات الأمن إلى اعتقال عدد كبير منهم .

٢٥ ديسمبر ٢٠١٠ : تجمع المئات من النقابيين والحقوقيين في ساحة محمد علي في تونس العاصمة للتعبير عن تضامنهم مع أهالي سيدي بوزيد وللاحتجاج على قمع المسيرات الشعبية والاعتقالات واستعمال قوات الأمن الرصاص الحي ضد المحتجين والذي تسبب في سقوط قتيل وعشرات الجرحى .

٢٦ ديسمبر ٢٠١٠ : تواصلت الانتفاضة في سيدي بوزيد وعدد آخر من المدن التونسيّة ومنها القصرين ، وماجل بالعبّاس ، وسبيطلة ، وأم العرائس وقفصة ، وبدأت التحركات في الشريط الساحلي .

٢٧ ديسمبر ٢٠١٠ : انتقال الحركات الاحتجاجية إلى مدن وولايات تونسية أخرى في تصعيد خطير للأحداث حيث رفع المتظاهرون في مدن تونس وصفاقس والقيروان والقصرين وتالة ومدنين وقفصة شعارات مساندة لأهالي سيدي بوزيد ومنددة بتدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وارتفاع البطالة في المدن التونسية والمطالبة بتنمية عادلة . في حين واصلت وسائل الإعلام المحلية والرسمية تجاهل هذه التحركات الاجتماعية التي أخذت تتوسع شيئا فشيئا .

٢٨ ديسمبر ٢٠١٠ : أول رد رسمي للرئيس التونسي زين العابدين بن على الاحتجاجات الشعبية في خطاب متلفز بثته القناة الرسمية تونس ٧ ، أدان فيه «أعمال الشغب» و قال إنها تضر بصورة تونس لدى المستثمرين وتعهد بتطبيق القانون «بكل حزم ضد المأجورين والمتطرفين « .

٢٩ديسمبر ٢٠١٠ : تواصل المظاهرات في كثير من الولايات ، وفي جندوبة تم القبض على مولدي الزوابي صحافي براديو كلمة ومراسل جريدة القدس العربي وقناة العربيّة ، أثناء تغطيته تجمع المحامين أمام المحكمة لمساندة ثورة الشعب .

٣٠ ديسمبر ٢٠١٠ : الرئيس بن علي يقوم بتعديل وزاري محدود حيث عين سمير العبيدي وزيرا جديدا للاتصال ، ووزيرا جديدا للشباب والرياضة ووزيرا جديدا للشؤون الدينية . ليبيا ترفع القيود الإدارية المفروضة على التونسيين الراغبين في السفر والعمل في ليبيا ومعمر القذافي يأمر بمعاملتهم مواطنين ليبيين .

٣١ ديسمبر ٢٠١٠ : المحامون يحتجون في صفاقس وتونس العاصمة وجربة .

٢/١ جانفي ٢٠١١ : تواصل الاحتجاجات بقوّة في كامل أرجاء البلاد .

٣ جانفي ٢٠١١ : مواجهات عنيفة في مدينة تالة بين محتجين وقوات الأمن استخدمت فيها الشرطة القنابل المسيلة للدموع والرصاص المطاطي مما أسفر عن سقوط عدد كبير من الجرحى .

٤ جانفي ٢٠١١ : موت محمد البوعزيزي بمستشفى بن عروس متأثرا بجراحه بعد ١٨ يوما من محاولته الانتحار أمام مقر ولاية سيدي بوزيد .

٥ جانفي ٢٠١١ : دفن محمد البوعزيزي الشاب الذي أوقد نار الاحتجاجات الشعبية في تونس . خروج المظاهرات في تالة عن سيطرة قوات الأمن بعد إحراق المتظاهرين لمقر الحزب الحاكم ومبنى للشرطة ، وقوات الأمن تستنفر كل إمكانياتها الأمنية لقمع المتظاهرين .

٦ جانفي ٢٠١١ : السلطات التونسية تعتقل مدونين ومغني راب تونسي على خلفية تعرضهم للنظام التونسي على صفحات الانترنت ، والمحامون ينظمون اعتصاما في أروقة المحاكم احتجاجا على الاضطهاد الأمني .

٨/٧ جانفي ٢٠١١ : مقتل ستة أشخاص في مدينة تالة وشخصين في القصرين في مظاهرات عنيفة عمت منطقة الوسط الغربي للبلاد .

٩ جانفي ٢٠١١ : المظاهرات تصل إلى العاصمة تونس وتتسم بتصاعد العنف خلال الاحتجاجات التي رفعت لأول مرة شعارات ضد الحكومة التونسية . وقوات الأمن تستعمل الرصاص الحي ضد المحتجين . إضراب ٩٥ بالمائة من المحامين . وسقوط أكثر من خمسة وثلاثين قتيلا في مدينتي القصرين وتالة حسب مصادر نقابية .

١٠ جانفي ٢٠١١ : خطاب جديد لزين العابدين بن علي لمحاولة تهدئة الأوضاع وتقديم حلول للخروج من الأزمة ، ووعود بخلق ٣٠٠ ألف فرصة عمل جديدة لاحتواء نسب البطالة المرتفعة لدى حاملي الشهادات . شريحة واسعة من المواطنين لا ترى

خطاب بن علي مقنعا وكافيا لإخماد الاضطرابات . وتعليق الدروس في المدارس والجامعات إلى أجل غير مسمى .

١١ جانفي ٢٠١١ : المظاهرات تنتشر في العاصمة تونس وتبلغ الأحياء الشعبية التي تعاني الفقر وسوء التجهيزات كحي الانطلاقة والتضامن . حرق بعض مقرات الحزب الحاكم . والشرطة تفرط في استخدام العنف مما يسفر عن سقوط خمسة وثلاثين قتيلا في مدن الوسط والشمال الغربي خلال يومين . قمع مظاهرة نظمها الفنانون التونسيون أمام المسرح البلدي في العاصمة .

١٢ جانفي ٢٠١١ : زين العابدين بن علي يعزل وزير الداخلية ويعين وزيرا جديدا . قمع قوات الأمن يخلف قتلى في مدن من الجنوب التونسي لأول مرة وفي مدن الوطن القبلي . انتشار الجيش في العاصمة تونس وأغلب المدن الكبرى . ووزير الداخلية الجديد يفرض حظرا للتجول ليلاً في مدن تونس الكبرى ، لأجل غير محدّد .

١٣ جانفي ٢٠١١ : بن علي يلقي خطابا يعلن فيه عدم ترشحه للرئاسة لسنة ٢٠١٤ ، ويأمر البوليس بعدم إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين ، ويقول إنه كان ضحية تغليط .

١٤ جانفي ٢٠١١ : متظاهرون يحاصرون مقر وزارة الداخلية ، وبن علي يفر من البلاد قاصدا فرنسا التي رفضت استقباله ، ومنها إلى المملكة السعودية . الوزير الأول محمد الغنوشي ينصب نفسه رئيسا مؤقتا .

١٥ جانفي ٢٠١١ : : رئيس المجلس الدستوري في تونس فتحي عبد الناظر يعلن شغور منصب رئاسة الجمهورية وتولي رئيس البرلمان فؤاد المبزع مهام الرئيس بشكل مؤقت ، كما تم الإعلان رسميا عن إجراء انتخابات رئاسية خلال ستين يوما .

ملحق عدد٢

أ- الخطاب الأول ألقاه الرئيس يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠١٠ ، وهو أوّل ردّ فعل رسمي بعد الأحداث التي بدأت يوم ١٧ ديسمبر في سيدي بوزيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

لقد تابعت بانشغال ما شهدته سيدي بوزيد من أحداث خلال الأيام المنقضية ، ولئن كان منطلق هذه الاحداث حالة اجتماعيّة نتفهّم ظروفها وعواملها النفسيّة ، كما نأسف لما خلّفته تلك الأحداث من أضرار ، وإن ما اتخذته من أبعاد مبالغ فيها بسبب الاستغلال السياسي لبعض الأطراف الذين لا يريدون الخير لبلادهم ويلجؤون إلى بعض التلفزات الأجنبيّة التي تبث الأكاذيب والمغالطات دون تحرّ بل باعتماد التهويل والتحريض والتجنّي الإعلامي العدائي لتونس ، يدعون إلى توضيح بعض المسائل وتأكيد حقائق لا ينبغي التغافل عنها .

أولا إننا نقدّر الشعور الذي ينتاب أي عاطل عن العمل وخصوصا عندما يطول بحثه عن الشغل وتكون ظروفه الاجتماعيّة صعبة وبنيته النفسيّة هشّة ، ممّا يؤدّي به إلى الحلول اليائسة ليلفت النظر إلى وضعيّته . ونحن لا ندّخر جهدا لتفادي مثل هذه الحالات بالمعالجة الخصوصيّة الملائمة مواصلين سياستنا وبرامجنا من أجل التشغيل ورعاية ضعاف الحال والإحاطة بالأسر المعوزة وتفعيل التنمية الجهويّة عبر برامج استثماريّة متوالية شملت كلّ مناطق البلاد وكان آخرها ما قرّرناه في المجلس الوزاري يوم ١٥ ديسمبر الجاري وما أعلن عنه من برامج إضافيّة ستفوق الاعتمادات المخصّصة لها ستة آلاف وخمس مائة مليون دينار (٦٥٠٠ مليون دينار) ، في إطار حرصنا الدائم على تأمين كلّ مقوّمات التنمية المتوازنة والمتكافئة بين الجهات والتوزيع العادل لثمارها بين الفئات .

ثانيا ، إنّ البطالة شغل شاغل لسائر بلدان العالم المتقدّمة منها والنامية ، ونحن في تونس نبذل كلّ الجهود للحدّ منها ومعالجة آثارها وتبعاتها خصوصا بالنسبة إلى لعائلات التي لا مورد لها . وستبذل الدولة جهودا إضافيّة في هذا المجال خلال المدّة القادمة . وقد حقّقنا نتائج مرموقة في مجال التربية والتعليم كمّيّا

ونوعيّا هي محلّ تقدير وتثمين من قبل الهيئات الدوليّة والأمميّة المختصّة فإنّ ذلك يجسّم خيارا جوهريّا ثابتا في سياستنا من أجل بناء شعب مثقف ومن أبرز تلك النتائج التطوّر الكبير لعدد خرّيجي مؤسّسات التعليم العالي المنتشرة في كلّ أنحاء البلاد دون استثناء ، والذي فاق العام الماضي مثلا ثمانين ألف (٨٠ ألف) متخرّج . وهو عدد نعتزّ به ونتقبّل التحدّيات التي يطرحها علينا لتشغيل هذه النسبة المرتفعة من حاملي الشهادات ضمن طالبي الشغل وذلك عبر مختلف آليّات التشغيل وبرامجه . ورغم الصعوبات التي يطرحها هذا النوع المستجدّ من البطالة فإنه يبقى مصدرا للتفاؤل بالمستقبل ، تفاؤل شعب متعلّم يثابر من أجل الرقي ومزيد التقدّم .

ثالثا ، لقد دأبنا منذ التغيير على تكريس الحوار مبدءا وأسلوبا للتعامل بين سائر الأطراف الوطنيّة والاجتماعيّة حول القضايا والمستجدّات التي تطرح أمامنا ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال رغم تفهّمنا أن نقبل ركوب حالات فرديّة أو أيّ حدث عن وضع طارئ لتحقيق مآرب سياسويّة على حساب مصالح المجموعة الوطنيّة ومكاسبها وانجازاتها وفي مقدّمتها الوئام والأمن والاستقرار . كما أن لجوء أقليّة من المتطرفين والمحرّضين المأجورين ضدّ مصالح بلادهم إلى العنف والشغب في الشارع وسيلة للتعبير أمر مرفوض في دولة القانون مهما كانت أشكاله وهو مظهر سلبي وغير حضاري يعطي صورة مشوّهة عن بلادنا تعوق إقبال المستثمرين والسوّاح بما ينعكس على إحداثات الشغل التي نحن في حاجة إليها للحدّ من البطالة . وسيطبّق القانون على أولاء بكل حزم ، بكلّ حزم .

رابعا ، إنّنا نجدّد التأكيد على احترام حريّة الرأي والتعبير والحرص على ترسيخها في التشريع والممارسة . ونحترم أيّ موقف إذا تمّ في إطار الالتزام بالقوانين وبقواعد الحوار وأخلاقيّاته . إنّ الدولة ساهرة على إيجاد الحلول لتلبية طلبات الشغل التي سيتواصل تزايده خلال السنوات القليلة القادمة . كما تعمل بالتوازي مع ذلك على مواصلة تحسين الامور داخل الأسر ومستوى العيش بصورة عامّة لكل التونسيين والتونسيّات .

خامسا ، إنّنا نقدّر صعوبة وضع البطالة وتأثيرها النفسي على صاحبها ولذلك فإنّنا ندعو الإدارة عند تعاطيها مع الحالات الصعبة إلى تفادي أي تقصير في

التواصل معها وإلى إحكام متابعتها ، ويتعيّن على كلّ السّلط الجهويّة والمحليّة أن تتحمّل مسؤوليّاتها في الإنصات إلى المواطن وإلى تضافر جهود الجميع للتعرّف على الوضعيات التي تستوجب عناية خاصّة لإيجاد الحلول لها وللسعي إلى الاستجابة إلى أكثر الحالات احتياجا أو التي طال انتظارها للحصول على شغل وإنّنا متمسّكون دوما بالبعد الاجتماعي لسياستنا التنمويّة حتى لا تُحرم جهة أو فئة من حظّها في التشغيل والاستثمار .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ب-الخطاب الثاني : يوم ١٠ جانفي ٢٠١١ يحاول فيه بن علي تهدئة الأجواء

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

في الداخل والخارج أتوجه اليوم إليكم على إثر ما شهدته بعض المدن والقرى بعدد من الجهات الداخلية من أحداث شغب وتشويش وأضرار بالأملاك العمومية والخاصة . أحداث عنيفة دامية أحيانا أدت إلى وفاة مدنيين وإصابة عدد من رجال الأمن قامت بها عصابات ملثمة أقدمت على الاعتداء ليلا على مؤسسات عمومية وحتى على مواطنين في منازلهم في عمل إرهابي لا يمكن السكوت عنه .

أحداث وراءها أياد لم تتورع عن توريط أبنائنا من التلاميذ والشباب العاطل فيها . أياد تحث على الشغب والخروج إلى الشارع بنشر شعارات اليأس الكاذبة وافتعال الأخبار الزائفة استغلت بدون أخلاق حدثا أسفنا له جميعا وحالة يأس نتفهمها كانت جدت بسيدى بوزيد منذ أسبوعين .

وإذ نعرب عن بالغ أسفنا للوفيات والأضرار التي نجمت عن هذه الأحداث فإننا نجدد تعاطفنا مع أسر المتوفين رحمهم الله والمتضررين ونشاركهم ألمهم وحزنهم ونواسيهم صادقين الحب لكل أبنائنا وبناتنا دون فرق ولا استثناء . وقد أخذت العدالة مجراها للتحقيق في ظروف وملابسات هذه الأحداث وتحديد المسؤوليات فيها .

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

إن هذه الأحداث أعمال قلة من المناوئين الذين يغيظهم نجاح تونس بل يسوؤهم

ويحير نفوسهم ما تحقق لها من تقدم ونماء تشهد به كل المؤسسات والهيئات الدولية والأممية المعروفة بالموضوعية والنزاهة .

لقد ركب هؤلاء المغالطون موضوع البطالة بتوظيف حالة يأس فردية مثلها يتكرر في جميع المجتمعات وفى عديد الأوضاع ، مناوئون مأجورون ضمائرهم على كف أطراف التطرف والإرهاب التي تسيرها من الخارج أطراف لا تكن الخير لبلد حريص على العمل والمثابرة بلد موارده ذكاء أبنائه وبناته الذين راهنا عليهم دوما ومازلنا لأننا نفضل مجابهة التحديات وصعابها بشعب مثقف على الأمان الوهمي بشعب جاهل .

والجميع يعلم كم نبذل من جهود للتشغيل ، التشغيل الذي جعلنا منه دوما أوكد أولوياتنا . والجميع يعلم كم هي كبيرة عنايتنا بحاملي الشهادات العليا الذين كما قلت نعتز بأعدادهم المتكاثرة ونعمل على رفع التحدي الذي تطرحه هذه الأعداد لأن خياراتنا التربوية من ثوابت مشروعنا الحضاري والسياسي وإجبارية التعليم ومجانيته مبدآن لا محيد عنهما رغم ما يكلفانه من ضريبة اجتماعية واقتصادية ونشر المؤسسات الجامعية في كامل جهات البلاد دون استثناء واقع ندعمه في كل مرحلة ولن نتراجع عنه .

إن سياستنا التعليمية مثلها مثل سياساتنا بشأن الأسرة والمرأة والشباب والطفولة وكذلك ما تبذله الدولة من جهود للإحاطة بضعاف الحال والحفاظ على القدرة الشرائية ودعم أسعار المواد الأساسية الذي يكلف الميزانية ما يفوق ١٧٠٠ مليون دينار سنويا نعم ١٧٠٠ مليون دينار هي من مفاخرنا . ولم نتردد في تفعيلها رغم محدودية مواردنا المالية والطبيعية .

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

إن برنامجنا للفترة الجارية ومخطط التنمية الثاني عشر والبرنامج الخاص بتنمية الجهات الداخلية والحدودية والصحراوية السابقة كلها لتلك الأحداث وكذلك ما اعتمدناه من برامج إضافية تصب جميعها في حل مشكلة البطالة وتدعم عملنا المتواصل لتحقيق تنمية متكافئة متوازنة بين الفئات والجهات توفر الشغل وموارد الرزق وتعطى الأولوية إلى أبناء العائلات المعوزة وتخص حاملي الشهادات العليا بالبرامج الملائمة .

إن كل هذه السياسات والبرامج تعتبر في مستوى السياسات المعتمدة في بلدان

العالم التي تعاني كلها من البطالة فالبطالة ليست حكرا على تونس ولا تونس هي الأسوأ حالا بالنسبة إلى غيرها في هذا المجال . ولم يبق للمغالطين غير ركوب الحالات اليائسة وخدمة أهداف الأطراف الحاقدة والالتجاء إلى الفضائيات المعادية .

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

إننا نقول لكل من يعمد إلى النيل من مصالح البلاد أو يغرر بشبابنا وبأبنائنا وبناتنا في المدارس والمعاهد ويدفع بهم إلى الشغب والفوضى نقول بكل وضوح أن القانون سيكون هو الفيصل .

ونحن نواصل الإصغاء إلى مشاغل الجميع ونسعى إلى معالجة الوضعيات الجماعية والفردية وندعم برامجنا من أجل التشغيل والتصدي للبطالة دون المساس بجهودنا من أجل الرفع من مستوى العيش وجودة الحياة ومواصلة الزيادة في الأجور دون انقطاع من دورة تفاوضية إلى أخرى وقد قررنا ما يلي

أولا : مضاعفة طاقة التشغيل وإحداث موارد الرزق وتنويع ميادينها ودعمها في كل الاختصاصات خلال سنتي ٢٠١١ و٢٠١٢ بمجهود إضافي هام من قبل الدولة والقطاع العمومي وبتضافر جهود القطاع الخاص والقطاع البنكي والتعاون الدولي وسائر الأطراف المعنية . وذلك قصد تشغيل أكبر عدد من العاطلين عن العمل من غير حاملي الشهادات العليا وكذلك من بين فاقدي الشغل من كل الفئات والجهات ، وسيستوعب هذا المجهود أيضا كل حاملي الشهادات العليا الذين تجاوزت مدة بطالتهم عامين قبل موفى سنة ٢٠١٢ /نعم قبل موفى ٢٠١٢ وأتعهد بذلك/ وبذلك ترتفع طاقة التشغيل الجملية خلال هذه الفترة إلى ثلاث مائة ألف (٣٠٠ ألف) موطن شغل جديد .

وكنا أذنا منذ أيام الوزير الأول بالاتصال برجال الأعمال والاجتماع بالاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية لحثهم على المساهمة في دعم هذه الجهود بانتداب ما يضاهي أربعة بالمائة (٤٪) من مجموع إطارات مؤسساتهم من بين حاملي الشهادات أي ما يقارب خمسين ألف (٥٠ ألف) انتداب جديد في الجهات . وقد لبوا مشكورين دعوتنا . وقد أذنا الحكومة بالمساعدة على تنفيذ هذه المبادرة ومتابعتها .

ثانيا : عقد ندوة وطنية يشارك فيها ممثلون عن المجالس الدستورية والأحزاب السياسية والمنظمات الوطنية ومكونات المجتمع المدني المعنية وعدد من

الجامعيين والكفاءات من مختلف القطاعات ذات الصلة وكذلك ممثلين عن الجهات لطرح ارائهم واقتراح التصورات لمزيد دفع التشغيل والمبادرة بما يستجيب للطلبات المنتظرة للشغل خلال السنوات القادمة . وستنتظم هذه الندوة خلال الشهر القادم .

ثالثا : إعطاء دفع جديد للإعلام الجهوي بتخصيص مساحة يومية بالتلفزة والإذاعات الوطنية لكل ولايات الجمهورية مع تكثيف شبكة الإذاعات الجهوية والصحافة المكتوبة بالولايات ودعم وحدات الإنتاج السمعية البصرية بها لتعزيز هذه النقلة النوعية وذلك بما يفسح المزيد من فضاءات التعبير عن مشاغل المواطنين وطموحاتهم ويواكب واقع الحياة بالجهات .

رابعا : دعوة نواب الشعب وأعضاء مجلس المستشارين والهياكل المركزية في الأحزاب السياسية إلى تكثيف حضورهم بجهاتهم واتصالاتهم الدورية بالمواطنين للإصغاء إليهم والإحاطة بالحالات التي تعرض عليهم وإبلاغها إلى الجهات المعنية للسّعي إلى معالجتها وإيجاد الحلول لها . كما نجدد الدعوة في هذا الإطار إلى المسؤولين الإداريين في المستويين الجهوي والمحلى إلى تطوير قنوات الإحاطة بالمواطنين والإصغاء إلى مشاغلهم وتيسير طرق معالجة المسائل المطروحة وتذليل العوائق التي قد تعطلها بالتعاون مع المنظمات المختلفة والنسيج الجمعياتى المختص .

خامسا : وعلاوة على كل المجهودات التي ستبذل للتشغيل فإنني قررت إعفاء كل مشروع جديد مشغل تفوق نسبة التأطير فيه عشرة بالمائة ويبعث في جهات التنمية الداخلية من الضريبة على الأرباح ومن مساهمة الأعراف في التغطية الاجتماعية وذلك لمدة عشر سنوات .

وإننا ندعو الأولياء وسائر المواطنين إلى الحفاظ على أبنائهم من هؤلاء المشاغبين والمفسدين بتكثيف الإحاطة بهم وتوعيتهم بمخاطر توظيفهم واستغلالهم من قبل هذه المجموعات المتطرفة .

وإني انتهز هذه المناسبة لأجدد شكري وتقديري لأخي العزيز القائد معمر القذافى قائد الثورة الليبية للمبادرة الكريمة التي لقيت لدى شعبنا كل الارتياح بتيسير تنقل التونسيين وأعمالهم بالشقيقة ليبيا ومعاملتهم مثلهم مثل أشقائهم الليبيين وهو

ما يجسم مجددا ما لمسناه دوما لديه ولدى الشعب الليبي الشقيق من صدق الأخوة وقوة المساندة .

أيها المواطنون ، أيتها المواطنات

إن هذه الأحداث لا يمكن أن تفل من عزمنا ولا أن تنال من مكاسبنا بل يجب أن تستخلص جميع الأطراف العبرة منها وان نواصل مسيرتنا بكل إرادة وحماس لان عزة تونس ومناعتها أمانة مقدسة لدى التونسيين والتونسيات جميعا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ج- الخطاب الثالث ، يوم ١٣ جانفي ٢٠١١ وهو الخطاب الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشعب التونسي

نكلمكم اليوم ونكلمكم لكل في تونس وخارج تونس نكلمكم لغة كل التونسيين والتونسيات نكلمكم لان الوضع يفرض تغييرا عميقا . . تغييرا عميقا وشاملا .

وأنا فهمتكم فهمت الجميع البطال والمحتاج والسياسي واللي طالب مزيد من الحريات فهمتكم فهمتكم الكل ، لكن الأحداث اللي جارية اليوم في بلادنا ، ما هيش متاعنا ، والتخريب ما هوش من عادات التونسي ، التونسي المتحضر ، التونسي المتسامح ، العنف ما هوش متاعنا ولا هو من سلوكنا ،ولا بد أن يتوقف التيار ، يتوقف بتكاتف جهود الجميع ، أحزاب سياسية ، منظمات وطنية ، مجتمع مدني ، مثقفين ومواطنين ، اليد في اليد من أجل بلادنا ، اليد في اليد من أجل أمان كل أولادنا

سيكون التغيير الّلي أعلن عليه الآن استجابة لمطالبكم اللي تفاعلنا معاها ، وتألمنا لما حدث شديد الألم .

حزني وألمي كبيران لأني مضيت أكثر من ٥٠ سنة من عمرى في خدمة تونس في مختلف المواقع من الجيش الوطني إلى المسؤوليات المختلفة و٢٣ سنة على رأس الدولة ، كل يوم من حياتي كان ومازال لخدمة البلاد ، وقدمت التضحيات – وما نحبش نعددها – ولم أقبل يوما / وما نقبلش / باش تسيل قطرة دم واحدة من دماء التونسيين .

تألمنا لسقوط ضحايا وتضرر أشخاص وأنا نرفض أن يسقط المزيد بسبب تواصل العنف والنهب .

أولادنا اليوم في الدار ، وموش في المدرسة ، وهذا حرام وعيب لان أصبحنا خائفين عليهم من عنف مجموعات سطو ونهب واعتداء على الأشخاص ، وهذا إجرام موش احتجاج ، وهذا حرام .

والمواطنين ، كل المواطنين ، لا بد أن يقفوا أمامهم ، وأحنا أعطينا التعليمات ونعول على تعاون الجميع حتى نفرق بين هذه العصابات والمجموعات من المنحرفين الذين يستغلون الظرف ، وبين الاحتجاجات السلمية المشروعة التي لا نرى فيها مانعا .

وأسفي كبير ، كبير جدا ، وعميق جدا ، وعميق جدا ، فكفى عنفا كفى عنفا

وعطيت التعليمات كذلك لوزير الداخلية ،وكررت ،واليوم نؤكد يزى من اللجوء للكرطوش الحي ، الكرطوش موش مقبول ، ما عندوش مبرر الا لا قدر الله حد يحاول يفك سلاحك ويهجم عليك بالنار وغيرها ، ويجبرك على الدفاع عن النفس .

وأطلب من اللجنة المستقله ، أكرر المستقله ، التي ستحقق في الأحداث والتجاوزات والوفيات المأسوف عليها تحديد مسؤوليات كل الأطراف ، كل الأطراف بدون استثناء ، بكل إنصاف ونزاهة وموضوعية .

ونستنى من كل تونسي ، اللي يساندنا واللي ما يساندناش ، باش يدعم الجهود ، جهود التهدئة ، والتخلي عن العنف والتخريب والإفساد ، فالإصلاح لازمو الهدوء ، والأحداث اللي شفناها كانت في منطلقها احتجاج على أوضاع اجتماعية ، كنا عملنا جهود كبيرة لمعالجتها ، ولكن مازال أمامنا مجهود أكبر لتدارك النقائص ، ولازم نعطي لأنفسنا جميعا الفرصة والوقت باش تتجسم كل الإجراءات الهامة التي اتخذناها وزيادة على هذا كلفت الحكومة باش نقوم بتخفيض في أسعار المواد والمرافق الاساسية والرفع في ميزانية التعويض

أما المطالب السياسية /وقلتلكم أنا فهمتكم/ وقررت :

الحرية الكاملة للإعلام بكل وسائلو ، وعدم غلق مواقع الانترنات ، ورفض أى شكل من أشكال الرقابة عليها مع الحرص على احترام أخلاقياتنا ومبادئ المهنة الإعلامية .

أما بالنسبة إلى اللجنة اللي أعلنت عليها منذ يومين للنظر في ظواهر الفساد والرشوة وأخطاء المسؤولين ،وباش تكون هذه اللجنة مستقلة /نعم باش تكون مستقله/

وسنحرص على نزاهتها وإنصافها

والمجال مفتوح من اليوم لحرية التعبير السياسي ، ما في ذلك التظاهر السلمي ، التظاهر السلمي المؤطر والمنظم ، التظاهر الحضارى ، فلا بأس حزب أو منظمة يريد تنظيم تظاهرة سلمية ، يتفضل ، لكن يعلم بيها ، ويحدد وقتها ومكانها ويؤطرها ويتعاون مع الأطراف المسؤولة للمحافظة على طابعها السلمي .

ونحب نأكد أن العديد من الأمور لم تجر كيما حبيتها تكون وخصوصا في مجالي الديمقراطية والحريات وغلطوني أحيانا بحجب الحقائق وسيحاسبون .

ولذا أجدد لكم ، وبكل وضوح ، راني باش نعمل على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية ، نعم على دعم الديمقراطية وتفعيل التعددية .

وسأعمل على صون دستور البلاد واحترامه ، ونحب نكرر هنا وخلافا لما أدعاه البعض ، أني تعهدت يوم السابع من نوفمبر بأن لا رئاسة مدى الحياة لا رئاسة مدى الحياة ،ولذلك فاني أجدد الشكر لكل من ناشدني للترشح لسنة ٢٠١٤ ، ولكني أرفض المساس بشرط السن للترشح لرئاسة الجمهورية .

إننا نريد بلوغ سنة ٢٠١٤ في إطار وفاق مدني فعلي وجو من الحوار الوطني وبمشاركة الأطراف الوطنية في المسؤوليات

تونس بلادنا الكل تونس نحبوها وكل شعبها يحبها ويلزم نصونها ،فلتبق إرادة شعبها بين أيديه وبين الأيادى الأمينة التي سيختارها لتواصل المسيرة المسيرة التي انطلقت منذ الاستقلال والتي واصلناها منذ سنة ,١٩٨٧

ولهذا سنكون لجنة وطنية تترأسها شخصية وطنية مستقلة لها المصداقية لدى كل الأطراف السياسية والاجتماعية للنظر في مراجعة المجلة الانتخابية ومجلة الصحافة وقانون الجمعيات . وتقترح اللجنة التصورات المرحلية اللازمة حتى انتخابات سنة ٢٠١٤ بما في ذلك إمكانية فصل الانتخابات التشريعية عن الانتخابات الرئاسية .

تونس لنا جميعا فلنحافظ عليها جميعا ومستقبلها بين أيدينا فلنؤمنه جميعا وكل واحد منا مسؤول من موقعه على إعادة أمنها واستقرارها وترميم جراحها والدخول بها في مرحلة جديدة تؤهلها أكثر لمستقبل أفضل .

عاشت تونس عاش شعبها عاشت الجمهورية

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ثبت المصطلحات

A

Analysis	Analyse	تحليل
automatic discourse analysis	analyse automatique du discours	التحليل الآلي للخطاب
Abstract	Abstrait	مجرّد
———context	Contexte ———	سياق ————
————form	Forme ———	شكل ————
Abstraction	Abstraction	تجريد
Acceptability	Acceptabilité	مقبوليّة
Adjective	Adjectif	صفة
Adverb	Adverbe	ظرف
Adverbial	Adverbial	ظرفي
Agent	Agent	منفّذ
_ role	rôle d' _	دور ———
Agentive	Agentif	منفّذي
Approach	Approche	مقاربة
Appropriate	Approprié	مناسب
Arbitrariness	Arbitraire	اعتباطية
Argument	Argument	موضوع
————Fusion	Fusion de l'---	دمج الـ . . .
———— Structure	Structure argumentale	بنية موضوعية
Argumentation	Argumentation	احتجاج
Apparent	Apparent	ظاهر
Appearance	Apparence	ظهور
Application	Application	تطبيق
Audio visual	Audio-visuel	سمعي بصري

Auditory	Auditif	سمعي
---- perception	Perception auditive	إدراك ----

B

Background	Plate forme	أرضية
Base	Base	أساس ، أصل ، قاعدة
----component	Composant de---	مكون قاعدي ، أساس
----Form	Forme de---	صورة أساس
----property	Proprieté de---	خاصية أساس
----rule	Règle de---	قاعدة أساس
Basic	Basique	قاعدي ، أساسي
Benefactive	Bénéfactif	مستفيد
Bound	Lié, borné	مربوط ، محدد
Brain	Cerveau	دماغ
Branch	Branche	فرع

C

Capacity	Capacité	قدرة ، وسع
Case	Cas	حالة (إعرابية)
Catégorial	Catégoriel	مقولي
----component	Composant---	مكوّن . . .
Categorization	Catégorisation	مقْولة
Category	Catégorie	مقولة
Cognitive ---	Cognitive ---	---معرفية ، عرفانية
Causal	Causal	سببي
Causativity	Causativité	جعلية
Connector	Connecteur	رابط
---- Relation	Relation de ---	علاقة رابط

Chain	Chaîne	سلسلة
Clarity	Clarté	وضوح
Class	Classe	طبقة ، صنف
Classification	Classification	تصنيف
----of languages	---des langues	--- اللغات
Clause	Proposition	جملة ، قضيّة
----of purpose	---- de but	جملة قصدية
----of result	---- de résultat	جملة نتيجة
Cognitive	Cognitif	معرفي ، عرفاني
Constraint	Contrainte	قيد
Function---	---- de Fonction	--- وظيفي
Grammar ---	---- grammaticale	--- نحوي
Meaning ---	---- de sens	--- معنوي
Coherence	Cohérence	انسجام
Coherent	Cohérent	منسجم
cohesion	Cohésion	اتساق
Communicative	Communicatif	تواصلي
Compatibility	Compatibilité	ملاءمة
Competence	Compétence	قدرة
Complementizer	Complémenteur	مصدري
Component	Composant	مكوّن
Semantic ---	---- Sémantique	---دلالي
Syntactic ---	---- Syntaxique	---تركيبي
Component	Composant	مكون
Componential	Componentiel	مكوّني
---- Semantics	Sémantique lle---	علم دلالة---
Composition	Composition	تأليف
Compositional	Compositionnel	تأليفي

Compositionality	Compositionalité	تأليفية
Concord	Accord	مطابقة
---- Theroy	Théorie de l'---	نظرية الـ . . .
Concrete	Concret	محسوس ، ملموس
---- Concept	Concept ---	تصوّر . . .
Constituent	Constituant	مكوّن
Constrained	Contraint	مقيّد
Context	Contexte	سياق
Contextual	Contextuel	سياقي
conversational analysis	analyse conversationnelle	تحليل تحادثي
content analysis	analyse du contenu	تحليل المحتوى
critical discourse analysis	analyse critique du discours	التحليل النقدي للخطاب

D

Dative	Datif	ممنوح ، داتيف
---- alternation	Alternance du ---	تناوب الـ ----
Decode	Décoder	فك الإشفار
Decoder	Décodeur	فاك الإشفار
Decomposition	Décomposition	تفكيك
Deduction	Déduction	استنباط
Deductive	Déductif	استنباطي
Degree	Degré	درجة
---- of gramaticalness	---- de grammaticalité	---النحوية
Deplacement	Déplacement	نقل
Description	Description	وصف
Design	conception	تصميم
Determinant	Déterminant	محدد
Discrimination	Discrimination	تمييز

discourse	Discours	خطاب
discourse analysis	analyse du discours	تحليل الخطاب

E

Entity	Entité	ذات ، كيان
Equivalence	Equivalence	تكافؤ
Event	Evénement	حدث
Evidence	Preuve manifeste	دليل قاطع
Existence	Existence	وجود
Existential	Existentiel	وجودي
Explained	Expliqué	مفسر
Explanation	Explication	تفسير
Expressibility	Expressibilité	تعبيرية
Expressive	Expressif	تعبيري
Extension	Extension	ما صدق
Faculty	Faculté	ملكة
Feature	Trait	سمة
Field	Champ	حقل ، ميدان
Figurative	Figuratif, figuré	مجازي ، استعاري
Filled	Rempli	مملوء
Functionnal-lexical	Fonctionnel-lexical	وظيفي معجمي

G

Generic	Générique	أجناسي
Goal	But	هدف
Principles of ---	Principes de---	مبادئ ----
Rules of---	Règle de---	قواعد ----
Grammatical	Grammatical	نحوي

Acceptability ----	---Acceptabilité	مقبولية نحوية
Grammaticality	Grammaticalité	نحوية

H

hegemony	hégémonie	هيمنة
Hypothesis	Hypothèse	فرضية
----Formation	Formation d'---	تكوين ----
---- Testing	Test d'---	اختبار ----
Hypothetical	Hypothétique	افتراضي
Hypotheco-dedective	Hypothéco-déductif	افتراضي استنباطي

I

Idealization	Idéalisation	أمثلة
Identical	Identique	مطابق
Ideology	Idéologie	ايديولوجيا
Immediate	Immédiat	مباشر
implicature	implicitation	إضمار
Individuation	Individuation	تفرّد
Inductive	Inductif	استقرائي استنتاجي
Inference	Inférence	استدلال
Inductivism	Inductivisme	استقرائية استنتاجية
Interpretative	Interprétatif	تأويلي
Intertext	Intertexte	تناص
intertextuality	intertextualité	تناصية
Intuition	Intuition	حدس

J

Justification	Justification	تبرير

L

Language	Langue, language	لغة ، لسان
Level	Niveau	مستوى
----of representation	---- de représentation	---التمثيل
Lexical	Lexical	معجمي
Linguistic constraint	Contrainte linguistique	قيد لساني ، لغوي
Linguistics	Linguistique	لسانيات
Localization	Localisation	إحلال
Logic	Logique	منطق
---- second-order	---- de second ordre	---رتبة ثانية
Logical	Logique	منطقي
---- Analysis	---- Analyse	تحليل . . .

M

Mass media	Les médias de masse	وسائل الإعلام الجماهيرية
Media	Médias	وسائل الإعلام
Meaning	Sens, signification	معنى / دلالة
Meaning---	Changement de---	تغيير ----
Mechanism	Mécanisme	آلية
Mental	Mental	ذهني
Mentalist	Mentaliste	ذهني
Method	Méthode	منهج
Methodology	Méthodologie	منهجية
Mind	Cerveau	دماغ
Modality	Modalité	الموجهية

N

Nominal	Nominal	اسمي
Notion	Notion	مفهوم

O

Object	Objet	مفعول
Objective	Objectif	مفعولي

P

Path	Chemin	مسار
Patient	Patient	ضحية ، متلق
Power	Pouvoir	سلطة
philosophy	Philosophie	فلسفة
Performative	Performatif	إنجازي
Performance	Performance	إنجاز
Plausible	Plausible	معقول ، محتمل
Polysemy	Polysémie	تعدد الدلالة
Positional	Positionnel	موقعي
Possessor	Possesseur	مالك
Possibility	Possibilité	إمكانية ، إمكان
Possibly	Possible	ممكن
predicate	Prédicat	مسند
predication	Predication	إسناد/حمليّة
Principal	Principal, fondamental	رئيسي
Principle	Principe	مبدأ
---- of compositionality	---- Compositionnel	---التأليفية
----of full interpretation	---- d'interprétation totale	--- التأويل التام
----of selection	---- de sélection	--- الانتقاء
Procedure	Procédure	اجراء
Process	Processus	سيرورة ، مسلسل
Processing	Traitement	معالجة
Programme	Programme	برنامج

Prohibition	Prohibition	حظر ، منع
Project	Projet	مشروع
Pronoun	Pronom	ضمير
Clitic---	---- clitique	--- متّصل
Possessive---	---- possessif	--- ملكية
---Resumptive	---- résomptif	--- عائد
Pro-phrase	Pro-syntagme	بديل تركيب
Proportion	Proportion	تناسب
Proportional	Proportionnel	تناسبي
Psychology	Psychologie	علم نفس

Q

Qualificative adjective	Adjective qualificatif	صفة
Qualify	Qualifié	تحديد ، نعت ، تقييد

R

Range of intention	Etendue intentionnel	مدى مفهومي
Rating scale	Echelle de classement	سلّم ترتيبي
Reality	Réalité	واقع
Realization	Réalisation	تحقيق
Reasoning	Raisonnement	تفكير
Recategorization	Recatégorization	إعادة مقولة
Recomposition	Recomposition	إعادة تأليف
Reconstruct	Reconstruire	إعادة بناء ، تركيب
Recursiveness	Récursivité	تكرارية
Reference	Référence	إحالة ، مرجع
form ----	---Forme de	صورة إحالية
Regularity	Régularité	اطراد ، انتظام

Reduced context	contexte réduit	السياق المصغر
Relational	Relationnel	علائقي ، علاقي
----concepts	Concepts---	تصوّرات علائقية
Replacement	Replacement	استبدال
Representation	Représentation	تمثيل ، تمثّل
---Levels of	Niveaux de---	مستويات . . .
Phonological---	Phonologique ---	--- صواتية
Semantic---	Sémantique ---	--- دلالية
Representational	Représentationnel	تمثيلي

S

Sentence	Phrase	جملة
Sameness	Identité	تماثل
Semantax	Sémantaxe	تركيب دلالي
Semantics	Sémantique	علم دلالة
Semantic	Sémantique	دلالي
Semi-sentence	Semi-phrase	شبه جملة
Sensori - motor	Senso-moteur	حسي ، حركي
Set	Ensemble, classe	مجموعة ، طبقة
Signification	Signification	دلالة
Signified	Signifié	مدلول
Similar	Similaire, semblable	مماثل ، مشابه
Simile	Métaphore	استعارة ، تشبيه
Simplicity	Simplicité	بساطة
Situation	Situation	وضع ، حال
Situational	situationnel	وضعي
Society	Société	مجتمع
Sociology	sociologie	علم الاجتماع

Speaker	Locuteur	متكلّم
Specification	Spécification	تخصيص
State	Etat	حالة
Strategy	Stratégie	استراتيجية/استراتيجيا
discursive strategy . . .	stratégie discursive	استراتيجية خطابية
Structure	structure	بنية
Subject	Sujet	فاعل
subjectivity	subjectivité	ذاتية
Syntactic component	Composant syntaxique	مكون تركيبي
Synthesis	Synthèse	توليف ، تجميع
Systematic	Systématique	نسقي ، نظامي
Systems in language	Systèmes dans la langue	نظامي في اللغة

T

Taxonomic	Taxonomique	تصنيفي
----Category	Catégorie---	مقولة تصنيفية
Temporal	Temporel	زماني
----Adverb	Adverbe---	ظرف . . .
Theory	Théorie	نظرية
Thesis	Thèse	أطروحة
Theta - role	Théta - rôle	دور محوري
Theta - theory	Théta - théorie	نظرية محورية
Transformational	Transformationnel	تحويلي
Triplet	Triplet	ثلاثي
Truth	Vérité	صدق
-----conditions	Condition de---	شروط . . .
Logical ---	---- logique	--- منطقية

U

Unit	Unité	وحدة
Usage	Usage	استعمال
Utterance	Enoncé	كلام ، قول

V

Verb	Verbe	ف (فعل)
Valeur	Valeur	قيمة
Variation	Variation	تنوع
Vocabulary	Vocabulaire	مفردات

W

Wider context	contexte élargi	السياق الموسع
Wide	Large	واسع
Word	Mot	كلمة
World	Monde	عالم

قائمة المصادر والمراجع

١-المصادر والمراجع باللغة العربية

- أبو زهرة محمد ، الخطابة ، أصولها ، تاريخها ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
- البدراني فاضل محمد ، الإعلام وصناعة العقول ، منتدى المعارف ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠١١ .
- بغورة الزواوي ، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٠ .
- بلانتان كريستيان ، الحجاج ، ترجمة عبد القادر المهيري ، مراجعة عبد الله صولة ، المركز الوطني للترجمة ، دار سيناترا ، تونس ، ٢٠٠٨ .
- بوتومور توم ، مدرسة فرانكفورت ، ترجمة سعد هجرس ، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٩٨ .
- حافظ اسماعيلي علوي وآخرون ، الحجاج ، مفهومه ومجالاته ، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١٠ .
- حسن محمد حسن ، النظريّة النقديّة عند هربرت ماركيوز ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ١٩٩٣ .
- الحوفي أحمد محمد ، فنّ الخطابة ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٢ .
- حيمر عبد السلام ، في سوسيولوجيا الخطاب ، من سوسيولوجيا التمثيلات إلى سوسيولوديا الفعل ، الشركة العربيّة للأبحاث والنشر ، الحمراء ، بيروت ، ٢٠٠٨ .
- جارودي روجي ، ماركسية القرن العشرين ، تعريب نزار الحكيم ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٨ .
- خطابي محمد ، لسانيّات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٦ .
- دريفوس أوبيير و رابينوف بول ، ميشال فوكو(مسيرة فلسفيّة) ، ترجمة جورج أبي صالح ، مراجعة وشروح ، مطاوع الصفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط١(السنة غير موجودة بالطبعة) .
- ريكور بول ، نظريّة التأويل ، الخطاب وفائض المعنى ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٦ .

- الزّيّات أحمد حسن ، تاريخ الأدب العربي ، دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ط٦ ، ٢٠٠٠ .
- الشاوش محمد ، أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحوية العربيّة ، جامعة منوبة ، كليّة الآداب ، المؤسّسة العربيّة للتوزيع ، تونس ، ٢٠٠١ .
- الشهري عبد الهادي بن ظافر ، استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغويّة تداوليّة ، ط١ ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ٢٠٠٤ .
- صولة عبد الله ، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، نشر مشترك بين كلية الآداب بمنوبة ودار الفارابي للنشر ودار المعرفة للنشر ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٧ .
- الطلبة محمد سالم محمد الأمين ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٨ .
- العتوم مهى محمود ابراهيم ، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث ، دراسة مقارنة في النظريّة والمنهج ، كليّة الدراسات العليا ، الجامعة الأردنيّة ، ٢٠٠٤ .
- عزّام محمد ، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقديّة الحديثة ، دراسة في نقد النقد ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، ٢٠٠٣ .
- عياشي منذر ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، سوريا ، ٢٠٠٢ .
- فوكو ميشيل ، نظام الخطاب ، ترجمة محمد سبيلا ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٨ .
- حفريات المعرفة ، ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ .
- الكلمات والأشياء ، ترجمة جماعيّة ، تحت إشراف مطاع الصفدي ، الأعمال الكاملة لميشيل فوكو ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ .
- فاركلوف نورمان ، تحليل الخطاب ، التحليل النصي في البحث الاجتماعي ، ترجمة طلال وهبة ، مراجعة نجوى نصر ، المنطمة العربيّة للترجمة ، ط١ ، بيروت ٢٠٠٩ .
- كريب إيان ، النظريّة الاجتماعيّة من بارسونز إلى هابرماس ، ترجمة محمد حسين علوم ، مراجعة محمد عصفور ، عالم المعرفة ، ١٩٨٩ .

– كيرزوويل إديت ، عصر البنيويّة ، ترجمة جابر عصفور ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط١ ، ١٩٩٣ .
– المتوكل أحمد ، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي ، الرباط ، ١٩٩٣ .
– مهيبل عمر ، البنيويّة في الفكر الفلسفي المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، ط١ ، الجزائر ، ١٩٩١ .
– ناش كيت ، السوسيولوجيا السياسية المعاصرة ، العولمة والسياسة والسلطة ، ترجمة حيدر حاج إسماعيل ، المنظمة العربية للترجمة ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠١٣ .
– النيسابوري ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، مج٥ ، الأجزاء ١٧–٢٣ ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
– ياكوبسون رومان ، قضايا الشعريّة ، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون ، دار توبقال للنشر ، ط١ المغرب ، ١٩٨٨ .
– يقطين سعيد ، تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، ط٣ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ .

٢- المراجع الإلكترونية باللغة العربية

– شعلان عبد الوهاب ، لوي ألتوسار قارئا لماركس ، http://anfasse.org
– الموسوعة العربيّة ، المجلد ١١ ، اللغات وآدابها ، الأدب ، الشكليّة في الأدب ، www.arab-ency.com .

٣- المعاجم والموسوعات والمجلات

– شارودو باتريك و منغنو دومينيك ، معجم تحليل الخطاب ، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، دار سيناترا ، تونس ، ٢٠٠٨ .
– موشلار جاك و ريبول آن ، القاموس الموسوعي للتداوليّة ، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عزالدين المجدوب ، مراجعة خالد ميلاد ، دار سيناترا ، المركز الوطني للترجمة ، ٢٠١٠ .
– معجم المصطلحات الإعلامية ، الجامعة العربية المفتوحة ، الدانمارك ، قسم الإعلام والاتصال ، نسخة رقمية (٧٦ صفحة)

- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ، جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ٢٠٠٧ .
- Grand dictionnaire terminologique, office québécois de la langue Française, Entrée “media”, en ligne, consulté le 15 juillet 2012.

٤- الصحف والمجلات

- صحيفة الصباح التونسية .
- صحيفة الشرق الأوسط .
- صحيفة القدس العربي .
- La Presse.
- الشروق التونسية .
- مجلّة بيت الحكمة ، العدد الأوّل ، السنة الأولى ، أفريل ١٩٨٦ .
- مجلة أيقونات ، العدد ٢ ، ٢٠١١ .

٥- المصادر والمراجع باللغات الأجنبيّة

A

- Adorno, Theodor, Minima Moralia, Réflexions sur la vie mutilée, trad. Eliane Kaufholz et Jean- René Ladmiral, Payot, 1980.
- Adorno Theodor and Max Horkheimer, Dialectic of Enlightement, English translation, first published by Herder and Herder, New York, 1972.
- Althusser Louis, Positions, Les Editions Sociales, Paris, 1976.
- Anscombre J.C. et Ducrot O, L’argumentation dans la langue, Edition Mardaga Liège-Bruxelles, 1988.

B

- Bally Charles, Traité de stylistique française, seconde édition, Librairie C.klincksieck, Second Volume, Seconde édition. Paris.
- Bell Allan, the language of News Media, Oxford: Blackwell, 1991.

- Bell, Roger Translation and translating, Theory and Practice, General Editor, C.N Candlin, 1991.
- Benveniste Emile, Problèmes de linguistique générale, T.1, Edition Gallimard, 1966.
- Benveniste Emile, Problèmes de linguistique générale, T.2, Edition Gallimard, 1974.
- Blommaert, Jan, Discourse, Cambridge University Press 2005.
- Bounnafous Simone, Maurice Tournier, (1995), Analyse du discours, Lexicométrie, communication et politique, Langages n°117.
- Breton Philippe, La parole manipulée. Paris, La Découverte, édition de poche, La Découverte/Poches, Paris, 1999.
- Breton Philippe, L'argumentation dans la communication, 3ème édition, Paris, La découverte, 2003.
- Brown Gillian et Yule George, Discours Analysis, Cambridge University Press, 1983.

C

- Charaudeau Patrick, Grammaire du sens et de l'expression, Hachette, Paris, 1992.
- Charaudeau Patrick, (1995), Une Analyse sémiolinguistique du discours, Langages n 117.
- Charaudeau Patrick, Le discours d'information médiatique. La construction du miroir social, Paris, Nathan / Institut national de l'audiovisuel (coll. "Médias-Recherches") 1997.
- Chepens Philippe, Critical Discourse Analysis l, les notions de contexte et d'acteurs sociaux, Semen, revue sémio-linguistique des textes et des discours, n°27, 2009.
- Chilton P. A, Missing links in mainstream CDA, Modules, blends and the

critical instinct, in Wodak and Chilton eds., 2005.

-Chomsky Noam, The Minimalist Program, Cambridge, MA: The MIT Press.1987.

- Cicourel A., Method and Measurement in sociology, New York, The Free Press 1989.

- Cook Guy, Discourse, Language Teaching, A Scheme for Teacher Education, Oxford University Press, 1989.

- Cutting Joan, Pragmatics and Discourse, Routledge, London and New York, 2002.

D

- Deborah Schiffrin, Deborah Tannen, and Heidi E. Hamilton, The Handbook of Discourse Analysis, Blacwell Publishers, 2001.

- DEGAGE, La révolution tunisienne, Livre témoignage, Edition du Layeur. Alif.

- Dijk, Teun.A Van and Kintsch Walter, Strategies of discourse comprehension, New York Academic Press, 1983.

- Dijk, Teun. A. Van; Critical discourse Analysis, The handbook of discourse Analysis, Edited by Deborah Schiffrin, Deborah Tannen and Heidi E. Hamilton, Blackwell Publishers, Ltd, USA, UK, 2001.

- Dijk, Teun A. Van, the discourse-knowledge interface, in Critical discourse Analysis, Theory and interdisplinarity. Edited by Gilbert Weiss and Ruth Wodak 2003.

- Ducrot Oswald, Dire et ne pas dire, Hermann, Editeurs des Sciences & des Arts, 1980.

E

- Elliot Philip Slater, Origin and Significance of the Frankfurt School, Routledge and Kegan Paul, London, 1980.

F

- Fairclough Norman, media Discourse, Arnold, London, 1995 a member of the Hoddder Headline group 338 Euston Road, London N W 13 B H, 1995.
- Fillmore Charles, The Case of Case, (1968), revue langages n°38, juin 1975.
- Foucault Michel, Archéologie du savoir, Gallimard, Paris, 1969.

G

- Grumbacha Jenny Simonin, "Pour une typologie des discours", in Langes Discours, Société pour Emile Benveniste, sous la direction de Julia Kristeva, Jean Claude Milner, Nicolas Ruwet, Edition du Seuil, Paris (1975).

H

- Halliday. M.A.K, Langage as social semiotic the social interpretation of Language and meaning, Hariland, Parc Press, 1978.
- Halliday, M.A.K, "On Grammar and Grammatics." In Functional Descriptions: Theory in practice, Hasan Ruqaiya, Carmel Cloran and David G. Butt (eds.), 1996.
- Halliday, M. A. K. and Matthiessen, C. M. I. M, Construing experience through meaning: a language-based approach to cognition, Cassell, London,1999.
- Halliday. M. A. K, A Personal Perspective, in On Grammar Volume 1, London/New York: Continuum, 2002.
- Hans Robert Jauss, Pour une esthétique de la réception, Paris Gallimard, 1978.
- Harris David, Teaching yourself social theory, SAGE, Publications,

London, Thousand Oaks, New Dalhi, 2003.
- Herbert H. Clarck, Arenas of language use, Chicago, University of Chicago Press, 1992.

J

- Jackendoff Ray, semantics and cognition, The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, London, England,1983.
- Jacob André, Genèse de la pensée linguistique, A. Colin, Paris, 1973.
- Jargensen Marianne and Phillip Louis, Discourse Analysis as Theory and Method, SAGE, Puplications, London, Thousand Oaks, New Delhi, 2002.

L

- Luckas George, Hystory and class consciousness Studies, in Marixist dialecties, translated by Rodney Livingstone, Merlin Press, 1971.
- Jakobson Roman, essais de linguistique générale, Eds. Minuit, 1963.

M

- Maingueneau Dominique, Genèses du discours, Pierre Madraga éditeur, Bruxelles Bruxelles, 1984.
- Meyer Michel, Logique, Langage et Argumentation, Editions Hachette, 1982.
- Moeschler Jacques et Reboul Anne, Pragmatique du discours, de l'interprétation de l'énoncé à l'interprétation du discours, ARMOND COLLIN, Paris, 1998.
- Mounin Georges, Dictionnaire de la Linguistique, Press Universitaires de France, 4è edition, "Quadrigé", 2è tirage, 2006.

P

- Perelman Chaïm et Tyteca Lucie-Olbrechts, Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, Editions de l'université de Bruxelles, 5ème édition,1992.

R

- Reisigl Martin, Wodak Ruth, Discourse and Discrimination, Rhetorics of Racism and Antisemitism, Routledge, London and New York. 2001.
- Resweber Jean Paul, Les Pédagogies nouvelles, 1992.
- Richardson John.E., Analysing Newspapers, An approach from critical Discourse Analysis, Palgrave Macmillan, New York, 2007.

T

- Talbot Mary, Media Discourse, Representation and Interaction, Edinburgh University Press, 2007.
- Tesnière Lucien, Eléments de syntaxe Structurales, Paris, Editions Klincksiek, 1976.
- Thompson, J. B., Ideology and Modern Culture, Cambridge, Polity Press 1990.
- Tutescu Mariana, L'argumentation, Introduction à l'étude du discours, Universitalea din Bucuresti,1996.

V

- VICO Giambattista, Principes d'une science nouvelle relative à la nature commune des nations, Traduction intégrale d'après l'édition de 1744, par Ariel Doubine. Présentation par Benedetto Croce. Introd., notes et index par Fausto Nicolini , Editions Nagel, 1953.
- Vion Robert, Modalités, modélisations et discours représentés, in Langages N°156, p.p.96-110, 2004.

W

- Wodak Ruth and Michael Mayer, Methods of Critical Discourse Analysis, Wodak Ruth, What CDA is about, a summary of its history, important concepts and its developments, SAGE Publication, London, 2001.
- Wodak Ruth, The semiotics of racism: A critical Discourse-Historical Analysis, in Discourse of Corse, ed. by Jan Renkema, John Benjamins Publishing Company, Amsterdam/Philadelophia, 2009.

Y

- Yule George, Pragmatics, Oxford University Press, 1996.
- Doctrinaires et encyclopedies
- Encyclopedia of social theory, Edited by Austin Harrington, Barbara L'Marshall, Hans Peter Muller, Routledge, London and New York, 2006.
- Dictionnaire Encyclopédique de Pragmatique, Jacques Moeschler et Anne Reboul, Edition du Seuil, Paris, 1994.
- LAROUSSE, Grand Dictionnaire, Linguistique et sciences du langage (Jean Dubois, Mathée Giacomo, Louis Gespin, Christiane Marcellesi, Jean-Baptiste Marcellesi, Jean-Pierre Mévol, Edition Larousse, Paris 2007.
- Dictionnaire d'analyse de discours, Maingueneau Dominique et Charaudeau Patric E. du Seuil, Paris, 2002.

٧- المراجع الإلكترونية باللغة الأجنبية

- Banks David, La linguistique Systématique Fonctionnelle, une approche sémantique et sociale, www.univ-brest.fr/erla/membres/banks.html.
- Carmen Pineira-Tresmontant, "Patrick Charaudeau, Le discours d'information médiatique. La construction du miroir social", Mots. Les langages du politique [En ligne], 72 | 2003, mis en ligne le 29 avril 2008, consulté le 04 octobre 2013. URL : http://mots.revues.org/6763
- Decartes René, le discours de la méthode , un document produit en version

numérique par Jean- Marie Tremblay, Site Web: http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/classiques_des_sciences_sociales/index.html.

- Daoudi Henda, De la pluridisciplinarité en analyse de discours, Université de Saint Etienne, Paris, Ressources,
www.cla.unit- fcomte.fr/gerflint/Perou2/Henda.pdf
- Julliard Virginie, l'analyse du discours, cours magistral, document PDF , artistou.com/vjulliar/lil/ex.
- Julliard Virginie, L'analyse du discours, Cours magistral, SI 22 "Sémiotique des contenus", document PDF, www.artistou.com.
- Peticlerc Adel, Introduction aux notions de contexte et d'acteurs sociaux en Critical Discourse Analysis, Semen [en ligne]
http:// www.semen.revues.org/8540.
- Romedea Adriana-Gertruda, Les types de discours, www.roslir.goldenideashome.com/archiv/2005-1/2AdreanaRomedea2005.pdf
- van Dijk Teun. A, Research in Critical Discourse Studies, Website Teun A. van Dijk, www.discourses.org.
Encyclopedia Britannica, 2012. www.britannica.com
- Wodak Ruth, Pragmatique et critical discourse analysis; un exemple d'une analyse à la croisée des disciplines, traduction assurée par Adel PetiClerc, assistée par Philippe Schepens, http://Semen.revues.org/8538.
- Wodak Ruth, What is Critical Discourse Analysis? Forum: Qualitative social, in conversation with Kendall, vol 8, n 2, 29 mai 2007, http://www.qualitative.research.net.

الفهــرس

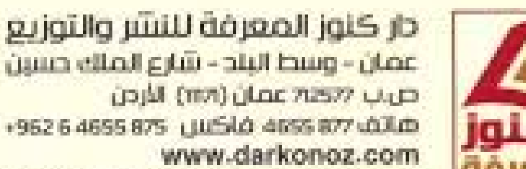


التحليل النقدي للخطاب

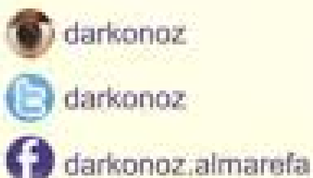
نماذج من الخطاب الإعلامي

يعكس الخطاب الإعلامي آراء أغلب فئات المجتمع وهو السبيل لفرض السلطة والهيمنة ونشر الأفكار والايديولوجيات، ومقاربة هذا الخطاب من زاوية التحليل النقدي للخطاب تعطي إمكانيات كبيرة لتوسيع أفق دراسة الإنتاج والتأويل، لأن التحليل النقدي للخطاب منفتح على مجالات علميّة مختلفة ومناهج متنوّعة، ورغم تنوع دراسات التحليل النقدي للخطاب الإعلامي، فهي تتمركز داخل إطار فلسفي واحد وخلفية نظرية مشتركة تحدّد العلاقة بين المجتمع أو الفرد واللغة وتتفق هذه الدراسات على أن الخطاب الإعلامي هو وليد العلاقات الاجتماعية ومولد لها يتأثر بها ويؤثر فيها.

اهتم التحليل النقدي للخطاب بالقضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، لذلك سعينا إلى تطبيق هذه النظرية على مختارات من الخطاب الإعلامي التي صاحب الثورة في تونس في أيامها الأولى، وقد عرف هذا الخطاب تغييرا في الأسلوب والمحتوى وظهرت تعابير جديدة وأخرى اكتسبت جدتها من طريقة وظروف استعمالها.

دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ص.ب 712577 عمان (11171) الأردن
هاتف 4655 877 فاكس 4655 875 6 962+
www.darkonoz.com
dar_konoz@yahoo.com info@darkonoz.com


darkonoz
darkonoz
darkonoz.almarefa



ISBN 9957744849-4

Cover Design: Mohammad Ayyoub